

أخناتون



ذلك الفرعون المارق



ترجمة
بيومي قنديل



تأليف
دونالد ريد فورد

ت ٠٣/٥٣٥٤٤٣٨٠ اسكندرية

أخناآون ذلك الفرعون المارق

أخناتون

ذلك الفرعون المارق

بيومى القنديل

كمبيوتر: (دار الوفاء)

الطباعة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن درباله بلوك رقم ٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية

رقم الإيداع: ١٩٩٠ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى: 0 - 044 - 327 - 977

أخنا تون

ذلك الفرعون المارق

ترجمة
بيومي قنديل

تأليف
دونالد ريد فورد

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ - الإسكندرية

الباب الأول

مصر الإمبراطورية

بوقته وماله معاً. وأخذ "سميث" يطوف أرجاء أوروبا، كلما غادر مقره فى الأقصر، كى يبحث عن، وبصور تلك الكتل التى وجدت طريقها من مصر إلى الخارج ثم إستقرت، سواء فى المتاحف الأوروبية أو المجاميع الخاصة التى يحتفظ بها هواة العاديات. وبعد العودة إلى القاهرة أقيم مكتب ومعمل لهذا الغرض. وانهمك فريق العمل فى تحليل وتوفيق الصور الملتقطة بمقياس معين، تلك التى أخذت تتدفق إلينا بصورة مطردة من الأقصر وأوروبا. وقدم كل من دسيد توفيق والأستاذ أحمد الصناديلى وكلاهما يعمل فى كلية الآثار بجامعة القاهرة مساعدة متميزة لمواصلة العمل فى هذا الاتجاه. وسرعان ما بدأت اللعبة الملغزة العملاقة تخلع ألباسها. ولعله من المستحيل أن نبالغ، مهما قلنا، فى تأكيد الأهمية التى انطوى عليها فيض الضوء الذى انهمر، بذلك، على تلك الفترة المعتمدة من حكم "أخناتون".

والكتاب الذى بين يدي القارئ يتبنى نظرة جديدة تجاه "أخناتون" وبرنامجه، وكذلك تجاه فترة أفول بيت أو عائلة التحامسة. والكتاب يستند هنا إلى النتائج التى أسفر عنها البحث الحالى فى الكرنك و"أخناتون" (تل العمارنة) وأماكن أخرى فى الشرق الأوسط (الحديث، المترجم). ولقد تحاشيت استخدام اسم "العمارنة" عند الإشارة إلى موقع "أخناتون"، كما لجأت - طلباً للتأساق التاريخى - إلى إطلاق اسم "أخناتون" على الملك - الفرعون بعد السنوات الخمس الأولى من حكمه وحسب. وعلاوة على ذلك رفضت اسم "ياتى" الذى نصادفه فى بعض الأحيان فى الأدب الأكاديمى كإسم للإله الذى دعا إليه "أخناتون" ليس لمجرد أن الإسم ينطوى على رسم غير صحيح وحسب، بل ولأن فكرة وجود إله يسمى "ياتى" إنما تنبع من فهم خاطئ للكيفية التى نظر خلالها "أخناتون" إلى إلهه. أما الأسماء التى وردت فى النص وقد علّتها نجمة فلقد شرحتها فى معجم خاص فى نهاية الكتاب. ولقد استغنييت إلى حد كبير عن الحواشى بغية تيسير النص على القارئ غير المتخصص. أما أولئك الذين يجدون ميلاً إلى متابعة الدرس فى أغوار أعماق فإننى أحيلهم إلى القسم الذى عنوانته: "قراءات مقترحة".

ولقد قمت برسم أسماء المعابد المصرية، وأحياناً أسماء المواقع الجغرافية بحروفها السواكن وحدها دون صوائتها. وفى وسع القارئ أن يتفهم ذلك.

4

تلفيا دعماً مالياً سخياً من السيدة "مارى ميلهولاند" من مدينة "ريتشموند" بولاية
 "فيرجينيا" بالولايات المتحدة والسيد "جى.ديلميج" من مدينة "مالو" -كورك بايرلندا.
 و أخيراً فإنني على ثقة من أن القارئ سوف يتسامح مع بعض الإستطراد
 الذي جرى مني في الفصل الخامس عشر، وهو ما قد يبدو وكأنه عمل من أعمال
 إطلاق العنان للهوى الخاص أو الاستهواء الذاتي. فلقد ظللت لمدة تزيد على ٢٥
 سنة منكباً على درس هذا المارق الذي يخلب الأبصار. وأظن أن الوقت قد حان
 كي أسمح لنفسى بطرح تقييمي الخاص له.

أبيب - يوليو ١٩٨٢

مقدمة

نخطو الآن إلى عالم سبق عصر التوراة، فلم يكن "إشعيا" أو "إيليا" أو "سليمان" أو "داوود" أو "موسي" قد ولدوا بعد. ولم تكن الدنيا لتملك وقت ذاك أدنى فكرة عما سيحدث خلال حياتهم الزاخرة. وإذا كان الآباء الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس قد تجولوا في تلك الهوامش التي يغلفها الضباب لمجتمع القرن الخامس عشر ق.م فإنهم كانوا يختلفون بصورة كاملة "اللهم فيما يتعلق بأسمائهم على سبيل الترجيح" عن تلك الشخصيات التي تروح وتغدو واثقة الخطى خلال سفر التكوين، أول أسفار التوراة. وعلى نفس المنوال لم تكن جذورنا الأوروبية قد ضربت بعد في أرض القرن الخامس عشر ق.م. ولم يكن أي من سقراط أو بيركليس أو الإسكندر الأكبر، أو "أثينا" بفلاسفها، أو "روما" بمشرعها قد ظهروا بعد حتى في صورة جنينية. فـ "أثينا" لم تكن وقت ذاك أكثر من بلدة موحشة في الأحرار المحيطة، ولم يكن الموضع الذي بُنيت فيه روما في وقت لاحق سوى مستنقع تحت مستوى سطح البحر يجتذب الهوام، ولا يراه أحد بعد صالحاً لسكنى الإنسان.

مع ذلك كان القرن الخامس عشر ق.م الذي نجد أنفسنا فيه الآن "متحضرًا" بصورة ملحوظة. وإذا تسلحنا بالجراءة وحاولنا النفاذ داخل عقول أولئك المصريين الذين يقطنون "منف" أو أولئك الكنعانيين الذين يعيشون في "سخم" أو أولئك الحوريين الذين استقروا في "أوجاريت"، فلسوف نجدهم وقد اكتشفتم نفس المشاكل وراودتهم نفس الآمال، وحاصرتهم نفس المخاوف، وداعبتهم نفس الحلول الشائعة التي نعرفها بعد مرور خمسة ثلاثين قرناً. إذ تظل المطامح الإنسانية الرئيسية متمثلة في الحرية الشخصية والتحقيق - الذاتى، والصحة الجسدية والنفسية، وإشباع الحس الجمالى. وقياساً مع الفارق، كان عدد أي مواطن في الشرق الأوسط القديم في ظل حكم شوشاتار (١٤٥٠ ق.م) أو "تحت - موسي" الرابع (١٤٢٦ - ١٤١٦ ق.م) فرصاً لتحقيق هذه المطامح، بصورة ناجحة، لا تقل عما يملكه منها

ساكن المدينة الذى تتل الضرائب كاهله فى قرننا العشرين "الديمقراطى" بعد الميلاد. كانت هناك إضرابات عمالية وتحت أيدينا ملف لجنة تقصى الحقائق التى شكّلت للتحقيق فى بعض منها. وكان هناك تضخم، وفى حوزتنا قائمة الأسعار والشكاوى الخطيّة المرفوعة. وهناك ضرائب وتهرب ضريبى. ولدينا سجل بعائدات الضرائب لإقامة الدليل على ذلك. وكان الناس يتزوجون ويطلقون، وكلّوا ينتقلون من وظيفة لأخرى، وأحيانا يفصلون. وكانوا يشترون الممتلكات ويبيعونها ويتركون وصايا مفصلة. وكان الناس يتنهّدون مثلما نفعل نحن: "الأيام لم تعد كما كانت. والصغار لم يعودوا يحترمون كبارهم". وكانوا يقولون أيضاً "خير لنا أن نستمتع اليوم، لأننا لن نستطيع أخذ شئ معنا" وكان الناس يذهبون إلى الحفلات ويسرفون فى الشراب. وكان بعضهم يقول إذا ما اشتدت وطأة الظروف: "ليتنى كنت فى عداد الموتى" وكانوا يقرأون قصائد الحب والقصص القصيرة والأوراد وطوالع البروج، وكتباً تحمل عناوين من نوع "كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس". وأخرى فى التتجيم والسحر فكلما عدنا إلى الوراء فى الأزمنة السحيقة وألقينا نظرة خاطفة على جدودنا، كلما غدا أولئك الجدود أقرب شهباً بنا !

ولكن وماذا عن "أخنا تون" ؟ هل يشبهنا ذلك الفرد سيئ الحظ على أى نحو من الأنحاء ؟

أمر واحد يجب ألا يغيب عن ذهننا: خضع ذلك "المصلح" طوال المائة والخمسين سنة الماضية لنطاق واسع من التفسيرات التى اعتمدت إلى حد كبير على الذوق الذى يسود العقد أو ربع القرن الذى ظهرت فيه. فعند الباحثين الأوائل فى هذا المجال، لم يكن "أخنا تون" سوى أنثى متكررة أو خصى من الجنوب (فى وقت كان هؤلاء الخصيان لا يزالون أبعد عن إثارة الاستهجان)، وعند "برستيد" (فى أعقاب عمليات التنقيب التى قام بها الألمان والإنجليز فى "أخيتاتون"، أصبح "أخنا تون" (أول شخصية متفردة فى التاريخ). وعند المؤرخ الكلاسيكى نافذ البصيرة "أرنولد توينبى" كانت عبادة الشمس التى دعا إليها "أخنا تون" بمثابة النموذج الأصلي للشعار الإمبريالى Sol Invictus (الشمس التى لا تهر) فى القرن الثالث وعند "فرويد" (بميله نحو إرجاع الوحدة الموسوية إلى أصولها) يصبح

"أخناتون" معلماً للمشرع العبراني موسى. وعند البعض يقـُـف "أخناتون" كسباق رائد بشر بمقدم المسيح. وعده البعض الآخر صوفياً عظيماً لا تزال تعاليمه جديرة بإمعان النظر.

نما نطاق واسع من الأدب حول شخصية "أخناتون". وخلال هذا النمو، أخذ يبعد أكثر فأكثر عن المصادر الأولية، إذ كان يتغذى ويبنى خلاياه اعتماداً على ذاته. ولم يكن هذا الوضع لينطوي إلا على عواقب وخيمة بالنسبة لأولئك الذين يبحثون عن الحقيقة التاريخية المجردة. وقد تبدو رواية أحداث التاريخ "كما وقعت فعلاً" عملاً تبسيطياً. إلا أنه من الصعب على المرء أن يهتدى إلى كيفية أخرى يبدأ بها خلاف ذلك. ولكي يتجنب المرء أي تشوّه قد يلحق بعمله، يتعين عليه أن يرجع بصفة مستمرة إلى المصادر الأصلية، أى إلى النقوش الهيروغليفية والآثار التى وصلت إلى أيدينا من عصر "أخناتون". والجميع، بطبيعة الحال، فى حلٍ من استخدام ملكاتهم النقدية فى تقييم هذه المصادر، إلا أن تجاهلها فى سبيل الجرى وراء شطحات الخيال ليس سوى ضرب من ضروب حماقة المطلقة.

ويسعى هذا الكتاب إلى محاولة وضع "أخناتون" فى سياق عصره، فضلاً عن وضع الأدلة الأولية والنصوص الأصلية تحت عيني القارئ. فلم يكن "أخناتون" يمثل بأي حال من الأحوال ظاهرة معزولة، منبئة الصلة بالزمان والمكان اللذين انبثقت فيهما. فلقد كانت الحركة التى قادها "أخناتون"، فى مختلف الأحوال، نتاجاً طبيعياً للقرون التى سبقت عصره، فالعبادة التى دعا إليها ما كان لها أن تظهر إلى الوجود إلا فى ذروة إمبراطورية عظمى.

تعتمد معظم المواد العلمية أو المعلومات فى هذا الكتاب على الأعمال التى انصبت، فى إطار (مشروع معبد أخناتون) ؛ ومنذ ١٩٦٦، على الآثار التى وصلت، إلينا، للفرعون المارق فى الكرنك والأقصر أى فى طيبة القديمة. ولما كان "أخناتون" قد قضى سنوات حكمه الأولى، وحسب، فى هذه "المدينة الجنوبية"، فإن الكتاب قد يبدو وكأنه يقتّر فى الحيز الذى يُفرده للسنوات الأطول التى قضاها من عمره فى عاصمته الجديدة فى "أخيتاتون". ولكن هذا الخلل، إذا ما سلّمنا أصلاً بوجوده، قد تثبت جدواه. فالسنوات الأولى هى فترة التفتح والتجريب، والتقديم

الصحيح لها سوف يكون أمراً على جانب كبير من الأهمية فى تفسير مجمل الحركة التى قادها "أخناتون". هل حقاً هناك تشابه يجمع "أخناتون" بنا ؟ فلنحشد أدلتنا ونمتنع عن المخاطرة بتقديم إجابة ما على هذا السؤال إلا فى الفصل الأخير.

تمهيد

كثيراً ما يقع العوام فريسة الوهم الذي يُدخل عليهم أن الأكاديميين يشكّلون فيما بينهم مجموعة مصالح خاصة تهب هبة رجل واحد للذود عن أى عضو من أعضائها متى مسه أى شخص من خارج دائرتها. كما أنها لا تسمح لأى من كان بالانضمام إليها والاندخا في أنشطتها دون أن يكون حاملاً لبطاقة العضوية: شهادة الدكتوراه. فالسعي وراء المعرفة (وهذه عبارة تتطوي على قدر من الزهو ولكنها ملائمة) خلال انتهاج منهج أكاديمي يقوم على التعليل المنطقي، إنما يعتمد على الفطرة السليمة (حاسة التمييز) التي يحوزها كل البشر، وينطوي على قدر من البساطة أكثر مما يظن معظم الناس، وبالتالي فالسبيل إليه مفتوح أمام الجميع. وإذا كان المحترفون يؤدون، بصفة عامة، عملهم في هذا المجال أو ذاك بصورة أفضل من غيرهم، فإن ذلك ليس راجعاً إلا إلى أنهم يكونون قد قضوا وقتاً أطول في الممران. ولكن هذا لا يمنع أن يتفتق أحياناً ذهن الهاوي المنزه عن الهوى، عن حلٍ بارع لمشكلة شائكة بدرجة عالية نصادفها هنا أو هناك.

ويتمثل أحد الأمثلة على ذلك في "مشروع معبد أخناتون" الذي أدى إلى حسم نهائي لمشكلة فرعون مصر المارق. ففي سنة ١٩٦٥ ملكت تلك الآلاف من الكتل المتساوية الحجم، التي خرجت من معابد "أخناتون" التي تعرضت للتدمير، وأصبحنا نعرفها باسم "الثلاثيات"، فؤاد موظف عمومي تقاعد من عمله بوزارة الخارجية الأمريكية يسمى "راى وينفيلد سميث". فلقد اعتزم مستر "سميث" الذي هاله وقت ذلك إنصراف الأكاديميين عن درس هذه المواد درساً جاداً، أن يبذل جهداً بنفسه في هذا السبيل مستعيناً بمعظم المناهج الحديثة المتاحة. ونظراً لاقتناع الرجل بأن اليد والعين البشريتين عاجزتان وحدهما عن إعادة بناء الكتل المكوّمة بصورة عشوائية مرة أخرى، على هيئة مناظر الجداريات الأصلية التي كانت عليها في يوم من الأيام، فلقد التمس "راى" العون، عن فطنة وبصيرة، من الكمبيوتر. وقد

وافقت شركة آى.بى.إم. على مساعدة المشروع الوليد، وأمدّه، بالرعاية الأكاديمية، "فروه رينى" الذى كان يشغل وقت ذاك منصب مدير المتحف الجامعي فى جامعة "بنسيلفانيا". وجاء التمويل أول ما جاء خلال التبرعات التى قدمها أفراد عاديون. ولكن سرعان ما قُدم برنامج العملة الأجنبية الذى يديره معهد "سميثسون" فى واشنطن منحة ضخمة. ثم نجح "سميث" بعد ذلك فى تجنيد عدد من المستشارين الأكاديميين كى يزودوه بالخبرة فى مجال تاريخ الفن والآثار. وكان بين هؤلاء المستشارين المرحوم البروفسور "جون ويلسون" من المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو والبروفسور عبد المنعم أبو بكر من جامعة القاهرة و"جير هارد هينى" من المعهد السويسرى وكاتب هذه السطور (د.ريدفورد، المترجم) من جامعة "تورونتو" واجتمع فريق من المساعدين يضم عدداً من الطلاب فى مصر وبريطانيا. وبمطلع ١٩٦٦ أصبح مشروع معبد أخناتون" وهو الاسم الذى ظل يُعرف به فى منذ ذلك الحين، على أهبة الاستعداد للانطلاق فى العمل. وبدأ أن الأمر لا ينبغى أن يبدأ بإعادة تجميع كتل الأحجار ذاتها، إذ أوضحت سائر المحاولات الأخرى التى باءت بالفشل فى الأربعينيات أن هذا المنهج لا يعُدو كونه مضبوطة للوقت وغير ذى جدوى. وعوضاً عن ذلك قرر "راى" شن حملة واسعة يتم فى إطارها تصوير كافة الكتل فوتوغرافياً بمقياس رسم معين مع تشفير تفاصيل الجداريات تمهيداً لتغذيتها للكمبيوتر ثم جرى توفيق الصور الفوتوغرافية بمساعدة هذا الاختراع البارع على الورق فى قصاصات أو "كولاجات" على أمل أن تبدأ الحوائط التى تغطيها الجداريات بالمعابد الأصلية المنذورة للشمس فى النهوض وقوفاً. وقد بلى ذلك فى نهاية المطاف إعادة بناء المعابد ذاتها، إلا أن ذلك لم يكن فى الوسع أن نستهدفه فى بداية عملنا.

وأثبت "راى" والفريق الذى يعمل معه أن الكلال أو الملل لا يعرف طريقاً إليهم. فلقد جرى تصوير كتل "الثلاثات" تلك فى أواخر الستينات على امتداد فترات طويلة فى شون التخزين التى تضمها سواء بالألوان أو بالأسود والأبيض بمعدل عدة عشرات كل يوم. ولقد دعم "جيمس ديلميج"، وهو ضابط سابق فى الجيش البريطانى الثامن خلال حملة شمال أفريقيا إبان الحرب العالمية الثانية، المشروع

الفصل الأول

الحدود الموسعة

فى سنة ١٥٦٠ ق.م عرفت مصر بهجة دافقة لم تعرف مثيلاً لها من قبل، ارتفعت معها روح شعبها المعنوية. إذ كانت جيوشها قد حققت نصراً مظفراً: طردت النظام الكريه للحكام الأجانب المنحدرين من أصول كنعانية الذين تسلطوا على مصر من "الأشمونيين" حتى البحر الأبيض المتوسط. وكانت تلك الجيوش قد أوشكت على اجتياح الخصوم النوبيين على الحدود الأفريقية قرب أسوان. ولم تكن مشاعر الإبتهاج بالنصر زائفة: إذ كانت تلك الجيوش قد كسبت نصراً باهراً. وشاع التفاؤل فى كل مكان على ضفاف النيل، ورأى المصريون حقاً وصدقاً فى تلك الأيام بداية فجر جديد.

يصعب أن نوجه حدقة عين العقل نحو تلك العقود البعيدة لأواسط القرن السادس عشر ق.م فالآثار والصروح التى سرعان ما شيدها التحامسة الإمبراطوريون * فى عاصمتيهم الملكيتين "طيبة" و"منف" أو كثير منها على الأقل، طمست الأبنية المتواضعة التى إبتناها أسلافهم المباشرون، مثل "أحمس" محرر مصر وابنه "أمين - حوتب" الأول (١٥٧٣-١٥٢٩ ق.م).

فى سائر الأحوال نستطيع أن نؤكد لأنفسنا أن فراعنة مصر التى نالت حريتها للنو، لم يكن فى طوعهم أول الأمر أن يقدموا للعالم أكثر من بلاط متواضع ومحلى الطابع. وكانت "طيبة" مسقط رؤوسهم ومحل إقامتهم فى أوقات سابقة تقع فى الجنوب حيث تشتد وطأة الحر، على بعد نحو ٦٠٠ ميل من البحر الأبيض المتوسط، فى مناطق فى مصر كانت معروفة وقت ذاك مثلما هى اليوم بخشونتها. فهنا فى المديرية الرابعة للوجه القبلى تتحسر الصحراء الشرقية عن ضفة خصبة عريضة. ولم تكن "طيبة"، كما ينبغى علينا أن نتخيل، سوى حفنة من البلاد (جمع بلدة. م) الفقيرة المبنية من الطوب الأخضر (النبي)، المتناثرة على امتداد شواطئ النيل، وكل بلدة تتخلق حول ضريح صغير منذور للإله محلى. أحد

هذه الأضرحة، وكان "سنوسرت الأول" (١٩٧١ - ١٩٢٥ ق.م) قد ابتناه في الأصل كمصلى ملكية، كان يسمى "إبيت -سوت" ("خبر-كا - رع" أي: "سنوسرت" موجود)، أول الأماكن المختارة للعبادة، وكان منذوراً للإله، "أمون" أي "الباطن". وعلى بعد ميلين إلى الجنوب تقع ضاحية، إذا جاز عليها الوصف، تسمى "إبيت - رست" والإسم يعنى "المكان الجنوبي المختار"، حيث إنتشرت، هنا أيضاً، عبادة الإله "أمون". وعلى بعد خمسة أميال إلى الشمال الشرقى تقوم بلدة "مادو" (مدامود حالياً) حول ضريح إله الحرب "مونتو" الذى تعلو كفتيه رأس صقر. وعلى الضفة الأخرى لنهر النيل، فى مواجهة "إبيت - سووت" مباشرة، يقع المعبد الجنازى للفرعون العظيم "مونتو-حوتب" الأول ومعناه بالهيريوغليفية "مونتو - راضى" الأول (٢٠٦١ - ٢٠١١ ق.م) حيث يستطيع المرء أن يراه بوضوح هاجعاً فى حضن الجرف الصخرى الذهبى، الذى تنتهى عنده الصحراء. وكان الفرعون "مونتو-حوتب" هذا، قد نجح فى إعادة توحيد مصر فى أعقاب حرب أهلية طويلة الأمد. وقد يكون "أحمس" قد حدس، وهذا أمر مرجح فى سائر الأحوال، بأن ذكراه سوف ترتبط فى التقاليد التاريخية بذكر سلفه العظيم فى ضوء إنجازاتهما العسكرية. وعلى بعد ميلين إلى الشمال، وعلى نفس الضفة الغربية للنيل تقف واحدة من أقدم المستوطنات فى المنطقة، إذ يرجع تاريخها إلى عصور ما قبل التاريخ. وفى الأونة الأخيرة كانت البيوت قد تجمعت هنا حول المقابر الكبرى لأسلاف "مونتو-راضى"، الفراعة الـ "الأناتة" الثلاثة الذين حملوا السلاح وخاضوا غمار الحرب الأهلية التى مر ذكرها.

ومع ذلك لا تستطيع أى من هذه البلاد أن تزعم لنفسها حق تبوأ مكانة عاصمة مصر فبيوتها لم تكن أكثر من أبنية فقيرة من الطوب الأخضر (النبي)، وشوارعها ضيقة وسكانها قليلون. حقا كشفت معابدها، وبصفة خاصة، معبدا "إبيت-سوت" و"مادو" بكل جلال، عن أعمدة منقوشة وقرايين شكر تنم عن الورع، نذرهما الملوك على امتداد القرون الأربعة السابقة، إلا أن كميتها لم تكن بأى حال من الأحوال بنفس القرايين التى قربها الملوك الأسبق لمعابد المملكتين القديمة والوسيلة ولا المواعين التى حملت هذه بنفس فخامة المواعين التى حملت تلك، فى

الوجه البحرى.

حمل المجتمع المصرى بصفة عامة خلال حكم "أمين - حوتب" الأول الذى دام خمساً وعشرين سنة طابعاً محافظاً بشكل واضح . وكانت مصر ترى نفسها العملاق المزدهر تحت ظل الأسرة الثانية عشرة التى نهضت من تحت الأنقاض، والواقع أن بواكير الأسرة الثامنة عشرة، قد يجوز عليها الوصف بأنها المرحلة الأخيرة لمجتمع المملكة الوسيطة، إلا أنها تلكأت فى الرحيل لأربعة قرون وتجردت من خيالاتها. وظل المصريون قانعين بالنماذج التى تركتها الأسرة الثانية عشرة سواء فيما يتعلق بالمعابد والأهرامات والنصب، والرسوم الجدارية والتماثيل التى زينت تلك الآثار. إذ أننا "نسمع" فى النقوش التى تخلفت عن بواكير الأسرة الثامنة عشرة أكثر من صدق واحد، وأحياناً "نسمع" نفس العبارات ذاتها التى ترددت فى نصوص الأسرة الثانية عشرة التى كانت لا تزال رهن النظر. وكان توق المصريين عارماً إلى استئصال الذكريات الأليمة لفترة الضعف التى تقف بينهم وبين الأسرة الثانية عشرة. وتدلنا القائمة الملكية لأسلافهم من ملوك، تلك القائمة التى كانت تُستخدم فى شعائر تقريب القرابين بصفة يومية، على أن الأسماء التى إصطنعها ملوك الأسرة الثامنة عشرة تكاد تماثل رأساً الأسماء التى إتخذها فراعنة الأسرة الثانية عشرة، وعلى غرار فراعنة المملكة الوسيطة، تباهى بافتخار كل من "أحمس". و "أمين - حوتب". بهذا اللقب: "ابن - أمون"(١).

وعلى الصعيد السياسى إستلهمت بواكير الأسرة الثامنة عشرة مظاهر العظمة والازدهار من الأسرة الثانية عشرة. ففى ظل حكم الفرعون "سنوسرت" الثالث (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق.م) كان النظام الاجتماعى القديم، الذى يقوم على شكل من أشكال النمط الإقطاعى قد أصابه الضعف إلى النقطة التى أصبح عندها عاجزاً. وعندئذ أُستبدل فى الحال بنمط مركزي جديد. وجرى تقسيم مصر إلى ثلاثة أقسام إدارية مصر العليا ومصر الوسطى ومصر السفلى، يدير كل منها ممثلون ملكيون وضباط إداريون، يخضعون جميعاً للمسؤولية المباشرة أمام الملك ووزيره. وكان للوزير ورئيس الأمناء وظائف خاصة، بل وأخذوا فى أيديهما سلطات أوسع مما كان لهما قبل ذلك الوقت. وعلى الصعيد المحلى نُزعت إدارة المدن والمراكز من أيدي

العائلات ذات الملكيات الكبيرة، ورغم أن مناصب عُمَد المدن، كان قد أصبح من الممكن وقت ذاك شراؤها وبيعها وتوريثها بموجب القانون، إلا أن شاغلي هذه المناصب أنفسهم حازوا قدرًا من السلطة التي كان السادة الإقطاعيون يتمتعون بها في الماضي (٢).

كان المجتمع المصري في ظل الأسرة الثامنة عشرة ريفياً قروياً، على رأسه يقف الملك وزوجته الرئيسية، وزوجاته الأخريات الثانويات وعائلته الكبيرة التي تضم عدداً كبيراً من الأبناء والبنات وأبناء الأخ والأخت وبنات الأخ والأخت وأبناء وبنات أعمامه وأخواله من كافة الدرجات. ولقد شهدت "الفترة الإنتقالية" التي جلبت النوائب على البلاد عندما ضعفت الحكومة الملكية ووقعت مصر فريسة الغزو، استحداث عادة تلقب القادة العسكريين بهذا اللقب: "ابن الملك". وقت ذاك عرفت البلاد من أقصاها إلى أدها جيشاً من هؤلاء الأمراء "المزيّنين" (٣) وتضم الجيانات المحلية، التي كشف عنها المنقبون، مقابر ليست لأبناء الطبقة الأرستقراطية، بل لأولئك الذين لم يصلوا بصفة أساسية إلى أكثر من موظفي بلدية عند وفاتهم. فالخدمة في سلك الكهانة أو الكهنوت والإنخراط في الجيش أو "العسكروت" كانا لا يزالان من الأعمال التي لا يُقبل عليها الأهالي إلا على أساس الاشتغال بهما بعض الوقت إلى جانب أعمالهم الأخرى.

غير أن كل ذلك كان رهن التغيير رأساً على عقب في غضون القرن الذي تلي رحيل "أمين - حوتب" الأول، وكان ذلك راجعاً إلى حد كبير إلى حدوث انقلاب عالمي. فالنصر المبين الذي أحرزه "أحمس" على الهكسوس* سطع على دنيا أسنة ظلت تجهل التغيير منذ عصر "حمورابي" وأراشيف "ماري"*. وكان أحفاد "حمورابي" لا يزالون يحكمون بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) من عاصمتهم الرائعة في بابل. أما الدول الوليدة، وبينها دولة "أشور" فكانت تحتفظ بوجود مزعزع الأركان على مشارف الدولة البابلية. وفي سوريا تركزت ثلاث دول كبيرة حول ثلاث مدن كبرى، وضع جذبها السياسي المستوطنات الأقل شأنًا في مناطق واسعة مجاورة في فلكها. وكانت "حلب" تسيطر على شمال سوريا وتحكم دولة تدعى "يامخاد"، بينما دان حوض نهر العاصي* بالسولاء لدولة

قطنوم " Qatanum " المنيعية. وفي الجنوب وقعت مدن الجليل وفلسطين المعروفة بتلالها تحت الظل السياسي لدولة "حازور" الواقعة في أعلى وادي الأردن. كل هذه الدول التي كانت تحتفظ، في الحقيقة، بطابع عسكري في ظل احترامها لميثاق عالمي للشرف، كانت تتمتع بأصل وثقافة مشتركين. وكانت الطبقات الحاكمة (وفي الشرق كان الأهالي على العموم، يتحدثون اللهجات السامية الغربية، تلك التي يجمعها اللغويون في غالب الأحيان تحت هذا الاسم العام "العمورية"). وكان المصريون قد أصبحوا وقت ذلك معروفين بين العموريين، عندما تسلك قطاع الطرق (السلابون - النهابون) من بقعة ما في قلب سوريا في الربع الثاني من القرن السابع عشر إلى مدينة "أواريس" Avaris في دلتا النيل وكنوا هناك ليحكموا القطاع الشمالي من مصر تحت اسم "الهكسوس".

ولعل من المرجح أن أمن تلك الشبكة من الممالك العمورية حول الهلال الخصيب قد تضعضع بشكل حاد منذ حكم "أحمس"، بظهور عنصرين عرقيين جديدين. فمن أواسط الأناضول خرجت جماعة كانت حتى ذلك الوقت شبه مجهولة: الحيثيون الذين اجتأحوا بابل تحت قيادة ملكهم مورسيليس Mursilis وأنهوا حكم الأسرة الحموربية. ثم استدارت نفس القوة نحو الجنوب في أعماق سوريا فهاجمت وحطمت مملكة "يامخاد" Yamkhad التي إختفت منذ ذلك الحين من مسرح التاريخ. وأدت هذه الاجتياحات البعيدة المدى التي قامت بها جيوش لا تقهر، إلى وجود فراغ سياسي مؤقت في الأطراف العليا للفرات. وكان الطامحون إلى السلطة مع ذلك في طور المخاض. فمن قلب السهول الواسعة في أواسط بلاد الرافدين (ميزوبوتاميا) ينبثق الحوريون، وهؤلاء عبارة عن مجموعة لغوية محلية، ولكنها كانت قد إرتفعت قبل قليل وحسب إلى حد إمتلاك سلطة سياسية. فالحوريون، الذين تسيّدت عليهم ونظمتهم طبقة من النبلاء الناطقين باللغة الآرية، وهذه طبقة تشكل شريحة من الحركة الآرية الكبرى التي اتجهت في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، نحو سهول البنجاب، بسطوا هيمنتهم شرقاً إلى ما وراء نهر دجلة، وغرباً نحو الأناضول وسوريا. وهكذا أخذت إمبراطورية جديدة في التشكل والتوسع خلال أنواع مختلفة من إستغلال نمط ناجح هو الحوري - المحارب، وقد حملت هذه

الإمبراطورية، إسم عاصمة الإقليم الذي أنجب حاكمها: "ميتاني". وهنا إستبد القلق بالحيثيين. وظل كل منهما، أى الحيثيون في عاصمتهم "خاتي" والميتانيون، ينظرون كل إلى الآخر نظرة عدائية عبر جبال "طورس" على امتداد مائتى سنة (٤). ولكن قلقاً أشد، في ضوء موضوعنا الراهن، ملك على المصريين أفندتهم وسياساتهم التى إنتهجوها تجاه القادمين الجدد.

كان النهج الذي اتخذته مصر القديمة إزاء ما نسميه الآن بـ "الشئون الخارجية" في جوهره ليس مختلفاً عن النهج الذي تتبعه أى أمة سواء في العصور القديمة أو الوسيطة أو الحديثة فكل الأمم تطمح إلى الفوز من جيرانها بواحد أو أكثر مما يلي:

أولاً: أراضيهم، سواء لضمها إليها، أو استغلال موقعها الإستراتيجي.

ثانياً: موادهم الخام أو سلعهم التى يستطيعون إنتاجها، أو السلع التى يستطيعون إجتذابها خلال التجارة.

ثالثاً: الأيدي العاملة التى يستطيعون توفيرها. وكل الأمم، مرة أخرى، لا تملك في يدها سوى أربع طرق في سبيل وضع إرادتها موضع التنفيذ. (١) الإقناع الودي خلال الاتفاقيات (٢). التهيب خلال التهديد باستخدام القوة سواء أكان ذلك ضمناً أو سافراً. (٣) تمركز حاميات عسكرية دائمة ومسؤولين سياسيين، عقب اللجوء إلى القوة، أو (٤) احتلال أراضى الجيران أولئك بأعداد غفيرة من المستوطنين. وتؤدى الطريقة الأولى إلى إبرام سلسلة من الاتفاقيات أو العلاقات الدولية التى تقوم بين متساوين. بينما ينتج عن الطريقة الثانية ما نستطيع أن نسميه "منطقة نفوذ"، حيث يمد السكان يد الصداقة بصورة تلقائية نحو "أولياء النعم". ونقود الطريقان الثالثة والرابعة إلى الإخضاع الفعلي للأراضي التى كانت تتمتع في وقت سابق بالسيادة، فتغدو "إيالة" أو "مستعمرة". والآن نستطيع أن نصف، بحق، العلاقات التى احتفظت بها مصر خلال المملكة القديمة*والفترة المتأخرة*، مع جيرانها بالتمتع بمنطقة نفوذ لديهم. فالحاميات أو المستعمرات التى أقامتها مصر في ذلك الوقت خارج حدودها كانت نادرة، لو كان لها وجود أصلاً، واستعاضت مصر عن ذلك بحملات التأديب من حين لآخر أو القوافل التجارية المسلحة التى

كانت كافية لإثارة الغزع في قلوب سكان البلدان المجاورة.

وبينما اتخذت الأسرة الثانية عشرة بعض الخطوات التجريبية نحو إخضاع بلاد النوبة بإقامة حاميات هناك، فإن ملوك الأسرة الثامنة عشرة: التحامسة؛ هم الذين وجهوا أولى الحملات الكبرى، شمالاً وجنوباً في نفس الوقت؛ في سبيل بناء إمبراطورية مصرية. ولقد نظر المصريون؛ في بداية الأمر، وبصدق إلى هذا المجهود بصفته تأديبياً أو وقائياً. فالعدو الآسيوي كان يُخطط لتدمير مصر^(٥) و"بلاد فنخو" تمادت حتى بلغ بها الأمر حد انتهاك حدود مصر^(٦) ولقد برز فراعنة الأسرة الثامنة عشرة بناء إمبراطورية بصفته "ضرباً على أيدي الحكام الأجانب الذين شنوا الهجوم على الفرعون"^(٧) وأخذ العدو يزحف على مصر! احتشدت كل البلدان ووقفت بقلب واحد استعداداً للحرب. ليس بينهم متردد، ووضعوا ثقتهم في الكتائب العديدة، والمشاة والفرسان الذين يفوقون في العدد كل حصر. ولقد تحركوا، بقلوب جسورة، لا تعرف الخوف...^(٨) ماذا يكون في وسع الفرعون أن يفعل سوى أن يهاجم كافة البلدان التي زحفت ضده" وثيقذ مصر التي يحدق بها الخطر"^(٩)؟ والآسيويون معتدون ومصر لا تفعل أكثر من الدفاع عن نفسها.

ولكن بمرور الوقت، أثبتت الحملات التي شنها المصريون ضد الآسيويين أنها ناجحة ومربحة. وعلندئذ شرع المجهود الحربي يكتسب مسوغات أخرى. وبدأ الفرعون يقود جيشه باتجاه الشمال "كي يوسع حدود مصر". وهذه عبارة سرعان ما غدت بمثابة "القرار" أو الفكرة الرئيسية في هذا النوع من الإمبريالية. فكان المجهود نافعاً واكتسب حصانة مقدسة. لقد شاء الإله منذ الأزمنة الماضية أن تكون الأراضي الأجنبية إرثاً لمصر، وها هو الآن وقد منح الفرعون "الحق" في امتلاكها. وكان "أمون"، هو الذي منحه "لقبه كسيد كافة الأراضي الأجنبية"^(١٠)، وصار، بالتالي عدلاً وشرعاً أن "تغدح كل البلاد كي تجنى مصر".

وإذا كانت البلاد الأجنبية مقاطعات مصرية بموجب الحق المشروع فكل مقاومة يبديها السكان المحليون تجاه مصر، حتى ولو كانت سلبية تغدو تمرداً محظوراً بقوة القانون". وأصبحت عبارة: هو الذي سحق كافة البلدان التي خرجت

عن طاعته " نعتاً شائعاً للفراعنة اعتباراً من منتصف القرن الخامس عشرة ق.م. ولما كان الأجانب قد خرقوا القانون، ذلك القانون الذي أقره الآلهة المصريون، فلقد حقّ عليهم، بصفة تلقائية، "غضب رع ومقته" (١١).

تأنف تقاليد معينة من تأويل الحرب كشر يحتاج باستمرار إلى تبرير، وعوضاً عن ذلك ترى فيها فناً مرغوباً يصقل الرجولة والفحولة. ويميل العالم الحديث إلى تطبيق مثل هذه الرؤية للحرب على المجتمعات القبلية الأولية غير المتحضرة. وعلى نفس المنوال كان سكان المدن المتحضرون في الشرق الأدنى القديم يربطون بين حب القتال وبين العموريين الذين ينتمون إلى الساميين الغربيين وأصلابهم، أولئك الذين يُوصفون في غالب الأحيان بأنهم أشباه بدو. وفي مصر تشهد صورة المحاربين المعروفة عن حكام المملكة الوسيطة على حب المعارك لذاتها. ولقد استمرت هذه الصورة في المملكة الحديثة، وبصفة رئيسية، خلال حكم الفرعون "تحوت - موسى" الأول. إذ يشير هذا الفرعون إلى أنه قام بحملته الكبرى في سوريا "كي يروى ظمأاً في بلاد عبر البلاد الأجنبية" (١٢) "ولم يلتق بأي شخص (يقصد في ميدان القتال) يستطيع مناجزته ندلاً" (١٣). ويلوح شعور وطني وكأنه قد أملى النقوش والكتابات التي تركها لنا "تحوت - موسى" الأول، فلم تتركز وحسب حول مصر بل وحول "طيبة"، مسقط رأسه ومقر حكمه، بالذات. ويستطيع المرء أن يستشعر فورة الفخر خلال الكشفات الأخيرة لكنوز المدينة. فـ "تحوت - موسى" ارتقى العرش كي "يوسع حدود طيبة": "تخوم تلك التي تقف وجهها لوجه أمام سيدها" *... لقد مددت حدود مصر حتى بلغت بها دائرة قرص الشمس. ونفشت القوة في القلوب الراجفة، لقد جعلت من مصر سيّدة تدين لها كنى البلدان بالولاء" (١٤)

يرجع بناء إمبراطورية المملكة الحديثة بصفة رئيسية إلى ثلاثة ملوك "تحوت - موسى" الأول (١٥٢٥ - ١٥١٤م) "تحوت - موسى" الثالث * (١٥٠٤ - ١٤٥١ ق.م) و"أمين - حوتب" الثاني (١٤٥٣ - ١٤٢٦ ق.م)، فالفرعون الأول ضرب مثلاً، رغم أن الأجل وفاه مبكراً، والثاني ارتفع إلى ذلك المثال وفاز بإمبراطورية والثالث أضاعها على وجه التقريب.

وكان انهيار مملكة "يامحاد" والصعود المفاجئ للدولة الميثانية قد تركا أثراً عميقاً على مصر المحصورة تحت ظل أمين - حوتب الأول. فلقد قاد هو وزوج ابنته وخلفه "تحوت - موسي" لأول الحملات الطموحة التي اخترقت وادي نهر العاصي كي تشتبك مع جيوش الميثانيين قرب ديارهم (١٥). حقاً لم يستول أي منهما على أي أراض هناك ولكن مطالب مصرية رفعت. وثلاثون سنة من الاسترخاء تحت ظل الملك "تحوت - موسي" الثاني والملكة "حتشبسوت" سمحت للدولة الميثانية أن تمتد في شمال سوريا. وبحلول سنة (١٤٨٢ ق.م) كانت المدن - الدول الكبرى غربي نهر الفرات وأسفل وادي نهر العاصي قد ارتبطت مع الملك الميثاني بمعاهدات التبعية والخضوع. وهكذا كان بوسع أن يواجه مصر الناهضة تحت ظل فرعونها "تحوت - موسي" الثالث بسلسلة قوية من الدول التي تقوم كمناطق عازلة يصل طرفها الجنوبي إلى فلسطين. واجتذبت دولتان على وجه الخصوص، في هذا الإطار، تحالفات القوة العسكرية: "تونيب"، وهذه عبارة عن مدينة كبيرة في أسفل حوض نهر العاصي و"قادش" على نفس النهر على بعد نحو مائة ميل إلى الجنوب وكانت الأولى: "تونيب" تابعة على وجه الترجيح للدولة الميثانية بمعاهدة رسمية، أما الثانية: "قادش" فكانت مستقلة.

شكلت "قادش" أول ائتلاف قوى ضد مصر. إذا عهدت المدن - الدول من أواسط سوريا حتى "النقب" بقوات من جيوشها إلى ملك "قادش"، والتقت القوات (الأسبوية) المشتركة عند "مجدو" في سهل إزدريلون Esdraelon، وقد انعقدت عزميتها على التحرك من فورها نحو مصر. ولكن "تحوت - موسي" الثالث كشف خطة الأعداء وأنزل بهم هزيمة فادحة في معركة "مجدو" التي دارت رحاها في أواخر ربيع عام ١٤٨٣ ق.م. ويسقط "مجدو" نفسها في ديسمبر - كياك من نفس السنة انفرط عقد الائتلاف، وقام فرعون مصر "تحوت - موسي" الثالث بتطهير جيوب المقاومة الصغرى في فلسطين جيئاً فجياً. وبحلول سنة ١٤٧٥، وبعد أن أخضع المصريون الموانئ القينيقية على ساحل البحر الأبيض المتوسط ونصبوا فيها حاميتهم، تمكنوا من شن الهجوم على "قادش" نفسها. حقاً صمدت المدينة للهجوم ولكن قوتها تضععت.

انحسرت المقاومة للزحف المصري وقت ذاك إلى أقصى الشمال. وفي سنة ١٤٧٤ ق.م، أحبط ظهور "تحوت - موسى" الثالث في الوقت المناسب تلك المحاولة التي قام بها ملك "تونيب" نحو تخريب المدن الساحلية التي كانت قد أصبحت حينذاك تابعة لمصر. وتحولت المبادرة وقتئذ كي تستقر في أيدي المصريين. ولم تكد تمر سنتان حتى حل الاختبار الحاسم. ففي ربيع سنة ١٤٧٢ ق.م ظهر أسطول جلالته ؛ وكان مستوفياً تجهيزه بسفن نقل الجنود ؛ قبالة مدينة "بيلوس" وكلفت فرقة من الجنود بمهمة قطع الأخشاب اللازمة لبناء السفن من غابات لبنان القريبة. وعبر الجيش المصري الجبال حاملاً قوارب الهجوم سابقة التجهيز على عربات كارو مع طلائعه، وسار بمحاذاة نهر العاصي في طريقه إلى قلعة مدينة "كاركميش" الحصينة على نهر الفرات. ولابد أن ملك الميتانيين لم يقف على هدف الحملة إلا في وقت متأخر للغاية، ورغم اعتزامه الصمود في شمال سوريا، إلا أنه اضطر إلى التقهقر. وأخيراً وصل المصريون إلى "كاركميش" بعد أن خاضوا ثلاث مواقع ضارية. وفي اللحظة التي كان الميتانيون الهاربون قد ظنوا أنهم ضمنوا الفرار عبر نهر الفرات، أحضر "تحوت - موسى" الثالث قوارب الهجوم. فتشتت الميتانيون وقد ركبهم الرعب. أما ملكهم فقد "فر مذعوراً إلى ركن بعيد" وحذق "تحوت - موسى" الثالث: ضباطهم ونبلاؤهم يختبئون في الكهوف. ولنسترك الفرعون نفسه يروي لنا الباقي:

"لم يكن هناك مقاتل واحد في بلاد نهارين (ميتاني) التي تركها ملكها وولى الأديار مذعوراً. لأنني مزقت مننه وقراه وأشعلت فيها النار، وحولتها إلى أكوام من الأنقاض، فلن تقوم لها قائمة مرة أخرى. وأخذت جميع سكانها ؛ ممن بقوا على قيد الحياة ؛ أسرى مقيدتين، ووضعت يدي على مواشي لهم دون حصر، وكل ممتلكاتهم كذلك، ونزعت كافة مصادر قوتهم من أيديهم، وحصدت قموحهم وقطعت كل أشجار فاكهتهم. لقد دمرها جلاتي وحولتها إلى تراب أحمر لن ينمو الأخضر فيه مرة أخرى" (١٦).

كان النصر، على ما يبدو، مظفراً. فلم يعد هناك عدو واحد في ميدان القتال. ثم انسحب المصريون جنوباً دون عجلة من أمرهم. بل ووجد "تحوت - موسى"

الثالث لديه متسعا من الوقت، وكصنيع عال لا يصدر إلا عن خيلاء إمبراطوري، كي يخرج إلى مستنقعات نيبا * Niva لصيد الأفيال البرية التي ترفع الحشائش هناك. "أخذها جلالتي في قطيع يصل إلى ١٢٠ فيلا. وهذا ما لم يستطع أى ملك آخر أن يأتي بمثله منذ زمن الإله الذي عبده أولئك الذين تلقوا، منذ القدم، التاج الأبيض" (١٧).

وهكذا قامت إمبراطورية (مصرية. م) دائمة، رغم أن "تحوت - موسى" الثالث ظل مضطراً للعودة بصفة سنوية إلى مواقع النصر الذي أحرزه ؛ على رأس حملات تأديبية على امتداد عشر سنوات. وبذل ابنه "أمين - حوتب" الثاني عدة محاولات لتوسيع حدود هذه الإمبراطورية التي ورثها عن أبيه. إذ توجه على رأس حملة بعيدة المدى، في السنة السابعة من حكمه إلى سهول "هاتاي" * كما تعرف في تركيا الحديثة. ولكن المآثر التي صدرت عن شجاعته الشخصية لم تستطع الحيلولة دون القوة الطبيعية "للدولة الميتانية" والعودة إلى تأكيد ذاتها. وقد يكون في طوع "أمين - حوتب" أن ينفجر غضبا ضد الآسيويين كما يحلو له، بل وأن يصل إلى حد الإقدام على عمل "وحشي" ويشنق سبعة من رؤساء الكنعانيين على أسوار مدينة "تباتا" * في السودان ولكن بمجرد انسحاب القوات المصرية من سوريا، انحنت الدول - المدن المحلية للقوة القاهرة وعادت إلى الاعتراف مرة أخرى بهيمنة الدولة الميتانية. واعترف "أمين - حوتب" في أيامه الأخيرة بحكمته المعهودة، بعدم جدوى استمرار العداء. ووافق على إبرام معاهدة مع أعداء والده. وبذلك وقع شمال سوريا كله في أيدي الميتانيين بما في ذلك الأراضي الواقعة بأسفل وادي نهر "العاصي" والساحل السوري فيما بسطت مصر سيادتها على المدن الواقعة على الساحل الفينيقي حتى مدينة طرابلس الحالية في أقصى الشمال. ومن ثم عبر خط الحدود لبنان في اتجاه الشرق حتى الصحراء ثم دار جنوباً، الأمر الذي منح فرعون مصر الأراضي الخصيبة في أسافل وأعالي نهر "العاصي" ودمشق و"الجليل" بالإضافة إلى الأراضي الواقعة إلى الجنوب. ورغم أن خط التقسيم هذا كان على وجه الترجيح بمثابة حل مؤقت Ad hoc بين الإمبراطوريتين، المصرية والميتانية، إلا أنه أثبت قدرته بصورة ملحوظة على

الاستمرار تحت حكم ابن "أمين - حوتب" وخلفه القصير الأجل "تحوت - موسي" الرابع (١٤٢٣ - ١٤١٢ ق.م)، عندما بُذلت محاولة مُبهِمة القصد والمدى لجر مصر إلى مزيد من الأعمال الحربية في سوريا. ولكن المكاسب كانت أوفر من وراء إعادة تأكيد الصداقة مع الدولة الميثانية، ووضع البلاطان الملكيان في كل من مصر و"ميتاني" روح العداء وراء ظهرهما، بمساعدة زواج ملكي، جاء في حينه، وصاغا تحالفاً فيما بينهما، كشف عن قدرته على الصمود أمام اختصار القرن التالي.

أثبت الازدهار الذي عرفه عهد "تحوت - موسي" الرابع أنه باكورة ما سيأتي. وكان جلالته قد تلقى المساعدة، باعتباره شخصياً، في صعوده إلى عرش البلاد من جانب إله الشمس "رع - حور - آختي" الذي جاءه في المنام فسي زي أمير. وطوال حكمه داوم الملك الفرعون على تكريم الشمس تحت صورة "قوس- الشمس" وهذا تجلٍ إلهي سوف نسمع المزيد عنه في وقت لاحق.

الفصل الثاني

لمحات من مصر الإمبراطورية

في سنة ١٤٤٠ ق.م، دخل تغير بعيد المدى على الأكوخ الفقيرة في دائرة "طيبة": إذ تحولت وقت ذاك إلى أحياء وضواحي لعاصمة إمبراطورية. ولم يكن قد مر أكثر من ثلاثة أجيال، وكان في طوع الطاعنين في السن أن يتذكروا أيام الضيق قبل قيام الإمبراطورية، تلك الأيام التي كانت قد مضت إلى غير رجعة. ورغم أن الفرعون فضل الإقامة في "منف" في الشمال، إلا أن "طيبة" كانت تتلقى الشطر الأعظم من غنائم الغزو. فلقد ظلت بمثابة المدينة التي أنجبت العائلة المالكة، والموضع الذي سيضم رفات أبنائها متى حانت منيتهم.

الجيش

لم يدخل التغيير على هذه المدينة الجنوبية وحدها، بل اعترى كافة أنحاء مصر. وتركزت التغيرات في الجانب الاجتماعي حول الطبقة العسكرية المتعاظمة من الذين يحترفون سلك الجندية طول الوقت (١)، عوضاً عن المقاتلين القدامى لبعض الوقت **. ولم يعد الفرعون يعتمد على ما تقدمه الإقطاعيات من مقاتلين - محاربين ضمن ما تقدمه من ضرائب، إذا أصبح يعول الآن على "القوات المسلحة الدائمة" (يو- واع - بيت) أو الشجعان (قبن - بيت) الذين يشكلون هيئة مصطفىاء يقودها "جرال". ولما كان الجيش قد قام كتجريدة كبيرة، فلقد جرى تقسيمه إلى فرق تتألف كل منها من نحو خمسة آلاف رجل، ينظمون على أساس الإقليم الذي ينتمون إليه من أقاليم البلاد "طيبة"، "أون"، غرب الدلتا، ويوضعون تحت رعاية الإله الملائم لذلك الإقليم. ولعلنا نسمع عن "فرق فرعون" التي تنتظم كل منها تحت بيرق خاص. و"ألوية القواسين"، و"مقاتلي العربات الحربية" و"مشاة الأسطول".

وبدأت الألقاب التي تشير إلى الخدمة العسكرية طول -الوقت في الظهور بوفرة، وإذا ما نقلناها إلى المصطلحات الحديثة فإننا نصادف "القائد العام" جنرال الجيش و"الفريق" و"العميد" و"جنرال الإمداد والتموين" و"قائد الفرقة" (حرفياً: حامل علم الفرقة) و"ربان السفينة"، وضم الطاقم الخاص بالملك أثناء خروجه على رأس الحملة عدداً مرموقاً آخر: "حلاق الملك"، و"رئيس خدم الملك" و"حامل دروع الملك" و"حامل قوس الملك" و"قائد عربة الملك الحربية".

وكما هو معروف عن مصر، حيث تتغلغل البيروقراطية في جسم المجتمع، يبدو أن الضباط المسؤولين عن الإمداد والتموين كانوا منتشرين في كل مكان. فهناك "رئيس أمناء سجلات الجيش"، أو قوائم التجنيد كما قد يعين لنا أن نطلق عليها اليوم، و"جنرال الإمدادات" (حرفياً: رئيس الإسطبل) الذي يتولى مسئولية توفير العجلات الحربية والخيول، بينما يحتفظ "أمين الأسرى-الرهائن" ومعه مكتب خاص للتسجيل، بسجلات مفصلة تشمل بلد المنشأ ومكان الإقامة الحالية لكل الأسرى الذين جرى جلبهم إلى مصر.

وكان كثير من أولئك الضباط يحمل لقباً مشتركاً، يمدنا بمفتاح الآلية الأساسية لتنظيم المجتمع إبان الأسرة الثامنة عشرة، فكانوا يحملون باعتزاز هذا اللقب "ابن الحريم" ومعناه "ابن روضة الأطفال الملكية". وكانوا في الحقيقة رفاق الصبا لأبناء الملك، وتربوا مع ولى العهد وكانوا يختارون، وفقاً لمبدأ "الأكبر سناً"، للمناصب العسكرية العليا. ولما كانوا ينتخبون، وفقاً للأعراف السائدة، من بين الأطفال الأكثر وعداً وإستحقاقاً في سائر أرجاء البلاد. فكانوا يأتون من مسقط رؤوسهم في مختلف المدن كي ينضموا إلى البلاط الملكي بصحبة حاشية كبيرة من أقاربهم. وكان حظهم السعيد هذا يعود بمزايا كثيرة، خصوصاً، على أقاربهم من ناحية أمهاتهم: ونلاحظ أن أمهات ومرضعات هؤلاء الأطفال كن يتمتعن بمكانة مرموقة بين سيدات البلاط؛ إذ ظلن يحملن هذا اللقب طوال الأسرة الثامنة عشرة: "حلى الملك".

وكان رفاق الصبا، أولئك، الذين يختارون بعناية فائقة يشكلون للملك القلدم، حاشية مضمونة من الأتباع يستطيع جلالته أن يعتمد على ولائها الذي لا مؤاء فيه.

ولا تستطيع "العين" أن تخطئ رنة الحب والإعزاز وراء ما ورد في السيرة الذاتية لرسول الملك، "الذي لم يتخل لحظة عن سيد الأرضين وسط وطيس المعارك في أى بلد من بلاد الشمال" (٢). ونقابل المرة بعد الأخرى في المقابر الخاصة في "طيبة" أن صاحب المقبرة يقرر أنه "سار في كعب الإله الطيب، ملك مصر العليا ومصر السفلى... في كافة الأراضي الأجنبية التي وطأتها قدماء" (٣). وعرف الفرعون كيف يكافئ أتباعه فكان يسمح لجيشه في غالب الأحيان بالاحتفاظ بغنائم المعارك. ولقد منح رئيس خدمه "تفربرت" الحق الشرعي في اقتناء سبع رؤوس من المواشي، كان الرجل قد استولى عليها خلال إحدى المعارك: تكون في حوزتك طوال عمرك، ومن بعدك تنتقل من ابن لآخر ومن وريث لوريث. ولا تعهد بها إلى مسؤولية كبير المشرفين على المواشي. ولا تدع الذين قد يئازعونك فيها يحصلون على جلسة استماع واحدة في أى مكتب ملكي" (٤). وكان الأسرى الآسيويون يُوزعون في بعض الأحيان للعمل كخدم شخصيين (في المنازل) على الجنود الذين يأسرونهم. وبالتالي، وعلى سبيل المثال أنعم الفرعون على الحلاق الملكي "سى - باست" Si-Bast بامتلاك أسيره: "ملك عبداً موهوباً لي، اسمه: "يو - أوى - أمون". وكنت قد أسرته أثناء سيرى على أثر الحاكم (خلال إحدى حملاته). ولم يكن ليضربه أحد أو يصرفه أى من كان كلما قصد أى باب من أبواب البيت الملكي. وقد زوجته من ابنة أختي...ولسوف تثر نصيباً يوازى ما سترته على زوجتى وأختى" (٥).

المقاطعات

امتدت أرجاء الإمبراطورية - التى ساعد هذا الجيش على الظفر بها - في سنة ١٤٤٠ ق.م لما يصل إلى ألفى ميل من الشمال إلى الجنوب. وهذه مساحة تشغلها اليوم ست دول مستقلة. وتقف "صواديذ" الحدود، التى رسم المصريون بها حدودهم في "كنيسا" في أعالي نهر النيل على بعد ٣٥٠ ميلاً شمالي الخرطوم، وعلى ضفاف نهر الفرات على بعد نظرة عين من جبال الأناضول. ولم يرغب عن

أذهان المصريين تلك الاختلافات الديموجرافية (السكانية) الهائلة التي ضمتها أطراف الإمبراطورية الشاسعة إلى سيطرتهم وقت ذاك: يوضح "موتيف" على قاعدة المنصات الملكية خلال الأسرة الثامنة عشرة - وأفضل مثال له موجود على منصة "تفرتيتي" - صفا من الأسيرات المقيدات الأيدي، الراكعات على ركبهن، وقد تناوبت الشفراوات الشماليات أماكنها في الصف مع السوداوات الأفريقيات ؛ واحدة من هؤلاء والتالية من أولئك !

وتجلى هذا الاعتراف من جانب المصريين بتنوع هذه المقاطعات أيضاً في السياسات الحكيمة والعملية في حكم الأراضي المكتسبة. حقاً قد تطنطن النقوش عن إيمان صادق، ضد "الأسويي الخسيس" أو "الأفريقي الرعديد"، ولكن الفرعون واعم في الواقع العملي بين إدارته والاحتياجات المتباينة للمغلوبين. فالوادي القاحل الواقع جنوبي أسوان (٦) لم يعرف بالمرّة أى تنظيم للمجتمع أرقى من القبيلة، رغم محاولة بدائية نحو إقامة نظام ملكي في القرنين السابع عشر والسادس عشر ق.م. وكانت التجارب الأولى في حكم هذه المقاطعات خلال رؤساء القبائل قد طُرحت جانباً بعد حكم الملكة "حتشبسوت" لصالح شكل سياسي مستورد من مصر. فوضعت كافة الأراضي الجنوبية تحت حكم "ابن الملك للبلاد الجنوبية" الذي كان هناك في مكانة الملك "In loco regis" كـ "مندوب سامى" حقيقي بالمعنى المعاصر أو "نائب للملك". وتحت إمرته كان يعمل نائبان، أحدهما للنوبة (واوات) والآخر لـ "كوش" *، وهو الأمر الذي يقاظر الوزارة الثنائية في مصر: وزير للوجه القبلي وآخر للوجه البحري. كما أسُتوردت مؤسسات نظم أخرى من الوطن الأم، مصر: إدارة مكلفة بإنتاج المواد الغذائية والتأمينية وصوامع الغلال وخزائنة عامة وحامية مقيمة وأسطول صغير من السفن للمواصلات. وشرعت كل عناصر الرفاهية هذه لحكومة منظمة، في ممارسة تأثير "حضاري" بشكل تدريجي على الجنوب. وساعد "المستعمرون" المصريون في هذه الصيرورة. وانتصبت المعابد الضخمة المنذورة في غالب الأحيان لعبادة الفراعنة الراحلين على الشريطين الضيقين القابلين للزراعة على جانبي نهر النيل، وأخذت المدن المتنامية تتحلق حولها كي تقوم على خدمتها. وحكم هذه المدن، عمُد وهيئات من الكتبة على غرار

ما هو متبع في مصر. وبدأت منتجات الجنوب تدخل مصر دون عوائق. وأخذ "المندوب السامي" يشحن المعادن وحجارة التشييد والمواشي والأخشاب بصفة سنوية إلى "طيبة" في إطار الضرائب المفروضة على "كوش" ووجدت المنتجات الاستوائية من الأقاليم الضاربة أكثر من أعماق الجنوب طريقها منحدره مع النيل كي تملأ خزائن الملك والآلهة. ولقد شحنت من الذهب كميات هائلة من وادي "العلاقي" أدت إلى انخفاض سعر هذا المعدن النفيس بصورة أساسية لمدة طويلة خلال النصف الثاني للقرن الخامس عشر ق.م. ونستطيع أن نحصل على تقييم أفضل لحجم الثروات التي أصبحت وقت ذاك في حوزة الفرعون بإلقاء نظرة على سجل الضرائب التي جبيت من الجنوب في السنة الثامنة والثلاثين من حكم الفرعون "تحوت - موسي" الثالث:

حصة الأيدي العاملة من "كوش" الخسيسة: ذهب ١٠٠ (+) ديبين *، ٣٦ عبدا أسود ما بين رجل وامرأة، قرون طويلة وأخرى قصيرة، ١١١ ثورا (الإجمالي) ٣٠٦ بالإضافة إلى قوارب شحن موسوقة بسن الفيل (العاج)، والأبنوس وكل المنتجات الفاخرة التي تعرفها هذه البلاد، وكذلك القمح ...

حصة الأيدي العاملة من "واوات" (ذهب) ٢,٨٤٤ ديبين * (أي ما يوازي على وجه التقريب ٧٠٠ رطلاً) ١٦ عبدا أسود ما بين رجل وامرأة. قرون طويلة وأخرى قصيرة، ٧٧ ثورا، بالإضافة إلى قوارب شحن موسوقة بكل المنتجات الفاخرة لهذه البلاد (٧).

ولكن تنظيم مصر لمقاطعاتها الشمالية سار في اتجاه مختلف بصورة ملحوظة (٨) ففي كنعان وسوريا صادف المصريون دولاً - مدناً وممالك صغيرة تصل في تقدمها الثقافي ورفقها السياسي إلى ما يعرفونه في بلادهم. ولم تكن هناك حاجة إلى فرض إطار بيروقراطي "من أول وجديد" De novo ولم يحتاج الأمر إلى أكثر من عدة وسائل بسيطة لإبقاء المدن على خضوعها. فقام المصريون بتحويل معظم البلاد في كنعان إلى توابع بتخفيض درجة حكامها إلى مستوى العمد المحليين في مصر، وإلزامها بنفس الضرائب والخدمات التي يطلبونها من نظيراتها في مصر. وترك المصريون لحكام المدن الأكبر حجماً مثل "حازور" و"دمشق"

و"صور" و"قطانوم" حق الاستمرار في تلقيب أنفسهم بـ "الملوك"، ولكنهم كانوا يُلقَّبون جميعاً من قبل الفرعون بهذا اللقب المقرر والشائع "رجل مدينة كذا أو كذا" وهكذا ظلت إدارة الشئون الداخلية في أيدي أهل البلاد. وظل حكام كنعان يحتفظون بجيوشهم الإقطاعية الصغيرة من "الفرسان" Maryannu وبرجالهم شاكى السلاح، واستمروا يتاجرون شوطاً مع جيرانهم ويحاربونهم شوطاً آخر.

وكان كافة الحكام الوطنيين يرتبطون مع الفرعون بقسم يؤدونه أمامه. وقد تحمل العبارة المصرية التي تقول: يجب على التابع أن يأكل Trypt في الأصل - وبصرف النظر عما يكون ذلك المأكول- إشارة إلى نوع ما من الشعائر التي تجرى في ثانيا الاحتفال بأداء القسم الذي لم يكن بحد ذاته سوى وعد بسيط يقطعه التابع باسم الملك على نفسه بالولاء وعدم التمرد. ولما كان هذا الالتزام شخصياً، فلقد صار على كل فرعون جديد أن يعيد مراسم القسم، مستخدماً في ذلك اسم التنصيب على عرش البلاد.

ومع القسم درج المصريون في الواقع العملي على أن يطلبوا من التابع بصورة مهذبة أن يرسل بعض أقاربه إلى مصر. وفي العادة كان يرسل ورثته لمنصبه من الذكور. ولكن المصريين كانوا يقبلون أيضاً بالبنات والإخوة والأخوات. وفي "طيبة" كان المصريون يخصصون أحد الأحياء لسكنى أقاربهم وتوابعهم تحت ظل نوع ناعم من الإقامة شبه الجبرية، وخلال سني صباهم كانوا يتلقون تعليماً مصرياً. وعند وفاة تابع من أولئك التوابع، كان الاختيار يقع على أحد أبنائه المقيمين في مصر كي يعود إلى دياره وريثاً لوالده، ويتولى زمام الحكم. ولكن هؤلاء الأطفال الكنعانيين الذين فقدوا الآن جذورهم Deracine ولا يعرفون لغة لهم سوى المصرية كانوا يجدون أنفسهم، في غالب الأحيان، منبوذين تماماً من جانب شعوبهم، تلك التي لم يتح لأبنائها هؤلاء أن يتعلموا لغتها وعاداتها. إلا أن تنصيب حكام متمصرين في الدول التابعة كان ميزة، من وجهة النظر المصرية، لا يمكن إغفالها.

قسم المصريون فلسطين وسوريا، بغية تيسير حكمهم هناك إلى أقاليم واسعة تضم عدداً من الدول -المدن، على أسس جغرافية بشكل عام- ووضعوا كل إقليم

من هذه الأقاليم تحت حكم "ناظر البلاد الشمالية" (باللغة الأكادية * ساكين ماتى Sakin mati) أى "الحاكم الإقليمي" الذي يُوفد من قبل البلاط الملكي المصري كي يتخذ مقره في الغالب في مدينة كبرى هناك. وبناء عليه كانت "غزة" مقر إقامة الحاكم المصري المفوض بالإشراف على "كنعان" وصاعداً إلى الشمال حتى "إزدريلون" وكانت "مجدو" (وفى وقت لاحق بيت - شان) مقر حاكم القسم الذي يشمل أعالي نهر الأردن " الضفة الغربية " وكانت "كوميدي" Kumidi في وادي البقاع بمثابة العاصمة الإقليمية لكل من دمشق والجليل والجولان. وكانت "أولازا" Ulaza وفى وقت لاحق "سومور" على الساحل الفينيقي بمثابة مركز الحكم لهذا الساحل بالإضافة إلى "عمورو" Amurru وكانت هناك هيئة من الكتبة إلى جانب الحاكم لمساعدته، بالإضافة إلى حامية صغيرة من القواسين المصريين. ورغم أن هذه الحاميات لم تكن كبيرة من حيث عدد أفرادها، حيث كانوا يتراوحون بين خمسين ومائتي محارب بين هذه الحامية وتلك، إلا أن هذه الحاميات تمتعت بصيت عريض كقوات مقاتلة شديدة البأس. ولطالما تبارى العمد والأمراء الكنعانيون فيما بينهم في التوسل إلى الفرعون كي يرسل مثل تلك القوات اللازمة لحفظ السلام سواء إلى مدنها أو إلى عاصمة الإقليم، وكان حاكم الإقليم مسؤولاً عن استتباب الأمن العام في إقليمه، وإرسال الضرائب المقررة على وجه الشريعة إلى مصر، وتنفيذ الأوامر الخاصة التي يصدرها بلاط الفرعون.

وكان هناك خبير ضرائب يقوم كل سنة، بمساعدة طاقم من الكتبة بجولات عمل في المقاطعات سواء في آسيا أو أفريقيا لتحديد الحصص التي يتعين دفعها خلال الشهور التالية. ولننصت إلى كبير مهندسي التشييد، وكاتب الملك: "أمين - موسى" كي يصف لنا هذه المهمة التي قام بها شخصياً تحت ظل حكم الفرعون "تحوت - موسى" الثالث: (طوّقت في أعالي "ريتينو" * Retjenu في أعقاب سيدي (الملك)، وقدرت الضرائب على أعالي "ريتينو" * فضة وذهبا ولازورد وأحجاراً شبه كريمة بالإضافة إلى عربات حربية وخيول بلا حصر. فضلاً عن قطعان المواشي والأغنام بنفس الأعداد، وأبلغت حكام سوريا بما يتعين عليهم أن يقدموه، بصفة سنوية، من أيدٍ عاملة كما قدرت الضرائب على حكام النوبة بالإلكتروم

(مزيج الذهب والفضة. م) والذهب والعاج والأبنوس وقوارب عديدة من خشب الدوم، وتلك هي الحصّة السنوية) (٩). وكانت السلع المطلوبة التي يقدّرها الخبراء مختلفة باختلاف المنتجات الطبيعية التي تنتجها المقاطعات. فكانت سهول "إزدريلون" إلى الشمال الشرقي من "مجدو" تزرع القمح لبلاد الفرعون بينما تخصصت لبنان في إرسال أخشاب الأرز بأطوال تبلغ ٦٠ ذراعاً أي (مائة قدم) إلى الترسانات المصرية لبناء السفن. وكانت الخمور والزيوت تجلب من جنوب فلسطين والرصاص من سوريا والنحاس الأصفر من قبرص. كما ولعت مصر أيضاً بالسلع المصنّعة التي تستطيع ملحقاتها الجديدة أن تصنعها أو تحصل عليها خلال التجارة، فكانت أسلحة الحرب بما في ذلك السيوف والدروع والتروس والأقواس والعربات الحربية ضمن كل حصّة قدرها المصريون على البلاد السورية. وكان المصريون مولعين بشكل خاص بالزهريات الدقيقة النقوش الغالية الأثمان التي كان في وسع سوريا إنتاجها.

ودأب المصريون على إقامة المهرجانات لدى وصول هذه الضرائب والعطايا إلى مصر. وإليك وصفاً لتقديم الضرائب النوبية خلال حكم "أمين - حوتب" الثاني، وهو منقول عن نصب شيدّه "وسر - ساتيت" الذي كان يشغل منصب "المنسوب السامي" هناك:

"تجلى جلّالته في قلب "طيبة" على الملصة الكبرى.. ثم أحضر هذا الجيش ضرائب الأراضي الجنوبية أمام الإله الطيب (أي الفرعون)، وفي نفس الوقت قدمت الحاشية المدائح وحيّا رجال الجيش جلّالته قائلين: جبارة تلك هي قوتك. أيها الإله الطيب، هذه العطايا أكثر من أي جزية قدمتها البلاد الأخرى، فلم تقع عليها عين من قبل، منذ أيام الجدود الذين عاشوا في الزمان القديم! ولكن ذلك حدث في عهدك يا إلهنا!". وعدد أولئك الذين يحملون هذه الضرائب: الذين يحملون الفضة مائتا رجل* والذين يحملون الذهب مائة وخمسون رجلاً والذين يحملون الأحجار الكريمة (حما - جيت)* مائتا رجل، والعاج أربعون رجلاً، والأبنوس ألف رجل، والذين يحملون نوعيات مختلفة من "الأروماتيك" الذكي الرائحة الذي تنتجه البلاد الجنوبية مائتا رجل، والذين يسوقون فهوداً حية عشرة

رجال، والذين أحضروا كلاباً عشرون رجلاً، والذين يسوقون مواشي طويلة القرون وقصيرتها مائتا رجل. ومجموع جملة حاملي هذه الضرائب ٢,٦٥٧ رجلاً.

مصر العالمية

تعد المملكة الحديثة أول فترة في التاريخ المصري منذ المملكة القديمة التي تعرف البلاد فيها أعداداً كبيرة من العبيد الخَـص على امتداد نهر النيل، وكانت هذه الظاهرة الاجتماعية قد نتجت بصورة مباشرة عن غزو البلدان الأجنبية. وكانت المعابد هي المستفيد الأكبر في بداية الأمر. فلقد ألحقت أعداد ضخمة من الأسرى الأجانب بمعبد آمون في البداية وفي أوقات لاحقة بمعابد آلهة أخرى، كما ألحقت أيضاً أعداد غفيرة أخرى بالمعابد الجنائزية لفراغة الأسرة الثامنة عشرة. ولقد أهدى "تحوت - موسي" الثالث ١,٥٨٨ أسيراً سورياً للإله "أمون" ممن أسرهم خلال حملاته الآسيوية، بينما خصّص "تحوت - موسي" الرابع سكان بلدة "جزر" الكنعانية الذين وقعوا في الأسر لخدمة معبده الجنائزي. وإذا كان لنا أن نصدق "أمين - حوتب" الثاني، تكون قواته قد نقلت إلى مصر ٨٩,٦٠٠ أسيراً سورياً كي يوزعوا بين سدنة المعابد (١٠) ولم تكد تمر أربعة أجيال على تأسيس الإمبراطورية حتى وصلت أعداد العبيد الآسيويين في مصر أرقاماً كبيرة إلى حد استطاع معه "أمين - حوتب" الثالث أن يصف معبده الجنائزي بأنه "خاص بالعبيد، ذكوراً وإناثاً، وبأطفال رؤساء البلدان الأجنبية التي وقعت في قبضة جلالته. وأصبحت أعدادهم عصية على الحصر، والمعبد ذاته كان مطوقاً بمستوطنات السوريين".

وإلى جانب أسرى الحرب الذين لم يكن أمامهم بطبيعة الحال أي خيار آخر، شرع الكنعانيون والسوريون، بمحض إرادتهم الحرة، في التدفق على مصر. وكان مجال التجارة جذاباً للغاية، وسرعان ما أصبح التاجر السوري عنصراً ثابتاً في أسواق "منف" وصار المصريون يسمعون لغته السامية الغربية في شوارع المدن الكبرى في الدلتا. وبدأت الكلمات المستعارة من اللغة الكنعانية، وخصوصاً المصطلحات (التجارية) الفنية، تظهر في اللغة المصرية ذاتها. وأصبح التعبير

المصري "يبيع ويشترى بالسوري (أى باللغة السورية) مساوياً، في واقع الأمر للتعبير الآخر: يفصل(١١). وبلغ الأمر حد تخصيص بعض الأحياء فى المدن الأكبر حجماً، لسكانها من الآسيويين (١٢)

وهكذا فإننا نسمع عن مخيم الصوريين (نسبة إلى مدينة "صور". م) في "منف" وقد تركز حول "معبد بعل"، و"بيت بعل وعشتارت" في مدينة "برو - نفر" بالقرب من "منف". وعلى نفس المنوال، وجدت إلهتنا الخصوبة عند الكنعانيين: "عنات" و"قادش" مكاناً لهما على مشارف المجمع الإلهي "البانثيون" المصري. كما تمتع "رشف" إله الحرب الكنعاني بمركز للعبادة في إحدى بقاع الدلتا. ورغم أن وجود هذه الآلهة المعبودة على الأرض المصرية لم يستهدف سوى الوفاء بالحاجات الدينية للمقيمين الجدد من الكنعانيين، إلا أن الآلهة الأجنبية الغربية سرعان ما شكلت عوامل جذب للمصريين أى لأبناء البلاد أنفسهم. فظهرت أسماؤها مكتوبة بالأبجدية الهيروغليفية، وصُبت صفاتها في قالب مصري، بل وترجمت الأساطير المرتبطة بها إلى اللغة المصرية. وقد يكون الوافدون السوريون الأوائل إما تجاراً أو أسرى حرب ولكن الكنعانيين في مصر ترقوا مع أواخر القرن الخامس عشر إلى مراتب أعلى وقاموا بأدوار أسمى. فلقد دخلوا سلك الكهنوت والتحقوا بوظائف مرموقة في القصور، وبين الحين والآخر، في "مكتب للشئون الخارجية"، كما أجبر المصريون كثيراً منهم على الخدمة في الجيش حيث نرى الحراب (رامى الحربة) السوري جنباً إلى جنب مع الحراب الأفريقي الأسود. (شكل ٢-١) وأعطى المصريون في بعض الأحيان الذين تقلدوا منهم مناصب رفيعة أسماء مصرية، كانت في العادة مركبة على اسم الفرعون الحاكم.

وكان البدو الذين يرتحلون مع قطعانهم من الأغنام والماعز بمثابة إحدى طبقات الآسيويين الذين ظل وجودهم في مصر، رغم أنه وجود غير مرغوب فيه، يبرز بين الحين والآخر خلال أيام الطمانينة التي عرفت الإمبراطورية المصرية. إذ استمر كثير من رجال القبائل في "النقب" يضعون نصب أعينهم أن يسوقوا قطعانهم إلى مراعى الدلتا ويصيبوا من الأطعمة الوفيرة التي تنتجها. ولكن حكومة الفرعون سعت إلى إقامة التحصينات في "صايل" Sile الواقعة على مدخل مصر

عبر الطريق القادم من "غزة"، وفي وادي "طميلات" * جنوباً للتحكم في تسلل البدو الرحّل إلى داخل البلاد. وفرضت مصر حصصاً معينة للراغبين في دخول مصر، وقيّدت دخولهم بأيام محددة من كل شهر. ومع ذلك كان لا يزال في الإمكان أن نقابل قبائل كبيرة العدد من البدو الرحّل في الدلتا، يرعون قطعانهم ويحملون معهم أينما حلّوا عاداتهم التي تقاوم التأثير بما حولها. وها هو أحد الآباء يؤدّب ابنه العاق في رسالة "نموذجية" وصلت إلى أيدينا كنص تدرّسه إحدى المدارس في المملكة الحديثة: "تهيم على وجهك مثل عصفور يحمل فراخه الصغار ! حتى وصلت بعد رحلة طويلة إلى الدلتا حيث تختلط بالأسويين وتاكل خبزاً مغموساً بجر دمك" وذلك في إشارة إلى الطقس القبلي المعروف بالتأخي في الدم. (١٣) ويسرق خادم غير أمين شيئاً من مخدمه، وكان ضابط جيش ثم يهرب فقاتل عنه: لقد اكتسب الآن أساليب الشر. فهو يختلط بقبائل "الشاسو" * ويرتدى سمات الأسويين (١٤).

صورة الفرعون

وكان لبدو غريباً حقاً في ضوء التغيرات العميقة التي حدثت في مصر، ألا يلحق صورة الفرعون تغيير ما، هي الأخرى. وحقيقة الأمر أصبح فرعون الإمبراطورية مختلفاً إلى حد بعيد عن أسلافه الأجلاء، الذين جلسوا في "عروش حورس الحي" إبان القرون الماضية. فعلى النقيض من فرعون عصر الأهرامات الذي اتّصف بالصرامة والآنزواء، فلم يكن ليخرج من قصره إلا نادراً، خلقت المملكة الوسيطة صورة الرجل المتين البنيان للفرعون الذي يعتمد على نراعه شخصياً. فكان الفراعنة الذين حملوا اسم "أمين - إم - حات" و"سنوسرت" محاربين أشداء قادوا جيوشهم في ميادين القتال بأنفسهم. وكانوا يكشفون عن أصولهم الإلهية خلال قدرتهم على وضع خطط الحرب المفصلة دون مساعدة من أتباعهم، ثم اقتدارهم على وضعها على موضع التنفيذ في ميادين القتال بقوتهم العضلية.

ولكن هذه الصورة التي كانت للملك كعسكرية إدارية وعسكرية تآكلت عن

آخرها خلال الأسرة الثالثة عشرة وفترة الهكسوس. إلا أنها عادت إلى الانبثاق من جديد مع صعود الأسرة الطيبة الجديدة في الجنوب. وعززت الأوضاع الدولية عودة ذلك المثال إلى الوجود: كان الطيبون يخوضون نضال حياة أو موت ضد الهكسوس. وشكلت فترة العداء طويلة الأمد، حيث انحصرت كافة جهودهم في كسب الحرب، وجهات نظرهم إلى حد عميق. فلا عجب يُذكر -إذن- إذا ما كان الحاكم قد عاد مرة أخرى، مع ظهور الأسرة الثامنة عشرة المظفرة إلى ارتداء مسح الملك المحارب الذي عرفته المملكة الوسيطة. وهكذا استمر المظهر العسكري للملكية، ولكن مع إضافة عنصر هام جديد: صورة الفرعون كبطل رياضي معافي وسليم البنين.

لدينا أدلة على أن "أحمس" غرس وقت ذاك هذا المثال الجسدي للملكية، ولكن جذور هذا المثال قد تعود إلى عادة صيد الأسماك والطيور، التي عرفها ملوك المملكة الحديثة (١٥). ولكننا، نرى لأول مرة، أن الروح الرياضية، تتخلل ثانياً الأدب كـ "موتيف" Motif تام النمو خلال حكم "تحوت-موسي" الثالث. فقصة السمر التي يرويها كاتب البلاط في صيغة المتكلم التي تصف الأعمال الجبارة للملك القوي البنين سواء في ميدان القتال أو ساحة الصيد، كانت قد أصبحت مع هذا الحكم بمثابة نوع أدبي مكتمل. ونقول النقوش التي تعد أحد أقدم الأمثلة على ذلك ونجدها على صنادود "أرمنت" الذي نصبه "تحوت-موسي" الثالث:

هذا تصنيف لأعمال الشجاعة البالغة التي قام بها الإله الطيب أي البطولات المظفرة التي جادت بها يداي. ولكننا لو أحصيناها واحدة واحدة لاستعصى علينا، لكثرتها، أن نسجلها. ولقد اعتاد أن يصوب سهامه (أثناء التدريب) على أهداف من النحاس... والواقع أن جلالتة وضع أحد هذه الأهداف في معبد "أمون" (العرض) وهو عبارة عن سبيكة من النحاس المطروق، يصل سمكها إلى ثلاثة أصابع (قراريط)، وقد انغرز فيها سهمه، بعد أن اخترقها وبرز من الناحية الأخرى لثلاثة أشبار.. وإنني لأصف بصورة دقيقة ما فعله. ولا يوجد، هناك، أي تلفيق على كل حال، فما حدث، حدث والجيش جاضر كله. ولا توجد كلمة واحدة تتطوي

على مبالغة. وعندما يخطف جلالته وقتاً قصيراً للاستجمام والصيد في البلاد الأجنبية فإن عدد الفرائس التي يقنصها يزيد على عدد ما يقنصه سائر أفراد الجيش، ولقد اصطاد سبعة أسود في غضون لحظة واحدة وقنص ١٢ ثوراً في بحر ساعة من الزمن (١٦).

تابع "أمين - حوتب" الثاني "ابن تحوت - موسي" الثالث التقاليد الرياضية للأسرة المالكة واستغلها حتى بلغ بها الذروة وحمل، لذلك، لقب "رجل الأسرة الثامنة عشرة المفتول العضل"، وتكشف موميائه وتماثيله أنه كان، إلى حد كبير، سليل التحامسة: رجل مربع الجسم، يميل إلى القصر، ذو وجه مستدير ممثلي وطفولي وسيماء ملائكية لا تعكس شراسته. ولا يكل ولا يمل في إبلاغنا عبر نقوشه وكتاباتاته أنه ما من أحد في طول المملكة وعرضها يستطيع أن يضارعه في الإتيان بجلال الأعمال في مجالات الصلابة والجلد. لم يكن هناك من يشبهه بين الأعداد الغفيرة التي يضمها الجيش، فليس بينهم من يقدر على جذب وتر قوسه وليس بينهم من يستطيع أن يسبقه في الجري. قوى الساعد كان، حتى أن التعب لا يعتريه أثناء التجديف، ويستطيع أن يجذف في نيل قاربه الصقري الشكل بما يوازي قوة عشرين رجلاً (١٧).

وعلى غرار أبيه، حقق "أمين - حوتب" تفوقاً عالياً في التقويس (رماية السهام)، إلا أن المرء يستشعر في عبارته ما ينم عن رغبة دفينية في التفوق على سلفه: جرب أوتار ٣٠٠ قوس، لدى مقارنته بين أعمال صانعيها، كي يميز بين القوس الكفاء، وغير الكفاء. والآن وبعد أن انتهى من اختبار كفاءة الأقواس على نحو ما أخبرتكم به توأ دخل جنينته الشمالية، فوجد أربعة أهداف منصوبة وكانت مصنوعة من النحاس الأسوي الأصفر، كل هدف منها في سمك النخلة، ويفصل بين كل منها مسافة تصل إلى عشرين ذراعاً (أي ما يزيد قليلاً على ٣٣ قدماً)، ثم تجلّى جلالته على متن عجلته العربية كما لو كان إله الحرب "مونتو" في جبروته. وقبض على قوسه وكبش كبشة من السهام، وانطلق باتجاه الشمال، وهو يُطلق سهامه على كل هدف من الأهداف الأربعة مثل الإله "مونتو". وقد تزي بالشعارات الملكية كالتاج والصولجان، وكانت السهام تخترق أهدافها إلى الناحية الأخرى.. حقا

كان عملاً لم تر عين نظيراً له من قبل، ولم تسمع به أنن حتى في دريشات المساء. أي: سهم يطلق على هدف من النحاس الأصفر، فيخترق السهم الهدف ويسقط على الأرض (١٨).

كان "أمين - حوتب" الثاني أول الفراعنة الذين ولدوا في يسودوا. ففي أعماقه نستطيع أن نرصد وجود روح "إمبراطورية" فطرية خلقية. واحتقاره لأبناء السفاح غير الشرعيين، والأقل شأنًا لا يقل، جلاء، عن زهوه بقوته الجسدية. ومع ذلك فإننا نستشف أيضاً وجود قدر من خفة الدم الجديرة بالثناء. فلقد وصل إلى أيدينا خطاب، تكمن روعته في تحرره من الأسلوب التقليدي المألوف، كان الفرعون قد أرسله إلى المندوب السامي لمصر في النوبة، ونقله هذا المندوب الفاضل الذي نال شرف ثناء فرعونه عليه على حجر فقاوم عوادي الزمن لحسن الحظ. والخطاب مؤرخ في الذكرى العشرين لتتصيب الفرعون (نوفمبر - هاتور ٤٢٨ ق.م) والمكان هو حرم القصر. كان الفرعون - كما يخبرنا النص - يتناول كووس اللبidez، وهو الأمر الذي يفسر بصفة جزئية فحواه. فبعد أن هنا نفسه بمندوبه السامي وهذا المندوب السامي على بطولته كمحارب يتسم بالإخلاص، مضى الفرعون كي يصف نفسه كـ "جزار" أبناء "تهالوين"، وكمن ختم على أقدار الحيثيين، وتملك مدناً عديدة في سوريا، وشبه: باشمئزاز، كل مدينة منها بشكل مجازي، بأنثى: فـ "سانجار" جارية و"بيلوس" خادمة، و"علااخ" صبيّة، و"عربخة" عجوز شمطاء. ويستطرد الفرعون فيقول عن "التاخسانيين":* إنهم لا يتمتعون بأي ميزة على الإطلاق:

"في الواقع لأي شيء تراهم يصلحون؟... لا تدخل في أي تعاملات مع النوبيين، إحذر أبناء النوبة وخصوصاً سحرتهم. افحص ضريبة المزارعين بنظام المشاركة في المحصول. لا تنصت إلى شكواهم ولا تحشر أنفك في شئونهم" (١٩). يصعب على المرء أن يوجه نقداً ما أو حتى نصيحة ما إلى ملك - إله، تحقّق كل خططه وكافة تقديراته في مجال اختبار القوة نجاحات تفوق أكثر الأحلام إيغالا في الخيال. وكم يكون سخيفاً في فم "أمين - حوتب" الثاني أن يطلب المشورة من حاشيته، إلا أنها تعد بمثابة إحدى الصيغ البلاغية التي كانت الكتابة الأدبية

تفتضيها في تلك العصور ! وتلوح نتفة من الاستحالة التي انطوى عليها الأمر، في الظاهر، خلال ذلك النص الذي يصف تعيين "قن - أمون" في وظيفة رئيس مراسم (استقبالات) في منطقة "برو - نفر":

ظهر جلالته على العرش العظيم على المنصة المصنوعة من الإلكترولوم،
وسمح فدخل الأمراء والأتباع في صنفين، كل صف على جانب من جانبيه. ثم قال
جلالته لهم: أرغب في تعيين رئيس استقبالات، يستطيع أن يطمئن إليه فؤادي.
فليتحدث كل شخص بما يعرف، وسوف يقرر الفرعون بما يرى، فقالوا للفرعون
هل يحتاج حورس الذي يستوي على السماء إلى من يقوده ويرشده عبر أجوازها؟
إذا شملت برعايتك أي شخص جهول لا يعرف يعلم أحد "تحتوت" إله الحكمة
كيفية الحديث؟ إذا شملت برعايتك أي شخص جهول لا يعرف شيئاً، فسوف يغدو
في اليوم التالي مباشرة أغزر علماً من أحكم الحكماء. فأنت "رع" ولا يخيب أمر
قُدره جلالته (٢٠).

ألا يكون الفهم المعاصر، وقت ذاك، للملكية قد خلق قدراً من الصور
(الأيقونات) الهشة؟! لقد كانت الأدوار التي فرضت الملكية على الملك وبلاطه
أداءها أشبه بالأدوار المسرحية Opera buffa التي تتسم بضحالة المعنى وضيق
الأفق. وتدعو للضحك. أليكون عرش حورس الحي قد تقلص حتى يناسب مقعدة
فسل تافه يبالغ في إدعاء الرجولة؟

الفصل الثالث

"أمين - حوتب" الثالث، الملك - الشمس

لم تكد أربعون سنة تمر على رحيل الفاتح الأكبر "تحت - موسي" الثالث حتى جلس حفيد حفيده "أمين - حوتب" الثالث على عرش مصر. فكانت ثلاثة أجيال وحسب كافية لجنى قطوف الحلم الذي راود خيال الفراعنة الأوائل للأسرة الثامنة عشرة. وأصبحت مصر القائد غير المنازع للعالم المعروف وقت ذاك، وأخذ رُسُلها يجوبون دون أى عائق، الشرق الأوسط من بابل إلى مملكة الحيثيين وبلاد الميثانيين وقبرص. ورفرت أعلام أساطيلها التجارية دون أدنى تحرش من جانب القراصنة خلال رحلاتها ما بين "بيلوس" (بنت جبيل اللبنانية حالياً. م) و"صور" و"أجاريت" و"كريت" وجزر بحر إيجه. وتدفقت ثروات يعجز عنها الوصف على مصر من مناجم الذهب في بلاد السود والأراضي البعيدة في أواسط أفريقيا. وأخذت الجزية تأتي بصفة سنوية من بلاد الشمال محمولة على ظهور الكنعانيين والحيثيين الذين سكن الرعب أفئدتهم (شكل ٢).

"أمين - حوتب" وعائلته

جنى "أمين - حوتب" الثالث الثمار التي عادت من حملات الغزو التي شنها أسلافه الشجعان. وما كان في طوع ملك يجد نفسه في مثل الظروف التي وجد "أمين - حوتب" الثالث نفسه فيها أن يتردد في أداء دور تحفه الأبهة والمهابة، ولكنه استغل شتى ما وصل إلى يديه من مزايا المكانة وثروة البلاد في صوغ بلاط ومجتمع وذوق فني مما غدا مضرب الأمثال في الأناقة والاتساق. وأصبح "أمين - حوتب" الثالث الملك - الشمس لمصر حقاً وصدقاً. واتخذ كنية "قرص الشمس الباهر". وقبيل نهاية حكمه استهوته كنية "حورس"، دون غيرها، على وجه

الخصوص. وخطرت ذكراه على أذهان الأجيال اللاحقة بصفته "حورس العظيم" و"ملك الملوك" و"حاكم الحكام الذي أرسى دعائم مصر...". ولم تكن هذه الألقاب، على ما قد تبدو عليه من مغالاة بعيدة تماماً عن كبد الحقيقة. فلم تصل مصر التي حكمها "أمين -حوتب" الثالث، في وقت سابق أو لاحق إلى مثل ذلك المركز الذي بلغته مصر من القوة المطلقة في العالم بأسره.

وعلى غرار ما فعل كل الفراعنة لدى تنصيبهم، حمل "أمين -حوتب" الثالث اسماً يتكون من خمسة ألقاب هي:

- ١- حورس، الثور، شديد البأس، الذي يتجلى في شمس الصدق.
- ٢- (محبوب) السيدتين الإلهيتين، حاميتي الوجهين البحري والقبلي، القادر. قاهر الأسويين.
- ٣- حورس الذهبي، سيد الحق، معمر الوجهين القبلي والبحري.
- ٤- ملك الأرضين. "تيب -ماعت -رع".
- ٥- ابن رع. "أمين -حوتب" حاكم طيبة.

وكان هذا الاسم الخماسي ليظهر في كافة البلاغات الرسمية للفرعون، ولكن الأنداد والوجهاء المقربين كان في طوعهم أن ينادوه باسمه الأول، دون كلفة، "تيب -ماعت -رع" (وكان ينطقه أهل ذلك الزمان هكذا: "تيم - ماعت رع"*) (أي بإدغام النون في الميم. م)

ويبدو أن "أمين -حوتب" تزوج في بداية حكمه، ولم يكن قد تجاوز وقت ذاك العشرين من عمره، فتاة في ميعه الصبا. ويبدو من المستبعد أن يكون هذا الزواج قد تم في حياة والده، أو أن يكون رجال البلاط التقليديون قد رتبوا زواجا من هذا النوع بفتاة من عامة الشعب. بل كان الملك الشاب هو الذي اختارها بالذات: فتاة تسمى "تي" * من إحدى قرى مصر الوسطى، وابنة شخص أجنبي يدعى "يوياء" نزع إلى مصر، ووصل إلى منصب قائد سلاح العجلات الحربية برتبة فريق بالقوات المسلحة المصرية، كما شغل أيضاً وظيفة مرموقة في معبد الإله "مين" * في "أخميم" (١) ورغم أن "تي" هذه لم تكن سليلة البيت الملكي، إلا أنها أصبحت "الزوجة الملكية الرئيسية" (أي رئيسة جميع زوجات الفرعون) كما حازت في يديها

سلطة واسعة في تسيير شئون المملكة. ورغم أن الألقاب التي حملتها "تي" كانت تقليدية بصفة جزئية، إلا أنها تشي بمكانتها الرفيعة: "الوريثة، الحسنة الصيت سيدة كل البلاد التي ترعى إخلاصها للملك، سيدة البهجة، سيدة الوجهين القبلي والبحري، سيدة الأرضين". ويعكس إعلان زواج الشابين (أو ما يسمى بجعران الزواج) معنى أن تتزوج شابة صغيرة من ملك الملوك المعظم: زوجة الفرعون العظيم، اسم والدها "يوي"، واسم والدتها "تويا"، وهى زوجة الفرعون الشديد البأس الذي تقع حدوده الجنوبية عند "كروى" (في أواسط السودان حالياً) والشمالية في "نهارين" (بشمال غرب العراق حالياً) (٢).

ولم يخل هذا الاقتران المبكر بـ"تي"، رغم أنه كان قائماً على وجه الترحيح، على الحب المتبادل، دون "أمين - حوتب" والارتباط بعلاقات أخرى. فإلى جانب محظياته المصريات العديداً، تزوج "أمين - حوتب" هذا فيما هو معروف عنه، بأميرتين سوريتين، وآخرين من "ميتانى" ومثلها من بابل بالإضافة إلى أميرة أخرى من "أروازا" (في جنوب غرب آسيا الصغرى). وإستمرت السيدات تصل وسط أبهة زائدة طوال حكمه. ولقد حضرت إحدى الأميرتين الميتانيتين اللتين تزوجهما في السنة العاشرة لتتصيه، وكانت تسمى "جيلو - خيبا"، ابنة الملك الميتانى "شوتارنا" الثاني وفي صحبتها ٣١٧ وصيفة. وتمثل الطلب الدائم الذي يطلبه هذا الفرعون من حكام الولايات في إرسال المزيد والمزيد من (الخادومات) ولقد كتب "أمين - حوتب" يقول في أحد الأوامر التي حفظها لنا التاريخ، والصدرة إلى أمير "جزر" (جنوبي الطريق الرئيسي الذي يربط القدس بتل أبيب في إسرائيل الحديثة) يقول:

أرسلت لك هذه الرسالة كي أخبرك أنني أبعث إليك الكولونيل (البكباشى) "خانايا" ومعه طلب: أن يعود ومعه سيدات فائقات الجمال وقضة وذهب وملابس، وأحجار كريمة متعددة، ومقعد من الأبنوس، وأدوات متنوعة أخرى قيمتها الإجمالية ١٦٠ دينين*، وإجمالى عدد السيدات ٤٠ سيدة تصل تكلفة كل منها ٤٠ قطعة من القضة. وبناء عليه أرسل أجمل السيدات، ليس بينهم من تسرع بصوت مشروخ. وعندئذ سوف يقول لك الملك سيدك: هذا حسن". إليك أرسل الحياة. ولك

أن تعرف أن الملك بصحة جيدة، مثل الشمس -الإله، وأن قواته وعجلاته الحربية بحالة جيدة للغاية في واقع الأمر، لأن "أمون" وضع الوجهين القبلي والبحري والشروق والغروب تحت قدميه (٣).

وعندما طلب الملوك الأجانب، مع ذلك، أن يتزوجوا من أميرات مصريات، لم يجابوا إلى طلبهم، ليس بسبب الخوف (كما أشار البعض) الذي يضمّره المصريون في صدورهم من الموت خارج بلادهم، بل نتيجة للخيلاء السياسي وحده. فعندما طلب ملك بابل يد ابنة فرعون مصر، لم يثلق سوى هذا الرد المقتضب: "منذ القدم لم يزوج فرعون مصري ابنته خارج مصر". وذهب احتجاج الملك البابلي على ذلك أراج الرياح: لماذا تتحدث على هذا النحو؟ أنت ملك وتسنطيع أن تفعل ما تشاء.. إذا راقبت في عينيك أي امرأة (مصرية بطبيعة الحال. م) فأرسلها، فمن ذا الذي يستطيع أن يقول عندئذ (ما دامت جميلة) أنها ليست ابنة الفرعون" (٤)، ومع ذلك لم يرسل فرعون مصر أي امرأة.

وبينما عج القصر الملكي بالبنات والبنين الذين نتجوا عن زيجات "أمين -حوتب" الثالث المتعددة، لم يقف في طابور ورثة العرش منهم سوى ستة وحسب، ولدان وأربع بنات، من الزوجة الملكية الرئيسية "تي" (٥). ويبدو أن ابنته الكبرى "سات - أمون" حظيت منه بمحبة خاصة، جعلته يرفعها، لدى بلوغها، إلى مرتبة الزوجة الملكية الرئيسية، أسوة بوالدتها. أما الابن الأكبر الذي وقف في طابور الورثة فكان يسمى "تحوت - موسى" على اسم جده، واتخذ مقر إقامته في "منف" ككاهن رفيع الشأن في معبد الإله "بتاح" على غرار ما كان يفعل معظم أولياء العهد في الأسرة الثامنة عشرة. أما الابن الثاني الذي ولد على سبيل الترجيح قبيل بداية العقد الثالث لحكم والده (نحو ١٣٨٥ ق.م) فلقد أطلق عليه اسم "أمين -حوتب" على اسم والده.

"أمين -حوتب" الرجل القوى البنيان

شب وترعرع "أمين -حوتب" الثالث في بلاط كان الفرعون يعد فيه -كما سبق ورأينا -بالقيام بدور الرجل الرياضي العظيم والمحارب شديد البأس. وخلال السنوات الأولى لحكم الفرعون - الشمس ارتفع إلى مستوى الوفاء بالوعود التي توقعها منه المصريون. ففي عنفوان شبابه، امتلك خزنة هائلة وقوة بدنية وجاذبية خلبت، كلها، ألباب المحيطين به. فانطلق يبنى أسطورة فائقة في مجال الصيد. وفي السنة الثانية لحكمه:

جاءوا كي يبلغوا جلالته: هناك ثيران برية تجوب الصحراء في أعالي إقليم "ثات -ميرو". فأبحر جلالته في سفينته "المتجلية في الصدق" وكان ذلك في المساء. مخرت السفينة العباب في مسار طيب ووصلت بالسلامة إلى إقليم "ثات - ميرو" عند الفجر. وظهر جلالته على متن عجلته الحربية، وخلفه سار جيشه كله. الضباط والرجال المجنون في الجيش كله، بالإضافة إلى الذين انخرطوا حديثاً في خدمة الجيش، جميعهم كلفوا بمراقبة تلك الثيران البرية ويا للعجب! أمر جلالته أن تجمع ما بين حائط وخندق أى في فناء محصور؛ ثم تقدم جلالته بجو الثيران البرية. وكان عددها يصل إلى ١٧٠ ثوراً برياً. وقد بلغ عدد الثيران البرية التي اصطادها جلالته في ذلك اليوم ٥٥ ثوراً برياً..

وتلك قصة مماثلة لقصص أخرى حول صيد الفرعون لحيوانات برية: "بلغ عدد الأسود التي قنصها جلالته بقوسه الشخصي خلال الفترة، من السنة الأولى لحكمه حتى السنة العاشرة ١٠٢ أسداً مفترساً" (١).

كان ذلك أسهل قليلاً على "أمين -حوتب" الثالث من اصطاد فرصة كي يرتدى فيها زي القتال ويقوم بدور المحارب - المقاتل "بحق وحقيق". وكانت القوة الأسطورية لمصر، التي ترددت أصداؤها في سائر أركان الدنيا وقت ذاك، كافية لقطع الطريق على أى غزو يأتي من خارج الحدود، وبالعودة بأي محاولة للتمرد في ولايات الإمبراطورية. ومن ثم لم ينطو الأمر على كثير من الفطنة، عندما رأى

مستشارو جلالته في اضطراب ثانوي وقع في منطقة "إيهات" السودانية في السنة الخامسة، الشهر الثالث، اليوم الثاني مسوغاً لدخول الجيش إلى المنطقة، التي لم تكن سوى ولاية بعيدة تقع جنوبي الشلال الثاني، لا تزال حتى يومنا هذا "شبه متحصرة" واعتاد أبناؤها، فيما يبدو، على الإغارة على المستوطنات المصرية في المقاطعات الجنوبية. وعندئذ تعين أن تلقن درساً. وتولى المندوب السامي التابع لفرعون مصر في السودان "ميرى -موسي" قيادة العملية العسكرية. وما أنقذ أنقل عن "الصادود" الرسمي الذي أقامه في هذا الشأن عند "سمنة": "عندما حان أوان الحصاد بالنسبة لأولئك الأوغاد أبناء "إيهات" الساقطين مضى كل منهم وحبله على الغارب. ثم كان جيش الفرعون، بقيادة مندوبه السامي، الذي اصطف للقتال وشكل سراياه. كل مقاتل مع أبناء قريته بدءاً من حصن "باكي" حتى حصن "تاروي" * في أقصى (الشمال) وهي مسافة ترقى إلى اثنين وخمسين "إتر" * عن طريق البحر. وظفر بهم الفرعون "نوب" ملعت رعباً بزعامة المفتول في غضون يوم واحد بل في بحر ساعة واحدة، ونزلت بالعدو منبحة مريضة، وأخذت كل أطفالهم وزوجاتهم وماشيتهن دون أن يتمكن أي منهم من الفرار.. ولكن عندما نحصى القتلى والأسرى بين صفوف العدو يستطيع المرء أن يرى أي عاصفة في فئجان كانت المسألة كلها في حقيقة الأمر: حجم الغنائم التي عاد بها جلالته من أعالي "إيهات" اللثيمة: نوبيون أحياء: ٥٠ فرداً، محاربون مناوشون: ١١٠ ، نوبيات: ٢٥٠ ، خدم للنوبيين: ٥٥ خادماً ١٧٥ طفلاً بإجمالي: ٧٤٠ شخصاً، بالإضافة إلى ٣١٢ يد (أي قتلى) : أضيفت إلى الأحياء (أي أن الرقم الإجمالي ألف و٥٢ شخصاً بين قتيل وأسير على قيد الحياة) (٧).

رغم الطبيعة المتواضعة التي لا يُعتد بها لهذه العملية البوليسية، إلا أن السجلات الرسمية نفختها إلى كل الأبعاد الممكنة، إذ أقيمت صوايد التمجيد في "بوهين" و"سمنة" وعلى جزيرة "ساي" تخليداً لذكرى انتصار الفرعون. وفي طريق العودة، وبعد أن مر الجيش على أسوان في مسيرته شمالاً، نحت ثلاثة صوايد ضخمة تحمل عبارات طنانة سميت "صوايد النصر" في الصخور واستُطِبق "أمون" على أحد هذه الصوايد كي يقول: مرحباً يا بنى المحبوب وقد عاد السلام.

ولقد ملأ السرور قلبي لرؤية انتصاراتك والمدى الذي بلغه صيتك حتى غمر البلاد الأجنبية ! لقد أعطيتك الجنوبيين كعبيد لك، وقدّرت على الشماليين أن يركعوا لاسمك.."(٨)... إلخ. ولقد عاشت أصداء هذا الحدث نحو ١٨٠٠ سنة، ففي القرن الرابع الميلادي، كان لا يزال في وسع "ايسيبوس" أن يكتب عن حمل الأثيوبيين - أى السود - عنوة في السنة الخامسة من حكم أحد الملوك الذي عرفوا باسم "أمين - حوتب" إلى مصر !

"أمين - حوتب" الدبلوماسي

لم تكن مصر مع ذلك بحاجة خلال حكم "أمين - حوتب" الثالث إلى خوض أى حرب من الجروب. إذ كانت دبلوماسيتها العالمية تنطلق من موقع القوة الذي حازته، وكانت إرادتها توضع موضع التنفيذ خلال الإقناع والعطايا الدبلوماسية والزيجات أو التهديد المقتنع. فكانت حقبة "السلام المصري" Pax Egyptiaca قد بلغت وقت ذاك ذروتها.

يظن كثيرون أن تصنيف الأمم ما بين "قوى عظمى"، وقوى من الدرجة الثانية وأخرى دول "عالم ثالث" مخترع بمصطلحاته هذه في قرننا العشرين، ولكنه، في الحقيقة، قديم قدم الإنسان المتحضر ذاته ! فكان "العموريون" (٩)، مثلاً، الذين برزوا على المسرح سياسياً وثقافياً بعد سنة ٢٠٠٠ ق.م. بوقت قصير، على درجة عالية من الوعي بتراثهم القبلي، وكانوا يقفون على دقائق الفروق بين التسديد السياسي والتبعية والخضوع. وكان نسقهم الدبلوماسي الدولي يقوم على نموذج أبوي بسيط، ولكن هذا النسق استمر قائماً خلال العالم القديم حتى وصول "شعوب البحر" * وكان هناك "ملوك عظام" وآخرون أقل عظمتهم. بين الحكام الذين تمتعوا بالحرية والاستقلال، إلا أن عدد الملوك العظام، الذين يتساوون في الدرجة، كان محدوداً للغاية. وكانوا يميلون إلى التزاوج فيما بينهم ورغم عدم التزام أى منهم بشيء تجاه أنداده أولئك، إلا أن أعرافاً صارمة، ولو أنها غير مكتوبة، كانت

تحكم العلاقات بين هؤلاء الملوك، وإذا كانت مثل تلك العلاقات وطيدة بشكل خاص، كأن تنطوي على تزواج، أو "مشاركة" في الممتلكات، أو وجود معاهدة ثنائية، فإن الملكين المعنيين يقال لهما "شقيقان" وعندئذ كان العرف السائد يقضى بتبادل الهدايا بصفة منتظمة وعن رغبة طوعية على الأقل في الظاهر، وهى هدايا اكتسبت في بعض الأوقات أبعاد نوع من اقتصاد "منح الهدايا" قائم على مفردات الرفاهية (١٠). وكان تبادل الرسائل بصفة منتظمة مطلوباً كذلك، واستتبع ذلك خلق أسلوب مزخرف في كتابة الرسائل، غير قابل للتغيير وإلا أدى ذلك إلى استياء شديد.

وكان الملوك "الأقل عظمة" يرتبطون في غالب الأحيان بعلاقات تبعية مع الملوك العظام، وكانت هذه العلاقات تفصح عن نفسها خلال مصطلحات البنية: إذ كان الملك الأقل عظمة "ابن" ومولاه "أبا" له. وبالتالي كان التأخي أو التزواج بينهما مستحيلاً تماماً، بل ولم يكن في طوع "الملك التابع" أن يدخل في أى علاقة مع الملوك الآخرين بدون موافقة مولاه. وكانت هناك معاهدة تربط الملك الأقل شأنًا بـ "أبيه" تفصل الالتزامات الواجبة على الأول، من ضرائب وحقوق تجارية وإرسال قوات للانضمام لجيش مولاه.

عرف عالم "أمين - حوتب" الثالث أقل من نصف دسنة من الملوك العظام، وكان هو على رأسهم. حقا كان ملك "بابل" يفخر أيضا بمملكة عظمى، مثله فى ذلك مثل ملك "ميتاني"، ولكن أيا منهما لم يكن فى حقيقة الأمر ليصل إلى مكانة الفرعون. وعلى هامش هذه المكانة حام حاكم مملكة الحيثيين فى آسيا الصغرى. فلم يكن ملكا عظيما إلا بفضل انتصار أسلافه على "حلب" و"بابل" فى القرن السادس عشر قبل الميلاد، ولكنه لم يكن قد انضم بعد - لا هو ولا ملكا قبرص وكريت - إلى المجرى الرئيسى للسياسة الدولية وقت ذاك. وتتضح طبيعة العلاقات التى أقامها "أمين - حوتب" الثالث مع كل تلك الممالك فى ملفات الرسائل التى نجت لحسن الحظ من عوادي الزمن فى أرشيف حكمه. وتلك تعد مصدرا يكفل لنا إلقاء نظرة عليه وعلى "أشقائه الملوك"، قد تكون أكثر قربا وحمية مما نستطيعه حتى مع المعاصرين.

تزوج "أمين - حوتب" الثالث أميرتين بابليتين على الأقل، تكشف رسائل شقيق إحداهما ويدعى "كاداشمان - إنليل" أنه كان عجوزاً نزقاً، وشكاً ولوعاً الفصال". إلا أن كل شكايه لم تكن، على ما يبدو، دون أساس. ففي إحدى المرات تغاضى "أمين - حوتب" الثالث عن أن يبعث رسالة "شد- حيل" أثناء مرض "كاداشمان - إنليل". وفي مرة أخرى تأخر في الرد على خطاب له لست سنوات ! (ويشير نفس المصدر إلى أن ملك "بابل"، وكان سليل عائلة ترجع أصولها إلى الكاسانيين من سكان جبال "زاجروس" في غرب إيران) قد وافق على تزويج ابنته للفرعون "أمين - حوتب" الثالث، ولكنه طالب أولاً بإرسال شحنة من الذهب، لقصوره كان يبنيه وقت ذاك:

"أما بخصوص الذهب الذي كتبت لك عنه، فأرسل كميات كبيرة منه، كبيرة قدر الإمكان. والآن وعلى وجه السرعة، حتى قبل أن يصلني الرسول الذي يحمل ردك.. كي أتمكن من مواصلة العمل الذي أخذته على عاتقي. حتى لو كان الوقت وقت حصاد؛ أرسل الذهب الذي طلبت منك أن ترسله. وعندئذ سوف أعطيك ابنتي. ولكن إذا لم تبعث الذهب، فإنني لن أستطيع مواصلة العمل الذي أقوم به؛ لماذا تريد أن ترسل كل شيء في موعد لاحق؟ وإذا ما فرغت من العمل الذي أقوم به، فلماذا أريد الذهب عندئذ، فحتى لو أرسلت عندئذ ثلاثة آلاف "تالنت" من الذهب، فإنني لن أقبلها ولكنني سوف أردّها كما أنني لن أرسل ابنتي كزوجة لك.."(١١).

واقع الأمر أن المفاوضات حول إتمام هذا الزواج ارتدت أبعاد عالمي. ففي رسالة أخرى يحتج على صهره المصري على هذا النحو: حقاً أنت تريد الزواج من ابنتي، ولكن أختي التي أعطاها لك والذي لا تزال هناك معك.. ولم يرها أحد في الآونة الأخيرة، كما لم يعرف أحد ما إذا كانت لا تزال على قيد الحياة أم وافاها الأجل. ولقد خاطبت رسلي إليك في حضور زوجاتك اللواتي كن مجتمعات وقوفاً بين يديك: هذه هي سيديكم أمام أعينكم، ولكن رسلي لم يتعرفوا عليها. هل كانت حقاً أختي تلك التي تشبهها؟" (١٢).

في السنة العاشرة لحكم "أمين - حوتب" الثالث تزوج "جيلوخييا" ابنة

"توتارنا" الثاني ملك "ميتاني". وبعد مرور نحو ست سنوات استولى "توتارنا" شقيق "جبلو - خيبا" على العرش في ظروف غامضة، وسرعان ما شرع في إقامة علاقات طيبة مع صهره. وحقق في ذلك نجاحا فائقا. فلم تصل العلاقة بين "أمين - حوتب" الثالث وبين أي ملك عظيم آخر درجة القرب والحميمية التي بلغتها علاقته مع "توتارنا". وقد تنطوى رسائله على إطناب وإسهاب، وقد تكون مفعمة بتودد قد يهبط أحيانا إلى التزلف، إلا أنها كانت باستمرار أكثر لباقة من رسائل نظيره البابلي:

إلى "نيم - ماعت - رع" الملك العظيم، أتحدث كما يلي، هكذا يقول توتارنا" (؟) الملك العظيم حموك الذي يحبك، ملك "ميتاني" أخوك. كل شيء يسير على ما يرام معي. وأتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام معك ومع بيتك، وأختي وزوجاتك الأخريات، ومع أولادك ومع عجلاتك الحربية وخيولك وقواتك المسلحة، وأراضيك وكل ممتلكاتك، أتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام، على ما يرام تماما معها. لقد حرص أسلافك، خلال حكمهم على الاحتفاظ بعلاقات ودية للغاية مع جدودي. والآن لما كنا أنت وأنا نتمتع بعلاقات ودية متبادلة، فلقد ضاعفتها عشرة أضعاف عما تمتع به والدي.. وعندما أرسل "شقيقي" رسوله "ماني" مع رسالة "شقيقي" الشفوية: أرسل لبيتك كي أتزوج منها وتصبح سيدة لمصر.. ولعل "ماني" يقودها بالسلامة إلى بلاد "شقيقي" ولعل "عشتار"، و"أمون" يجعلانها ترتفع إلى مستوى رغبة "شقيقي".

و عود على بدء يعود إلى القول: "... فليرسل لي "شقيقي" كميات ضخمة من الذهب، ودون حساب، لأن الذهب في بلاد "شقيقي" غزير كالتراب.. ولا تدع الذهب الذي أطلبه يدخل القنوط في قلب "شقيقي" وبضيف: لقد أكرمت وفادة "ماني" رسول "شقيقي" وكل الحراس العسكريين الذين أرسلهم "شقيقي" مع "ماني"... وعندما يعود "ماني" يستطيع "شقيقي" أن يسأله، عما إذا لم أكن قد أسبغت عليه كرمًا عظيمًا عظيمًا. وسوف يخبر "شقيقي" وسوف يسمع "شقيقي" من فمه ما فعلته وسوف أقوم بوضع رغبات "شقيقي" موضع التنفيذ إلى الأبد!. تماما كما

يحب البشر الشمس، فليقدر لنا الإلهة أن يحب كل منا الآخر من شغاف
قلبه إلى أبد الأبدِين" (١٣) .

"أمين - حوتب" الناشر

قاد الوعي الذي لاح منذ مطلع حكم "أمين - حوتب" الثالث بضرورة
التفرد، إلى نشوء نوع جديد من الوثائق يهدف إلى نشر المعلومات، وهو النوع
الذي تمثل في "الجعران التاريخي". حقاً استخدم الفراعنة المصريون في وقت سابق
أو في أوقات لاحقة خاتم الجعران بين الحين والآخر كوسيلة لتخليد مشروع بناء
ضخم أو نصر مؤزر أو الدعاية لأي منهما، ولكن "أمين - حوتب" الثالث دفع هذا
النوع من الاستخدام إلى مرحلته العليا من التطور. ولقد نشر بين الحين والآخر
سلسلة من الجعارين التي نقش عليها سجلاً موجزاً لهذا الحدث الخاص أو ذاك،
وذلك بهدف وضع بيان، على ما يبدو، بالأحداث التي وقعت في عهده، لكل من
معاصريه والأجيال المقبلة على حد سواء . وفي هذا الإطار صدرت عشرات
وربما مئات الأعداد (الجعارين)، ووُزعت في مختلف المقاطعات وأُرسلت إلى
الحكام الأجانب. واليوم يملك كل متحف من متاحف العالم تقريباً عدداً من النماذج
لكل عدد من الأعداد الستة أو السبعة المعروفة. وبهذه الطريقة استطاع الفرعون أن
ينشر، بأساليب تقترب من مناهج وسيلة الإعلام الحديثة، أخبار الأشغال والأعمال
العامة التي جرت إبان حكمه. وهكذا نما إلينا نبأ زواجه من "تي" و"جبلو- خيبا"
وخروجه المرة تلو المرة لصيد الثيران البرية والأسود المفترسة، ونشأه خزاناً
للري بإسم "تي"، وبنائه معبداً للإله "خبري" إلخ.

إلا أن الولوج بإصدار جعارين تذكارية فتر وتوقف قبيل نهاية حكمه. ولكن
المآثر المقدسة للفرعون استمرت في الانتشار خارج البلاد. إذ واصلت النقوش
على الصروح وعلى الصوايد وعلى جوانب الصخور الطبيعية إرسالها إلى خارج
البلاد لأصداء الأعمال التي يقوم بها ذلك الكائن الخارق. وفي هذه المرة اعتمدت
المبالغة التي يحملها نص ملكي مصري على مسوغ ما: *ترعجياً، اغتبط قلب جلالته*

بتشييد آثار جليظة للغاية، لم تقع عين على أى نظير لها منذ الأزمنة السحيقة للأرضيين" (١٤).

"أمين - حوتب" البناء

شهد حكم "أمين - حوتب" الثالث أول طفرة كبرى في عمليات التشييد عرفتھا الأسرة الثامنة عشرة. ولقد ملكت الغيرة قلب رمسيس الأكبر، بعد مرور قرن من الزمان، أمام الأبنية الهائلة التي شيدها "أمين - حوتب" الثالث، وبعد مرور ألف سنة ظن اليونانيون أن تماثيله العملاقة ليست سوى صور متجسدة لبطلهم القومي المعروف باسم "ممنون".

بدأ وضع برنامج التشييد موضع التنفيذ منذ السنة الثانية لحكم الفرعون العظيم: "أمر جلالته بفتح محاجر جديدة لجلب الحجر الجيري الفخم، لتشييد الأبنية التي ستعيش لملايين السنين، وذلك بعد أن رأى جلالته أن الأبنية اعترى حالتها السوء منذ الأزمنة القديمة. ولم يكن هناك سوى جلالته الذي بدأ عمليات التجديد" (١٥). وسرعان ما دب ديبب العمل والتشييد في سائر أرجاء البلاد. وشهدت السنة الثانية من حكمه بناء معبد للإله "تحوت" في الأشمونين، وعلى أثره بنى عدد آخر من المعابد، في جزيرة "إلفانتين" للإله "خنوم" * وفي "أسيوط" والكاب (نخبيت) *. كما انتصب معبد هائل يحمل اسم "قلعة نيب - ماعت رع" في "منف" حيث يتخذ الفرعون مقره، وحيث تتركز عبادته إلى جانب عبادة الإله "بتاح". وفي نفس الوقت لم يلحق الإهمال المقاطعات، فانتصب مزار رائع، منذور للفرعون "نيب - ماعت رع - إله النوبة" أى الملك بصفة إليها قمريا محليا، في موقع نوبي يدعى "صوليب" بالإضافة إلى مزارين آخرين في موقعين قريبين هما "سادينجا" للملكة "تي" و"وادي السبع".

ولكن الدليل الأقوى على برنامج التشييد الذي وضعه "أمين - حوتب" موجود اليوم وحسب في ثنايا أنقاض "طيبة". ورغم أن هذه المدينة شهدت مسقط رأسه، على وجه الاحتمال، إلا أنه أقام، مثله في ذلك مثل معظم أسلافه، في

العاصمة الكبرى لمصر أى في "منف" في الشمال قرب رأس الدلتا. وقد ظل يقيم هناك حتى السنة العشرين من حكمه، ولكنه قرر، في أواخر العقد الثالث لحكمه، كما يبدو، أن ينقل بلاطه إلى المدينة الجنوبية: "طيبة". شهدت السنوات العشر الأخيرة من حكمه تنفيذ برنامج تشييد موسع بالإضافة إلى تجميل المقر الجنوبي الجديد للحكم. وانتصب معبد جنازتي ضخم، يقف أمام واجهته تماثيل هائلان للفرعون، يصلان في الطول سبعين قدما، وسط السهول المنبسطة غربي "طيبة" كي يضم الشعائر الجنائزية لروح الفرعون إلى أبد الأبد. وعلى بعد نحو كيلو متر واحد إلى الجنوب خطط مهندسو الفرعون لإنشاء حوض -مرفأ ترسو فيه السفن التجارية، بعد شقه في طرح النهر، وربطه بقناة خاصة بالنيل، وعلى الجانب الغربي لهذا الحوض تقوم أرصفة إصلاح السفن والمخازن بالإضافة إلى مستوطنة وقصر ضخم مؤقت أقيم على وجه السرعة لرجال البلاط. وكان مشيدا من الطوب الأخضر (النبي) والخشب ومواد خفيفة أخرى، وعندما انتهى البناءون من استكمال المجمع بلغ طول ضلعه الشرقي - الغربي نحو ٤٠٠ متر وضلعه الشمالي - الجنوبي ٦٥٠ مترا. وضم المجمع قصرا للفرعون وأجنحة لزوجاته، وقاعة لاستقبال الجمهور، تحتوى أقساما خاصة، كما يضم قصرا كذلك للملكة "تي" وعددا من "الفلل" لكبار المسؤولين ومسكن للخدم، ومعبد للإله "أمون". ورغم الألوان الزاهية، إلا أن الشكل العام كان يترك، دون شك، إنطباعا غير مريح على نحو طفيف، عند الناظر بسبب ما يبدو عليه من عدم تناسق إن لم نقل من هيئة بائسة أو "شرك" (١٦).

وعلى النقيض من ذلك كانت "بيوت الإله" التي شيدها الفرعون على الضفة الشرقية للنيل، نماذج للتصميم الفائق التنسيق في ضوء أفضل التقاليد التي تعرف باسم الطراز الاحتفالي للمعابد. وكان الحجر الرملي هو الذي وقع عليه اختيار بنائي المعابد الجديدة التي اتسمت بالروعة والفخامة لإله الحرب "مونتو" إلى الشمال، والإلهة "موت" الإلهة الأم إلى الجنوب من معبد الكرنك. وكان نفس الحجر هو الذي استخدمه البناعون في تشييد ذلك المعبد الجميل للإله "أمون" في "أوبت" الجنوبية (الأقصر الآن) على بعد نحو ثلاثة كيلو مترات جنوبي الكرنك على ضفة

النيل. ويبدو من المرجح أن يكون الفرعون "أمين - حوتب" الثالث، (أو مهندسوه المعماريون)، هو الذي تصور إمكانية ربط مجموعة المستوطنات المتناثرة التي تشكل طيبة القديمة في وحدة عضوية عن طريق شق عدة طرق تحفها كباش أبو الهول على الجانبين. وكانت تلك الطرق تنتهي بطبيعة الحال، عند المعابد وقدمت نقطة وصول ملائمة حيث يتعين إقامة صروح عملاقة. وكان ذلك يعنى مع معبد "أمون" الهائل الحجم مواجهة الطرفين الغربي والجنوبي لمحوري المعبد، بمدخلين أشبه بحصنين. وقام الفرعون "أمين - حوتب" الثالث بإزالة خليط متنوع من المزارات الصغيرة، واستراحات الطرق والصوايد، التي تضرب في القدم إلى المملكة الوسيطة وكانت تقف فيما مضى بين صرح "تحوت - موسي" الأول (وهو الآن الصرح الرابع) وبين رصيف المرفأ. واستخدم كم الحجارة، الذي نتج عن هدم كل الأبنية القديمة كمواد حشو في الصرح الجديد. وهذا الصرح، الذي أصبح الآن الصرح الثالث، وقف أمام الصرح الأقدم لـ "تحوت - موسي" الأول، وقصد من ورائه أن يمثل الواجهة الأخيرة للمعبد، ولكي يحول دون أى خلف والتفكير في تشييد أى مبنى آخر إلى الغرب، شق الفرعون قناة وحوضاً لتحويل اتجاه السفن أمام البوابة العملاقة، (ولعل من المفارقات أن هذا المكان بالذات بُنى فيه - ولم يكد تمر أكثر من سبعين سنة وحسب - قاعة مسقوفة ضخمة لمعبد الكرنك "الحديث"، حُجبت إلى الأبد الصرح الهائل الذي بناه "أمين - حوتب" الثالث. ولكن التداعي التدريجي لهذا الصرح أدى إلى عودة الكتل المنقوشة والصور البارزة المحطمة الأوصال، للأبنية الأسبق التي كانت تتكون منها يوماً ما، مرة أخرى، إلى النور). وإلى الجنوب من معبد "أمون" أقام "أمين - حوتب" الثالث صرحاً آخر، وإن كان أصغر حجماً، يواجه حرم معبد الإلهة الأم "موت"، كما نصب تمثالين عملاقين، لشخصه واقفاً على جانبي هذه الواجهة الخارجية. ولكن الفرعون لم يزيّن هذا الصرح (بعد بشيراً بالصرح العاشر السدي شيد في وقت لاحق) فلقد هُدم قبيل نهاية القرن وحل محله صرح آخر. ولم يتبق من أطلال هذين التمثالين العملاقين المهشمين الآن في ذلك المكان سوى قدم واحد ضخم (١٧).

كان إنفاق الثروة الذي يمثله كل ذلك التشييد ضخماً بصورة غير عادية.
والأرقام المسجلة للمعادن والأحجار الكريمة التي دخلت في بناء معبد إله الحرب
"مونثو" تصيب المرء حقاً بالذهول:

٢٥, ٣ طنناً من الإلكتروم.

٢٥, ٢ طنناً من الذهب.

١٠, ٢٥٠ رطلاً من اللازورد.

٢١٥ رطلاً من الفيروز.

١, ٥ طنناً من البرونز.

١٠ أطنان (ويزيد) من النحاس الأحمر المطروق.

وتلك لم تكن سوى بعض ما درّه الاستثمار في بناء إمبراطورية على

مصر!

لا يسير امتلاك ثروة لا حدود لها والاستعداد لإنفاقها، بصفة دائمة، جنباً إلى
جنب مع تملك ذوق رفيع. ولكن في حالة هذا الفرعون كان وجود ذوق سليم أمراً
لا جدال فيه. فالفنانون يكتشفون، في عهده، عن سيطرة راسخة القدم وكاملة على
لدواتهم سواء في مجال المعمار الضخم الأبعاد أو التصوير أو الرسوم الجدارية أو
فيما دون ذلك من فنون، سيطرة لم تعرف شبيهاً مرة أخرى طوال الألف
 وخمسمائة سنة التي عاشتها بعد ذلك الثقافة المصرية في ظل الفراعنة. فالرهافة
والأبعاد المتوازنة للأعمدة البردية للتيجان في معبد الأقصر، والفخامة
والجلال اللذان يكتنفان تمثالي "ممون"، معاً، تبعث الرهبة التي تبهر الأنفاس أمام
المهارة الفائقة والخيال الواسع فضلاً عن المدى الذي بلغه طموح كل من الفنان
وراعيه في آن واحد. وإذا كان "أمين سحوتب" الثالث قد وضع شخصياً معيار
التقييم الجمالي، فإن بلاطه لم يتخلف كثيراً عنه في هذا السبيل. فمقابر الوزراء
الجميلة تزدان بجداريات رقيقة وهامسة تصوّر سيدات رشيق ورجال متأنقين
يجلسون معاً إلى موائد الطعام، وتقنص هذه الجداريات الطبيعية الشفافة لأثوابهم
المصنوعة من الكتان الفاخر. وكان الفنان بارعاً، كذلك، في نقل الإحساس
بليونة انحناءات الأجسام النسائية. وكذلك أيضاً فيما يتعلق بانتظام التجاعيد الدقيقة

التي تتكون منها البواريك (جمع باروكة). وعند هذه النقطة يرى المرء لزماً عليه أن يخلص إلى أن ذلك البلاط كان عاشقاً للذات، ولا يولي لحجم الإنفاق أى اعتبار. وكان في وسعه أن يشبع كل نزعة جمالية، مهما كانت ! (أنظر لوحة رقم ٣-١).

"أمين - حوتب" الرئيس ومجلس وزرائه

يبدو أن هذا الفرعون كان حكماً بارعاً بطبعه على الأشخاص، إذ بدون ذلك يتعذر علينا أن نفسّر نجاحه في استقطاب طاقم من الإداريين اللامعين الذين استمر صيت حكمهم وإنجازاتهم يتردد لعدة قرون نائية. وكان كل منهم يحمل لقب "وزير ملكي" وهو اللقب الذي يشير إلى أرفع مرتبة في الدولة، فضلاً عن أن حامله يصل إلى أن يصير أحد أصفياء الملك. وبصرف النظر عن هذا اللقب الذي يحمل في طياته مرتبة صاحبه، وهى المرتبة التي نستطيع أن نقارنها بمرتبة عضو مجلس الوزراء في العصر الحديث، فكان كل منهم يحمل أيضاً لقباً خاصاً آخر يحدد الإدارة الحكومية التي يرأسها (١٨).

نما إلى علمنا في الآونة الأخيرة أن الحقائق التي عرفها مجلس الوزراء الفرعوني كانت تشمل حقيقة، ولو أنها كانت الأهم خلال حكم "أمين - حوتب" الثالث، هي منصب "كاتب المجندين" وهو منصب يستتبع في غالب الأحيان قيادة شبه عسكرية أى ما يوازي الآن "وزير العمل" الذي يأخذ على عاتقه مسئولية القوى العاملة. وتشمل هذه المسئولية الإشراف على سجلات أفواج العمل، ودفعات المجندين وشؤون الأفراد العسكريين فكان يراقب عملية التجنيد، ويتابع الالتزام بفوائم التجنيد، ويطمئن إلى توفر أيدي عاملة رهن الطلب لمشاريع الدولة سواء المدني منها أو العسكري، وكانت اختصاصاته تمتد لتشمل تحصين القلاع سواء داخل مصر أو في مقاطعات الإمبراطورية، وتوزيع وتسجيل الأسرى، وتجهيز وإرسال فرق الجيش وأفواج الحجارة إلى المحاجر، وكتائب التشييد إلى مواقع البناء، بل ويقع أيضاً في نطاق اختصاصاته حتى الإشراف على نقط الجمارك

والنزوح إلى مصر عند مداخل النيل. ولعله من الواضح تماماً أن ازدهار مصر في عهد "أمين - حوتب" الثالث ما كان ليستمر دون عبقرية ذلك المسئول المكلف بعمليات الإمداد والتموين.

ورث "أمين - حوتب" الثالث مسئولاً من هذا النوع يدعى "حور - إم - حب"، أحد مريدي عبادة "أمون"، الذي تقلد منصب "كاتب المجندين" في ظل والده "تحت - موسي" الرابع ولكنه سرعان ما أحل محله "سنو"، الذي كان يشغل أيضاً منصب رئيس الرسل الملكيين. ورغم أن عدد الذين شغلوا ذلك المنصب المساعد، لا يقل، على وجه الاحتمال، عن ستة أشخاص، تحت ظل حكم "أمين - حوتب" الثالث، إلا أن أكثرهم نجاحاً وأطولهم بقاءً فيه كان ذلك الذي خلف "سنو" في المنصب، يدعى "أمين - حوتب - ابن حابو" (١٩) الذي انحدر من أصول متواضعة من مدينة "أتريب" في الدلتا. فلقد انتقاه الملك منذ وقت مبكر، ورقاه بناء على سداد النصائح التي أسداها، ورفع على أقرانه. ويخبرنا في واحد من النقوش العديدة التي وصلت إلينا: لقد فضلتني الإله الطيب، ملك مصر العليا والسفلى "نيب - ماعت - رع"، ابن "حور - آختي" البكر، وعيّني نائباً لوزيره، وأدخل اسمي في كتاب الإله (أي سجل مكتبة المعبد). ولقد اطلعت على أدوات الإله "تحت" (أي العلامات الهيروغليفية)، وتبحرت في أسرارها، ونقبت في كافة فقراتها الصعبة، وطلب الكثيرون مشورتي في مراميها. وبعد إتمام مرحلة التعليم جاء تعيينه عضواً بمجلس الوزراء: كان جميع سكان مصر خاضعين لإشرافي بصفتي كاتب جلالته الذي يتولى مسئولية جميع المجندين" ولقد حشدت جميع من شملهم تجنيد جلالته للعمل. وقام قلبي بتسجيل أعداد تفوق الحصر... وقررت الضريبة الواجبة على الممتلكات الثابتة بعد حصرها، وجردت الممتلكات المنقولة، وسجلت المجندين". وكان في طوعه أن يقول قبيل وفاته:

"أنا رجل عادل، لم أحاب أحداً على حساب آخر. ولم أعتقد أي اتفاق مع شرير. سلوكي مستقيم، وكل ما قدمته يداي واضح أمام أعين الجميع. كنت مستقيماً صادق الاستقامة حتى سنوات عمري الأخيرة. ولقد بلغت ثمانين سنة في ظل رضى الملك. ولسوف أكمل مائة سنة وعشر" (٢٠). ورغم أن أمل "أمين -

حوتب ابن حابو" خاب على وجه الاحتمال في قضاء مائة وعشر سنوات كرجل صالح قيد الحياة، إلا أن صيته امتد إلى ما بعد وفاته. إذ ظل مبعلاً كرجل حكيم ونصف إله يحوز قدرة على شفاء المرضى، حتى بعد وفاته بألف سنة (٢١).

نستطيع أن نذكر أيضاً، بين أعضاء مجلس الوزراء المصغر، هذا، والمتميز "خاع - إم - حات" المعروف بالورع، الذي احتل منصب كاتب الفرعون وناظر شئون الغلال. وكان والد "خاع - إم - حات" يسمى "إي - إم - حوتب" عضواً في هذا المجلس المصغر، هو الآخر، في مطلع حكم الفرعون، نظراً لشغله منصب ناظر مخازن الذهب والفضة. ولما كان "خاع - إم - حات" قائماً بالإشراف على زراعة الحبوب وحصد المحاصيل، ليس داخل مصر وحسب بل في طول الإمبراطورية وعرضها كذلك. فلقد عمل معه جيش حقيقي من كتبة الحقول (لتقدير المحاصيل قبل الحصاد)، ورجال بوليس، وجباة ضرائب. وفي السنة الثلاثين سَلَمَ "خاع - إم - حات" لجلالته ضرائب محصولية وفيرة بشكل استثنائي، الأمر الذي جعل الفرعون يكافئه مع طاقم العاملين تحت رئاسته، وهو الامتياز الذي صورّه الرجل في مقبرته. ولقد تفاخر بمعرفته، وكان ضليعاً متبحراً، بكل الآلهة، بالاسم، وبتقريب القرايين بصفة منتظمة إلى أرواح الراحين سواء من الأهالي أو الأسرة المالكة.

واستقرت مسئولية الخزانة في أيدي عائلة واحدة طوال ثلاثة أجيال. وكان أبناء هذه العائلة يفضلون اتخاذ أسماء مركبة على اسم الإله التمساح: سوبك. فكان المسؤول الواسع النفوذ على عهد "أمين - حوتب" الثالث، هو كاتب الملك والمشرف العام على الخزانة: "سوبك - حوتب" ابن المشرف العام على الصندوق الخاص "سوبك - موسي"، وكان مكلفاً بالحصول على المعادن الثمينة، وبالتالي كان منخرطاً بشكل مباشر في عمليات التعدين. وقد بلغ دون شك إحدى ذرى حياته العملية في شتاء السنة السادسة والثلاثين من حكم "أمين - حوتب" الثالث، فبينما كان جلالته مقيماً في "المدينة الجنوبية" في قصره غربي "طيبة". آنذاك حول إلى عناية كاتب الملك والمشرف العام على الخزانة "سوبك - حوتب" وكنيته "Panehsy" "بانحسي" أي "الجنوبي"، أن يحضر حجر الفيروز، في الوقت الذي كان جلالته فيه

باحتفل ببيوبيله الثالث (٢٢)، وهو الأمر الذي استلزم منه رحلة طويلة وشاقة إلى مناجم "سيناء" مع جيش من العمال والنقبائين والمُعَدِّين، إلى جانب طاقم من الأفراد المعاونين، إلا أن المهمة حققت نجاحاً كبيراً، وكانت يد الملك سخية في جزل العطاء.

وكان الأمناء الرئيسيون من بين أبرز كتبة الفرعون، ونستند في هذا الحكم إلى اتساع مقابرهم وغناها. فالأمين الرئيسي أو رئيس الديوان يأتي مباشرة بعد وزير العمل في حجم ما يملكه من سلطة ونفوذ، إذ نستطيع أن نقول عنه أنه كان بمثابة مدير تنفيذي لممتلكات الفرعون، التي نمت في تلك الفترة من تاريخ مصر إلى أبعاد رهيبية. ففي الوقت الذي كان الفرعون فيه لا يزال يقيم في "منف" إبان شبابه، وقعت عيناه على ابنين من أبناء أحد الأعيان يدعى "إي - إم - حوتب"، ناظر المواشى وشئون الغلال في أملاك الإله "أمون" في الدلتا. وقام الفرعون بتعيين أكبرهما وهو "أمين - حوتب" كـ "أمير وراثي"، ومحاسب، وحامل أختام الفرعون، وكتبه والأمين الأول في "منف"، كما تولى أيضاً منصب كاتب الملك لشئون المجدنين لفترة ما.

واستند طموح "أمين - حوتب"، هذا، في كسب الصيت في تصوّره، على بناء ذلك المعبد الفخم لجلالته في "منف" وبالتالي أسند الفرعون بناء المعبد إلى الكاتب الذي نجح، قبيل وفاته، في أن يضمن نفس الوظيفة لابنه: "إيبو - وى"، الذي امتد به العمر إلى ما بعد وفاة "أمين - حوتب" الثالث. أما ابن "إي - إم - حوتب" الثاني، الأصغر واسمه "رع - موسي" فقد تولى في وقت لاحق منصب وزير الفرعون لشئون الجنوب وأقام في "طيبة".

وكان هناك في الجنوب أيضاً شخص يدعى "أمين - إم - حات" وكنيته "الوائق" وكان يتولى منصب الأمين الأول. وكان والده "إتي - توى" (من الشمال؟) يشغل منصب ناظر قطعان "أمون"، واقتفى ابنه في بداية حياته الوظيفية خطى والده كمشرف عام على مواشى ومراعى "أمون"، والمشرف العام على بوابات "أمون"، وكتب خزانة الإله "أمون". وفي الوقت الذي انتقل البلاط فيه إلى "طيبة"، كان "أمين - إم - حات"، قد تدرّج في الوظائف حتى حصل على مركز "الأمير

الوراثي" (الذي يورث لقبه لابنه. م) والصفى منقطع النظير الذي يتمتع بحق الاقتراب من سيده، والأمين الأول وكاتب الفرعون.. وحامل المروحة عن يمين الفرعون، والنبيل في بيت الفرعون.

وهناك قطبان آخران، بلغا منزلة كاتب الفرعون بصورة غير صريحة رغم أنهما لم يشغلا منصب الأمين الأول. ويرجع هذا التميز الذي تمتعا به إلى أدائهما لوظيفة جعلتهما مقربين من ذوى الملك - الفرعون وخصوصاً الملكة. أحدهما "نفر - سي - خرو"، ابن "وجيه" ميسور الحال شغل في وقت ما لفترة ما منصب المشرف العام على قطعان "أمون"، وهو الذي ظهر في "طيبة" كالنديم الأول للفرعون، والمتمتع بحق المثول في حضرة "حورس في قصره... كاتب الفرعون وأمين بيت "نيب - ماعت - رع قرص - الشمس الباهر" (أى القصر الطبيعي). أما الآخر فهو "خرو - إف" الذي لم يكن سوى ابن لموظف بسيط، وأصبح أميراً وراثياً ومشرفاً عمومياً على مخصصات الفرعون، والرسول الأول للملك، والكاتب الصادق للفرعون، وأمين بيت زوجة الفرعون الرئيسية "تي".

وقبيل نهاية حكم الفرعون "أمين - حوتب" الثالث، تقلد "ريا" وهو شخص بارز، شغل في وقت سابق وظيفة "كاتب حسابات الغلال" تحت ظل ولاية "خاع - إم - حات"؛ منصب الكاتب الصادق للفرعون وصفه والمشراف العمومى على شئون الغلال في الوجهين البحري والقبلي، والأمين الأول للفرعون، وذلك خلفاً على وجه الاحتمال لـ "أمين - إم - حات"، "الوائق" في الجنوب.

ونستدل من حجم مقابر هؤلاء الأمناء ومحتوياتها وحدها، على أنهم كانوا واسعي الثراء. وتعد مقبرة الأمين الأول "نفر - سي - خرو"، ولو أنها لا تزال رهن الفحص، واحدة من أجمل المقابر في "طيبة" بأسرها. كما تعتبر مقبرة "الوائق" المنحوتة في صخور "طيبة" فائقة الضخامة، إذ تمتد، نحتاً، في الصخر الحي (أى غير المنقول إلى مكان آخر غير مكانه الطبيعي. م) لمسافة تصل إلى نحو ٢٥٠ قدماً في أعماق الجرف الصخري الشاهق، وتحتوى على قاعة تضم سبعين عموداً. وتعد مقبرة "خرو - إف" واحدة من أكبر المقابر الخاصة التى عثر عليها كافة المنقبين منذ بدء عمليات التنقيب في "طيبة". فهي تحتوى على دهليز

ضيق يقود إلى فناء ضخمة ملئ بالأعمدة، وقاعة مستعرضة (أى تمتد بالعرض. م) تضم ثلاثين عموداً، ثم تقابل قاعة مستطيلة تضم ثمانية عشر عموداً، بالإضافة إلى عدد آخر من الدهاليز والغرف. ويصل إجمالي الطول ٣٦٠ قدماً. وقد تحول الموقع في أوقات لاحقة إلى جبانة واسعة للدفن (٢٣). وليس في وسع أحد لم تكتحل عيناه بمراى تلك المقابر أن يقف على البراعة الفنية، على مستوى التكنيك، للجداريات المنقوشة هناك أو مستوى الذوق الفني الذي تعكسه.

ومع ذلك، فرغم ضخامة الثروات التى حازها أمراء القصر أولئك إلا أن استمرارهم في ولايتهم لمناصبهم كان في المعتاد مزعزاعاً بصورة تدعو للذهول. فهناك أكثر من أمين واحد فقدوا الحظوة التى يتمتعون بها بشكل مفاجئ وفى ظروف غامضة. ورأوا بأعينهم آثارهم وأملاكهم وهي تُصادر. ويبدو أن تعاملهم في مثل تلك الثروات الهائلة برهن على أنه إغراء لا يمكن مقاومته. كما يبدو أن أصولهم المتواضعة، نسبياً، التى انحدر منها بعضهم خلقت غيرة قاتلة بين من يفضلونهم ممن جرى تجاوزهم عند إسناد هذه الوظائف إليهم. فرائحة تفوح لفضيحة أو حسد يعتل في الصدور ضد ذوى النفوذ هما العنصران الوحيدان اللزمان، في دولة شرقية، حتى إلى اليوم لسقوط مسئول كان يوماً ما مقرباً، وبدون أدنى شك، مفعماً بالولاء!

لا تزال هناك حقائق وزارية لم نعرض لها. ويجب أن نذكر المندوب السامي في "كوش" واسمه "ميرى - موسى" حامل المروحة عن يمين الفرعون، وكان يشغل منصب كاتب الفرعون، المسئول عن مناجم الذهب في أفريقيا. وكان هناك أيضاً كاتب الفرعون، نائب وزير الفرعون وعمدة "منف" ويسمى "مين - خير"، وكان هناك كذلك كاتب الفرعون، الذي يشغل منصب القائد العام لجيش سيد الأرضين، ويعرف باسم "ناخت - مين".

إلا أن منصب الوزير، وهو منصب قديم ومهيب، لم يكن ليندرج تحت ذلك المسمى الوظيفي "كاتب الفرعون"؛ إذ كان في حقيقة الأمر منصباً أرفع من ذلك المسمى الذي انطوى على كل تلك الوظائف السابق ذكرها، فيما عدا وظيفة أمين الصندوق.

كان منصب الوزير ينقسم إلى شعبتين، الأولى للوجه القبلي والأخرى للوجه البحري، وكان الوزير مسؤولاً عن الشؤون اليومية لمدينة الإقامة، وتسيير كافة أعمال الموظفين العموميين بشكل متناغم. وكان شاغل المنصب مسؤولاً في العادة عن كافة عمليات التشييد في طول وعرض نصف المملكة الذي يتولى وزارته.

ونستطيع أن نذكر - إلى جانب "رع - موسي"، الشقيق الأصغر لـ "أمين - حوتب" الأمين الذي تولى وزارة الجنوب خلال السنوات الأخيرة من حكم الفرعون "أمين - حوتب" الثالث، واكتسبت مقبرته صيتاً عريضاً، تستحقه بجدارة، لجدارياتها الرائعة -: "بتاح - موسي"، وهو شخصية غير معروفة على نطاق واسع ويكتنفها الغموض إلا أنه تولى لمدة ما منصب عمدة "المدينة الجنوبية" أي "طيبة" بالإضافة إلى منصب الوزير. وظهر قبيل نهاية حكم "أمين - حوتب" الثالث على وجه الترويج بصفته أمين أملاك الإله "أمون" وكبير كهنة مصر العليا ومصر السفلى ". والكاهن الأعلى لـ "أمون". تُرى من يكون ذلك الرجل ؟ لابد أن يكون قد وصل، بصفته كبيراً للكهنة وفي وقت سابق وزيراً أول ليصبح أوسع الوزراء نفوذاً في البلاد.

"أمين - حوتب" الثالث واحتفالاته

شهد العقد الأخير من حكم الفرعون "أمين - حوتب" الثالث أي، في الوقت الذي أقام فيه في "طيبة" الاحتفال بثلاثة أعياد من أعياد الـ "سد" Sd في السنوات التالية: ٣٠، ٣٤، ٣٧ لحكمه (٢٤). وإذا كان لنا أن نستند إلى عدد الجداريات واللوحات المرسومة المعاصرة لتلك الوقائع، والمخصصة لتخليد تلك الاحتفالات في إصدار حكم ما، فلا بد أن ننظر إليها بصفاتها أهم الأحداث التي وقعت خلال حكم ذلك الفرعون. وقد جرت كلها في "طيبة"، في قصره أي في "بيت البهجة" أو قصر "الملقطة"*

الجديد إلى الغرب من "طيبة"، وهو القصر الذي أصبح كعبة يقصدها جميع الوجهاء من كافة أنحاء الإمبراطورية**. وكانت التبرعات: "عنو" تستقطع من كبار المسؤولين على هيئة أطعمة وأشربة. ولكن هؤلاء المسؤولين المحترمين كانوا يقدمون تلك التبرعات عن طيب خاطر، خاصة وأنهم كانوا يستشعرون التكريم بانخراطهم في تلك الاحتفالات المقدسة كمحتفلين Celebrants فالذين يتباهون منهم في مقابرهم، إلى جانب الألقاب التي حازوها والمناصب التي تولوها أثناء حياتهم، بوصف الدور العابر الذي لعبوه في الاحتفال باليوبيل، لم يكونوا بالقليلين. وعلى هذا الأساس قام كل من "نفر - سي - خرو" الأمين و"ميرى - موسي" المندوب السامي بدور "ضبط ومراقبة العرش المزدوج" وقام "خو - إف" بدور "مراقب القصر" أما "أمين - حوتب" الوزير فقام هو و"أمين - إم - حات" الأمين، و"نفر - سي - خرو"، المذكور سابقا، بدور حراس علامات الحدود (٤) في القاعة الواسعة. وكان "خاع - إم - حات" يقوم بوظيفة كاهن الإله "أنوبيس". وكان "أمين - حوتب" ابن حابوا أميرا وراثيا في المناصب الخاصة باحتفال الـ "سد".

وكان الملوك الأجانب أو سفراؤهم أيضا يحضرون مناسك تلك الاحتفالات، على نحو ما تصوره الجداريات التي تقدمهم لنا بصفاتهم: رؤساء كل البلاد البعيدة الذين لم يعرفوا مصر". (لوحات ٣ من ٢ إلى ٥). ولابد أنه كان خلال إحدى هذه المناسبات أن قدم ملك بابل شكوى على هيئة رسالة خطية حول غياب قواعد البروتوكول السليم فيما يتعلق بمبعوثيه وعجلاتهم الحربية: "صفت عجلاتهم الحربية وسط العجلات الحربية للعمد المصريين، ولم تلق إليهم بنظرة واحدة" (٢٥) كما شكوا أيضا من أن بلاط الفرعون لم يرسل السفير المصري كي يعلن عن الـ "سد": "عندما أقيمت مهرجانا كبيرا، لم ترسل رسولك كي يقول: كلوا واشربوا، كما أنك لم تبعث بهدية المهرجان" (٢٦). واعترف الفرعون "أمين - حوتب" جهارا بصحة الاتهامات، ولكنه قرع الرسل البابليين على النحو التالي: في إحدى المناسبات عاد رسلكم إلى والدك كي تنطق أقوالهم بالسوء والبغضاء: وهذه هي

المرة الثانية التى يعودون فيها إليك كي يتحدثوا بالسوء والبغضاء" (٢٧) وبناء عليه أنهى "أمين - حوتب" قوله بأنه قرر ألا يعطيهم شيئاً في المستقبل، وذلك لأنهم يحرقون نواياه مهما صنع من أجلهم.

ولكن ما من شكوى بابلية تستطيع أن تخمد الحماس لحضور تلك الاحتفالات: فالأطعمة كانت حاضرة بوفرة هائلة، والخمور تتدفق بسخاء بالغ. وعلى هذا الأساس يعلن الفرعون "أمين - حوتب" الثالث بفخر أن كل الطقوس أوديت، وفقاً لأقدم مراسم الأداء، وهى الأصول التى عثر عليها الفرعون في "كتابات الأقدمين" التى يغطيها التراب في الأراشيف. والحقيقة أن هذا الفرعون كان يستشعر، على ما يبدو، بهجة المولعين، بكل ما يعود إلى عصور أشد قدماً. ولقد ظهر إلى النور لوح "بدائي" من الإردواز، يرجع إلى فجر التاريخ المصري أى قرابة ألف وستمئة سنة قبل ذلك الحين بفضل صورة تمثل الملكة "تي" الزوجة الرئيسية على ظهره، أى ظهر اللوح.

وقبيل وفاته، مرض "أمين - حوتب" الثالث. وتكشف موميأؤه، رغم ما هي عليه من سوء حفظ، عن عجوز أصلع مكتنز قضى سنواته الأخيرة منعماً منغمساً في الملذات. ولا بد أن أسنانه سببت له آلاماً حادة فلقد وجدت في حالة سيئة من التآكل بالإضافة إلى تقّحات عديدة في اللثة. ويبدو أن حالته الصحية السيئة دفعته، في السنة الخامسة والثلاثين من حكمه إلى أن يرسل إلى صهره (شقيق زوجته. م) "توشراتا" ملك الميتانيين كي يستفسر عما إذا كان بوسعه أن يشير بأية أدوية. ورد "توشراتا" على الرسالة التى تلقاها بأن "عشتار" إلهة "تينوي" قد أنزلت للتو وحياً غريباً: إلى مصر، تلك البلاد التى يحبها فؤادي سوف أذهب" وبناء عليه حزم "توشراتا" التمثال الذي تُعبد "عشتار" على هيئته إلى مصر، مصحوباً برجاء رقيق: ليت شقيقي يكرم وفاتها، وليته يعيدها مرة أخرى مطوقة بالسرور، ولعلها تعود، ولعل "عشتار" سيدة السماء تحفظ شقيقي وتحفظني... ولو أن "عشتار" معبودتي وليست معبودة شقيقي" (٢٨).

وأثبتت قدرات "عشتار" العلاجية عدم فاعليتها. وبعد مرور سبعة شهور وحسب من السنة الثامنة والثلاثين أى في يناير - طوبة سنة

٣٧٧ ق.م (٢٩)، وافى الأجل "حورس" (أى الفرعون) في قصره غربي
"طيبة". وعلى نحو ما كان نص النعبي الرسمي ليقول: حَلَق الصقر في
أجواء السماء وحلَّ آخر محله. أما من ذا يكون ذلك الآخر، فسرعان ما
ستعرف مصر وهو الأمر الذي سيُصيّبها بذعر قاتل.

الباب الثاني

حكم الفرعون المارق

الفصل الرابع

"أمين حوتب" الرابع ومشكلة الحكم

يبدو أن الشهر الخامس من التقويم المدني في السنة الثامنة والثلاثين من حكم والده (أى في يناير - طوبة سنة ١٣٧٧ ق.م) شهد صعود "أمين - حوتب" الرابع إلى عرش حورس الحيّ . وإذا كان النحاتون قد بدؤوا حيلرى أمام كيفية التعامل مع ذلك القوام الغريب لفرعونهم الجديد في المجال الفنى، فلقد عكسوا صورة التردد والحيرة بشأن ما يتوقعونه من ذلك الحاكم الشاب المجهول.

الفرعون الشاب

على النقيض من ظهور إخوة وأخوات "أمين - حوتب"، الإبن الثانى لـ "أمين - حوتب" الثالث ، كان أخوه الأكبر قد وافته المنية في ميعة الصبا ، بصورة متكررة في آثار والدهم، فإن غيابه منها يتضح بصورة لا تخطئها العين. ويبدو أن هناك من دفعه عمداً إلى منطقة الظل نتيجة لاعتلاله الخلقى، وهو الاعتلال الذي جعله شنيع المنظر (اللوحتان ٤-١، ٢). ولقد مكنتنا ذخائر الأعمال الفنية التى وصلتنا من "أخيتاتون" من الوقوف، بجلاء، على المظهر الخنثوي للشباب: الجمجمة المستطيلة، الشفاه المكتنزة، العيون المسحوبة، الأذن الممدودة، الفك البارز، الأكتاف الضيقة، البطن الكبيرة، الأرداف الضخمة، الأفضال الممتلئة والسيقان الطويلة **. ولقد اتجه الخبراء في الآونة الأخيرة إلى توصيف حالته كنوع ما من الاضطراب الهرموني، الذى تعجز فيه السمات الجنسية الثانوية عن النمو، الأمر الذى يؤدى إلى ظهور "شبه الخصائية" (١).

أياً كان الأمر، فالثابت أن "أمين - حوتب" ؛ هذا ؛ لم يظهر له لا رسم ولا نحت في الآثار خلال حكم والده. ويبدو أن الإشارة الوحيدة المؤكدة له، خلال تلك

الفترة كلها موجودة على ختم مطبوع على دن نبيذ، وصل إلينا من "الملقطة"، حيث يظهر اسمه في هذه العبارة "عزبة" أمين - حوتب" الإبن الحقيقي (٩) للفرعون (٢) وكان عمره قد بلغ وقت ذاك المرحلة التي يستطيع فيها أن يقيم لنفسه منشأة خاصة، أى خلال السنوات العشر الأخيرة من حكم والده، وكان، كما ينبغي علينا أن نتوقع، يقيم خلال تلك الفترة مع بقية البلاط في "طيبة". أما أن يكون قد ولد في وقت مبكر من حكم والده، عندما كان يتخذ في "منف" مقره الملكي فأمر مستساغ، وإن لم يكن قابلاً لإقامة الدليل عليه.

ورغم أنه من الأفضل أن نقر بجهلنا إزاء الموضوع الذي يدور حول المكان الذي تلقى فيه "أمين - حوتب" الرابع تعليمه ومن الذي تولاه، إلا أن هناك شيئاً واحداً يبدو مؤكداً: تعليمه الأولى لم يمض به بعيداً، إذا كان قد مضى أصلاً، عن بلاط والده، وبكل تأكيد لم يمض به خارج حدود مصر. وليس هناك دليل على أنه مكث في "منف" بعد انتقال والده جنوباً إلى "طيبة" في السنة التاسعة والعشرين على وجه التقريب من حكمه، أو أنه أقام في أى وقت من الأوقات في "أون" (هيلوبوليس) مركز عبادة الشمس. والافتراض القائل بأنه تلقى "قذراً" من التعليم في هذه المدينة، لمجرد تفسير تغانيه في سبيل اللاهوت الشمسي، ليس ضرورياً بحال من الأحوال. فالله الشمس ولاهوته يخرقان الديانة المصرية إلى حد يتجذر معه أن يعزل أحد أميراً شاباً عن التأثير الشمسي أينما توجه كي يتلقى تعليمه. حقاً كان خاله (٣) "أنين" كاهناً أعلى لإله الشمس، ولكن إذا كان الأمر يتعلق بعبادة الكرنك الأقل شأنًا لـ "رع"، كما يبدو مرجحاً، وليس بعبادة "أون"، فإن هذا اللقب الذي حازه "أنين" يكون قد استمر مع وصوله لإحدى أهم الرتب في كهنوت الإله "أمون" في "الكرنك".

وعلى نحو ما سنرى في الصفحات التالية، ترجع التغيرات التي دخلت على صوغ الأيقونات الشعائرية، والقرارات، دون شك، التي اتخذت بتشديد مبان جديدة لإله جديد، إلى البدايات الأولى، دون شك، لحكم "أخناتون". ويتساءل المرء عما إذا كان الأمر أمر تكليف صادر إلى "رع - موسي" بالبداية في العمل، ذلك الذي خلده في مقبرته. لكن المؤكد أن عبارات الملك، وردود "رع - موسي" عليه،

يشيران ؛ رغم ما هي عليه من حالة مهشمة، إلى عمليات تشييد: (الكلمات التي نطق بها) "الملك الذي يقات بالصدق، سيد الأرضين (نفر-خبرو - رع) منح (الحياة) للأمير الوراثي كاتب الحسابات، العمدة، والوزير "رع - موسي" (المرحوم!) الكلمات التي سقتها لرعايتك (...).. شكلها (؟) (...) أصدرت بها أوامري. كل ذلك الذي في (..) أكثر من.. للملوك منذ عصر الإله..". ويرد "رع - موسي": (لعل قرص.. يصنع) كما جلالتك (..) ولسوف تخلد آثارك خلود السماء، فأثارك أشبه بالقرص الذي في كبدها. ولسوف تحيا آثارك مثل الأحياء الذين يحيون في السماء. فأنت فرد فريد.. بنصائح.. فالجبال تغدق كنوزها بغزارة بين يديك وصيحتك تخلع قلوبها مثلما تفعل مع قلوب الرجال. وهي تنزل عند طاعتك كما يفعل الرجال سواء بسواء! (٤) وقد يكون التوجيه الذي تنطوي عليه كلمات الملك، هو نفس التوجيه الذي وردت الإشارة إليه في النقش الذي عثر عليه في محجر "السلسلة": "المناسبة الأولى التي أصدر فيها جلالته أوامره.. بالمضي في كافة الأعمال من جزيرة "اليفانتين" حتى "سيما - بحت" وإلى قادة الجيش أن يجندوا عمالاً يشتغلون، سخرة ؛ في محاجر الحجر الرملي، في سبيل تشييد الـ"بنين" العظيم لـ"رع - حور - آختي" باسمه "ضوء الشمس الكائن في القرص" في الكرنك. وكلف الأمراء ورجال البلاط والمشرقيين والضباط.. المزدوين بالهراوات بتولي مسؤولية جيشه من المجندين في نقل الأحجار" (٥).

ونستطيع أن نستشعر بعض الروح الشمولية الكامنة وراء هذه المشاريع الأولى بمجال التشييد في النقوش التي خلفها وراءه "بار - إن - نفر" إذ عين هذا الوجه رئيس خدم الفرعون وغسل يدي جلالته في منصب رئيس الكهنة (أى كبير أنبياء كافة الآلهة). ولما كان "بار - إن - نفر" هذا محدث نعمة، كما هو واضح، فلقد كان في مدحه للملك الجديد مثيراً للاشمئزاز: التحيات لك. يا ابن القرص الحي "واع - إن - رع" الفرد المنقطع النظير، من نشائي ورعائي!

ويصوره أحد المناظر في مقبرته أثناء تكريمه بأسلوب كان ليصبح إلى هذا الحد أو ذاك نموذجاً يقاس عليه لمدة تصل إلى ثلاثة قرون ونصف. إلا أن المناسبة التي كرم فيها ليست معروفة بشكل محدد. ولقد أسندت إلى "بار - إن - نفر"

مسئولية القرايين في المعابد الجديدة. وقت ذاك كانت كميات ضخمة من القرايين قد حُوِّلت إلى "القرص" على حساب سائر المعابد الأخرى. وأشار "بار- إن - نفر" باقتضاب إلى أن المسؤولين الذين لم يتكثروا مع الأوضاع الجديدة سوف يقطعون أعناقهم بأنفسهم: والآن يعرف "برع" * أى الموظفين المثابرين على تقريب القرايين. والموظف الذي يتوانى في تقريب القرايين للقرص يكون قد سلم نفسه لسلطان الملك، لأن رسوم الغلال لكل إله تكيل وحسب بالوبية*، ولكنها للقرص تكيل بأكثر من ذلك بكثير" (٦).

طيبة لدى تنصيب المارق

بدا المجمع الضخم للإله "أمون" في "طيبة"، لدى وفاة "أمين - حوتب" الثالث، وقد وصل مرحلة الاكتمال من الناحية الإنشائية (شكل (٣) لوحة رقم ٤-٣) (٧) إلى الغرب وقف صرح "أمين - حوتب" الثالث (رقم (III) كواجهة للمعبد، إذا كان القادم يسير بسفينته على امتداد القناة التي تربط بين نهر النيل وحوض التحويل، وإلى الجنوب، وبُعِيد الصرح الأخير صرح الملكة "حتشبسوت" رقم ٨ يقف صرح تتسارَى أبعاده مع أبعاد نظيره الغربي، فيوفر مدخلاً مهيباً للقادمين من معبد "موت" الإلهة الأم. وإلى الشمال يقف المزار الجديد الذي ابتناه "أمين - حوتب" لإله الحرب "مونتو" مع فنائه الرحب كي يوازن المجمع الذي ابتناه لـ"موت" إلى الجنوب، أما جهة الشرق فهي الوحيدة التي لم يُعَمَّ عليها أى بناء. وكان "تحوت - موسي" الرابع قد نصب، هذا صحيح، هنا أى بُعِيد سور الفناء المبنى من الطوب الأخضر (الني) حول معبد الإله "أمون"؛ مسألة واحدة كان قد عثر عليها في أحد المحاجر وقد أهملها البنّاءون منذ وفاة "تحوت - موسي" الثالث قبل ذلك بخمس وعشرين سنة، فاستكمل "تحوت - موسي" الرابع زخارفها ونزرها لـ"رع - حور - آختي". ولكن هذا القطاع لم يعرف أى بناء آخر، في نطاق معلوماتنا، سواء قام به "تحوت - موسي" الرابع أو "أمين - حوتب" الثالث. استمرت أعمال النحت والزخرفة المعمارية ذات الطابع التقليدي تسير على

قدم وساق لعدة شهور أو ربما لسنة كاملة خلال الحكم الجديد. إذ استمر العمل تحت حكم "أمين - حوتب" الرابع في صرحين في الكرناك، كان والده قد توفى عنهما، وهما لا يزالان يفتقران إلى حد كبير إلى الزخارف. فتلقى الصرح الثالث القائم إلى الشمال من سور رواقه، منظراً تقليدياً لضرب العنق، تحمل فيه خراطيش الملك المنتصر اسم "أمين - حوتب" الرابع. ولسبب ما تلقى الصرح الجنوبي لـ "أمين - حوتب" الثالث (في موقع الصرح العاشر حالياً) عناية أكبر بصورة ملحوظة. إذ زُخرفت البوابة بسلسلة من السجلات التي تضم مناظر كاملة بذاتها، وفي كل منظر منها يلوح "أمين - حوتب" الرابع في الزي التقليدي للملك أثناء تقريبه قرباناً لإله الشمس الذي يحمل رأس صقر (لوحات ٤ من ٤ إلى ٦). على أن تصوير هذا الإله ليس جديداً، اللهم إلا فيما يتعلق بصفته الكلية الوجود المكتوبة على هيئة أعمدة فهي الوحيدة الجديدة.. هو الذي يتهيج في الأفق في اسمه ضوء الشمس الكائن في القرص "وسميت البوابة باسم "أمين - حوتب" الرابع (٨) كما زُخرف البرجان المجاوران للصرح، بصفة جزئية بمناظر لتقريب القرابين.

وقت ذاك كان "أمين - حوتب" الرابع قد بدأ الشك في الأعراف التي تسود الفن والشعائر، تلك التي تربي عليها، رغم ما قد يبدو عليه الشكل من طابع تقليدي. فكانت العظمة التي خايلته أثناء البحث عن الذات (الروح)، الذي انغمس فيه الملك الجديد، بكل تأكيد، هي الصورة الذهنية لذلك اليوبيل الذي احتفل به في بواكير حكمه. أما الدافع الذي يقف وراء، مجرد، إضمار تلك الصورة الذهبية فأمر مجهول بالنسبة لنا اليوم، تماماً مثلما كان مجهولاً على وجه الترجيح بالنسبة لمعاصريه. فالاحتفال باليوبيل لا يُنصب، في ظل التقاليد المزعومة، قبل السنة الثلاثين من حكم الفرعون (٩). ومع ذلك، ففي مطلع السنة الثانية من حكمه على أكثر تقدير، انعقد عزم "أمين - حوتب" الرابع على الاحتفال بيوبيل، أو مهرجان "سد" كما كان يطلق عليه وقت ذاك، على غرار المهرجان الذي أقامه والده خلال العقد الأخير من حكمه. وتم التجاوز عن بضعة شهور قليلة، من ثم، حتى يتوافق المهرجان مع الذكرى السنوية الثالثة لصعوده إلى العرش.. وجمع الملك نخائيه الرئيسيين حوله، وعلى رأسهم النحات البارز "بيك" ابن وخليفة "مين" نحات والده

الخاص، وأصدر إليهم أوامر جديدة. كانت صورة الملك لتبدو على ذلك النحو الذي يبرز السمات التي تميزها عن أى موضوع ملكي تقليدي: شبابه، عضلاته، جماله (لوحة رقم ٤-٢).

هناك قدر ملحوظ من الاختلاف في تناول الفنانين لوجه الملك خلال السنوات الأولى من حكمه، الأمر الذي يجعل من الصعب علينا أن نقطع بقرب هذا التناول أو ذلك من الحقيقة. ويبدو أن الحيرة مزقت الفنانين بين ضرورة الالتزام بما أصدره إليهم الملك من أوامر؛ وتوكلهم إلى الصديق الفني مع المثال: أى مع "الوجه أو البروفيل التحوتموسي". وإذا ما أمعن المرء النظر في الملامح المشتركة في كافة مناظر الجداريات التي يظهر فيها الفرعون وارتأى فيها مؤشرات يعول عليها في حد ذاتها لخصائص وجهه، فالقائمة، عندئذ، سوف تشمل ما يلي: عظام خد بارزة وشفاة مكتنزة وحواجب مقوسة ورقبة نحيلة، وسيماء متشامخة نوعاً ما (١٠).

أطلق قرار الاحتفال بعيد يوبيلي شرارة البدء في برنامج تشييد نشط في "طيبة". ولقد مررنا قبل قليل بالمراسيم الملكية التي صدرت باستخراج الحجر من المحاجر ورسم الخطط الميدانية. وتعطينا الوثائق التي وعانا لنا التاريخ فكرة واضحة عن طبيعة المباني التي كانت لتقام. فهذه الوثائق تشير إلى أربعة مبان كبرى. وإذا كان في التكرار النسبي للتقارير الممهورة بالإمضاءات دليل على الأهمية النسبية أو الحجم، فإننا نستطيع أن نرتب هذه المعابد الأربعة على النحو التالي: "جم - ت - با - أتون" ويعنى حرفياً: قرص-الشمس اهتدينا إليه، و(حوت - بينين) ويعنى حرفياً: "بيت حجر البنين" وشئ ما يشبه المسلة يقال له: "في جم (ت) - با - أتون"، و"رود - منو - إن - أتون - آر - نحج"، ويعنى حرفياً: ثابتة تلك هي آثار قرص-الشمس إلى الأبد" وتنتى - منو - إن - أتون - آر - نحج" (حرفياً: مبدلة تلك هي آثار قرص-الشمس للأبد) أما التلميحات المتفرقة إلى أربعة مبانٍ إضافية، بينها "القاعة المستعرضة" و"بيت البهجة" فقد تتطوي على الإشارة إلى مبان كانت قائمة بالفعل في "طيبة" لدى تكصيب الملك الشاب. ورغم ورود ذكر هذه المباني الأربعة بين الحين الآخر، إلا أننا لم نعثر

على أى وصف لها في أى مكان. ولم يتضح لأحد الغرض الذي أنشئت لأجله.

اكتشاف التلاعات

يأخذ وصفى لهذه النقطة شكل القصة البسيطة. وكان ذلك فى طوعنا نتيجة للأدلة التى فى حوزتنا، وإن لم تكن غزيرة بحال من الأحوال إلا أن تفاصيلها، على الأقل، كافية فى تصويرها للواقع، إلى حد يمكننا من رسم صورة شبه كاملة: الأسماء، الوجوه، والسير الذاتية، والحملات، وعمليات التشييد والمهرجانات وكل ذلك يساهم فى ملء ثنايا القصة، بل ونستطيع فى غالب الأحيان أن نستشف الأفكار الكامنة وراء إجراء معين أو سياسة محددة بقراءة ما بين السطور.

ولكن ذلك لا ينطبق، حتماً، على الفترة الزمنية القصيرة، وإن كانت بالغة الأهمية، التى سأمضى حالاً إلى وصفها: تمثل السنوات الخمس الأولى من حكم "أمين - حوتب" الرابع فجوة مفاجئة فى معرفتنا التاريخية، إذ استوصلت آثار تلك الفترة بدقة فائقة غداة حقبة "أخيتاتون" سواء تمثلت تلك الآثار فى جداريات المعابد، أو "الصوايد" أو المقابر، إلى الحد الذىبقى معه أقل القليل، إذا كان قد بقى منها شئ أصلاً، كي تقع عليه أعين الأجيال اللاحقة. ولعله من المعروف أننا لا نستطيع أن نقف على جلائل الأعمال التى قام بها الملك إلا عن طريق مثل تلك الجداريات و"الصوايد"، ولولا المقابر فإن نبلاءه كانوا ليزوون فى مجاهل النسيان. ومع ذلك فليس فى طوعنا أن نصوغ حكاية متماسكة فى هذا الصدد. وعوضاً عن ذلك سوف ينصب همنا، فى الوقت الحاضر على البحث عن، واسترداد، الدليل الأساسى، بدلاً من سلك مثل ذلك الدليل، فى النسيج الأكثر إحكاماً واتقاناً فى إطار سرد تاريخي.

لا يعد موقع أو تخطيط المباني التى أقامها "أمين - حوتب" الرابع أقل العناصر التى تشكل الغموض الذى يكتنف سنوات التكوين الأولى فى حياة الملك الشاب. إذ ينظر الزائر المذهول اليوم إلى مدينة الكرنك الحديثة، لعل عينيه تقعان،

بين مختلف المجمعات الشاسعة المخصصة لكل من "أمون" و"خونسو" في مواقعها الأصلية، على أثر متخلف عن هذه الفترة، لكن نظراته تذهب سدى. فليس هناك أطلال لأساسات مكشوفة تبرز فوق سطح الأرض ولا هناك أعمدة متساقطة تحمل أسماء ملكية وتشى بمبنى كان قائماً. فلقد كان التدمير كاملاً ودقيقاً، ذلك الذي قام به الفرعون "حور - إم - حب" الذي وضع حكمه حداً لفترة "أخيتاتون"، إلى الدرجة التي لم يترك معها حجراً على حجر بالمعنى الدقيق للعبارة. ومع ذلك فالمحاجر، التي آلت إليها معابد الشمس تلك، لم تجهز عليها تماماً.

ظلت الأدلة تتري، شيئاً فشيئاً، لما يزيد على قرن ونصف، وتحشد في سبيل حل المشكلة الخاصة بالمواقع التي قامت عليها يوماً ما معابد ذلك الملك (١١). وكان الباحثون قد أصبحوا بالفعل خلال الربع الثاني للقرن التاسع عشر على علم بوجود عدد من الكتل الصغيرة التي تحمل خراطيش بأسماء "أمين - حوتب" الرابع مع صور لقرص الشمس، وسط الأنقاض التي كانت وقت ذاك ملقاة على الجانب الجنوبي للكرنك. ولقد تعرفت عليها بعثة النقوش الكبرى برئاسة "رينتشارد ليبسيوس" ورعاية ملك بروسيا، ونسخت نقوشاً وجذتها على كتل حجرية إضافية في نفس المنطقة في أربعينات القرن التاسع عشر. وكانت كل تلك الكتل مهشمة ومفككة، وتكاد أن تكون كلها بأبعاد متساوية: $52 \times 26 \times 24$ سنتيمتراً. وكان أبناء الكرنك يطلقون على هذا الحجم من الكتل الحجرية اسم "تلاتات". وهذه كلمة "مصرية" لا تزال رهن جدال طويل حول ما إذا كانت صيغة الجمع لكلمة "تلاتة" (بالتاء وليس بالثاء. م) ، وهو الأمر الذي يمكن أن يشير إلى أن مثل تلك الكتل تصل في الطول إلى ثلاث قبضات، أم الكلمة الطليانية Tagliata أي البنيان المنحوت Cut Masonry وقد ظهرت في لغة أهل الكرنك ككلمة مستعارة. على أي حال استمر المصطلح قيد الاستعمال في اللغة الدارجة، وما هو الآن يكتسب استقراراً ورسوخاً في أدب الباحثين.

وتمثل أول قطاع تخرج منه النماذج الأولى من كتل التلاتات تلك ؛ في الأرض غير المستوية الواقعة حول الصرحين التاسع والعاشر، ولكن سرعان ما ظهر أن هذه الكتل لم تكن قد مكثت طويلاً في ذلك المكان، بل تساقطت في حقيقة

الأمر من داخل الصرح التاسع من جراء زلزال وانهيار أرضى طبيعي. وكان الفرعون "حور - إم - حب" قد استخدم هذه "الثلاثات" بالآلاف كحشو حجري داخل هذا الصرح، الذي أقامه في سياق برنامج التشييد الذي نفذ في "طيبة" في الفترة من ١٣٤٠ - ١٣٣٠ ق.م. ولقد أُلغى مسح هذه المنطقة في ١٨٨٢ - ١٨٨٣ السير "جاستون ماسبيرو" المدير السابق لهيئة الآثار المصرية، بأن المعبد "الصغير" لقرص الشمس قائم في مكان ما بالقرب من الصرح التاسع، وأدلى بوأي "خاطي" بأن "أمين - حوتب" الثالث هو الذي بدأ ببناءه (١٢).

ومع ذلك، سرعان ما اكتسبت المشكلة تعقيدات أكثر. ففي تسعينات القرن الماضي. كشف رفع المخلفات من معبد الأقصر على بعد حوالي ميلين جنوبي الكرنك أن صرحه الضخم الذي بناه رمسيس الثاني في سنة ١٢٩٥ ق.م على وجه التقريب، كان محشواً بالكامل بكتل "الثلاثات"، وأن مئات إضافية من الكسر قد استخدمت في وقت لاحق في بناء البيوت في العصر الروماني حول القفاء Temenus ويرى "جورج دارسي" أن هناك معبداً آخر في الأقصر منذوراً لقوس - الشمس، ومختلفاً عن أي معبد يكون قد أقيم في الكرنك (١٣). وعلى نفس المنوال، فسّر المنقبون في "المدامود" على بعد ثمانية أميال شمال شرقي الكرنك في عشرينات القرن الحالي وجود عشرات المئات من كتل "الثلاثات" في ذلك المكان، أي المدامود، كدليل على وجود معبد لقرص الشمس هناك. وفي نفس الوقت شهدت العقود الأولى من قرننا العشرين رفع المخلفات من الصرح العاشر في الكرنك، وهو الصرح الذي أثبت هو الآخر أنه كان محشواً بأحجار معابد "أمين - حوتب" الرابع، ولكن بالإضافة إلى كتل "الثلاثات" كانت هناك أيضاً كتل ذات أبعاد ضخمة، تحمل خراطيش بأسماء الملك السابق ذكره. ولما كانت تلك الكتل تحمل في كثير من الأحيان صوراً لإله الشمس على هيئة رجل برأس صقر، مصحوبة بهذا الاسم الذائع الصيت "رع - حور - آختي"، فلقد شرع الدارسون يتكهنون بوجود معبد، خلافاً لذلك لم يُستدل عليه، بناء "أمين - حوتب" الرابع باسم "رع - حور - آختي" (١٤).

أجمعت الأدلة الواردة من الكرنك، في أقل القليل، على الإشارة إلى "حور -

إم - حب" بصفته الفرعون الذى فكك الأبنية التى بناها "أمين - حوتب" الرابع، واستخدم مكوناتها الحجرية كحشو نسيجى فى الإضافات المعمارية التى أقامها فى معبد الإله "أمون" ومنذ ما يصل إلى مائة سنة مضت سجل المؤرخ الألمانى الكبير "أوجست فيدمان" August Wiedman هذه الحقيقة التى نستطيع أن نراها رأى العين: الصرح الثانى فى المعبد، الذى كان الفرعون "حور- إم - حب" قد بدأ ببناءه، هو والقاعة الكبرى خلفه، أمام واجهة "أمين - حوتب" الثالث لمعبد "أمون"، كان محشواً حتى الطفح على حوافه بألاف "الثلاثات" (١٥). ويبدو جلياً كما لو كان الأمر على هذا النحو: أينما قام ببناء لـ"حور - إم - حب" فإن نواته بل وأساساته أيضاً (كما اتضح فى وقت لاحق) تحتوى على الأرجح كتلاً حجرية من ذلك النوع: ثلاثات.

وكان أن بُذلت جهود طويلة فى الأونة الأخيرة لاسترداد هذه "الثلاثات" من أماكنها غير الأصلية، تلك التى كانت قد استقرت فيها. وأدى برنامج الترميم الذى وضعته هيئة الآثار المصرية لإعادة صقل وتدعيم الكرنك إلى استحداث تكتيك جديد فى تكتيك مباني الفرعون "حور- إم - حب". وطالما استخرجنا "الثلاثات"، صار فى وسعنا، عندئذ، أن نعيد بناء القشرة الخارجية لحيطان الصرح، مع حشو نواته بأحجار حديثة، ووقع الشطر الأكبر من هذا العمل على كاهل المفتش "هنري شيفرييه"، الذى امتدت خدمته الوظيفية فى الكرنك إلى أكثر من ربع قرون (من ١٩٢٥ إلى ١٩٥٣). ولقد نجح "شيفرييه"، باستخدام الاعتمادات المحدودة والمعدات الفقيرة -تشير تقاريره باستمرار إلى أن يديه كانتا مغلولتين- خلال العشرينات والثلاثينات ثم مرة أخرى فى أواخر الأربعينات، فى استرداد ما يزيد على عشرين ألف كتلة منقوشة من "الثلاثات" (بالإضافة إلى أكثر من ذلك العدد دون نقوش) من الصرح الثانى ومن أسفل قاعة الأعمدة المسقوفة (١٦). كما بدأ برنامج مماثل من التفكير الدقيق فى الصرح التاسع، وهو البرنامج الذى واصل تقدمه، رغم فترات التوقف الطويلة، بإشراف كل من المرحوم رمضان سعد المسئول بهيئة الآثار المصرية و"وفري" و"جلفان"، وهذان الأخيران كانا يعملان كمديرين للمركز المصرى - الفرنسى لترميم الكرنك، وذلك منذ أواسط

المستينات (١٧).

وأدى هذا العمل، بحلول ١٩٦٥، إلى التوصل إلى نحو ٤٥ ألف كتلة منقوشة ومزخرفة من ذلك النوع المعروف باسم "الثلاثات"، كل كتلة منها كانت تشكّل، يوماً ما، عنصراً مكوناً في حائط، وكانت منحوتة في إطار جدارية وملونة بصورة مشرقة. ولما لم يكن في حوزتنا أى وسيلة بصرية مباشرة تفيدنا بشيء حول أي الكتل من هذه "الثلاثات"، هي التي كانت متلاصقة في الأصل، فإن من الواضح أننا نواجه لعبة ملغزة Jigsaw puzzle؛ تتطوي على عدد هائل من القطع المبعثرة التي تحتاج إلى ترتيب. وتمثلت المشكلة في تقليص حجم هذا اللغز العويص إلى أبعاد نستطيع التعامل معها بكفاءة، سواء في المكتبة أو الاستوديو أو المعمل. وبالتالي أصبح التصوير الفوتوغرافي، وفق مقياس معين، لكافة القطع المنقوشة بمثابة الخطوة الأولى في عملية التحليل.

إلا أنه قد يكون في طوعنا أن نسلم منذ البداية بتوفر عامل من شأنه أن يُعيننا على هذا الترتيب المنشود. فكل المؤشرات تُهَيِّئُ إلينا أن رجال الفرعون "حور-إم-حب" نهضوا بمهمتهم في تفكيك المعابد المنزورة لـ قمرص-الشمس بطريقة منظمة. فكانوا ينقلون كتل "الثلاثات" فور تفكيكها، مدمكاً فمدمكاً، إلى قواعدها الجديدة سواء في الصرح الثاني أو الصرح التاسع أو قاعة الأعمدة المسقوفة أو في أي مبنى آخر. وبناء عليه، ينبغي علينا أن نتوقع أن تكون هذه "الثلاثات" مرصوفة في هذه المواقع الثانوية بترتيب عكسي على الغالب. وفي أقل القليل يجوز لنا أن نتعلّق بالأمل في أن تكون الكتل التي وقفت يوماً ما جنباً إلى جنب لا تزال تتمتع بقدر ما من القرب داخل موقعها الجديد في النواة التي تضمها صروح الفرعون "حور-إم-حب". ويبدو من واقع الإشعارات المتناثرة التي تركها "شيفرييه" أن الأمر كان كذلك. ولكن للكسف، لم ير "شيفرييه" أو الذين جاءوا من بعده، سبباً للاحتفاظ بسجلات كاملة لكل كتلة من تلك "الثلاثات" لدى استخراجها، فلم تؤخذ صور فوتوغرافية أو مقاسات دقيقة إلا لقلّة قليلة منها. فالكتل التي شوّنت ذات مرة في الهواء الطلق، نُقلت مرات عديدة إلى أماكن أخرى، وأعيد تكويمها المرة تلو المرة، حتى أدى

الأمر بنا اليوم أن تبوء كل فرصة تسنح لتجميع المناظر الأصلية، بمجرد ملاحظة "الثلاثيات" في أماكن التشوين الحالية، بالفشل التام: لقد دبت الفوضى المطلقة في كل نظام كانت عليه الكتل في أى وقت مضى. اللوحتان (٤-٨،٧).

ثبّت قطع الزجاج، كما بدا عليه الأمر، من أى مشروع يسعى إلى لملمة نثر اللغز مرة أخرى هم الباحثين. إلا أن بعض "الثلاثيات" المنفصلة التى تحمل جداريات أو نقوشاً هامة جرى نسخها وتصويرها فوتوغرافياً، بين الحين والآخر، وفى بعض الأحيان وجدت طريقها إلى أدب الدارسين. بل وجدت بعض الكتل، وخصوصاً، تلك التى تحمل رأساً لملك أو ملكة طريقها بصورة غير مشروعة عبر التهريب إلى أسواق الفنون التشكيلية سواء في أوروبا أو أمريكا، وذلك لتراخى قبضة الأمن (المصري) خلال العقود الأولى من القرن الحالي ولكن ما يزيد على ٩٥ بالمائة من "مواد" الجداريات لا تزال غير معروفة وغير مدروسة. وبناء عليه، فالكتب التى نتناول فن أو تاريخ "أخيتاتون"، المنشورة قبل ١٩٧٠ تعاني من عيب خطير، وهو الأمر الذي لم يكن مؤلفوها بصفة عامة غافلين عنه: لم تستطع هذه الكتب أن تعرض إلا لرأس جبل الجليد وحسب.

ولولا الدرس المكثف لتلك الكتل، وهو العمل الذي جاء في إطار "مشروع معبد أخيتاتون" لما أدرك الدارسون النطاق الكامل للأدلة المستمدة من النقوش والأيقونات على سنوات الكرنك للفرعون المارق. ولقد أدت دراسة هذه "الثلاثيات" كل على حدة، إلى اكتشاف معلومات جديدة ووفيرة، ولكن هذه المعلومات زادت أضعافاً مضاعفة لدى رؤيتها أى رؤية تلك "الثلاثيات" وقد جمعت لتشكّل مناظرها الأصلية التى كانت الحوائط تتكون منها. ومن ثم اتجهت كل الجهود نحو حل تلك اللعبة الملغزة (١٨).

هناك مفاتيح يسيرة معينة يعثر عليها المرء في غالب الأحيان خلال التجربة والخطأ، وهى المفاتيح التى مدت إلينا يد العون في عملية التجميع والتوفيق. فالكتلة من تلك الكتل، أى "الثلاثيات"، يمكن أن تحمل زخرفة لجدارية بالطول أى على الجانب الطويل، وفى هذه الحالة كنا نطلق عليها اسم "مذادة" أو تحمل زخرفتها بالعرض أى على الجانب القصير فنسميها "عزّاضة". إلا أن بعضها، وكان ذلك

نادراً، كان يحمل زخارفه على جانبيه الطويلين أو على الجانب الطويل والجانب القصير معاً. ولقد علّمتنا التجربة شيئاً فشيئاً أن البنّاعين أيام "أمين - حوتب" الرابع كانوا يبادلون، خلال عملية التشييد، المداميك، أى يصفّون مدامكاً بالطول على مدامك بالعرض، وهو تكنيك بسيط، إلا أنه ساهم إلى حد كبير في تفادى أى توفيقات ممكنة، لكنها غير صحيحة. وعود على بدء، مالت المناظر إلى القولية والتكرار إلى حد الإملال Ad Nauseam فمنظر القربان على سبيل المثال سوف يتكوّن بصفة دائمة من نفس العناصر: مُقَرَّب القربان (وعادة ما يكون الفرعون وأحياناً الملكة) الذي نتعرّف عليه من خلال الألقاب والخراطيش التى لا تعرف للتغيير ومائدة القربان وقرص الشمس والقربان المقربة إلى الإله.. الخ. ومضى تعرّف المحلل على تفاصيل مثل ذلك المنظر، فإنه لا يحتاج إلى أكثر من كتلة واحدة تحمل مفتاحاً أو "أمارة" كي يصير في طوعه أن يعيد بناء المنظر بأكمله. وعلى نفس المنوال فإن شروح الصور التى تحمل اسم وألقاب الملك أو الملكة أو بناته، متماثلة أينما وجدت، إلى حد يُمكن معه، مرة أخرى، إعادة بناء منظر كامل إستناداً إلى شطفة واحدة، فوجد صورة "قرص - الشمس"، الذي يبدو في كافة الزخارف كلى الحضور، مزودة بشرح متكرر (منقوش على هيئة أعمدة) يعرفه على هذا النحو: *قرص - الشمس هو الحي العظيم الذي حضر احتفال اليوبييل، سيد السماء والأرض..* والعنصر الوحيد الذي يتغير في هذا اللقب يتمثل فيما يأتي بعد ذلك، وعلى وجه التحديد... هو الذي يقيم (في معبد كذا أو كذا). واستناداً إلى اسم هذا المعبد، الذي نتعرّف عليه نستطيع أن نفرز المناظر الجدارية التى تخص كل معبد من المعابد الأربعة المذكورة.

حتى تاريخه، وفّق المشروع أكثر قليلاً من ألفى "منظر مؤقت" (وهو المصطلح المستخدم في "التوفيقات" الفردية للعبة الملغزة). وبعض المناظر لا يزيد عدد كتلتها عن اثنتين أو ثلاث كتل، ولكن كثيراً منها يتكوّن من عشرات الكتل، ويضم أكبر منظر حوالي ١٦٠ كتلة. وفي غالب الأحيان كنا نصل إلى تحقيق هدفنا عندما يرفض المنظر بإصرار أى إضافات أخرى، حتى يتبين لأحدنا أن عدداً من الكتل مختلفة تماماً يقبل في الواقع أن يكمل أحد أطراف المنظر.

وفجأة كنا نجد المنظر الأصلي يمتد إلى ضعف عرضه. ويبدأ المرء في الإمام بالشكل العام للشكل الأكبر والخطة الشاملة للتكوين الفني.

ولقد ساعدتنا إلى حد كبير عملية فصل الجداريات من كل معبد على حدة على أساس شرح الصور الخاصة بـ "قرص - الشمس" في الكشف عن برنامج التشييد الذي قام به "أمين - حوتب" الرابع في مطلع حكمه، وذلك لسبب محدد: لقد ساعدتنا على الخلاص من عدد من المسلمات التي لازمتنا في وقت سابق دون استناد إلى أدلة كافية. فلم تُبن أي معابد لـ "قرص - الشمس" سواء في الأقصر أو في "المدامود". وكتل "الثلاثات" التي عُثر عليها في هاتين البقعتين نُقلت إليها فيما بعد من موقعها الأصلي في الكرنك، في وقت ما بعد حكم الفرعون "حور - إم - حب". وكذلك الأمر بالنسبة لمعبد "رع - حور - آختي" المفترض بناؤه. فلقد اختفى هو الآخر تحت ضوء إمعان النظر في الأمر: إذ جاءت الكتل الضخمة التي تحمل صوراً تقليدية للملك والإله، في واقع الأمر من البوابة الجنوبية للفرعون "أمين - حوتب" الثالث، تلك التي تركها وراءه دون زخرفة إثر رحيله وعلى نحو ما سبق لنا أن ذكرنا، لا يرجع تاريخ بناء أي مباني مزخرفة بجداريات تتبنى الأسلوب الجديد إلى ما قبل القرار الذي اتخذه "أمين - حوتب" الرابع بالإحتفال ببيوبيل خاص. ولعل أقدم مبنى من هذا النوع يتمثل في معبد "جم - ت - با - أتون" أي "قرص الشمس اهتدينا إليه" إذا كان لنا أن نحكم في هذا الصدد إستناداً إلى المحاولات التجريبية وشبه الاختبارية نحو تبنى الشريعة الجديدة. وأعقب ذلك على وجه الاحتمال، وفي غضون سنة واحدة بناء كل من "رود - منو..." أي "ثابتة تلك هي آثار قرص - الشمس إلى الأبد" و"تتي - منو..." أي "مبجلة تلك هي آثار قرص - الشمس إلى الأبد" وأخيراً وفي السنة الرابعة على وجه التقريب أضيف "حوت - بينين" أي "بيت حجر البنين" إلى "قرص - الشمس اهتدينا إليه". ويستمد هذا التاريخ التقريبي تأييده من تصوير عائلة "أمين - حوتب" الرابع الأخذة بالنمو. ففي معبد "قرص - الشمس اهتدينا إليه" لا تقع العين إلا على البنت الأولى (لوحة رقم ٤-١٥) رغم أن ذلك لا يحدث إلا بين الحين والآخر، أي بشكل متقطع، بينما أخذت بنت ثانية تظهر بين الحين والآخر إلى جوار أختها الأكبر، في

الوقت الذي كان فيه معبد "بيت حجر البينين" قد أصبح جاهزاً لتلقّي زخرفته. وقبيل مغادرة جلالتة لـ "طيبة" بوقت وجيز في السنة الخامسة من حكمه شرعت بنيت الثالثة في الظهور، وأخذ ثلاثي من الأميرات الصغيرات يظهرن سائرات خلف أمهن، ولو أن ذلك كان نادراً بشكل خاص.

معابد الشمس الأربعة

يشير الفحص التفصيلي للجداريات على هذه المعابد إلى عدد من الاختلافات التي تثير الفضول، وإن عزّ علينا أن نجد لأي منها أي تفسير، فمعبد "مجلّة تلك هي آثار قرص - الشمس إلى الأبد"، على سبيل المثال، يُظهر لنا أقساماً رئيسية لحائط مزخرف بمناظر من الغرف الداخلية، وبأنواع من الأنشطة الخاصة مثل خبز الخبز، وتخزين النبيذ التي تجرى في الأجنحة الداخلية للقصر الملكي (١٩). لكن ذلك لا يعنى أن ذلك المعبد نفسه كان بمثابة القصر. وتُظهر مناظر أخرى عديدة، مما أستخدم يوماً ما في زخرفة نفس المبنى، الملك وقد انخرط في مراسم معتادة لتقريب قربان ما، وبصحبة الملكة بينما يعلو قرص - الشمس رأسيهما. وعلى نفس المنوال يصوّر معبد "ثابتة تلك هي آثار قرص - الشمس إلى الأبد" أو "رود - منو..." مناظر ذات مضامين شعائرية، رغم أن مشاهد تقريب القرابين كانت تجرى في ذلك الوقت داخل سلسلة من الأكشاك غير المسقوفة مما سوف نألفه في سياق تناولنا لمعبد قرص - الشمس اهتدينا إليه" أو "جم-ت-با - أتون"، وبالإضافة إلى ذلك تظهر على حوائط معبد "ثابتة تلك هي آثار قرص - الشمس إلى الأبد" أو "رود - منو..." مناظر عديدة يبدو فيها الملك وقد خرج مع رجال بلاطه راكباً إلى الخلاء كي يزور منشآت في الهواء الطلق تضم صفوفاً، صفاً بعد صف، من حوامل القرابين يصل ارتفاعها إلى عشرة أقدام، وكل حامل منها ينوء بما عليه من قرابين الطيور والخبز والنبيذ. (شكل ٤). ويصطف على حوائط أخرى، صفّاً إثر صف، خدم المنازل وهم يتقدّمون، وقد حمل كل منهم

ماعونا مملوءا بالمواد الغذائية على رأسه، وهو يترنم بهذه العبارة التي تجلب البركة: يا أنت يا "نفر - خبرو - رع" يا طفلا جميلا خرج من صلب قرص الشمس، فليشمك قرص الشمس بعطفه" (لوحة رقم ٤-٩).

وتتمثل إحدى المفاجآت (وهناك مفاجآت عديدة كما سنرى في أوقات لاحقة) التي أسفرت عنها الدراسة المتأنية لكنتل "الثلاثات" في الحضور الدائم لمرافقين عسكريين في معية الملك بل ويلتف جنود مسلحون، وخصوصا في معبد "ثابتة تلك هي آثار قرص-الشمس إلى الأبد" حول "أمين - حوتب" الرابع، عند مغادرته القصر، فنجدهم يجرون خلف عجلته الحربية عندما ينحدر مع الطريق، ويركعون وسيوفهم منكسة، ورماحهم معكوسة نحو الأرض، عند دخوله المعبد (لوحة رقم ٢-١) وثمة رماحون (طاعنون بالرماح) ورجال صاعقة، وهؤلاء وأولئك، مصريون بالإضافة إلى احتياطيين (معاونين) من سوريا والنوبة، وليبيين يضعون الريش على رؤوسهم ومزودين بعصي- الرمي. وفي كل مكان يبدو "الرواد" والأحرى "الصاعات" العسكريون ببيارق وحداتهم. وهناك أيضا وحدات شبه عسكرية بكثافة. ويرى المرء رجال بوليس مدججين بهراواتهم، يركعون لدى مرور الحاشية الملكية بالقرب منهم، وخلف سيدات البلاط يقف نظار حريم الملك باستمرار متيقظين. ويرى المرء هناك أيضا "المخبرين السريين" الذين يعملون في خدمة السيدات، وهؤلاء يتسلحون عند الاقتضاء، أيضا، بالعصي. ومن الملاحظ أن حاملي البيارق من العسكريين يقفون دائما بالقرب من الملك ورهن إشارته لدى مثل الملوك الأجانب بين يدي جلالته لتحيته برفع أيديهم عاليا، وهي مفتوحة الراحه. (شكل ٥+ لوحة رقم ٣-٤).

يخفى علينا الغرض الذي أنشئ لأجله كل من معبد "ثابتة هي آثار..." أي "رود - منو..." و"مبجلة هي آثار..." أي "تتي - منو..."، إلا أن التكهن بأنه كان غرضا شعائريا بصورة أو بأخرى، لا يبتعد كثيرا عن الحقيقة. وعلى أي حال لم تتجمع بعد، أي كتل منقوشة تستطيع أن تلقى ضوءا على وظيفتهما، بل ولم نتوصل بعد على نحو ما سنرى، إلى معرفة موقعيهما الأصليين.

ولكن الأمر مختلف مع أكبر هذه المعابد الأربعة أي مع "قرص - الشمس

إهتدينا إليه" أي "جم - ت - با - أتون"، فلقد اكتشفنا الآن كلاً من غرضه وموقعه. ولكننا سنعرض لهذا الموضوع بشكل مفصل في الفصل السابع، وبالتالي نرجئ مناقشته الآن عند هذه النقطة.

وينفرد معبد "بيت - حجر البينيين" بين هذه المعابد الأربعة بالتمتع بعلاقة ما مع مستلزمات ومعدات العبادة الشمسية السابقة في "أون". فحجر "البينيين"، على سبيل المثال، الذي يُصور بطرق متنوعة، على هيئة مخروط، أو هريم صغير أو شكل مدرج، كان مقدساً لارتباطه بالإله الشمسي "رع" منذ الأزل. ويعيد شكله إلى الأذهان المنظر الجانبي لأهرام الأسرة الثالثة، والآثار الجنائزية التي ترجع إلى أوقات لاحقة، أي حوالي ألف ومائتي سنة قبل عصر "أمين - حوتب" الرابع، تلك الآثار التي تكشف بحد ذاتها عن منابع الإلهام في العبادة الأونية (نسبة إلى "أون". م) ويرجع كثيرون "البينيين" إلى تجسد التل الأزلي، الذي كان أول ما ظهر من سطح اليابسة من المحيط الأزلي، ومن عليه قام الإله الشمسي بخلق مخلوقاته. ولعله غريب حقاً على أقل تقدير أن يكون "أمين - حوتب" الرابع قد أفسح لمثل هذه الأيقونة (البينيين) التي ترتبط بقصة ساذجة على هذا النحو للخلق مكاناً في تفكيره، في ضوء ما هو معروف عنه من بغض للرمزية التعددية. ولكن الواضح أن حجر "البينيين" لم يكن لبوحي للملك بتلك الارتباطات المرفوضة لهذه الأسطورة على نحو ما قد نتوقع.

ولكننا عندما نفحص تهجئة اسم "حوت بينيين" في الكتابة الهيروغليفية المستخدمة على كتل "الثلاثات" فإن سمة خاصة تشرئب فوراً برأسها: علامة التخصيص * لا تدل على الصورة المتوقعة لهريم صغير أو شكل مدرج. وعوضاً عن ذلك تحمل الكلمة مخصصاً فريداً لمسلة واحدة ! والآن، الكلمة التي تعني مسلة ليست بينيين Bnbn بل وليس هناك أي صلة اشتقاقية معها. وعلاوة على ذلك كانت المسلات تُقام بصفة دائمة أو تكاد، أزواجاً ؛ وليس فرادى. ولكن الفرعون "تحوت-موسي" الرابع، جد "أمين - حوتب" الرابع كان قد نصب في "طيبة"، وعلى نحو ما ذكرنا في مطلع هذا الفصل، مسلة مفردة على الضلع الشرقي للكرنك،

ومتمركزة بدقة كافية على المحور الرئيسي الشرقي - الغربي للمعبد .ومما ينطوي على مغزى، أن الإله الذي نُذر له هذا الرمز لم يكن سوى "رع - حور - آختي"، وهو نفس شكل الإله الشمسى الذي اعتنقه "أمين -حوتب" الرابع ! هل يكون من الممكن أن ذلك البناء المعروف باسم "حوت بينين " Hwt Bnbn قد بنى بمسلة مفردة بصفقتها بؤرتة وسبب وجوده Raison d'être ؟

يكشف معبد "بيت حجر البينين" أيضا عن مسلات أخرى غريبة. فرغم أن التخطيط الأرضي للمبنى لا يزال مجهولاً، إلا أن عدداً كبيراً من الحوائط الداخلية كان، بالضرورة، رفيعاً، ذلك لأننا نجد كتلاً عديدة من "الثلاثات" المستخرجة من هذا المصدر مزخرفة بالصور الجدارية على وجهيها المتقابلين، وهو الأمر الذي قد يُشير إلى أن سمك الحوائط التي استُخرجت منها لا يزيد عن ٥٢ سنتيمتراً. ومرة أخرى كشف التوفيق بين كتل "الثلاثات" والدراسة المدققة عن أن الأبواب داخل لمبنى بُنيت على هيئة صروح مستطيلة ورشيقة يعلوها ذلك "الكورنيش المنقوص" لمألوف. (شكل ٦). وهناك عنصر معماري آخر ربما يكون قد شكّل جزءاً (واجهته ما ٩) من معبد "بيت حجر البينين"، رغم أن النصوص تذكر في هذا الشأن معبد قرص - الشمس اهتدينا إليه" وحسب، ألا وهو رواق الأعمدة بقواعدها المربعة التي تركز عليها. ويرجع الفضل كل الفضل إلى الجهد الشاق الذي بذلته الباحثة "أسمهان شكري". عضو بعثتنا العلمية في إيضاح الطبيعة الحقيقية والأبعاد الخاصة بتلك القواعد الحجرية. ولقد جمعنا ووفقنا ما يصل، على وجه التقريب إلى اثنتي عشرة قاعدة حتى تاريخه يبلغ ارتفاع كل منها ٩,٥ متراً، ولكن الكتل والشطف الزائدة قد نُثبت وجود ثلاثة أضعاف ذلك العدد في الأصل. رغم أن رواق الأعمدة بدا مفتقراً، لدى تجميع وتوفيق كتله لأول مرة إلى "الأغربة" (أى تلك العوارض التي تركز على الأعمدة م). وهذه، كان "رمضان سعد" قد قام بنقلها قبل عدة سنوات منذ جرى التعرف عليها في حشو الصرح التاسع. (انظر شكل ٧). وتنتمى إحدى الحقائق التي لم يتوقع أحد ظهورها خلال الفحص المكثف لجداريات معبد "بيت حجر البينين" في شخصية المشارك (المحتفى) صاحب الشعيرة: في كل الشعائر لم تكن سوى "نفرتي" ملكة "أمين -حوتب" الرابع .

فهي التي تقرب القرايين إلى قرص الشمس، سواء في هذا المعبد أو رواق الأعمدة الذي وصفناه للتو. (لوحة رقم ٤-٩) أما "أمين - حوتب" الرابع نفسه فلا تُوجد له أى صورة في زخارف هذين البنائين. فمن يا ترى تكون هذه السيدة التي تستطيع صورتها أن تسيطر على هذه المجموعة من المناظر المتكررة، التي كان الفنانون مضطرين إلى العمل فيها إلى حد يصل إلى إستبعاد زوجها المجيد ؟

العائلة الملكية على كتل "الثلاثات"

لا نحوز في الوقت الحاضر أى نص يعين لنا نسب "نفرتي" غير أن الاسم نفسه الذي يعنى حرفياً "الجميلة أتت" ، وهو اسم مصري يطلق على الصغيرات عند ولادتهن، قد ينطوي على وجه الاحتمال على إشارة إلى مهرجان (مولد. م) كان يقام لإحدى الآلهة الأنثوية ؛ ومن ثم، فليس هناك ما يدعو . لأن نفترض، بمجرد الاستناد إلى معنى الاسم ، أن صاحبه منحدرة من أصول أجنبية. وفضلاً عن ذلك فإن ترضع في طفولتها من مرضعة مصرية، بل وتنتمي لطبقة النبلاء في مصر، أمر ينتصر بقوة لصالح الحجة التي تؤكد أنها ولدت في مصر داخل دائرة البلاط. وقد تكون على وجه الإمكان ابنة عم "أمين - حوتب" الرابع، ولكن حتى هذا القول لا يدعو كونه ضرباً من التكهنات (٢٠).

إلا أن ما يستحق منا اهتماماً أكبر هو دورها البارز بشكل غير متوقع خلال الفترة الطيبية من حكم "أمين - حوتب" الرابع (لوحات ٤ من ١٠ إلى ١٥). فلم تظهر صورها وحدها في زخارف معبد "بيت حجر البينيين" وحسب، بل وعندما نقوم بإحصاء مجمل المناظر المستقاة من كتل "الثلاثات" فإننا نجد أن "نفرتي" تظهر ضعف عدد المرات التي يظهر فيها زوجها الملك ! كما قام الفنانون بترجمة "الموتيفات" الفنية التي ابتكروها في الأصل من أجل جللته، واستلهموها منه، إلى لغة أنثوية. فهي أى "نفرتي" التي تقبض على مقبض العصا أو السيف في مناظر ضرب الأعناق، والأسيرات يصطففن (الشقراوات ثم السوداوات بالتناوب، شقراء

فسوداء فشقراء) لتمثيل الإمبراطورية من طرفيها، ويركع حول قاعدة عرشها (الأمامية). وتشارك الملكة "نفرتي" في عدد كبير على نحو يثير الدهشة من الشعائر، التي تستلزم أن يؤديها "أمين - حوتب" الرابع. إلا أنه، لم يكن في وسعها، بطبيعة الحال، أن تستولي على اليوبيل لصالحها الخاص. لكنها تصاحب زوجها في غالب الأحيان ويصورها الفنانون أصغر حجماً بدرجة طفيفة، ومنتصبية خلفه، تهب الصلاصلا والأحرى "الشخشيخة" المقدسة. وعند مرحلة ما، لا تزال مجهولة خلال حكم "أمين - حوتب" الرابع، وإن كانت قبل نهاية السنة الخامسة بوقت لا بأس به، أسبغ الملك على زوجته لقباً جديداً، شرع من ذلك الحين وصاعداً في الظهور مع اسمها، وهو: "نفر - نفرو - أتون" أي "الجمال الرائع لقرص - الشمس".

يصعب علينا أن نتفادى النتيجة التي تقول بأن المكانة العالية التي تمتعت بها "نفرتي" خلال السنوات الخمس الأولى من حكم "أمين - حوتب" الرابع تنهض دليلاً على أهميتها السياسية ولكنه يكون من الحق أن نمضي إلى أبعد من هذه العبارة المجردة التي يحوطها التشكك. إذ يتعين علينا أن نقر بأننا لا نعرف شيئاً عنها عند هذه المرحلة، وبالتالي يكون مضيقاً للوقت أن نتكهن بشيء حول طبيعة سلطاتها.

غير أن الغموض يكتنف سيدات أخريات في البلاط بنفس الدرجة. إذ نرى في معظم الجداريات سيدات يرتدين ملابس أنيقة، ويصحبهن مسئولو الحريم، يشكلن ما كان يطلق عليه في اللغة الداريجة في مصر القديمة إسم "حلى الملك"، ولكن ما من إسم واحد من أسمائهن يرد في أى جدارية. وقد لا نبعد كثيراً عن الحقيقة إذا تكهننا بأن ذلك الحشد النسوي يضم أخوات، وبنات عمومة وخوولة وبنات إخوة وأخوات للملك، إلى جانب زوجات وبنات النبلاء. ولكن سيدة واحدة برزت بشكل واضح من حشد الجميلات أولئك المجهولات، وهى الملكة الأم "تي" فرغم أننا لا نستطيع التعرف عليها في الجداريات، إلا أن رسائل "أخيتاتون" تدلنا على أنها كانت لا تزال تقيم في البلاط وقت ذاك، وكان الملوك الأجانب لا يزالون يخطبون ودها.

تمدنا الجداريات الموقفة من كتل "الثلاثات"، إلى حد استثنائي بأدلة

صريحة، لا لبس فيها أو إيهام بشأن عائلة "أمين - حوتب" الرابع. فنرى حتى في أقدم تلك الجداريات "نفرتي" تسير في معظم المناظر، مصحوبة بابنة صغيرة تسير خلفها وترتدى نفس زي أمها، وتهز الصلاصل أو (الشخشيخة) (لوحة رقم ٤-١٠) أما نص الشرح المصاحب للصورة الجدارية فيكرر دون تغيير، إذ يعرقها على هذا النحو باستمرار؛ *ابنة الملك، التي جاءت من صلبه، والتي يحبها؛ "ميري - ت - أتون"؛ التي أنجبها نفرتي زوجة الرئيسية للملك فلتتعم بالحياة". وإذا كانت "ميري - ت - أتون" قد أصبحت الآن طفلة تستطيع المشي في السنة الثانية من الحكم، عندما كان العمل قد شرع في الأبنية التي قُدمت لنا كـ "الثلاث"، فإن مولدها لا يكون بحال من الأحوال قد جاء إلا خلال الشهور الأولى لولاية والدها للعرش. أما الإبن الثانية، فلم تظهر في تلك الجداريات إلا بعد ذلك بوقت طويل. فكما سبق أن ذكرنا، لم تقع أعيننا على طفلتين تتقلدان خطوات ضعيفة خلف أمهما الملكة، إلا في زخارف معبد "بيت حجر البينيين" الذي لا يرجع على وجه الاحتمال إلى أقدم من السنة الرابعة للحكم. وهاتان الطفلتان تُعرقهما أعمدة النص فوق رأسيهما على هذا النحو. "ميري - ت - أتون" و"مكي - ت - أتون". ولا نرى ثلاث بنات مجتمعات في الجداريات التي وصلتنا عن الفترة الطيبة، إلا ثلاث مرات وحسب، وهو الأمر الذي يفرض بنا بالضرورة، إلى أن "عخ - إس - إن - با - أتون" التالية في سلسلة البنات، ولدت في السنة الرابعة على وجه التقريب. وهؤلاء الثلاثة وفي الحقيقة كل ذريته التالية، تعرقهن شروح الصور الجدارية على هذا النحو: *بنات الملك اللواتي جئن من صلبه،... وأنجبتهن زوجة الملك الرئيسية "نفرتي"؛ وهو الأمر الذي يسدو وكأنه يضع نسبهن فوق كل مظنة. ولكن إذا كان "أمين - حوتب" الرابع، وكما استقر عليه إجماع الأطباء، يعاني من مرض ما يؤدي إلى تشبه الخصائية، فهل يكون في قدرته أن ينجب أي أطفال؟ وعود على بدء، في ضوء استحسان ذلك العصر لإظهار البنات وحسب في الحاشية**

الملكية، فأى حد من الوثوق ينبغي للمرء أن يضعه في الإيماءة التي تحملها الجداريات بأن العائلة الملكية لم تضم "أولاداً" بين صفوفها ؟ هذان سؤالان سوف نعود إليهما في الفصلين ٨، ١١. ونكتفي عند هذه النقطة بمجرد الإشارة إلى الخط العام لشكوكنا.

مصدر كتل "الثلاثات"

استمرت عملية توفيق كتل "الثلاثات" كي تنتج مناظر دائمة النمو، جارية على قدم وساق لمدة تقرب من عشر سنوات اعتباراً من سنة ١٩٦٦. وخلال هذه الفترة تم التوفيق بين ما يتراوح بين ١٥ إلى ٢٠ بالمائة من تلك الكتل التي يصل مجموعها إلى ٤٥ ألف كتلة. ورغم أن هذه النسبة تبدو بصفة إجمالية ضئيلة، إلا أنه من اللازم ألا يغيب عنا أن التكرار الدائم للموتيفات جعل استكمال كل منظر على حدة عملاً غير ضروري. وسرعان ما أصبح من الممكن على سبيل المثال أن نعيد تكوين مناظر تقرب القرايين أو مشاهد المواكب الدينية بكل تفاصيلها والمقياس المناسب، بمجرد الاستهداء بقطعة واحدة أو قطعتين كانتا جزءاً من المنظر أو المشهد. وبناء عليه أخذ المشروع يركن بصورة مبهتزة إلى إعادة تكوين الجداريات عن طريق رسم الخطوط العامة للمناظر، التي سبق لنا أن وفقنا لها "كولاجات" (قصاقيص. م) فوتوغرافية.

بحلول سنة ١٩٧٥ كانت فترة العائدات المحدودة من كتل "الثلاثات" قد حلت وكنا وقت ذاك قد كونا فكرة طيبة عن مجمل ذخائر الخزاف الفنية للمعابد، ولكن التوفيقات كانت قد أصبحت أقل، بصرف النظر عن ذلك الاكتشاف الضخم الذي يطرأ بين الحين والآخر بأن مجموعتين كاملتين من القصاقيص تتفقان أو تناسبان كل منهما الأخرى. إلا أن الأسئلة الحائرة ظلت بحاجة إلى أجوبة، وخصوصاً تلك التي تتعلق بأغراض التشييد. ترى ما هي النسبة التي تمثلها الخمس وأربعون ألف كتلة، التي وصلت إلى أيدينا من المجموع الكلي للكتل ؟ هل لا يزال الشرط الأكبر من الحجارة التي استخدمها "أمين - خوتب" الرابع في تشييد معابده،

بعيدة عن متناول أيدينا داخل الصروح الممتدة ؟ كم كان يبلغ ارتفاع حوائط تلك المعابد ؟ وما هي أنواع التهريمات أو التفريزات التي استخدمها البنّاءون سواء في قمم الحوائط أو قواعدها ؟. ولو أننا نعرف منذ قليل أن بعض أوجه الحوائط كيان بالضرورة شاهق العلو. فلقد نجحنا في تجميع وتوفيق وتكوين بعض الرسومات الضخمة للملك والملكة، يصل أطوالها إلى ما يقرب من ثلاثة عشر متراً. وعود على بدء، رغم أن الجداريات التي تزخرف الحوائط كانت معروفة بدرجة معقولة لنا، فإننا لم نعرف شيئاً عن الخطوط التي تسير عليها تلك الحوائط: كان ضرورياً بالتالي، أن نكشف الخطط الأرضية للمباني التي كنا منخرطين في إعادة تشييد حوائطها استناداً إلى العدم على وجه التقريب ! ولكن كان يتعين علينا قبل أن نفوه بأى لفظ حول التصميم (التخطيط) المعماري لمعابد "أمين - حوتب" الرابع/قرص- الشمس، أن نتعرف على المواقع الأصلية التي أقيمت فيها تلك المعابد.

في سنة ١٩٧٥ لم نكن نعرف شيئاً عن أى موقع محدد لمعبد منذور لقوص - الشمس في الكرنك، إلا أننا لم نكن نفتقر تماماً إلى كل مؤشر في هذا الشأن. فرغم السجلات الهزيلة التي جرى تدوينها خلال السنوات الأولى لبرنامج استرداد كتل "الثلاثات"، إلا أننا تمكنا خلال قدر من التقصي والتحري أن نكتشف مصدر كثير من كتل "الثلاثات" وعلى سبيل المثال، الكتل التي ترجع في الأصل إلى معبد "ثابتة تلك هي آثار قرص - الشمس إلى الأبد" جاءت بشكل كامل على وجه التقريب، إما من أوطأ المداميك السفلية في نواة الصرح التاسع أو من المنطقة التي يقع فيها معبد الأقصر. أما المداميك المتوسطة أى التي في أواسط الصرح التاسع فلقد طرحت كتل "الثلاثات" المزخرفة بمنظر من معبد "مبجلة تلك آثار قرص- الشمس إلى الأبد"، بينما ضمت الأجزاء العليا من نفس الصرح مواد أخرى من معبد قرص - الشمس اهتدينا إليه. إلا أن المصدر الرئيسي لهذا المعبد الأخير فكان الصرح الثاني، حيث جاء منه أكثر من ثمانين بالمائة من الكتل التي ترجع إلى هذا المعبد الذي يعد أكبر معابد قرص- الشمس. وخرجت كتل "الثلاثات" التي ترجع إلى معبد "بيت حجر البنيين" وحسب من الصرح الثاني وأساسات قاعة الأعمدة المسقوفة، بينما يعود النثار الذي يضم عدة مئات من الكتل في المزارات

الواقعة شمالي الكرنك، بالمثل، إلى معبدي "بيت حجر البينيين" أو قرص - الشمس اهتدينا إليه".

وبناء عليه، أخذت الأدلة تشير إلى وجود فصل فراغي في وضع كتل "الثلاثت" عند الاستخدام التالي (أى الثانوي وغير الأصلي- م) لها، فكتل معبدي "ثابتة تلك هي آثار قرص - الشمس إلى الأبد" و"مبجلة تلك هي آثار قرص - الشمس إلى الأبد" موجودة بشكل نسبى جنوبى الكرنك، بينما وجود كتل معبدي قرص - الشمس اهتدينا إليه" و"بيت حجر البينيين"، محصور في شماليه. فهل لذلك أى صلة بالمواقع الأصلية لتلك المعابد ؟ هل تكون محض صدفة أن تدخل عبارتها: "ثابتة تلك هي آثار قرص - الشمس إلى الأبد" و"مبجلة تلك هي آثار قرص - الشمس إلى الأبد" في أسماء مباني أخرى سواء مباني سابقة أو لاحقة في المنطقة المجاورة بشكل عام للمصرح العاشر ؟

إهتدى المنقبون إلى مؤشر مثير بدرجة أكبر، ومجز، في نهاية المطاف، أعظم من ذلك الاكتشاف الذي حدث بمحض الصدفة في سنة ١٩٢٥. ففي تلك السنة كان الحفر جارياً في خندق حول أطلال الكرنك في سبيل الحصول على صرف أفضل للمياه الجوفية التى كان منسوبها آخذاً في الارتفاع. وخلال عملية الحفر في قطاع المجرى الواقع في اتجاه الشرق تماماً، للبوابة الشرقية للكرنك، تلك التى أقامها في سنة ٣٥٠ ق.م. على وجه التقريب، الفرعون "تختانبو" Nectanebo ظهر في باطن الأرض صف من التماثيل العملاقة المتصدعة للملك "أمين- حوتب" الرابع وتولى المفتش "شيفرييه" الذي كان قد وصل لتوه إلى الأقصر كممثل لهيئة الآثار المصرية في مهمة استكشاف هذا "الكنز" الذي عُثر عليه.

ومنذ سنة ١٩٢٦ وحتى تقاعده من العمل في الهيئة بعد ما يزيد على ربع قرن، لم يترك الرجل سنة واحدة تمر، دون أن يوجه بعض وقته وميزانيته لمواصلة الحفر في "شرق الكرنك". وهذا ما عرفناه في وقت لاحق (شكل ٨) ولقد اكتشف "شيفرييه" أن صف التماثيل العملاقة يستمر في اتجاه شرقي-غربي لمسافة تصل إلى نحو مائتي متر. ولو أن بعض هذه التماثيل العملاقة لم يكن قد تبقى منها سوى شطف وحسب، وكلها كانت مدفوعة نحو الشمال، وما هى الآن

ملقاة على وجهها. وخلفها، وباتجاه الجنوب سار صف من كسر مهترئة من الحجو الرملي، نشي بأنها كانت مبنية في وقت ما. ورجح البعض في ذلك الوقت أن تكون قواعد أرضية تقع على أبعاد يفصل بينها متران ونصف، وخلف هذه القواعد، وعلى مسافة مترين تقوم مداميك الأساسات لما بدا وكأنه حائط. ولقد اقتربت التماثيل الساقطة، والقواعد والحائط إلي حدود نحو تسعة وسبعين متراً من بوابة الفرعون "تختانبو" ثم رسمت زاوية قائمة باتجاه الشمال. إلا أن الأطلال سرعان ما أخذت تضمحل أكثر عن ذي قبل، خلال المحاولة التي قام بها عمال "شيفرييه" نحو تتبع آثار المجمع باتجاه الشمال حتى انتهت تماماً على بعد حوالي عشرة أمتار. وقد حاول "شيفرييه"، بإستماتة، أن يكشف عن بعض الآثار على هذا الضلع الغربي لذلك المبنى أيا ما كان هو، الذي صادفه، ولكن محاولة الرجل ذهبت أدراج الرياح. فالتدمير كان على ما يبدو شاملاً. ولا يزال في طوعنا أن نرى اليوم جهوده الأخيرة المحمومة التي بذلها في مطلع الخمسينات بمساعدة خط سكة حديد ضيق، متمثلة في تلك الحفرة الهائلة التي حفرها رجاله باتساع تسعين متراً في الاتجاه الشمالي تماماً من المنعطف الذي وصفناه قبل قليل. ولقد صادف نجاحاً أكبر في الاتجاه الغربي، إلا أنه سرعان ما وجد الأطلال مطمورة تحت مباني قرية حديثة.

ما الذي عثر عليه "شيفرييه" ؟ بدا واضحاً أنه بناء من نوع ما، يزيته صف من الأعمدة، تقف أمامها تماثيل هائلة لـ "أمين - حوتب" الرابع ولكن الرجل لم يشر إلى وجود أى كتل منقوشة أو مزخرفة، ومرّ على المنظر، وهو لا يزال متردداً أمام ما اكتشفه واستمرت التكهنات تتري، إلى جانب التقديرات الخيالية حول أبعاد ذلك البناء.

وفي سنة ١٩٧٥ غدا واضحاً أن توفيق كتل "الثلاثات" قد أعطى أقصى فائدة تُرجى من ورائه. وما لم تظهر إلى الوجود أدلة جديدة معينة تتصل بالمسألة، وتتطوي، بوجه أخص، على معلومات محددة حول الخطط الأرضية لهذه المعابد، فلا أمل لنا في بناء سياق للمناظر على حوائطه. وما كان منا إلا أن لجأنا إلى الحفر، ولكن كان لزاماً أن ينطوي على أحدث المناهج: فلقد ولدت أعمال الحفر

التي قام بها "شيفرييه" إحساساً، ولو أنها كانت قيّمة إلى درجة محدودة، بأنها دمرت أدلة أكثر كثيراً مما أزاحت عنه الغطاء. فلا معنى هناك للحفر، دون رويّة، في مستويات متراكبة الواحد على الآخر أو الواحد تحت الآخر دون حفظ أى سجلات، لمجرد الوصول إلى معبد. وهنا سنحت الفرصة لتطبيق منهج شديد التدقيق على هذا الموقع أو ذلك، يتمثل في "حلبه" للحصول منه على كل "نتفة" دليل على نطاق عريض من المسائل: تاريخ الموقع ككل، بينته والأنشطة التي قامت عليه، والنظام الغذائي للمقيمين فيه، وكيمياء تربته، وأنواع الحيوانات المعروفة فيه، ومنتجاته من الحبوب. وهل هناك نقطة نستطيع البدء منها، أفضل من المنطقة الوحيدة التي وجدنا فيها مواداً ترجع إلى عصر "أمين - حوتب" الرابع أى في موقعها الأصلي وبالتحديد في الأرض المائجة أو غير المستوية في شرق الكرنك ؟

في مطلع ١٩٧٥ حصلنا على إمتياز من الحكومة المصرية للتقيب في القطاع المعروف باسم شرق الكرنك. ووضّح العقد منطقة الإمتياز على هذا النحو: يحدها شمالاً الزاوية الشمالية - الشرقية لفناء الكرنك، وجنوباً فناء معبـد الإلهة الأم "موت"، وشرقاً خط السكة الحديد الأقصر - القاهرة، وغرباً سور فناء الكرنك. وهذه المنطقة الكثيرة التعاريج تعد شاسعة: نحو ٢٥٠ × ٨٠٠ متراً. ترى كيف سيكون في طوعنا أن نُوفيها حقها ؟

الفصل الخامس

أعمال التنقيب في شرق الكرنك

تدين الرقعة الشاسعة لشرق الكرنك بمنظرها الموحش الحالي إلى تلك الأحداث التي وقعت في أواخر القرن الرابع ق.م. والواقع أن ذلك المنظر الكئيب لم يكن قائماً هناك باستمرار كي يطالع الناظر من مجمع الكرنك باتجاه الشرق. فعندما وقعت "طيبة" في سنة ٧١٢ ق.م تحت هيمنة أولئك الملوك السود المتطهرين القادمين من السودان، والمعروفين في التاريخ باسم ملوك الأسرة الخامسة والعشرين، عرف هذا الموقع عودة إلى الرخاء وزيادة ملحوظة في عدد سكانه. أما العنقود الصغير من المعابد الصغيرة التي تمتد شمال شرقي المعبد الرئيسي المنذور للإله "أمون"، وهو الأمر الذي يُثبت الاهتمام المتزايد الذي أولته الأسرتان الثانية والعشرون والثالثة والعشرون * بالأراضي المهجورة إلى الشوق، فلقد جرى تجميله بإضافات جديدة. كما أخذت مزارات عبادة "أمون" الإجلال تنتشر حولها. وأضاف الفرعون "طاهركا" * كُنة جديدة إلى البوابة العليا القديمة التي كان رمسيس الثاني قد بناها، وفي نفس الوقت أخذت بيوت الأهالي في الانتشار شرقاً في موقع البناء الذي شيده "أمون - حوتب" الرابع، الذي كان لـ "شيفرييه" أن يكتشفه في وقت لاحق (شكل ٨). وكان هذا الموقع قد استمر يُستخدم كمقلب زبالة لما يقرب من ستة قرون كاملة، وهو الأمر الذي أوجب تسوية سطحه باستخدام مخزون من الحشو المطلوب. وجرى شق مسار محوري، كي يواصل امتداد محور الكرنك، كما أقيم سور دائري، الأمر الذي خلق شكلاً من أشكال المجتمع "التابع" ورغم الغزو الآشوري، الذي وصل في خضمه أي في ٦٦٣ ق.م الملك الآشوري آشوربنيبال والأحرى "أشور - بنى - بعل" إلى "طيبة" وأسلمها للنهب والسلب، إلا أن هذا الحي الشرقي الجديد شهد بعد ذلك عهداً من الازدهار. فلقد أعيد بناء البيوت في أواسط القرن السادس، وأصبحت وقت ذاك تكشف عن سمات التكس والتمزاح. وتناثرت أفران صنع الأواني الفخارية (الفواخير) على

امتداد الشارع جنوباً، وكانت مطابخ الكتبة ومنازل الكهنة تفتح على الناحية الشمالية. وحتى الإطاحة، ذاتها، بالأسرة السادسة والعشرين لم تغير كثيراً من الظروف التي يعيشها شرق الكرنك: إذ استمرت عملية الاستيطان طوال القرن الخامس ق.م. تحت الحكم الفارسي بنفس الطريقة التي كانت تسير عليها بصفة رئيسية في الماضي. ولا ينهض لدينا أى دليل على حدوث تغير ما إلا مع بزوغ فجر الاستقلال تحت قيادة "أمورتايوس" في الأسرة الثامنة والعشرين في سنة ٤٠٦ ق.م. إذ لحق الدمار بالبيوت القديمة، ولكن قامت مكانها بيوت جديدة وأكبر، وبدا أن التراجع لم يعد وقت ذاك يشكل مشكلة حادة. إلا أن القرن الرابع شهد قوب خواتيمه أجلاً المحتوم. فلقد حمل الغزو الفارسي الثاني بقيادة "أرتاكسيركس" الثالث (٣٤٣ ق.م) وصعود الهيمنة اليونانية مع ارتفاع نجم الإسكندر الأكبر ووريثه السياسي في شمال أفريقيا: بطليموس لاجوس، نذر النهاية التي حلت بالمدينة الجنوبية "طية". فهجرت معظم البيوت، واستُخذ أثاثها الخفيف خوف الضياع، واستُخدمت حجراتها المتصدعة كمقالب للزباله. وهنا وهناك تشبث بعض الأهالي بالبقاء في بعض البيوت القديمة، إلا أن قمع الانتفاضة الطيبية في سنة ١٨٦ ق.م لابد وأن يكون قد إقتلع منها حتى أولئك. وبحلول القرن الأول ق.م، كان شرق الكرنك قد أصبح قفراً، وتحرك قلب المدينة جنوباً إلى الأقصر حيث ظل هناك منذ ذلك الحين.

واليوم تترامى المنطقة الواقعة شرقي بوابة الفرعون "نختانبو" في سور الفناء على هيئة سلسلة عشوائية من الكيمان والنقر، تقطعها المدقات التي مهتتها حوافر الحمير (الوحة رقم ٥-١) وتجور قرية بانسة تسمى "النجع الفوقاني" (والاسم يحمل صدى البوابة العليا أو الفوقانية التي بناها رمسيس الثاني، على الحافة الشرقية للموقع القديم) وإلى الشرق تحاصرها قضبان السكة الحديد. ولقد استخدم المنقبون ومفتشو المصلحة الآثار المنطقة لما يزيد على قرن كامل كمقلب مناسب خلال عمليات التطهير التي يقومون بها في حوش معبد الإله "أمون"، وهو الأمر الذي نجم عنه كم من الأتقاض يصل عمقه إلى ٣,٥ متراً، ويقف على رأس منطقة خماسية الأضلاع، تبلغ مساحتها ١٠٠x١٥٠ متراً على مشارف بوابة الفرعون

"نختابو". وهى تعمل، وحسب، على تعميق الوحشة التى ينطوي عليها المكان: ترعى المعيز نباتات العقول وتحك جلودها، والحمير تتهاذى فى المدقات التى تنتهى إلى القرية، وعندما يحل الظلام تتدافع الحيات وتتبعج الكلاب الجريانة، ويغطي التراب والحصى كافة مداخل المنطقة ومخارجها. أما الجو فلا يكون محتملاً إلا في الفترة من نوفمبر - هاتور حتى فبراير - أمشير. وبحلول موسم الخماسين في مارس - برمهات وأبريل - برمودة تهب الرياح في غالب الأحيان كي تقذف الأتربة في دوامات هوائية أو "غفريت"، ويجعل العيك الرطب العالق في الجو ظروف العيش غير مستساغة على وجه الإطلاق.

بحثاً عن معبد المارق

في يوم مثل تلك الأيام بدأ بحثنا (١). وأنفق فريقنا الذي ضم عدداً محدوداً من المنقبين ربيع سنة ١٩٧٥ مع صيفها كله في التنقيب في ربع دائرة لا تزيد مساحته عن ٨ X ١٢ متراً، قمنا باقتطاعه خلف الضلع الجنوبي للخدق الهائل الذي حفره "شيفرييه" في محاولته للكشف عن تماثيل "أمين - حوتب" الرابع. وكانت عملية إزالة مقلب الزبالة القديم قد استغرقت نحو عشرة أيام، إلا أن الطبقة البكر، التي ظهرت تحت ذلك المقلب مباشرة، أثمرت لنا "مادة" يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الرابع ق.م. وفي نهاية المطاف كشف التنقيب الذي تابعناه، عن حوائط منزلية غير مألوفة بالإضافة إلى سبع أرضيات - أسطح مبسوطة الواحدة على الأخرى ترجع إلى ثلاث مراحل بنائية كبرى في الفترة من ٧٠٠-٣٠٠ ق.م. ولم يكن هذا هو الهدف الرئيسي الذي استهدفت حملتنا استكشافه في البدء. ولم تكن الأطلال لتتطوي على قيمة كبرى سواء على المستوى التاريخي أو الثقافي. ولكن علم الآثار لا يستطيع أن يحابي مادة على أخرى، ويتعين على الأثرى أن يتحلى بروح التدقيق في تحليله كما ينبغي على المحلل أن يكون دوماً. فلا ينبغي للأثرى أن يقول بالمرّة: هذا مالا أريده ثم يهجر الموقع. وبالتالي فعندما اتضحت معالم هذه المستوطنة المتأخرة التاريخ أكثر فأكثر أمام أعيننا، خلال شقنا

لأرباع دوائر ومربعات في سنة ١٩٧٧ وما بعدها، بدأنا نجرى دراسة مدققة لكافة مظاهر الحياة المنزلية القديمة، بما تمكنا منه وسائلنا الحديثة، لما وصل إلى أيدينا من القرون الأربعة محل الدرس.

سرعان ما اتضح لنا أن سكان حي شرق الكرنك كانوا يتمتعون بمستوى معيشة معقول رغم أنه لم يكن أكثر أحياء طيبة رخاء. فكانت بعض الأواني الفاخرة تزيّن رفوف دواليبهم، وبعض التماثيل الصغيرة الجذابة تجمّل حجراتهم. وفي كل مكان كانت موجودة تلك الدمى التي تتخذ هيئة الحيوانات وتماثيل "الخصوبة" التي تتخذ سمات أنثوية متفجرة . وبين الحين والآخر كنا نصادف إناء يحمل وجه الإلهة "جّحور" * على سطحه الخارجي مما كان يُستخدم في الشعائر. إلا أن أحد الملاحم الغربية التي خّيرتنا لمدة ما، كانت النسبة العالية نسبياً بين العينات الأصبولوجية (نسبة لعلم دراسة العظام م) من عظام البقر. ولقد ظننا في البداية أن الأمر راجع إلى خطأ وقع منا في تكتيك التعيين ، (أي فرز العينات م) الذي لجأنا إليه في موسمنا الأول. ولكن عظام الأبقار والثيران إستمريت تشكّل الأغلبية بين العظام التي تخرج إلينا حتى بعد أن محّصنا مانهجنا. فهل كان سكان "طيبة" القديمة يتمتعون بنظام غذائي أغنى في لحم البقر مما هو الحال في أي مكان آخر في المناطق المجاورة بشكل عام ؟ الجواب واضح. لقد ضمت "طيبة" في القرنين السابع والسادس ق م. شبكة من المعابد الكبرى للإلهين "أمون" و"مونتو" إلى الشمال و"خونسو" و"موت" إلى الجنوب مثلما كانت تفعل طوال ألف سنة، وكان يقوم على خدمتها مئات الكهنة بشكل يومي إذ كانت شعيرة تقريب القرابين تمثّل أحد المحاور التي يقوم عليها تنظيم أي معبد مصري قديم. وكانت القرابين تُوضع أمام الإله على كل مذبحه، وهو الأمر الذي يشمل بصورة حتمية، وضمن أشياء أخرى تقديم لحوم البقر. وإذا كان معبد متوسط الحجم يقع في مصر الوسطى للإله - الكباش "حرى - شا - إف" أو أرسافيس Arsaphes (كما نطقه اليونانيون م) يقرب ثوراً كاملاً بصفة يومية، جاز لنا حقاً وصدقاً أن نتخيل ذلك القدر الذي يحتاجه، والحالة هذه، ذلك المجمع الطيبى، لتلك المعابد، وهو الأكبر من ذلك المعبد بصورة هائلة. وبطبيعة الحال، لم يكن أحد ليسمح ببقاء أخذاً للحم

وشرائحه على موائد القرابين أمام الآلهة، بعد تقريبيها إليها حتى تتعفن. إذ كان المصريون بنزعتهم العملية يقومون بإبعادها بعد أن يتناول الإله منها كفايته، ثم يجري توزيعها في هيئة حصص على جميع أبناء مجتمع المعبد سواء أكانوا من الكهنة أو الأهالي. وإذا كان سكان شرق الكرنك قد تغذوا بكمية من اللحوم أوفر في العصور القديمة مما يفعلون اليوم، فإن ذلك راجع إلى أن المعابد كانت في تلك الأيام "شغلاً شاغلاً" بصفة مستمرة.

وكشفت المستويات التي تقع أسفل أقدم طبقات البناء الثلاثة عن أدلة على نوع مختلف تماماً من وضع اليد. فلقد كان شرق الكرنك مستخدماً قبل سنة ٧٠٠ ق.م كمقلب زبالة، واضطر البناؤون إلى تسوية سطحه قبل الشروع في بناء البيوت عليه. وكان لحسن الحظ، تاريخ بدء استخدامه في هذا الغرض والتاريخ الذي توقف عنده هذا الاستخدام، واضحان.

وخلال المستويات التي أعقبت القرن السابع ق.م. قابلنا بالفعل قوالب جيدة النوع من الطوب المحروق، وقد بُنيت كيفما اتفق في حوائط منزلية. وهذه الحقيقة وحدها تتطوي على أهمية بالغة في ضوء تفضيل القدماء بصورة شبه مطلقة لاستخدام الطوب المصنوع من الطمي والمجفف في حرارة الشمس، دون المحروق، في البناء المنزلي. وعلاوة على ذلك استمر الدارسون لمدة طويلة يطمئنون إلى فرضية لا دليل عليها بأن مصر لم تعرف هذا الطوب الأحمر قبل الحقبة الرومانية. وكانت هناك مفاجأة أخرى في انتظارنا: كان كثير من قوالب الطوب تلك قد خُتمت قبل حرقها بختم يحمل اسم ولقب المسؤول المعاصر، الذي صُنعت تلك القوالب خلال حكمه. وتسعة وتسعون بالمائة من مئات القوالب التي وصلت إلي أيدينا تحمل ختماً بيضاً مزدوجاً يحمل هذا النقش: الكاهن الأعلى للإله "أمون": "مين - خير - رع"، وهو شخصية ذائعة الصيت في التاريخ المصري، وسليل مشهور لعائلة من كبار الكهنة، تولت رئاسة الكهنوت، وحازت حتماً، بالتالي، سلطة دنيوية، في مصر العليا، بعد انهيار المملكة الحديثة في ١٠٧٠ ق.م. وكان "مين - خير - رع"، هذا، قد تولى منصبه ذاك إعتباراً من ١٠٢٠ حتى ١٠٠٠ ق.م. ويبدو أن الإنجاز الذي قام به في "طيبة" هو بناء حائط-

سور حول الضلع الشمالي لمعبد الإله "أمون". ويقول "مين - خبر - رع" في نقش يحمله "صادود" قاوم، لحسن الحظ، عوادي الدهر حتى وصل إلى أيدينا، من البوابة الشرقية التي بناها رمسيس الثاني، أنه: *ثبني من أجله* (أي من أجل "أمون". م) *حائطاً ضخماً للغاية شمالي الكرنك بغرض حجب والده "أمون - رع" عن الأنظار وتخليصه من الدهماء بعد أن وجده محاصراً بالبيوت التي بناها العامة في أفنية بيت "أمون"* (٢) أين كان ذلك الحائط - السور ؟ لا يزال الأمور غير مؤكد ولكن قوالب الطوب المختومة باسم "مين - خبر - رع" كان قد عُثر عليها، متناثرة، في الركن الشمالي الغربي للكرنك. والآن يعيد عثورنا على عدة مئات من قوالب الطوب المختومة بنفس الختم طرح السؤال. ولعل أفضل تكهن في هذا الصدد يتمثل في أن نفترض وجود حائط - سور يسير إلى هذا الحد أو ذاك بامتداد الخط الحالي لحائط سور الفناء Temenos الشمالي، لكنه دار إلى الجنوب كي يحيط بالبوابة العليا التي بناها الفرعون رمسيس الثاني. وإذا كانت قوالبنا هذه، قد جاءت، وهو ما يبدو مرجحاً إلى حد كبير، من هذا الحائط - السور، فلا بد أن تكون هذه القوالب قد أخذت في الوقت الذي كان قد وقع طي الإهمال. ولما كان مقلب الزبالة الذي أشرنا إليه في السابق يحتوى نماذج من قوالب "مين - خبر - رع" في مستوياته (أي مستويات المقلب. م) العليا، فالثابت أن يكون قد وصل إلى حالة من الدمار بالفعل في القرن الثامن قبل الميلاد.

على أنه ليس من الصعب، كذلك، إثبات بداية مقلب الزبالة. فالمستويات الدنيا تكشف عن أواني فخارية ترجع إلى أواخر المملكة الحديثة، أو عصور الرعامسة. وقد حملت بعض مقابض الجرار ختماً باسم المؤسسة التي ترجع إليها، ويكشف عن هويتها على هذا النحو: الدوار (أي المعبد الجنائزي) الخاص بـ "مين - ماعت - رع - سيتى - ميرى - إن - بتاح". وهذا يعنى بالضرورة أن المنطقة بدأت كمقلب زبالة مع بداية الأسرة التاسعة عشرة ١٣٠٠ ق.م على وجه التقريب، واستمرت على هذا الاستخدام لستة قرون.

ومع مواصلة التنقيب في المربع A من هذا المقلب، رأينا أن المستويات التي أخذت تُصبح إلى هذا الحد أو ذاك أفقية كلما اتجهنا إلى أعلى، بدأت تضمحل

بصورة حادة كلما اتجهنا شمالاً. ومن المحقق أن منحدرأ ملحوظاً يجرى من الشرق إلى الغرب كان موجوداً هنا عند نهاية الأسرة الثامنة عشرة ولم نكتين، إلا في وقت لاحق، الحقيقة التي تتطوي على مغزى هام: هذا الخندق كما إتضح لنا، يسير بحذاء المحور المركزي لمعبد الكرنك بإتجاه الغرب !

إختتمنا موسمنا السنوي في توت - سبتمبر ١٩٧٥، باكتشاف نذر محدود من الآثار التي تشير، مع ذلك إلى فترة "أمين - حوتب" الرابع. حقا، كانت بعض قطع كتل "الثلاثات" التي أعيد استخدامها في غرض ثان في المستويات العليا، تظهر إلى النور بين الحين والآخر. ولكن هذه القطع يمكن أن تكون قد نقلت إلى هذا الموقع من مكان ما. وكان واضحا، مع ذلك ، أن عمق الطبقات المصطنعة غير المكتشفة لا يزال هائلا في المربع A، ونحن مصممون على مواصلة التنقيب في هذه المنطقة حتى يعوق منسوب المياه الجوفية كل حفر آخر، بصرف النظر عما إذا كان أملنا قد خاب تماما في العثور على أى بناء يستخدم كتل "الثلاثات".

وفى يناير - طوبة سنة ١٩٧٦ إستؤنف العمل في شرق الكرنك ، وفى أثناء ذلك بنينا منزلا للبعثة. والآن، وفى نهاية المطاف بدأت الأرض تجود بعطاياها. ففي كل مكان في النصف الجنوبي من المربع رقم A، ظهرت، تحت مقلب الزبالة مباشرة، أكداً من كتل "الثلاثات" المكسرة، يصل عمقها في بعض الأماكن إلى نحو خمسين سنتيمترا (لوحة رقم ٥ - ٢)، وإلى الشمال وعلى نحو ما أوحى به مقلب الزبالة المترامي، انحدر الدقشوم إلى خندق يتجه من الشرق إلى الغرب ويصل عرضه عند قمته إلى نحو ثلاثة أمتار. وعلى الطرف الشمالي، ظهرت سمة غاية في الغرابة وإن كانت كاشفة: أربع ركائز، متساوية الأضلاع أو مستطيلة من شطف الحجر الرملي تصل أبعادها إلى ١,٨٠ x مترين على وجه التقريب، وتسير بالتوازي مع الخندق في اتجاه شرقي-غربي. ولم تكن هذه الركائز إلا أن تكون ؛ بل وأثبتت في وقت لاحق أنها لم تكن سوى ؛ أساسات "الميد" (جمع "ميدة". م) الخشنة التي كشف عنها "شيفرييه" في أواخر العشرينات. ولكنه تصور أنها الركائز التي كانت التماثيل العملاقة التي وجدها ملقاة أمام كل منها ؛ تقف عليها. حقا كانت الكتل نفسها قد سرقت من المربع رقم A، ولكن ركائز الشطف

كانت كافية للتدليل على أنها كانت موجودة في وقت ما من قبل.

ومن الواضح أن هذا الخليط من السمات طرح احتمالات مغرية حقاً لاستخلاص الهويات من الظلام الحالك. وانتعشت الآمال خلال الأسبوعين الأولين من شهر يناير - طوبه. فأشار دقشوم كتل "الثلاثات" إلى فترة "أمين - حوتب" الرابع، بما أنه هو الذي بدأ واستمر في استخدام هذا الحجم (أي حجم "الثلاثات". م)، في بناء مبانيه ولكن هل نستطيع إقامة دليل حاسم على هذا التكهن الصريف ؟ ليس هناك شك في أن ذلك الدقشوم يرجع إلى أحد معابد "قرص الشمس" التي قسام الفرعون "حور - إم - حب" بهدمه واستخدم كتله كحشو في أحد المباني التي بناها في الكرنك. ولكن هل بوسعنا التوصل إلى معرفة هذا المعبد بالاسم على وجه التحديد ؟ هاجمنا شعور مقبض بأن كافة كتل الواجهة، التي حملت في يوم ما جدارياتها، ربما تكون قد نُقلت ولم تتبق منها أى شطفة مزخرفة واحدة، على ما يبدو، بين الدقشوم كي تمدنا بالمفتاح أو الخيط الذي نحتاج إليه حاجة ماسة. ولحسن الحظ، كنا مخطئين. ففي أعقاب الكشف عن أول كومة من هذه الأحجار المهشمة جاء العمال يجرون نحونا كي يزفوا هذا النبا: إحدى قطع هذه الأحجار منقوشة أو "حجر مكتوب" بلغتهم. ولم يكن هذا الحجر بأكمله سوى قالب عراضي، مع علامات تشير إلى أقدام بشرية تتحرك مارة بعامود. وفي نفس اليوم ظهرت إلى النور قطعة أخرى تحمل رأس رجل مع قمعولة (حلية معمارية معروفة. م) لعارضة خشبية على كتفه. واشتبها في أن تكون القطعتان قد جاءتا من منظر لتختروان ملكي مع حامله، وهو الأمر الذي ثبتت لنا صحته عندما اكتشفنا كتلة جميلة غفلت عنها عوادي الدهر وقد نُقش عليها حُمال بالعوارض الخشبية على أكتافهم. (لوحة ٥-٣) وعلى أثر ذلك بدأت القطع المنقوشة تتري بسرعة وكثافة. وأظهر قالب عراضي، جيد الحفظ، كهنة راكعين ببيارقهم المقدسة، مع اسم "قوص - الشمس"، بينما حمل قالب أراضى آخر صورة لركب حاملي التختروان، وقد التقط الفنان حركة انثنائها كي يُنزلوا الحمولة الغالية. وعلاوة على ذلك نجد رجال البلاط يركعون، ونوبيون يؤدون شعائر التوقير، وجلالته يقرب قرايئه، وأشعة "قرص الشمس". ولكن في الغالب لم يتبقى من هذه "التييمات" (المواضيع)

سوى بعض الشُطف المحدودة، إلا أن معرفتنا الحميمة بهذه النماذج المكررة مكنتنا لدeshتنا وبهجتنا فى نفس الوقت، من التعرف عليها من فورنا. وفى نهاية المطاف استطعنا أن نسجل وجود أكثر من مائة قطعة منقوشة استخرجناها من المربع رقم A، ولم يفلت من بين هذه القطع سوى قلة قليلة لم نستطع التحقق من شخصيتها الأصلية.

ولكن ما هو المعبد الذي خرجت منه تلك القطع ؟ الإجابة غاية فى الوضوح. كان فى طوعنا أن نوفق ونسكن كل القطع، على وجه التقريب، فى نوع من المناظر الذي طالما ألفناه من جرّاء تجميع وتوفيق كتلنا من "الثلاثيات" خلال السنوات الأولى للمشروع. ولم يكن ذلك المنظر سوى المنظر الاحتفالي الذي يظهر فيه الملك، محمولاً فى تختروانه على الأعناق من القصر إلى المعبد، وهو الأمر المقصور على سلسلة المناظر المكررة التى تصوّر مواكب اليوبيل، وبهذه الصفة نعرف أنه يرجع إلى معبد "قرص - الشمس اهتدينا إليه" أو "جم - ت - با - أتون" دون سواه. وسرعان ما وجدنا بين أيدينا دليلاً ساطعاً على ذلك فى قالب عراضى يحمل التاج الأبيض (تاج الوجه القبلى. م) يخرج من قلب المربع A، وقد ظهر عليه هذا النقش الناقص: "قرص...العظيم" الذي يقيم فى معبد "قرص الشمس اهتدينا إليه"، وبذلك تكون المشكلة قد وجدت حلها: لقد وجدنا معبدنا المنشود !

الفصل السادس

شرق الكرنك قبل "أمين - حوتب" الرابع

عندما صعد "أمين-حوتب" الرابع إلى العرش، كانت مدينته "طيبة" المدينة الجنوبية أو "أون مصر العليا" كما كانت تُسمى في بعض الأحيان، تتمتع بالفعل بتاريخ عريق ومرموق. حقاً تعرضت مساحة أحيائها السكنية على امتداد القرون للجزر والمد، إلا أن معظم بيوتها في أواسط الأسرة الثامنة عشرة انتظمت، على ما يبدو، على امتداد نهر النيل. والموقع الذي اختاره "أمين - حوتب" الرابع لبناء معبده *مصر- الشمس* اهتدينا إليه" يقوم شرقي المعبد الضخم للإله "أمون". وهناك، كانت تمتد، خلال السنة الأولى من حكمه مساحة شاسعة من الأرض الفضاء، التي لازمها الإهمال لما يزيد على قرنين من الزمان. ترى لماذا مُجرت مثل هذه الرقعة البكر ؟

تمثلت إحدى المشاكل التي فاجأتنا خلال عمليات التنقيب التي قمنا بها في شرق الكرنك في منسوب المياه الجوفية الذي كان أعلى بصورة ملحوظة عما كان عليه في العصور القديمة (١). وقد يُعزى هذا الارتفاع إلى السد العالي، بل هو السبب وراءه على وجه الاحتمال، إذ قلّص السد العالي الآثار التي نجمت عن الفيضان السنوي فيما أدى إلى إبقاء منسوب المياه في وادي النيل شمالي أسوان عند ارتفاع ثابت. ولكن في منطقة "الكرنك" هناك تذبذب في منسوب المياه الجوفية يرجع بصفة جزئية إلى فتح وإغلاق قنوات الري المجاورة. إلا أن أقصى اختلاف لا يزيد على حوالي ٧٥ سنتيمتراً، ولا يتجاوز أبداً متراً واحداً، وهذا ما خبرناه خلال تجربتنا التي دامت خمس سنوات من الحفر الدائم.

استطعنا، رغم حالة المستويات الأدنى ؛ المشبعة بالماء، التوصل إلى ما يمكن أن يكون أقدم مرحلة لوضع اليد في شرق الكرنك وتعود الطبقات الدنيا، حتى نقطة ١,٣ متراً فوق منسوب المياه الجوفية، إلى المملكة الوسيطة. واكتشفنا خلال عملية الحفر في أول مربع وهو رقم A، وكان ذلك في مطلع ١٩٧٦ بيتاً صغيراً

مبنيًا بالطوب الأخضر، وحوائطه رفيعة، لا يزيد عرض بعضها عن سمك طوبة واحدة، وكان تاريخ الأواني الفخارية التي يضمها البيت واضحاً لا لبس فيه، رغم ما تعرضت له المنطقة من عمليات حفر مكثفة في أوقات لاحقة: كانت أواني الفخار يخالط لونها حمار البرقوق أو البني اللامع، وهى الأواني التى درج معظم خبراء الخزف في "المصريات" على إطلاق هذه التسمية القضاضة عليها: "أواني المملكة الوسيطة". ولقد كشف هذه البيت عن مرحلتين متميزتين من البناء. وتحتـه كانت تنقف حوائط تنتمي إلى أبنية أقدم عهداً، الأمر الذي يعنى أن السياق الكلى ربما يمثل مرور قرون عديدة. وقد تأكدنا، رغم أن التنقيب لم يكن قد شملها (أى تلك الحوائط. م) بعد، من أن حوائط البيت التى تعود إلى تاريخ مماثل للمملكة الوسيطة تمتد تحت الموقع بأكمله، على الأقل حتى منزل التنقيب المؤقت شمالاً، (أى حتى الركن الشمالي الشرقي لفناء الكرنك الحالي). وكانت عمليات التنقيب التى قام بها كل من "هيلين وجان جاكبيه" تحت رعاية "الإفاو" * (المعهد الفرنسي للأثار الشرقية) قد كشفت عنها، أى عن تلك الحوائط، عند مستوى مماثل على الضلع الشمالي للكرنك أيضاً. ولقد مر نحو عقد من الزمان منذ عثر "جان لفراي" الذي تولى يوماً ما منصب مدير المركز المصري الفرنسي بالكرنك CFE * على أطلال لبيوت مماثلة ترجع إلى المملكة الوسيطة داخل فناء الكرنك، على بعد نحو ١٦٠ متراً إلى الغرب تماماً من المنطقة التى نقوم في الوقت الحاضر بالتنقيب فيها. وأخيراً وفي سنتي ١٩٧١-١٩٧٢، اكتشف بيوتاً ومخازن يرجع تاريخها إلى نفس الفترة بالتحديد، وذلك فوق منسوب المياه الجوفية بالضبط في الفناء الأمامي لمعبد "أوزيريس سيد الأبدية" * داخل الزاوية الشرقية لفناء الكرنك.

تعطينا هذه الأدلة (أى البيوت المكتشفة. م) إنطباعاً واضحاً عن مدينة ضخمة للغاية من المملكة الوسيطة، تمتد لمانتي أو ثلاثمائة متراً وشمالاً "أخ - منو" * الحالي الذي بناه "تحوت - موسي" الثالث في نفس موقع سور الفناء الخاص بمعبد الإله "أمون" وهو الموقع الأقدم الذي يعود إلى المملكة الوسيطة، وظل يطوق مناطق عديدة كي لا تغطيها بيوت الأهالي مرة أخرى حتى العصور الكوشية والصاوية، ويتعين على المرء أن يستبعد خلال أى إعادة بناء، على مستوى

الخيال، أى أسوار لأفنية تستهدف صد الزحف العمراني ، مثل تلك التى بناها في وقت لاحق الفرعون رمسيس الثاني أو "تختانبو" الأول: إذ كان البناء يمتد، على ما يبدو في سائر الاتجاهات، في ظل الافتقار إلى التخطيط العمراني على نحو ما تُشير إليه معظم الأدلة التى تحت أيدينا. فما نراه في المستوى الذي يرجع إلى المملكة الوسطية في الكرنك ليس إلا دليلاً من مستوى المياه المرتفع على مدينة كانت لا تزال حتى وقت ذلك مدينة إقليمية مزدهرة. وبفضل حروب التوحيد التى شنها الفرعون "مونتو- حوتب" الأول وجدت تلك النجوع العشوائية الواقعة على السهل الطيبى نفسها وقد تحولت فجأة إلى مقر ملكي بل وعاصمة لوقت ما. وحتى عندما سادت الأسرة الحادية عشرة، كانت الحاشية الأثرية الفخمة التى قرّرت إضافتها على هامش المتن من نصيب الضفة الغربية وحدها. وقام البناء الفخم الوحيد الذي يليق بمستقر ملكي على الضفة الغربية ويتمثل في المقبرة - المصطبة التى أقامها الفرعون "مونتو- حوتب" في الدير البحري * بصفوف الأعمدة التى تحيطها وفنائها الأمامي التى تحدّه سطور الأشجار. حقاً كانت هناك معابد على الضفة الشرقية، متواضعة الحال، استبق ظهورها، وحسب، الانتصار الذي حققته "طيبة" في أوقات لاحقة: مثل معبد إله الحرب "مونتو" الذي يحمل رأس صقر شمالي الكرنك، ومعبد "موت"، الإلهة الأم إلى الجنوب، ومعبد "أمون" أى "الباطن"، في نفس موقع الكرنك الحالي على وجه الاحتمال. ويبدو من المرجح أن الذين تعطفوا من ملوك المملكة القديمة ومنحوا هذه المزارات الريفية بعض التذكارات الصغيرة لم يكونوا سوى قلة قليلة، إلا أن "طيبة" ذاتها ظلّت بالنسبة لقراعة الألف الثالث ق.م، بناء الأهرامات، تقع خلف الأحرش البعيدة.

غير أن كل ذلك تغير بالنسبة للمدينة، خصوصاً على الضفة الشرقية بصعود الأسرة الثانية عشرة إلى سدة الحكم في مصر (١٩٩٠ ق.م على وجه التقريب). ومع أن مؤسس هذه الأسرة اتخذ قراراً بارعاً بنقل عاصمته إلى مدينة جديدة على بعد نحو ثلاثين أو أربعين ميلاً جنوبى "منف"، إلا أن ابنه وخلفه "سنوسوت" الأول هو الذي ضم "طيبة" إلى الأبد إلى قائمة مدينيه، ببناء معبد جديد للإله "أمون" تحت هذا اللقب الشمسي: "أمون - رع" باسم "عروش الأرضين" وفي محراب هذا

المعبد الذي يُسمى "أفضل الأماكن المختارة" بنى "سنوسرت" الأول مذبحاً ضخماً من المرمر، وزين المنافذ إليه بعدد من المباني الملحقة، إكتشف المنقبون أحدها وأعادوا بناءه وهو عبارة عن مصلى جميل، على جانب الطريق، مسن المرمر. وإلى الجنوب شيد الكاهن الأعلى بيته. وعلى سور الفناء المبنى من الطوب النيسى وعلى الضلع الشرقي يظهر الملك في منظر مرسوم بالألوان وقد استوى على العرش على منصة خاصة وهو يستقبل رجال البلاط، ويصاحب المنظر نص باللغة المصرية القديمة (في المرحلة الهيروغليفية. م) يرجع إلى السنة التاسعة من حكمه، يسجل، على وجه الترجيح شبه المؤكد، وقائع الاجتماع الذي شهد الإعلان عن عزم الفرعون بناء المعبد. وقد هدم الفرعون "تحوت - موسى" الثالث هذا السور بعد ذلك بخمسة قرون كي يفسح الطريق أمام قاعة تستقبل يوبيله، لكنه حافظ على ذكرى سلفه، باستتساخ المنظر القديم في الحجر على السور الخارجى الجنوبى لمجمع الملكة "حتشبسوت". حقاً لم يعد لمعبد الفرعون "سنوسرت" الأول وجود على سطح الأرض، ولكن يبدو مرجحاً أنه كان في حالة تكامل مع المعبد اللاحق للفرعون "تحوت - موسى" الأول (أواخر القرن السادس عشر ق.م.). وإذا كان الأمر كذلك، فالمبنى كان مستطيل الشكل، ويسبقه صرح من الطوب الأخضر (النبي) الذي يُسلم إلى حوش غير مسقوف تحيط به تماثيل أوزيرية للفرعون (كلنت إعادة "تحوت - موسى" الأول بناء المبنى لتتم بالحجر دون أن يعمد إلى تغيير التصميم).

انبثقت نقطة هامة حول العلاقة بين المعبد الجديد الذي بناه الفرعون "سنوسرت" الأول وبين المدينة أو البلدة المحيطة. فكل البيوت في هذه البلدة، سواء أكانت تقع شرق الكرنك أو شماله أو في قلبه، كانت تصاميمها مُتّجة نحو الجهات الأصلية الأربعة وهو ما يمثل بالضرورة الاتجاه الأصلي للمستوطنات البدائية، تلك التي يعود تاريخها إلى عصور المملكة القديمة، إلا أن معبد الإله "أمون" الذي بناه الفرعون "سنوسرت"، مع ذلك ليس مبنياً في نفس الاتجاه على الإطلاق، ولكنه مُخطط بحيث يمتد محوره الأطول (الشرقي - الغربي) بمحاذاة مبنى ما مفقود (معبد ؟ قصر ؟) في "دراع أبو النجا" * في الجانب الآخر لنهر النيل في اتجاه

الغرب، بينما يمتد الطرف الجنوبي للمحور الشمالي - الجنوبي، المتاخم لمعبد الإلهة الأم "موت" بمحاذاة طريق مقبرة الفرعون "مونتو- حوتب" في الدير البحري. وقد تكون خطوط التنظيم الجديدة للعظمة الأثرية في "طيبة" رمزية في جوهرها، إلا أنها تثبت أيضاً أن معبد "سنوسرت" الأول بُنى في وقت لاحق في مدينة كانت مستقرة في الوجود بالفعل ولا تبدى أى استعداد لقبول أى تغيير في تخطيطها كي تتواءم مع هذا المعبد.

قد لا يكشف التنقيب تماماً عن الإجابة، إلا أن هناك دليلاً ضئيلاً توفر الآن كي يُثبت لنا إلى أى حد امتدت المدينة إبان المملكة الوسطية في اتجاه الشرق. فعندما واصلنا حفائرنا في عام ١٩٧٧ بإضافة المربع رقم AB ، غربي المربع رقم A قابلنا في مستوى المملكة الوسطية حائطاً ضخماً من الطوب الني (الأخضر) يصل سمكه إلى ما يزيد على ستة أمتار يسير ، في الحقيقة ، من الشمال إلى الجنوب. والحائط الذي كشفت عنه حفائرنا في الموسم الماضي يقع شرقي هذا الحائط. ولما كان حائط بهذه الضخامة لا يمكن إلا أن يكون سوراً يحيط بمنطقة ما، فإن التأمل يدفع إلى الذهن أن ذلك الحائط قد يكون السور الشرقي للمدينة. وإذا كان الأمر كذلك فإن البيت الذي عثرنا عليه في المربع رقم A يمكن أن يكون واقعاً خارج نطاق المنطقة المسورة. وأياً كان حجم الحقيقة في هذه الفرضية، فإن المربع رقم G الذي حفرناه على بعد حوالي سبعين متراً شرقي أو شمال شرقي المربع رقم A لم يكشف عن أى شئ يعود إلى المملكة الوسطية. وكان آخر متر فوق سطح المياه الجوفية في المربع رقم G قد كشف طبقة إثر طبقة عن شُف تم "تستيفها" بإحكام، تعود إلى المملكة القديمة، الأمر الذي يوحي بأن سطح المملكة الوسطية عند هذه النقطة على الأقل، كان قد آل إلى الزوال بشكل شبه حاد.

صار واضحاً إلى حد معقول ذلك المصير الذي انتهت إليه مدينة المملكة الوسطية، غير أن السبب وراء تلك النهاية لا يزال مجهولاً. كان البيت الذي اكتشفناه في المربع A قد أتت عليه النيران في ذلك الزمن البعيد. وتركت أطلال جدرانه مكشوفة في العراء لمدة طويلة. فأطارت الريح بطبقة الرماد، المتخلفة عن الحريق، في حجراته، كي تتكوّم بسمك أكبر في أركانه عما في وسطه. وأخذت

الريح تحمل الرمل في هبوبها شيئاً فشيئاً حتى حجبت الأطلال المتآكلة عن النظر. وليس هناك شاهد على وجود شاغلين آخرين لهذا البيت لقرون لاحقة، ولعل سكانه أو من بقى منهم على قيد الحياة إثر الحريق قد ارتحلوا إلى مكان ما كما يبدو جلياً. ينبغي لأدلتنا المستقاة من النصوص المعاصرة لتلك الوقائع أن تلقى بمزيد من الضوء على الأدلة الأثرية. ولكن هل ما في حوزتنا من تلك الأدلة يؤدي هذه المهمة ؟ (٢) ليس هناك دليل من أى نوع على أى تدهور في حياة الرخاء التي عاشها الطيبون عندما بسطت الأسرة الثانية عشرة سيطرتها. والحقيقة أن السجلات النصوصية والأثرية، التي تمتد حتى نهاية حكم الفرعون الثاني للأسرة الثالثة عشرة تتفق على استبعاد إمكانية حدوث أى اضطراب سياسي خطير في الجنوب. إلا أن الصورة بعد ذلك تغيرت. فقد خلفه أحد عشر فرعوناً، الواحد بعد الآخر، في تتابع سريع. فلم تتجاوز مدة حكمهم مجتمعين أكثر من عشر سنوات. ومثل هذا التوالي السريع يشير في العادة إلى انهيار السلطة المركزية، وهو الأمر الذي ينجم عنه ضعف القانون وتردى النظام، إن لم نقل السقوط في وهدة الفوضى الشاملة. ولكن الفرعون "سوبك - حوتب" الثاني استعاد النظام في سنة ١٧٤٠ ق.م، هو وخلفاؤه الثلاثة الأشداء، الذين جلسوا في عرش البلاد. ولكن استعادة الأيام السعيدة لم تدم طويلاً. إذ احتل العرش ثلاث شخصيات تافهة، لمدد قصيرة فاستمر حكمهم مجتمعين لنحو ثلاث سنوات وحسب. حمل أحدهم اسماً بغيضاً هو "إمراميشا" (أى جنرال الجيش) والثاني اسماً فظيلاً هو "سوتيخ"، أى "سيت". إلا أن أربعة فراعنة أشداء هم "سوبك - حوتب" الثالث و"نفو - حوتب" الأول و"سي - حتحور" و"سوبك - حوتب" الرابع استعادوا مرة أخرى أيام الرخاء من سنة ١٧٤٩ ق.م حتى سنة ١٧٢٥ ق.م، غير أنه، في الوقت الذي انتشرت آثارهم في سائر أرجاء مصر، إلا أنها لم تكن "تحفاً" يعتد بشأنها. Risorgimento وفى أعقاب ١٧٢٥ ق.م بدأ تدهور بطئ. وبعد أن حكم اثنا عشر شخصاً الواحد بعد الآخر، لم يترك هؤلاء المحتلون للعرش سوى آثار أقل فأقل، حتى وجدنا أنفسنا أمام "قائمة تورينو" * ليس إلا، وهى عبارة عن السجل الوحيد الذي نحوزه بأسماء الملوك. فالقاعة لم يبق فيها سوى الأسماء وحسب، وكلها في حالة

مهشمة إلى الحد الذي يستعصي عليها الترميم، وخصوصاً بعد سنة ١٦٨٢ ق.م. عصر انتفت فيه سلطة القانون، وصعد فيه إلى القمة حملة السيوف المولعون بالضرب والحرب، والأسماء التي تقتفر إلى ملامح، والغمر الصيبانيون وهناك، على سبيل المثال، "صادود" المجاعة الذي نصبه "سخم - عنخ - توى، نفر - حوتب"، الذي أقدم، بما يتناسب حقاً مع المناسبة، على إضافة خرطوش جديد إلى اسمه (في مضخة ميمونة من ومضات الأصالة) "آخر - نفرت". حرفياً: ذلك الذي جاء حاملاً أشياء محمودة، "محبوب الإله آمون"، ذلك الذي دخل مدينته، ومقسومات الحياة تمشي أمامه، (الملتحف) بالأعياد، الملك الجبار الذي يحبه جيشه، الإله حورس الطيب الذي يأتي بالقرابين ويمنح الحياة لمدينته، التي وقعت فريسة العوز: قائد طيبة الجبارة، الإله الطيب محبوب رع، ابن الإله "أمون" ملك الأرباب، حامى مدينته عندما سقطت تحت... المدافع عنها (٢) ضد الأجانب (الذين... لها. البلدان الأجنبية التي تمررت، صعبها الرعب من والده "أمون": الذي أطاح بمعارضة الذين ثاروا ضده" (٣).

يستطيع المرء أن يظفر في ثانياً هذا النص، على ما هو عليه من بعض المبالغة والوطنية والوطنية بلمحة من "طيبة" وقد ضربتها المجاعة، وأحدثت بها عصابات القويين التي يسيطر عليها الاستياء (٢) وأنقذها تدخل قد يكون بلا جدوى كبيرة، قام به ملك لو لم يقدم على ذلك التدخل لما استمر طويلاً في عرشه. لكن النص يتصف أيضاً بصفتين: عنجية وطنية وهراء. ويطلعنا نص غير منشور، منقوش على "صادود" نصبه ملك يدعى "مونتو - حوتب" على الصفة الأولى. فـ"مونتو - حوتب" هو: "حورس الذي يحبه جيشه، إني أنا الملك... الذي رد كيد كافة البلدان الأجنبية وأنقذ مدينته من (العوز)... شبيه "سخت" * في سنة الوباء... "طيبة" هذه هي مدينتي. سيدة البلاد جميعاً. المدينة المنصورة. (٤)

وهكذا كانت "طيبة" في حاجة إلى الإنقاذ، والبلاد الأجنبية تشكل تهديداً، والنصر لا يأتي إلا خلال الحاربة الشرسة، و"طيبة" منصورة، وتقف على رأس كافة البلاد. وتلك هي "التيتمات" التي تستدعي إلى الذهن فني ذات نفس الوقت الأعراف السامقة للأسرة الثانية عشرة والإفلاس التام للثالثة عشرة.

أما المشهد الأخير فقد يكون في مقدورنا أن نطلق عليه ("طيبة" تغرق والحاكم يلهو). فلقد ترك لنا "سوبك - حوتب" الثامن "صادوداً"، وإن كان غير متقن الصنع في معبد الكرنك، مزار العائلة، يقول فيه ما نصه: *فليحيا ابن رع، سوبك - حوتب*، محبوب الفيضان المعظم. يطول عمره للأبد. سنة الحكم الرابعة، الشهر الرابع من فصل الشومو * (الصيف. م) اليوم الخامس من أيام النسئ؟ * *"Epagomenal"* تحت حكم الإله، يطول عمره للأبد! تقدم جلالته إلى القاعة الواسعة لهذا المعبد (الكرنك) كي يلقى نظرة على الفيضان المعظم، وعندما خطا جلالته إلى القاعة الواسعة في هذا المعبد كان الفيضان المعظم. قد بلغ أقصاه وعندئذ خاض جلالته فيه.

نظام ري منهار، وحاكم لا يقع اختياره على أى مائثة *Res gastae* تحت ظل حكمه للاحتفال بذكراه إلا "حفل طرطشة ماء". حقاً كانت النهاية على وشك أن تحل. ويبدو واضحاً أن الأدلة الأثرية على التدمير العنيف للمدينة التي قامت إبان المملكة الوسطية تجد تعزيزاً وتفسيراً لها في "أزمة الاضطرابات" التي ألمحت إليها على استحياء النصوص التي فحصناها قبل قليل.

غزت شعوب ناطقة بالسامية الغربية مصر في وقت ما في مطلع القرن السابع عشر ق.م (نحو ١٦٧٠ ق.م)، وهى الشعوب التي إنقضت تخرّب الدلتا ومصر الوسطى حتى القوصية *Cusae* وأعطى قادة الغزاة، الذين أطلق عليهم المصريون مصطلح "حقاو - خاسوت" (أي الحكام الأجانب. م) الذي حُرف في أوقات لاحقة إلى "الهكسوس"، البلاد الأسرة الخامسة عشرة التي شملت سلسلة من ستة ملوك حكموا مصر لما يزيد قليلاً على القرن. وإبان ذلك العهد انتقل مركز السلطة إلى الدلتا ووقع مصير نصف البلاد في أيدي أجنبية. إلا أن "طيبيين" فقراء ظلوا يتمتعون، بفضل عوامل الجغرافيا أكثر من جهود "طيبة" ذاتها، بنوع ما من الحرية بعيداً في جنوب البلاد.

بين الدمار الذي لحق مدينة "طيبة" خلال المملكة الوسطية في أواخر القرن الثامن عشر ق.م (٩) ومطلع القرن الرابع عشر، استقرت النظرة إلى المناطق الشاسعة المتاخمة لشرق الكرنك كمناطق غير صالحة لسكنى البشر. ولقد أدت

الملاحظة العابرة على امتداد الخمس والسبعين سنة الماضية بعدد من علماء المصريين، واستناداً إلى المادة المتوفرة من الشقف وحدها، أن يرتأوا أن المنطقة استخدمها شعب القبور - القذور كجبانة، وهذه كانت تضم قبور جماعات المحاربين النوبيين الذين انخرطوا تحت إمرة ملوك "طيبة" من الأسرتين السادسة عشرة والسابعة عشرة منذ المراحل الأولى لمحاربتهم الغزاة الأجانب للدلتا، وهم معروفون جيداً من واقع جباناتهم التي تمتد من أسوان حتى أسيوط. وتقوم على أصولهم الجنوبية شبه البدوية شواهد بليغة من فخارهم، وعظام الثيران التي ظهرت في قبورهم، وأسلحتهم. إلا أننا لم نكتشف حتى تاريخه قبوراً - قذوراً سليمة، رغم أن أطفالاً من المنطقة كشفوا النقاب عفو الخاطر عن أحد تلك القبور التي ترجع إلى الأسرة السابعة عشرة .

الفصل السابع

معبد "قرص - الشمس اهتدينا إليه"

(جم - ت - با - أتون)

لا يزيد معبد قرص - الشمس - اهتدينا إليه" أو باللغة المصرية في مرحلتها الهيروغليفية "جم - ت - با - أتون" ، في حدود الأضواء التي ألقها عليه حفاترنا، عن مستطيل بسيط، وإن كان رحباً، تبلغ مساحته حوالي ١٣٠ في ٢٠٠ (٢) متراً، ينظر باتجاه الشرق. ويتكوّن من فناء مكشوف مقسّم على ما يبدو، بجوانب وبوابات جانبية، ويسير حول محيطه الخارجي رواق مسقوف من الأعمدة المربعة، يجاوز ارتفاع الواحد منها سبعة أمتار، بالإضافة إلى ارتفاع أعلى بالتناظر مع السقف. وإستناداً إلى كل عمود يقوم تمثال للملك ينظر باتجاه الفناء (شكل ١١، ١٠، لوحة ٤-٢). والتمائيل منقوشة بألوان زاهية وتصور الملك بتلك الطريقة الغربية والشاذة عن المألوف التي تسم سنواته الأولى في الحكم. حقاً هناك اختلاف بسيط في ذلك الجزء من الفناء حيث تقلّصت عوادي الدهر إلى أقصى حد (أى في الركن الجنوبي الغربي). فالتماثيل تبدو وكأنها تتناوب ارتداء غطاء السّواس المعروف عن إله الهواء "شو" ، وهو الغطاء ذو الريشتين، والتاج المزدوج الذي يرمز لحاكم الوجهين القبلي والبحري. والذي، وهو على أى حال لا ينطوي على أى جديد عما كان عليه خلال عهد والده الفرعون "أمين-حوتب" الثالث، إلا أنه أمعن في تكرار رسمه حتى حدود الإملال. وهو لا يزيد على نُقْبَة من الكتان الخالص لا تصل إلى أبعد من قصبة الرُّجُل، منشأة ومثناة والأحرى مكسرة وتلف حول الردفين، ومعقودة تحت السرة. (لوحة رقم ٧-١) ومعظم التماثيل التي تكشف عن هذه النقبة محفورة في الحجر، ولكن أحد التماثيل يكشف عن بدنٍ عارٍ دون أعضاء تناسلية ! ولقد أثار هذا التمثال الغريب الذي خرطه فن النحات ؛ عدداً لا نهائياً من التساؤلات الرزينة بين زملاء لا ينقصهم الوقار. أليكون هذا التمثال في حقيقة الأمر للملكة "نفرتي" ؟ هل يريد النحات أن يصوّر "أمين - حوتب"

الرابع كُخْنَتِي ؟ هل يعبر الأمر عن مذهب لاهوتي عميق ؟ إلا أنني أستطيع، من جانبي، أن أتصور أن الأعضاء ربما كانت مكسوة بنوع ما من رداء مناسب. وفي سائر الأحوال لا أراني بحاجة ماسة إلى الإشارة إلى أنه من سوء التقدير أن ننقّب عن معانٍ عميقة في مثل هذه الشطفة من دليل واه.

فن العمارة

كانت أعمدة الرواق منحوتة من حجر رملي خشن نوعاً ما، مغطى بقشرة من حجر من نوع آخر، فاخر أكثر. وتصل مساحة قاعدة كل عمود إلى 1.80×2 متر وكانت الأعمدة مفصولة الواحد عن الآخر بما يصل إلى مترين. وكانت معظم الأعمدة بطول الضلع الجنوبي بأكمله منزوعة القشرة حتى فُرَشَات الشَّطَفِ التَّحْتِيَّةِ، فيما عدا تسعة أعمدة في الركن الجنوبي الغربي (سنة إلى الجنوب، وثلاثة إلى الغرب) وحسب تكشف عن كوم من الحجارة لا تزال باقية من تلك القشرة. يشكل حائط المعبد على الجانب الجنوبي ظهر الرواق خلف الأعمدة، وهناك مسافة تصل إلى مترين على وجه التقريب تشكّل ممشى مسقوفاً. أما الحائط نفسه ؛ الذي عثرنا منه، في المربعين A ؛ AB على ثلاثة مداميك، لا تزال باقية في (أساس الخندق) فوصل سمكه عند القاعدة مترين وعشرة سنتيمترات. وكانت هذه المداميك تتكون من أربعة صفوف من القوالب العراضى (أى تلك توضع بالعرض. م) تتناوب مع نواة تتكوّن من ثلاثة صفوف من القوالب العراضى تواجهها على الجانبين القوالب المدادية (أى تلك التى توضع بالطول. م) وهذا الأمر أدى بالتحديد إلى ما كان الحساب التقريبي المستمد من التجربة والخطأ قد تكهن به، أقصد: مداميك متناوبة من القوالب العراضى وتلك المدادى فى وجه الحائط. إلا أن الحائط كان منزوع القشرة تماماً إلى ما دون مستوى الأرضية المعاصرة. ولكن زوجاً من المداميك يرتفع عن مستوى سطح الأرض نجا من عوادي الدهر، لحسن الحظ، في الركن الجنوبي الغربي، فضلاً عن سلامة لفيفة

الحلية المعمارية (لوحات أرقام ٧-٣ حتى ٥). ولقد كشف القطاع خلال الحائط، على النحو الذى بدا عليه، عن "برو" بسيط، وإن كان واضحاً على الوجه الخارجى. أما الوجه الداخلى الذى نُحتت عليه الجداريات، فكان بطبيعة الحال، خلواً من أى "برو" من ذلك النوع الذى كنا قد إستنتجنا وجوده منذ وقت طويل عند التوفيق الفوتوغرافى الذى بدأنا به لكنتل "الثلاثات".

يدور سور الفناء (شكل ٩) المبنى من قوالب الطوب المجففة فى حرارة الشمس، حول محيط المعبد بأكمله، على مسافة تبعد خمسة أمتار من الحائط الحجرى الذى وصفناه للتو. ولم تكشف عمليات التنقيب حتى الآن عن سمك السور، إلا أن أطلاله إستمرت على قيد البقاء فى بعض المواضع إلى ارتفاع ملحوظ نستطيع أن نقول عنه، من الناحية الأثرية، أنه يصل إلى متر أو أكثر. وعلى نحو ما هو معروف عن كثير من أسوار الأفنية فى تاريخ لاحق، فإن مداميك الطوب تكون متماوجة، عند النظر إليها أفقياً، على مسافات منتظمة. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن المداميك العازل للطوبة عند قاع خندق الأساس تتناوب قوالبه عند هذه المسافات، بين قوالب مبنية رأسياً مع قوالب أخرى مبنية أفقياً. وكان باقى الأساس "مستقفاً" بقوالب موضوعة بصورة متسلسلة مع بعض الدقشوم، إلا أن هذا الترتيب الساذج لأول مداميك أرضي ترك أثره على أوضاع كافة المداميك التى تلت مستوى الأرضية.

وإذا كان المعبد ينظر بإتجاه الشرق، على نحو ما تشير إليه كافة الأدلة المتاحة، فينبغى علينا أن نتوقع وجود بوابة أو ربما مدخل فخم على الجانب الغربى. وهنا نجد أن كافة الأطلال قد تعرضت لنهب شديد. ترى أين يحق للمرء أن يتوقع وجود قائمة البوابة أو برجى الصرح؟ لم يبق من كل ذلك شئى اللهم سوى حفرة عميقة تقف على جانبها كتلة ضخمة من الجرانيت وشمالى المحور الشرقى- الغربى، ذلك المحور المظنون للبناء مربعان غير منتظمين غائران فى منطقة سبق لـ "شيفرييه" أن طهرها. فهنا يسير صفان من القواعد الحجرية المستطيلة، يصل طول كل منها إلى ٨٠، ٢٥ x ١ و١ متر فى إتجاه شرقى-غربى، ويتاخما على الجانب الجنوبى حائط مبنى من كتل "الثلاثات" يبلغ سمكه ١,٦٠

مترا، ويسير فى نفس الإتجاه (شكل ١٢) ويكشف وجود هذا البناء غير المتوقع عن شذوذ فى تناسق المعبد فى ضلعه الشمالى، وهو أمر يسبب لنا الحيرة. فهل هذه الأعمدة تشكل، مع الحائط، جزءا من منفذ إضافى من نوع ما، أم أننا بإزاء مبنى منفصل يتطفل على الضلع الغربى لمعبد قرص - الشمس إهتدينا إليه" أو "جم - ت - با - أتون" (لوحة رقم ٦-٧).

إلى هنا زاع منا السور - الحائط الشمالى، وبالتالي تقدير عرض المعبد على نحو دقيق. وفى سنة ١٩٧٦ أجرينا مسحاً بالماجنيتومتر * فى أجزاء متعددة من شرق الكرنك، وكان إختيارنا قد وقع عليها لإجراء عمليات التنقيب. وتمثل أحد أهدافنا؛ فى هذا الصدد؛ عبر سياق من القراءات التى تجرى من الشمال إلى الجنوب، فى محاولة الوصول إلى الحائط الشمالى، الذى سيكون فى إستطاعتنا فورئذ أن نتعرف عليه، أو هكذا شعرنا، بصفته شذوذا بارزا. وكنا قد رصدنا مثل ذلك الشذوذ عند نقطة تبعد حوالى تسعين مترا شمالى الحائط الجنوبى، إلا أنه لم يكن واضحا على نحو ما ذهب بنا الأمل. فمع الأسف، وعلى نحو ما اكتشفنا عندما بدأنا حفائرنا فى هذه المنطقة فى ١٩٧٩، التقط "الماجنيتومتر" وجود الحوائط الأساسية لبيت يعود إلى العصر الصاوى أى القرن السابع والسادس ق.م: لكننا لم نعث على شئ بالمرّة عند مستوى الأسرة الثامنة عشرة الأشد إنخفاضا.

وبناء عليه قمنا بتحديد أو تجنّب قطاع جديد لإستطلاعنا، تصل حدوده، شمالا، إلى أقصى ما يسمح به الإمتياز الممنوح لنا. ووقع إختيارنا على خندق من نوع "أنبوب الغاز" * تصل أبعاده إلى ٣ x ١٠ أمتار ويسير فى الإتجاه الشمالى الجنوبى بعمق شبكة من الخوابير تبلغ ٧٠ x ١٧٠ مترا. وأصبح لزاما على هذا الخندق أن يتحرك شمالا إنطلاقا من منخفض غاية فى الإتساع، ومملوء جزئيا بالماء، وهو الإنخفاض الذى وقفت عنده آخر الحفائر المينوس منها، التى قام بها "شيفرييه" فى سنتي ١٩٥١، ١٩٥٢، قبيل إعتزاله العمل فى هيئة الآثار المصرية. وكان الرجل قد قام خلال هذين الموسمين بمحاولة أخيرة، على نطاق واسع، كى يصل إلى الضلع الشمالى للمعبد. فأنشأ خط سكة حديد ضيقا ونقل الرديم

على عرباته. إلا أن الحظ لم يحالفه فى مسعاه، فلم يكشف أى دليل يستحق منه التقدير (ولو أن المرء يعتقد أن الرجل حصد، على ما يبدو، محصولاً وفيراً من المعلومات). نزلنا بالخندق الذى حفرناه وأطلقنا عليه اسم F.E إلى مستوى الأسرة الثامنة عشرة فى غضون موسمين، وفى أواخر يونيو- بؤونة ١٩٨٠، كنا قد بلغنا سطح كتل "ثلاثات" مهشمة من الحجر الرملي- كانت حوافها المسحوبة ظاهرة، بجلاء للعيان- وتتشابه بصورة واضحة مع مستوى الدمار الذى قابلناه قبل أربع سنوات على الضلع الجنوبي. وعندئذ بدا لنا وكأن الضلع الشمالى قد أصبح على وشك الكشف عن نفسه !

كانت هناك إشارات مواتية كذلك. إذ ظهرت إلى النور ثلاث شُطف تماثيل، إحداهما، ورغم أنها أصغرهما، ما كانت إلا لتشكل جزءاً من صدر تمثال عملاق. أيضاً أشار، وجود ثلاث قطع كانت فى الأصل جزءاً من لفيفة حلية معمارية، ولو أنها لم تكن فى مكانها الأصلي In situ لحظة الكشف عنها، إلا أن أحد الأركان (وهو شمالي غربي دون شك) لم يكن ليبعد كثيراً عنا وتقضى قواعد الإتساق أن يتكرر تنسيق الرواق الجنوبي بأعمدته وجدارياته وتماثيله العملاقة فى الشمال: هذا الدليل الذى إستمدناه من الخندق FE كان متفقاً مع فرضياتنا تمام الإتفاق.

وعود على بدء، كان الإحباط ليصيبنا، فمستوى الحجر الرملي المهشم لم يكن ليزيد فى السمك على خمسة عشر سنتيمتراً بالكاد، ولما كان الحجر قد تفتت إلى نوع من الجريش المندى بالرطوبة، فلقد تبين لنا أن ملامح الكتل عبارة عن أشباح، وشعرنا أن العثور على قطع لا تزال تحمل نقوشاً ليس إلا من قبيل الظنون (ولم نجد لدينا دليلاً على خندق أساس ولا قواعد لأعمدة، رغم أننا لم نكن على مسافة كبيرة من ذلك الدليل. وحاولنا التخفف من فكرة منبئة للعزم لبدت فى تلافيف أدمغتنا: ماذا لو كان "شيفرييه" قد دمر، فى غضون حفائره المهبوسة، هذا الركن دون قصد ؟

زخرفة الجداريات

لم تكن أكوام كتل "الثلاثات" المهشمة، تلك التي تمثل مرحلة تدمير المعبد، محصورة في المربع رقم A ولكن اتضح لنا أنها ممتدة بإحكام أقل إلى الخلف: أي جنوبي الرواق الجنوبي ومنحدرة إلى الركن الجنوبي الغربي. بل ولم تتوقف هنا، فلقد استمرت تسير بإمتداد الضلع الغربي كذلك. (لوحات ٧ من ٧ حتى ٩) والحقيقة، حيثما سارت حوائط كتل "الثلاثات" أيقنا من العثور على أكوام من شطف الحجر الرملى. وفي كل هذه الانقراض المترامية الأطراف، كانت قطع مزخرفة بالجداريات من الحوائط القديمة تظهر، بالضرورة أمام أعيننا. وحتى تاريخه ظهر لنا، من هذا النوع من القطع ما يزيد على ٣٥٠ قطعة، وإن لم نستطيع الإتهاء لها كلها، على الأماكن الصحيحة.

صار واضحاً منذ مرحلة مبكرة في عملنا أن التعيين الدقيق لموقع الشطف المزخرفة في أكوام الرديم ، كان على درجة فائقة من الأهمية. ولما كانت هذه الشطف لا تزال ملقاة حيثما سقطت لأول مرة من نقطة محددة على إمتداد الحائط، ولم تتعرض للنقل بعد ذلك، فإنها تستطيع أن توفر لنا، إذا ما تمكنا من التعرف عليها مفتاحاً ، والأحرى "أماره" إلى نوع المنظر الخاص الذى إستخدمه الفنانون فى زخرفة هذا القطاع المحدد من الحائط. وهنا قفز إلى ذهننا فوراً إحتمال توليف سياقات كاملة من جداريات ظلت غير مترابطة حتى ذلك الحين، على إمتداد مساحة متسعة من الرواق. وبدأنا ندون، بعناية فائقة، مواضع كل القطع المزخرفة، بصرف النظر عما قد تكون عليه من صغر. ومع حلول نهاية موسم سنة ١٩٧٨، كنا قد تمكنا من إعادة تشييد ما يصل طوله إلى أربعين متراً من حائط يقع بإمتداد الضلع الجنوبي، شرقي الركن الجنوبي الغربي وما يصل طوله إلى عشرين متراً بإمتداد الضلع الغربي. وتعين الخريطة رقم (١) الشطف الرئيسية التى نجحنا فى التعرف عليها فى ضوء المربع الذى تنتمى إليه والمسافة التى تبعتها عن الركن، على إمتداد الرواق، كما أن هذه الخريطة تحدد نوع المنظر الذى جاءت

منه تلك القطع.

هناك مفاتيح عديدة هنا تشير إلى طبيعة المناظر وسياقاتها. فالخراطيش الرأسية الضخمة التى أثبتت وجودها القطع القريبة من الركن، على سبيل المثال، تؤيد الظن الذى راودنا طويلا، نتيجة لتوفيق كتل "الثلاثيات" خلال المرحلة التى عملنا خلالها فى المكاتب، من المشروع. ففى تلك المرحلة تعرفنا على نوع من الكتل، يشغل الزاوية الداخلية لركن ما، ويحمل على وجهه آثارا منحوتة لرموز هيروغليفية ضخمة. وكشف التوفيق بين مثل هذه الكتل عن أعمدة رأسية من الخراطيش والألقاب لإله الشمس وهذه تنتهى، بجلاء، بالحدود الرأسية عند نهاية الحائط.

أدى وجود مناظر لرجال بلاط فى وضع الركوع مع بقايا نقف من كلامهم بنا إلى أن نخمن وجود نظائر لها. حقا لم نكن قد توصلنا إلا إلى عبارات محدودة، إنبقت خلال عملية التوفيق، وكانت كلها على لسان الملك. أما الردود الناعمة التى تتسم بالمداهنة، فكانت، من جانب رجال البلاط المجتمعين، عنصرا ذائع الصيت فى مناظر الجداريات المصرية حيث يلقي الملك، خلال "جلسة ملكية" خطابا يحدد فيه الخطوط العامة لاقتراح ما. ولا غرابة البتة فى أن يصور الفنانون مثل هذا الخطاب الذى تتضمنه الإحتفالات على جدران معبد *مصر- الشمس إهتدينا إليه* "أو *جم - ت - با - أتون*".

ولكن الإكتشاف الأكثر إثارة، والمستمد من توفيق القطع التى خرجت من حفائرننا هو الحضور الكلي للمنظر الذى يصور موكب الإحتفال باليوبيل. (لوحة رقم ٧-١١) وكان قد إتضح منذ وقت طويل أن هذا النوع من المناظر هو الأكثر شيوعاً بين ما يمكن أن نتعرف عليه من مناظر خلال عمليات التوفيق بين الكتل التى قمنا بها، ولكننا ظللنا نجهل كيفية استخدام هذا النوع من المناظر والأسباب التى جعلتها تتكرر إلى هذا الحد الذى صادفناه حتى بدأنا حفائرننا. ولم يكن "الموتيف" ليتغير إلا بصورة طفيفة ويشمل سلسلة من النقوش التى تتتبع سياق الحركة. فالملك والملكة يظهران أثناء مغادرتهما القصر وجلسهما فى الكرسيين الإحتفاليين اللذين سيحملان فيهما، بينما يخر الحجاب على وجوههم (لوحة رقم ٧-

(١٢) وعندئذ يحمل الحملون حملاتهم، ثم يصطف حملة الشماسى ويرفعون مراوحهم الضخمة ويركع رجال البلاط (لوحة رقم ٧-١٣) وهنا ينطلق الموكب من القصر، ويصور الفنانون تقدمه فى السجلات الأدنى للحائط. ولكننا لم نستطع حتى الآن، للأسف أن نعيد بناء أى منظر يحتوى على تلك الأجزاء التى تصور لحظة الوصول إلى المعبد فالكثل المعنية مفقودة باستمرار: (لوحة رقم ٧-١١) ولكن ليس هناك شك فى أن المركب وصل، كما هو الحال فى "أخيتاتون" إلى صرح ما وتلقى تحيات الكهنة. (شكل رقم ١٤) على أن فناء المعبد مصور على نحو جيد فى المناظر التى قمنا بتوفيقيها. (شكل رقم ١٥) ودرجت العادة على تصوير الحائط الواحد متعرجاً داخل دائرة مزدوجة، كخط متموج، وتقطع البوابات السرية بين الحين والآخر استمرار الخطوط. وفى بعض الأحيان نجد صرحاً (تذكاريًا) ضخماً بصورى الأعلام والرايات المرفرفة أمام كل ذلك. وداخل الفناء، المحدد وفقاً لرسم بيانى، تظهر العديد من السجلات المصغرة للملك أثناء تجواله بين جـواسق (أكشاك. م) صغيرة غير مسقوفة. ويصاحب الملك فى تجواله ثلاثة من كبار الشخصيات: الكاهن الأعلى للشمس، كبير الكهنة المقرئين، والكاهن الأعلى لـ"نفر - خبرو - رع، واع - ان - رع" (أى الملك ذاته). وتحتل رحلة العودة من المعبد إلى القصر السجلات التى تعلو مباشرة تلك التى يظهر فيها الموكب الخارجى؛ حتى تكفى نفس الرسوم فى القصر والمعبد لتصوير المسيرتين، المتجهة إلى الخارج، وتلك العائدة إلى مقر الحكم، وتقوم بمثابة الحدين، الأيمن والأيسر، لـ"وحدة عضوية" لمنظر جدارى.

تكشف الشطف التى إستخرجناها خلال حفائرننا، بوضوح، أن مثل هذا المنظر يشغل حائط الرواق فى قطاع المربع رقم A وينبغى على المرء أن يتوقف بوجه خاص أمام الدليل القائم بين علامة ٨-٣٢ متراً، وهو الدليل الذى يشير إلى وجود حائط متموج وصرح. وهذا هو النهج الذى يجب علينا أن ننتهجه تجاه المعبد، وتلك فرضية يبدو أن وجود أجانب يركعون، وحضور كهنة فى نفس المنطقة بوجه عام يؤيدانها. وعلى نحو ما كان بوسع المرء أن يتوقع لم نكد نمضى نحو ٣٢ أو ٣٦ متراً من الركن حتى عثرنا على شطف تحمل صورة التختروان،

قبل وبعد حملته على الأعناق، مع حماله. وهنا نكون، بكل تأكيد، قد اقتربنا من ذلك الجزء من المنظر الذي يصور حركة الانتقال إلى ومن المعبد. وقد يشير حمّالو التختروان الراكعين على بعد نحو ٣٧ متراً على وجه الترجيح، إلى نهاية الرحلة ودخول الملك مرة أخرى إلى قصره. وعندئذ تشغل المسيرة بأسرها، من القصر إلى المعبد نحو سبعة أمتار على إمتداد الحائط، ولعله مما ينطوى على مغزى هام أن المنظر كان أكبر منظر جداري إستطعنّا توقيفه حتى تاريخه، أى رقم TS 235، وهو يعد تصويراً مفصلاً رائعاً لإجراءات الموكب، ويشغل مساحة تصل إلى نحو ٧,٥ متراً من واجهة القصر إلى عتبات المعبد ! ولقد إكتشفنا شطفة فى المربع رقم AIII يظهر فيها الملك وقد ارتدى التاج الأبيض (تاج الوجه القبلى م.) ويبدو أنها تكمل جزءاً من المنظر TS 235، وإذا كان الأمر كذلك، فإن هذا المنظر ذاته الذي وجدت كتله وقد أعيد إستخدامها فى الصرح التاسع، سوف يكون قائماً على امتداد الرواق الجنوبي على بعد نحو ٢٩ إلى ٣٧ متراً من الركن (١) أما جزء المنظر رقم TS235 الذي يظهر فيه القصر فيمكن أن يقع على وجه الإحتمال، والحالة هذه، عند نقطة تبعد من ٣٧ إلى ٣٨ متراً: ولكن الشطف على بعد ٣٨ إلى ٤٠ متراً على الحدود الشرقية لحفائرنّا فى المنطقة A تؤيد وجود تصوير لمعبد آخر، لم نهتد إليه بعد، مع الاحتفالات التى جرت هناك. ولا بد أن يشكّل هذا التصوير الطرف الغربى لمنظر يصوّر "موكباً" آخر، وهو المنظر الذى يمكن أن يمتد بطول الرواق لمسافة أكبر بإتجاه الشرق (حيث يقع الآن خندق الصرف). وعود على بدء إلى الغرب، وبينما تتم الشطف المستخرجة من مسافات تتراوح بين ٢٠ و ٢٦ متراً من الركن عن وجود مناظر للشعائر التي تُقام في المعبد، وبالتالى يكون لزاماً أن ترجع فى أصلها إلى الوحدة رقم TS 235 فإن تلك الشطف التى عثرنا عليها بين علامتى ١٨، ١٥ متراً تؤيد وجود القصر مرة أخرى ، فيما بين ٨ و ١٤ متراً يشير الحائط المتموّج مرة أخرى إلى وجود مجمع المعبد، حتى أن منظرنا "موكبياً" آخر، لم نهتد إليه بعد، لابد وأن يكون موجوداً بين نقطتى ٢٠ و ٢٠ متراً.

تجمع الأدلة التى مررنا بها، خلال معاينتها، إذن، على تأييد الرأى الذى

يذهب إلى أن الحائط الجنوبي للمعبد كان مزخرفاً بسلسلة من "وحدات جذارية" تتخذ من مواكب اليوبيل موضوعاً لها. ولا يزال بمقدورنا التعرف على بقايا ثلاث من هذه الوحدات، التي تغطي في مجموعها قطاعاً من الحائط، يمتد لما يقل عن خمسين متراً من الركن. ويظهر في كل من هذه الوحدات التي تغطي في مجموعها قطاعاً من الحائط، يمتد لما لا يقل عن خمسين متراً من الركن. يظهر في كل من هذه الوحدات، القصر والمعبد والأنشطة التي تجرى في كل منها، عند طرفي الوحدة، مفصولة بمدونات مخصصة لتصوير الموكب ذاته. وينبغي علينا أن نقدر أصلاً، أن كل نموذج من "الموتيف" متماثل مع ذلك الذي يقع بجواره وبالتالي فالوحدة الأشد قرباً من الركن يبدو أنها إنطوت على عبارات طويلة على أسنة رجال البلاط أثناء ركوعهم، رغم أننا لا نستطيع التأكد مما إذا كان ذلك يحدث في القصر أو المعبد أو في الطريق بينهما. وكان النموذج التالي للموتيف في جهة الشرق مصحوباً بمناظر لجزارين منهمكين في عمليات الذبح. ونعرف من مصادر أخرى أن الإحتفال باليوبيل كان بمثابة فرصة سانحة للملك كي يُولم للشعب على موائد فاخرة تحتل فيها أطباق لحوم البقر مكانة بارزة. وصور الجزارين والثيران المذبوحة في المجزر تغص بها الكتل التي وفّقناها مع بعضها البعض الآخر. وفي أحيان كثيرة كانت الجداريات تصور بشكل خاص ثوراً سميناً أثناء "ترقيمه" بينما تقوم جماعة من الخدم الذين يتدفّقون حماساً بحره على متن عربة أو زحافة: فلقد ألزمه علاقه القعود لمدة بلغت من الطول حداً أعجزه عن المشي على قدميه وتقوست معه حوافره إلى أعلى. وكثيراً ما تحتل مناظر الجزارة مواضع منخفضة على الحائط، كنوع من التخوم الأفقية على امتداد قاع هذا المنظر أو ذاك، أو على الأقل كان ذلك هو الانطباع الذي خرجنا به حول كيفية استخدام مناظر الجزارة تلك على الحائط في نطاق المربع رقم AB

ولما كان الرواق الجنوبي قد سُهدم تماماً إلى ما دون المستوى الأرضي، فإنه يغدو من الصعوبة بمكان أن نؤكد ما إذا كانت البوابات السرية قد اختُرقت الحائط في نقط معينة. وفي مربعات معينة (مثل AIII، AIV وكل AC) لاحظنا أن عدد الشطف المزخرفة يقل بشكل مفاجئ وحاد، بالمقارنة مع المناطق الموجودة

على أى من الجانبين، وهو الأمر الذي يشي بوجود فتحة ماء، وبالتالي بتقلص مساحة الحائط، التى تسمح بالزخرفة. وفى مربعي AII ، AIV تقطع حفرة عميقة مليئة بكتل من الحجر الرملي خط الرواق، كما لو كانت مخصصة لرفع بناء علوي ثقيل، وعلاوة على ذلك فالشطف الراجعة إلى تماثيل مهشمة (إحدى هذه الشطف تشير إلى صادود) موجودة في المربع AII ، ولما كانت مثل تلك التماثيل تُقام بالقرب من إحدى البوابات، فإنها تؤيد الفرضية التى نقول بوجود فتحة من نوع ما هنا.

استمرت تظهر عينات كتل "الثلاثات" المهشمة، تلك التى قدمت مثل ذلك الدليل الكاشف في المربعات الأربعة من A حتى AD دون نقصان في مربعي (E) و (E E) على الضلع الغربي للمعبد. وكان الخندق الذي حفره "شيفرييه" قد أنزل كافة الكتل من الركن الجنوبي الغربي باتجاه الشمال لمسافة عشرة أمتار. ولكن عند تلك النقطة (أقصد عرض مربعي (E) و (E E) وعارضتهما) فإن مستوى التدمير القديم ، المكتشف ، سليم على حاله لم تلمسه يد.

تقدم الخارطة رقم ٢، للشطف المكتشفة التى يربو عددها على ١٢٠ شطفة، دليلاً على توزيع "الموتيفات". ومضمون نقوش الجداريات في هذا القطاع، لو كان لنا أن نقف عليه، أيسر على التعرف من ذلك المضمون في منطقة A وعود على بدء ، ولما ينطوي على إثارة بالغة أن نتناول مواكب الاحتفال باليوبيل. ولكننا هنا نجد تصويراً أكثر سهولة وعلى جانب من التفصيل واللمسات المنزلية في شطف القصر، المستخرجة من نحو ١٤ - ١٥ متراً، ورغم أنها معروفة جيداً في المناظر الموقفة أى تلك التى وفقناها، إلا أنها غائبة في منطقة A بمحض الصدفة، وهو ما يرتاب فيه المرء. (شكل ١٦) فمناظر القصر يظهر فيها، في العادة، كل من الملك والملكة وقد جلسا الواحد أمام الآخر عبر مائدة تثن تحت الأطعمة، بينما يطوف الخدم حولهما حاملين قناني النبيذ. وتعزف فرقة، بعض أفرادها عميان من آسيا، للزوجين بغية الترفيه عنهما، وعما قليل سوف يطل الملك والملكة من "شرفة التجلي" ويلقيان تحياتهما على رجال البلاط المجتمعين - تحت - في فناء القصر. وتبرهن آثار "التختروان" وحامله، فيما بين ١٤ و ١٨

متراً، على وجود موكب مرتقب إلى المعبد وآخر عائد منه، وفي نفس الوقت تصور معظم، إن لم نقل كل، القطع المستخرجة من المربع رقم E (أقصد من ١٨ إلى ٢٧ متراً) ذلك الموكب.

إلا أن مناظر المعبد بدت مختلفة بعض الشيء عن تلك المناظر المصورة على امتداد الضلع الجنوبي المجاور: ولا يبدو أن هنا وجوداً لأي مناظر للملك أو لمعيته من الكهنة أثناء تقريبيهم القرايين في المزارات غير المسقوفة، ولكن شطفة تحمل رسماً لأحد رجال البلاط خلال قيامه بصب قربان النبيذ في أحد الأحواض، تلقى بنا في خضم سياق "موتيف" قامت عليه أدلة قوية في المجاميع المكررة التي وصلت إلى أيدينا من زخارف معبد *هرص - الشمس* اهتدينا إليه. فالملك يقرب قرايينه على مائدة ضخمة، وأمامه سلسلة من الموائد الأخرى، بمقاييس أصغر، يقف خلفها رجال البلاط، وكل منهم يرفع مبخرة تجاه الملك و/أو يصب باليد الأخرى قربان النبيذ. ويعلو رأس كل منهم نص هيروغليفي موجز يسجل عبارة تبرك، جذلة مفعمة بالمديح، وتقول كلماتها شيئاً ما لا يخرج عن: فليرعك قوس - الشمس، وليهيك آيات الصحة، أيها الحاكم *تفر - خبر - رع*...! ولا بد أن يكون هذا النذر للقرايين قد سبق مد مأدبة على نطاق واسع وعلى نحو ما ذكرنا في وقت سابق فإن مثل هذه المظاهر التي تتخذها عطايا الملك تشكل إحدى السمات الخاصة باليوبيل. ولعله يقع في نطاق مملكة الإمكان أن يكون مد البساط، على نحو ما أكدته الأدلة في القصر عند ١٣ - ١٥ متراً مرتبطاً بهذا الكم الهائل من القرايين المنذورة.

عيد "السد" في مصر

تتخذ معظم، إن لم تكن كل، زخارف الجداريات التي أفصحنا عنها الشطف المكتشفة من معبد *هرص - الشمس* اهتدينا إليه عيد يوبيل الملك، أي باللغة المصرية (القديمة) "عيد السد" ترى ماذا تكون، في حقيقة الأمر، تلك الشعيرة التي سيطرت على العاصمة، إلى ذلك الحد، خلال السنوات الأولى للحكم الجديد؟ لماذا

استولى مستقبل مثل ذلك الاحتفال على لب "أمين - حوتب" الرابع؟ (٢).

يعد السؤال الأول أسهل بكثير من السؤال الثاني لمن يبحث عن جواب. فعيد "السد" كان شعيرة ضاربة في القدم، تقوم عليها شواهد قوية منذ الأسرة الأولى (القرن الواحد والثلاثين والقرن الثلاثين ق.م)، بل وتعود جذورها إلى العصور قبل التاريخية وهي تنتشد العودة إلى تأكيد قدرة الملك ومسؤوليته في حكم مصر. وتشير بعض الأدلة إلى صلة قديمة بين هذا العيد وورود فيضان عال بصورة خاصة، وما ينجم عنه، بالتالي من خصوبة تؤدي إلى جنى محصول وفير بصفة استثنائية. وسواء أكان الأمر كذلك أو لم يكن، فإن "عيد السد" يعد، من جانب الفرعون خطوة لتجديد شبابه، وينطوي على الاستخدام البارز لصور التتويج وتجلياته. ورغم أن الوقت المحدد بالاحتفال به خلال الحكم قد يختلف، إلا أن "عيد السد" كان في الغالب الأعم يجرى الاحتفال به في السنة الثلاثين من حكم الفرعون.

نصادف على امتداد التاريخ المصري إشارات غزيرة إلى هذا اليوم. الثلاثيني سواء في الفنون. أو الآداب، إلا أن اكتشاف ترتيب دقيق لشعائره لا يزال في رحم المجهول. فلم يصل إلى أيدينا في هذا الشأن سوى أربع نبذ ضافية لجداريات وصفية، لكنها موزعة على امتداد ألفي سنة من التاريخ، تلك التي وصلتنا من "أبو غراب" وترجع إلى الفرعون "تي - ووسر - رع" (٢٤٠٠ ق.م)، وجداريات الفرعون "أمين - حوتب" الثالث من معبد "طيبة" المنذور لإله القمر "خونسو" ومن أماكن أخرى، (حوالي ١٤٠٠ ق.م)، والمجموعة التي بين أيدينا حالياً، لمناظر كتل "الثلاثات" المستمدة من معبد "عصر - الشمس" اهتدينا إليه (ولعلها أكثر النُذُ تفصيلاً)، وتصوير عيد الفرعون "أوسوركون" الثاني في مدينة "بواسطة" (حوالي ٨٤٠ ق.م) وكافة هذه المجاميع ناقصة، فضلاً عن أن السياق الذي ينتظم نتفها لا يزال محل جدل. إلا أن الفصول الرئيسية التي تمر بها الشعيرة لم تعرف تغييراً ذا بال على امتداد مجرى التاريخ المصري، ولا يحول بيننا وبين الإقرار بسريانها على هذا النحو إعتباراً من الأسرة الأولى حتى عصور البطالمة سوى اكتشاف سجل مكتمل لتلك الفصول التي تتجلى خلاله الشعيرة. والمحاولة الراهنة للكشف عن تفاصيل المناظر وسياقها على امتداد

جدران معبد "قرص - الشمس اهتدينا إليه" يقرّنا من الأمل، بشكل محدد في أن نعيد في نهاية المطاف بناء الترتيب الذي كانت تمر خلاله شعائر عيد "السد" وهو الأمر الذي سيُعيننا، عندئذ، في دراسة جداريات "أبو غراب" وتل بسطة". وحتى في هذه المرحلة المبكرة من بحثنا، فإن المجاميع الثلاثة الأخرى تبدو شديدة الإيجاز باللغة الهيكلية، مما يزيد أكثر في قيمة إعادة بناء زخارف معبد "قرص - الشمس اهتدينا إليه".

يشكّل "عيد السد" بصفة أساسية إجتماعاً للآلهة والأعيان من مختلف أنحاء المملكة. وهم يستدعون قبل بدء الاحتفال بوقت كاف. ويُعرف عن بعض الاحتفالات أن الدعوة إليها سبقت البدء فيها بما يصل إلى سنة كاملة، حيث يجتمع الضيوف المدعوون سواء من بين الأحياء الفانين أو الخالدين المقدسين في مجمع ضخم من المباني التي تبنى خصيصاً لاستقبال هذه المناسبة في "منف". إلا أن مطرح سير الأحداث قد يتغير بين الحين والآخر، اعتماداً على المكان الذي يتخذ فيه الفرعون مقره الملكي. وكانت التماثيل التي تُعبد عليها الآلهة تُسكّن (أو تُخزّن) على هيئة مجاميع في مزارات تُنصب لهذا الغرض في فناء غير مسقوف وأحياناً على جانبيه، ويُعرف هذا الفناء بـ"فناء الكبار" وكانت المزارات تنقسم إلى قسمين تفصل بينهما مساحة خالية : القسم الأول يعد نموذجاً بالحجم الطبيعي لـ"بيت الذهب"، وهذا المزار الصغير للإلهة الحارسة للوجه البحري : "واجيت". أما القسم الآخر فكان عبارة عن نموذج لـ"البيت العظيم"، ضريح "تخييت"، الإلهة الراحية للوجه القبلي. وكان الزوار المقدسون تُخصص لهم أماكن مؤقتة لإقامتهم وفقاً للصنع الذي جاءوا منه من أصقاع البلاد. كما نجد أيضاً منصة تظللها مظلة أنيقة بالقرب من ذلك الفناء، وانطلاقاً من الرمزية المزدوجة للعيد، كانت المنصة تضم عرشين للملك ظهر الواحد لصق الآخر. وفي ضوء اشتغال العيد على مباني أخرى مخصصة لأداء الشعائر التي ترتبط بالطبيعة المزدوجة للملكة، ومضماراً رمزياً للمدى الذي يصل إليه ملكه، فإن المجمع يرتدى طابع صورة مصغرة لمصر ذاتها !

ومتى نُذرت المنشآت المختلفة الخاصة بـ"عيد السد"، وطهرت بموكب

من حملة المشاعل فإن الدراما المقدسة تبدأ بموكب يضم الآلهة وبيارقهم، ثم الوفود (الأجنبية) وحاشية الفرعون، وبعد ذلك يأتي الفرعون ذاته وقد اعتلى تختروانه الذي يرافقه حملة المراوح. وكان هذا الموكب، باستثناء الآلهة (الذين يكونون منذ ذلك الوقت قد اتخذوا أماكنهم في المزارات المخصصة لهم)، يعود إلى التكرار مرات عديدة على امتداد الأيام المتتالية، كلما قام الفرعون بزيارة كافة المزارات، كل مزار بدوره، في "فناء الكبار". وفي كل مزار يقرب قرايبه للرب المقيم فيه، وينول، في المقابل، القبول باستمراره في الحكم. وبطبيعة الحال كان الفرعون يتخذ الزي الذي يناسب الآلهة الذين يزورهم، فكان يرتدى التاج الأبيض أثناء زيارته للآلهة القادمين من الوجه القبلي ويلبس التاج الأحمر عند زيارته لأرباب الدلتا.

ويتمثل أحد أبرز الفصول التي يمر بها عيد اليوبيل في إعادة مراسم التتويج. فعلى أثر فوز الملك بالقبول من جانب الآلهة، يصعد إلى المنصة كي يتوج، مرة مع ارتداء التاج الأبيض على أحد العرشين ومرة أخرى مع لبس التاج الأحمر على العرش الآخر. ثم يتبع ذلك استعراض يضم كبار المسؤولين والوفود الأجنبية وبينهم عشرة "رؤساء" من الوجه القبلي ومثلهم من الوجه البحري يتقدمون إلى العرش كي يقدموا فروض الطاعة والولاء للفرعون الذي يكون قد توج للتو. وكان هذا التتويج ينطوي على أهمية كبرى في سير الإجراءات حتى أن المزار المزدوج المنقوش على المنصة أصبح بمثابة الرمز الهيروغليفي الذي يعنى "اليوبيل".

وكان الفرعون، عند نقطة معينة في الاحتفال يقوم بأداء جزية شعائرية حول أضلاع مساحة خالية مستطيلة الشكل، وهو يمسك في يده الوثيقة تطلق عليها النصوص اسم "سر الرفيقين" (أي "حور" و"ست") أو "وصية والدي". وأثناء الجري كان الفرعون يهتف: "جريت ممسكاً بسر الرفيقين، أي الوصية التي منحها والدي لي أمام إله الأرض جب". مررت خلال الأرض وبلغت جهاتها الأربع، وجست في أرجائها كيفما حلالي". والرمزية تبدو واضحة: المضمهر هو مصر. أما "السر" أو "الوصية" فهو حق الفرعون في الاستمرار في سدة الحكم، وبالجري في كافة ربوع البلاد ممسكاً تلك الوثيقة في يده يكون جلالة قد استحوذ على إرثه،

وأعاد تأكيد حقه في تولي حكم مصر، وعود على بدء وعلى غرار المزار - المزدوج، فإن صورة الفرعون وهو يخطو خطوة واسعة، قد غدت، في الفن، بمثابة اختزال فعال لمجمل الاحتفال، بل ومؤثر في الشعائر الأخرى التي لم تكن في أصلها تتصل، من قريب أو بعيد، بعيد "السد".

وكان ختام الاحتفالات قصيراً. فهناك إطلاق الأسهم بصورة شعائرية، في الجهات الأصلية الأربع، مع الشدو بالترانيم ثم ينخرط المشاركون في الاحتفال مرة أخرى في استعراض تحفه هالة الهيبة والجلال. وكان الجو مشحوناً بالمرح والفرح، ويمكننا الآن، وكذلك في المستقبل، أن تلقى بقدر من الأضواء الجديدة على تفاصيل هذا العيد، وبصفة خاصة خلال مجاميع المناظر المتكررة، التي اكتشفناها، تزخرف الرواق الجنوبي، وتصوّر الزيارات التي قام بها الفرعون إلى مزارات الآلهة في "فناء الكبار". وتحمل كتلتان من الصرح الثاني نصاً مهشماً يشير إلى تجلّي الفرعون (في المعبد ؟ على العرش ؟) كي يؤدي الشعائر خلال "أيام التاج الأحمر" ويشير نص موازٍ إلى ذهاب الفرعون إلى : تجلّي جلالته في "البيت العظيم" ... خلال أيام التاج الأبيض". ويشكّل هذان النصّان إيماءة إلى إجراءات تقريب القرابين في مزارى الوجهين القبلي والبحري في سبيل الفوز بقبول آلهة كافة ربوع البلاد. وينطوي هذا، بوضوح، على أن زيارات الفرعون للمزارين، كل مزار على حدة، كان عملاً "ممطوطاً" يستغرق أياماً عديدة، وكان ليشتمل ليس على موكب واحد، بل على مواكب عدة إلى المعبد والعودة إلى القصر. ولعل هذا هو السبب في وجود أمثلة عديدة إلى ذلك الحد من "الموتيفات" في المناظر التي تحملها كتل "الثلاثات"، وفي أن أربعة مناظر مشهود على وجودها على امتداد الحائط، متّحدة الاتجاه على الركن الجنوبي الغربي. بل وقد يشير الأمر، إلى أننا نستطيع، طالما ظهرت للعيان حدود الحائط بشكل كامل، أن نضع تقديراً دقيقاً لعدد "الأيام" المخصصة لكل تاج على حدة بمجرد أن نعد عدد المرات التي يتكررها المنظر : ذلك لأن كل وحدة مواكبية يمكن أن تتأطر على وحده الإحتمال الشعائر التي تؤدي في يوم كامل.

كان المعمارىون والمخططون المصريون شغوفين بالتناسق والتماثل في

تصاميمهم. وعلى نحو خاص، كانت الأيقونات الخاصة بأحد وجهي مصر سواء أكان القبلي أو البحري، تجد مكانها وحسب على الحائط الملائم : "فموتيفات" الوجه القبلي تقع على الحوائط الجنوبية، و"موتيفات" الوجه البحري على الحوائط الشمالية. وعلى نحو ما توقّعنا بالضبط، كان الملك يرتدى بصفة منتظمة، في المناظر الذي كشفناها في الرواق الجنوبي التاج الأبيض الطويل، تاج الوجه القبلي، وهذه لابد وأن تكون "أيام التاج الأبيض" وهي تتفتح أمام أعيننا، وبالتالي ستكون "أيام التاج الأحمر" بمثابة الموضوع الذي تنصب عليه الجداريات على الرواق المقابل على امتداد الحائط الشمالي. (لوحة رقم ٧-١٧).

يبدو أن مأدبة عامرة كانت تُقام في نهاية كل يوم عقب عودة الحاشية إلى القصر. وكان الملك والملكة يتناولان عشاءهما في قاعة فسيحة في الداخل، أما رجال البلاط والمسؤولون والموظفون فيتناولون طعامهم في الخارج، أي في حوش المعبد. وكانت هناك "شرفة التجلي" (شكل ١٧) وهـ عبارة عن نوع من شرفة (بلكونة م.) في الطابق الثاني، تُطل على الحوش، وبينما كان المدعون يلتهمون مأكولاتهم يتعطف كل من الملك والملكة عليهم بين الحين الآخر بالتجلي أمام أعينهم. وعندئذ كانت الهتافات تدوي والأذرع ترتفع إبتهاهاً وإمتناناً. وفي نفس الوقت كان الجوق ينهض بصورة تلقائية هاتفاً : "عديدة تلك العطايا التي يستطيع فرص - الشمس أن يمنحها، حتى يروى أشواق قلبه". وإذا ما عدنا إلى الداخل، وجدنا الخطوات أكثر لياقة وإحتشاماً، فبينما يدور الخدم والحشم بصواني الطعام أو يفضون سدادات قناني النبيذ، تقوم فرقة موسيقية نسائية بشكل كامل، بإدخال السرور على قلب الزوجين الملكيين بالعزف على "الهارب"، والعود والأرغول وآلات النقر. وبين الحين والآخر كانت مجموعة من الموسيقيين تنضم إلى العزف بأغطية رؤوسهم، الطويلة المخروطية الشكل وعصابات العيمان التي يضعونها على أعينهم، كرمز، على ما يبدو، إلى أن العمى والبراعة في الموسيقى صنوان، يسيران جنباً إلى جنب في غالب الأحيان. أما ملابسهم النسوية الغربية فلربما تشير إلى أنهم مخنثون في أزيائهم. ونستطيع أن نستدل على وجود نظائر لهؤلاء في نطاق الثقافة الأكادية. ولكن الأصول التي ينحدرون منها، على وجه التحديد،

تظل طبي الغموض. غير أن معداتهم تشير إلى انتمائهم إما إلى شمال سوريا أو
أواسط بلاد الرافدين. (لوحة ٧-١١).

لا يزال موقع هذا القصر، الذي كان الموكب ينطلق منه بصفة يومية،
مجهولاً. إلا أنه لم يكن ليبعد كثيراً عن معبد "قرص - الشمس اهتدينا إليه"، نظراً
لأن الموكب كان يسير على الأقدام، دون حاجة إلى الحناطير. والآن يقع معبد
"قرص - الشمس اهتدينا إليه"، على نحو ما كشفت عنه حفائرنا شمالي المحور
المركزي الشرقي - الغربي، وإن كان متاخماً له، وهو موقع يصرخ طلباً لبناء
موازن يقوم إلى الجنوب من المحور. ولقد كشفت قناة الصرف التي حُفرت في هذه
المنطقة عن قواعد معينة لأعمدة ماء، وهي قواعد تبرز من الشاطئ لمسافة تصل
إلى حوالي ثلاثين متراً جنوبي الرواق الجنوبي. وتشهد مناظر القصر بصورة
زائدة على وجود أعمدة كثيرة عند بناء ذلك المبنى. وأعترف أن هذا دليل هزيل،
لكن هل يمكن للقصر أن يكون بمثابة البناء الذي يتطلبه التناسق المطلوب ؟

هناك بعض الأحداث الهامة التي تجرى في "عيد السد"، ولم تظهر بعد، إلا
بصورة باهتة في الصور التي تحملها كتل "الثلاثات" فالجري الشعائري، على سبيل
المثال، ليس موجوداً هناك. وليس هناك كتلة واحدة أو كتلتين من تلك الكتل،
تُصور، كما هو الحال في "بوابسة" Bubastis "فلاحى الملك" داخل نطاق تحده
أحجار موزعة على هيئة حدوة. ويبدو أن منظر الملك وهو مستقر على عرشه على
المنصة الخاصة، أثناء استقباله الوفود، لم يكتب له، هو الآخر، البقاء. ولست
أعرف شيئاً عن وجود أى تصوير لمنظر إطلاق السهام.

يكشف تناقض غريب عن نفسه بصورة متكررة في مقاومة "أمين
- حوتب" الرابع لوجود "الآلهة" في الاحتفال. ففي "قناة الكبار" على سبيل
المثال، يصور الفنانون المزارات الخاصة وقد انتصبت واقفة، كما لو
كانت تتأهب لاستقبال "الزوار" المقدسين، إلا أننا نرى نفس الإله مرسوماً
في كافة المزارات وكأنه مقيم أصيل: قرص - الشمس يهطل أشعته التي
تنتهي بأياد إنسانية خلال السقف المفتوح في كل مزار على الملك في
الداخل ! وتقريب القربان "ثبت" أى "قربان الطعام" على المنصة الكبيرة

محذوف ؛ ولكن الملك يصعد، مع ذلك الدرج بمصاحبة الموسيقى وغناء الجوق الذي يضم "أطفال الملك". ونجد الكهنة وقد حملوا على أكتافهم البيارق المقدسة، التي ترمز إلى الآلهة الخاصة، وتوصف في أحد الشروح المصاحبة للصور بأنها "الآلهة على صواريخهم". ولكنهم لا يلعبون أى دور في أى مكان آخر. ولم يكن الملك، على ما يبدو ليُشعر بأي نفور تجاه الإلهة - العقربة "سرفت" التي يحمل كاهنها تمثالها خلال الموكب (لوحة رقم ٧-١٨) كما سمح المنظّمون برفع ترنيمة للإلهة "حتحور" ولكن بعد تنقيحها على نحو ملائم بحيث تتخلص من كل سمة ملحوظة لتعددية الآلهة. بل وكانت الآلهة العظمى واضحة الغياب. فلا ذكر هناك سواء لـ "أمون" أو "بتاح" أو "تحوت" أو لأي إله من آلهة الدورة الأوزيرية.

رجال البلاط وعبادة الشمس

كان "أمين - حوتب" الرابع يقد، على نحو ما رأينا، والده الفرعون "أمين - حوتب" الثالث تقليداً حرفياً، ليس في الشكل العام لعيد اليوبيل وحسب، بل وفي التفاصيل وأحجام تصاوير الجداريات المخصصة لتلك المناسبة كذلك. إلا أن مجموعتي الصور الخاصة بهما افترقنا المجموعة عن الأخرى، وكما حاولنا أن نوضح، في ملمح هام، ألا وهو غياب معظم الآلهة في مناظر "أمين - حوتب" الرابع، لكن هناك تناقضاً لا يقل إثارة للذهول.

ففي جداريات العيد التي زين بها الفرعون "أمين - حوتب" الثالث معبده الجنائزي على الضفة الغربية للنيل، وهى الجداريات التي لا نعرفها إلا خلال الشطف التي وصلت إلى أيدينا نرى أن كبار المشاركين في الاختفالات من رجال البلاط والكهنة مذكورون بأسمائهم وألقابهم معاً. وبذلك نستشعر أننا شاهدو عيان نتابع حدثاً تاريخياً نترى فصوله أمام أعيننا، ويشارك فيه أناس نعرفهم مثل "أمين - حوتب ابن حابو" و"رع - موسى" وآخرون غيرهما. ولكننا نلاحظ في جداريات "أمين - حوتب" الرابع، على الجانب الآخر، عدم ذكر أى أسماء، اللهم

سوى تلك التى يحملها أعضاء العائلة الملكية. حقاً نقابل عدداً وفيراً من الألقاب، لكنها لا تهدينا إلا إلى الوظائف التى يتولاها أصحابها وحسب. وبالتالي نجد أنفسنا وحدنا أمام التخمين فيما إذا كان هذا المحتفل هو "ميري - رع" أو أن ذاك هو والد الإله : "آي"، أو أن ذلك الشخص هو "بار - إن - نفر". حقاً كانت تلك هي الأعراف السائدة وقت ذاك، وجداريات "أمين - حوتب" الثالث هي التى تشكل شذوذاً. ومع ذلك فهذا عينه ما يدفع عيد اليوبيل الذي أقامه "أمين - حوتب" الرابع إلى عالم الأزل المفارق للواقع.

وليكم قائمة بشروح الصور، تستهدف نصوصها أن توصل إلينا الأهمية المسندة للوظيفة ، عوضاً عن الشخصية التى تؤدّيها في الجداريات. ولقد تكورت معظم هذه النصوص بصورة مرهقة، كلما صوّر الفنانون الحدث المعنى، ولعلها تلقى في روع المرء بقدر ما من الاستثارة والغیظ.

١- (إلى جوار حملة كرسي التختروان الخاص بالملكة) : حمل الزوجة الرئيسية للملك في أعقاب جللته خلال أداء شعائر عيد "السد".

٢- (فوق الكاهن الذي يحمل مبحرته وينحني جانباً أمام الملك الذي يخطو) : حرق البخور قدام جللته (لوحة رقم ٧ - ١٢)

٣- (فوق صف من الأشخاص يسجدون عند مغادرة الملك لقصره) : تقبيل أمناء البلاط للأرض.

٤- (فوق الملك ؟) مستريحاً في المعبد (في ؟) بيت قرص - الشمس... معطياً أوامره (إلى ؟)

٥- (فوق الوزير) مؤدياً طقس الإبتهاال أربع مرات). عمدة المدينة والوزير.

٦- (أمام الملك الذي يحمل صينية القرابين). الملك "أمين - حوتب" رافعاً القرابين إلى قرص - الشمس.

٧- (فوق الملك الذي يسير) نازلاً بسلام نحو بيت قرص - الشمس في "أون" الجنوبية *... كل البلاد ممتدة تحت قدميه، وتؤدي كل ما يدخل السرور على قرص - الشمس.

٨- (السباق غير واضح) تنصيب الملك في "أون" الجنوبية في بيت قرص -

الشمس.

٩- (فوق أحد رجال البلاط الذين يبخرون ويؤدون شعيرة "الصبيان" (صب النبيذ.
(م أمام الملك) : فلتقبل هذه الأشياء الرائعة الحرة الصافية لروحك، يا أنت يا ابن
قرص الشمس.

تكتنف هذه الشروح المتكررة صور الملك والملكة. حيث تعطى الملك كافة
ألقابه كي يتجلى كـ :

"حورس ؛ الثور الجبار، طويل الريش، (صفي السيدتين)، عظيم الملكية في
الكرنك حورس الذهب : ذاك الذي يعلو هامته ناجان في "أون" الجنوبية، ملك
الوجهين القبلي والبحري، ذاك الذي يفتات بالصدق، سيد الأرضين، نفر - خبرو -
رع، واع - إن - رع ابن رع، الذي يفتات بالصدق، "أمين - حوتب" المقدس،
حاكم طيبة ليتمتع بعمر مديد "أما صفات الملكة فتكاد تجعلها تبدو وكأنها صرة
حية من السحر : سلية النبل، عظيمة الحظوة، صاحبة الفتنة، نافحة الغبطة، سيدة
الوجهين القبلي والبحري، الجميلة المليحة في ريشتها، مسكنة قلب الملك في بيته،
ناعمة الصوت في سائر الأوقات "تلك التي يبتهج الشعب لسماع صوتها، زوجة
الملك الرئيسية، التي يهفو إليها فؤاده، سيدة الأرضين، "نفرتي" (لوحة رقم ٧-
١٩)(٣).

وتأخذ الأسماء في الاختفاء أسفل الصف الذي يضم كريمة الملك. وتحضر
سيدات الحريم (؟ م) على هيئة مجاميع، وقد بدا عليهن جميعا الشموخ، فيسرن
بصحبة الملكة ولا يركعن أبدا لأحد. إلا أن الأمر متروك لنا كي نخمن أيهن
أخوات الملك وأيهن بنات عمومته أو خؤولته ومن منهن عماته أو خالاته. ونرى
الكهنة رافعين بيارقهم، وآباء الإله * يقدمون باقات الزهور، والوزير، والكاهن
الأعلى للترتيل ورجال البلاط، ونكاد نوقن أننا نشاهد أمام أعيننا شخصا نظنه
الوزير "رع - موسى" أو كاهن الترتيل "ميري - ماعت" ولكن تجوزنا الأسماء ،
التي كانت لتؤكد ظنوننا هذه.

القواعد السارية على معبد الشمس

كان "أمين - خوتب" الرابع أشد حرصاً على تدوين التعليمات التي كانت لتحكم سير العمل في "مزاراته" الجديدة. فالصوايد بل والحائط نفسه، قرب مداخل معابده، تحمل الإرشادات الرسمية بشأن القرايين التي يتعين تقريبها بصفة يومية لإله الشمس منقوشة لكل من يرى (٤). وكنا قد اكتشفنا واحداً من مثل هذه الصوايد، ضمن ما اكتشفناه، في حشو الصرح التاسع، إلا أن هذه الإرشادات وجدناها مصورة في الجداريات التي تحملها قطع "الثلاثات" خمس أو ست مرات. ويقول أحد النصوص النموذجية في هذا الصدد؛ رقم : T S 256 (هذه هي قرايين الإله التي قررها جلالته لوالده قرص - الشمس" في قائمة بالأطعمة التي يجب أن تُقدَّم بصفة يومية على (مذبح) رع الكائن في (مساحة متروكة خالية) : بيت - Bit خبز، حصة الخباز * التي تبلغ أربعين. (عدد غير محدد) أرغفة، بسن Pisen - أرغفة حصة - الخباز التي تبلغ أربعين، سبعة وثمانون رغيفاً : أبريق من البيرة، في حصة الخمار التي تصل إلى عشرين، ٣٣ أبريقاً.. إجمالى مختلف (أنواع الطعام في قرايين الإله، ٢٥٦ : حمام. اثنان، بخور. Hin قنينة (واحدة) : خضراوات حزمة. خضراوات، أربع حزم. لبن (عدد غير محدد) من الأقساط.. وهكذا. وتشير قوائم القرايين التي وصلتنا بالأطعمة اليومية لمعبد الشمس في "منف" إلى كميات أكبر.

ولقد نجت أيضاً إرشادات القرايين المقربة إلى مزارات أخرى من عوادي الدهر كي تصل إلينا سليمة. وبناء عليه فإننا نجد لذلك البناء المسمى : بيت ذاك الذي يبتهج في الأفق، ولا نعرف عنه شيئاً آخر ما يلي : قرايين الإله التي وضعها جلالته لوالده (قرص - الشمس) خلال راحته في بيت ذاك الذي يبتهج في أفق قرص الشمس في "أون" الجنوبية، أول الأماكن الراقية التي استقر فيها "رع" : بيت Bit خبز.. أبريق مملوءة بالبيرة : ستة عشر، حمام : ثمانية (... ذلك الذي أعطاه والد الإله، الأول المقيم في بيت قرص الشمس وخبز بيت أبريق

مملوءة بالبيرة. حمام : ثمانية. باقات زهور : أربعة. حزم من الخضراوات : سبعة لبن : ثلاث (٩) سلطانيات...).

وليس من المستغرب بحال من الأحوال أن يتكفل كبار الكهنة بتقريب جزء من هذه القرابين. وكان دخل المعابد من الأطعمة يأتي، عادة، عن طريق فرض ضريبة، أو مكس على هيئة حصة نسبية (عينية) على قرى وعزب ووحدات إنتاجية معينة بالإضافة إلى المسؤولين الرئيسيين في المنطقة المحيطة. وكان يتعين دفع هذه الضريبة بصفة سنوية، إلى أبد الدهر، بصرف النظر عن أى تغير قد يطرأ على المسؤولين في الجهة المعنية (كالعزل أو الوفاة الخ) ولقد سبق لنا أن سمعنا "بار - إن - نفر" يشمت، بأن تحويل دخول أملاك المعابد الأخرى إلى معبد قرص - الشمس، أدى على وجه الاحتمال، إلى زيادة ثروته (أي ثروة ذلك المعبد) بصورة تتجاوز حدود المعقول. ويبدو أن "بار - إن - نفر" كان يدير الحديث، على وجه الاحتمال، حول الحصص النسبية التي كانت قد أصبحت مقررة وقت ذاك لصالح المعابد الجديدة. ويشير أحد النصوص وهو رقم TS 8842 إلى الخبز والبيرة التي تشكل الحصص النسبية المقررة بصفة سنوية، الموجهة إلى "بيت قرص - الشمس"، ويمضى "بار - إن - نفر" في سياق متقطع كي يرمي ضمناً إلى أن الكاهن الأعلى للشمس كان مسؤولاً بصورة أو بأخرى عن الأمر. ويحدد منظر رائع التلوين لمواشي مسمنة أثناء سوقها إلى زرايب المعبد وعدد الأبقار والثيران التي دفعها المسؤولون عن المنطقة كمكوس. وتشير الكتل التي بين أيدينا إلى هذه الضريبة التي تدفع كرؤوس مواشي (تتراوح في العادة من خمس إلى عشر رؤوس لكل مسئول) كانت تفرض على عمد، ما يصل على وجه التقريب، إلى ست قرى في الوجه القبلي. ولكن هناك نصاً جديداً أكثر احتمالاً اكتشفه المركز المصري الفرنسي C. F. E. ولسوف يحدد من خلاله "كلود ترونيكر" في القريب العاجل بتفصيل ملحوظ التبرعات المنتظرة من كبار الشخصيات والمديريات في سائر أرجاء مصر، وقد

أدرجت في قوائم خاصة في ترتيب جغرافي. ولعله لمن المحتمل أن السلع أى المواد المصنعة كانت تأتي أو من المنتظر أن تأتي لـ "عيد - السد" بوجه خاص من الشرائح الدنيا والوسطى من الموظفين. ويشمل هذا النص - القائمة الوالد الأول لإله المعبد وحاكم "سايس"، ومحاسب المواشي وناظر منابع النيل، وأمين صندوق بيت قرص - الشمس، وكاتب شئون الغلال، وراعى المواشي المختص بأغنام النهر الغربي ورئيس المشرفين على مخازن البيرة في الحي الجنوبي وراعى المواشي المختص بالماعز... في الحي الجنوبي، ورئيس المشرفين على مخازن البيرة في زمام النهر الغربي.

ويمكننا عدد من كتل "الثلاثاء" التي استخلصناها بصورة أساسية من حشو الصرح الثاني، من إلقاء نظرة عميقة على ثروات المعابد الجديدة التي أنشئت في "طيبة" أو "أون" الجنوبية إذ يبدو أنها، أى تلك الكتل تعدد أملاك المنشأة وموظفيها : اثناث بيت قرص - الشمس الذي (..) ٦,٨ ٠٠ شخصاً، (...) (مستحقاً) تهم في كل (سنة) قدمت إلى بيت قرص - الشمس (ثم تتبع ذلك قائمة بالأقمشة) ٣,٦٢٢ شخصاً (عدد غير محدد)... رعاة قطعان (..) رئيس "بتاع" (..) ١٠٤٩ شخصاً (..) مستحقاتهم في (السنة..) قدمت إلى بيت قرص الشمس (ثم تتبع ذلك إشارة إلى الفضة). ويبدو في مواضع أخرى أن الإجمالي يتراوح حول ٤٠٠ ألف صنف غير محدد بالإضافة إلى ٢٢ ألف رغيف أبيض كبير، وأكثر من ٢٦٠ برميلا من النبيذ الخ. ويبدو أننا أصبحنا هنا بازاء مواد تموينية جمعت خصيصاً من أجل عيد اليوبيل.

ويقدم لنا هذا الكم الهائل من الأطعمة، التي جمعتها الدولة كي تغدق بها على الأهالي خلال عيد اليوبيل من باب السخاء الملكي عوناً أكبر في تقييم جو الغبطة العميقة والولاء الحار للذين كانوا يأخذان بأفئدة العوام الذين ينتظرون قدوم العيد. وليس هناك وسيلة أفضل يمكن أن تمر بالخيال لجمع الأمة المصرية وتذكير مواطنيها بالنظام السياسي الذي يدينون له بكل ما يملكون. وكان مثل ذلك العيد بمثابة واحدة من المناسبات القليلة التي تمر بهم، في حياتهم القصيرة نسبياً، التي

يستطيع خلالها الفلاح والأجير والحرفي أن يستمتعوا بوجبة مشبعة ولا عجب
للأيدي التي ترتفع إبتهاها نحو "شرفة التجلي"، ولا للأحواش الملكية التي تضحج
تحت جوق يضم آلاف الأصوات في قصيدة طويلة من ديوان المديح. فأن تحوز
رضا الملك يعني أن تتال الطعام.

الفصل الثامن

أفق قرص الشمس

انتقل الفرعون المارق ببلاطه، في وقت ما من سنته الخامسة في الحكم من "طيبة" إلى عاصمة جديدة في مصر الوسطى. وقد يبدو أن الانتقال حدث بصورة فجائية، إلا أن النية كانت في حقيقة الأمر، معقودة عليه. ولقد أثبت ذلك الانتقال أنه كان بمثابة أبرز خط فاصل في تاريخ فترة "أخيتاتون" وعند هذه النقطة، بالتالي، دعونا نجرى جرداً سريعاً، للمرحلة السابقة أى مرحلة "طيبة"، من هذا الحكم غير المسبوق، قبل أن نمضي قدماً نحو حل عقدة الدراما.

الطابع العام للسنوات الطيبة

لا بد وأن يكون عيد اليوبيل، بطبيعة الحال، بالنسبة لمعاصريه أعظم حدث خاص في تلك السنوات. ولا يستطيع المرء إلا أن يرى الاحتفالات الموالية (من مولد.م.) الثلاثة التي شهدها العقد الأخير في حكم "أمين - حوتب" الثالث قد أثرت على "أمين - حوتب" الرابع الشاب في اختياره لشكل العيد وسأحته. فمعظم الشعائر الخاصة، والنصوص التي استخدمها "أمين - حوتب" الثالث عادت إلى الظهور، بعد "تطهيرها" من سمات التعددية، بشكل ملائم، في عيد اليوبيل الذي أقامه ابنه "أمين - حوتب" الرابع. ولا ينبغي أن ننسى في هذا الصدد أن "أمين - حوتب" الثالث ذكر يوماً أنه اكتشف نظاماً قديماً لشعائر "عيد السد" في الأراشيف (١). ولقد اتفق "أمين - حوتب" الرابع، دون شك، أثر الأصل المنقح للعيد الذي عثر عليه والده. ولكن مشكلة ما، مع ذلك، نطل قائمة، تتمثل فيما دعا "أمين - حوتب" الرابع إلى اختيار الذكرى الثانية لارتفاعه العرش كالمحور التقويمي لاحتفاله.


ولعل الاكتشاف الأعظم الذي توصل إليه البحث الحالي هو المكانة الرفيعة التي تمتعت بها الملكة "نفرتي" في فترة أخناتون. ولقد فسرنا الأدلة، المستقاة من هذا الصدد، من مجال الفن بصورة كاملة بصفتها تعكس أهمية دينية وسياسية، إلا

أننا لا نستطيع المضي في الوقت الحاضر إلى أبعد من ذلك. هل كانت نفرتيتي من أهالي "طيبة"؟ هل كانت سيدة متسلطة؟ هل كان كثير من أفكار الملك، زوجها "الثورية" في الأصل من بنات أفكارها هي؟ هل هناك أب آخر، خلاف "أمين - حوتب" الرابع لبناتها؟ ليس في طوع هذه الأسئلة أن تتلقى كلها بالإيجاب، إلا أنها تساعدنا في رسم مجرى لتأملاتنا في الوقت الراهن. وتتلخص المشكلة في هذا المجال في أن طبيعة الأدلة تتطوي على مفاجآت غير متوقعة بالمرّة. فمن كلن يظن على سبيل المثال، أن معبد "بيت حجر" "البنين" قد خصص لاستعمال الملكة؟ ويبدو أن إقحام الملكة في مثل تلك الموتيفات الحربية الطابع كمنظر ضرب الأعناق واضحة إلى درجة كافية فيما ترمى إليه بصفة عامّة. ولكن إذا كانت جلالتها قد تمتعت بكل ذلك الحضور السياسي، لماذا لا يرد لها أي ذكر في المراسلات الدبلوماسية التي أجراها زوجها؟ ولسوف نرى عما قريب تدهورا تدريجيا خلال فترة "أخيتاتون" في أقدارها، إلا أنها ظلت في الصورة على الأقل حتى رحيل زوجها بل وربما بعد ذلك.

تصدّنا الابتداعات التي أدخلها "أمين - حوتب" الرابع، مثلما صدمت، على وجه الإحتمال، معاصريه بفجائيتها التي تثير الذهول. ويفترض البعض أن عدداً كبيراً من الأشكال التي إستصوبها جلالتة، مستلهمة من اللاهوت الأوني. فللتصميم البسيط المكشوف (غير المسقوف) الذي تبناه لمعابده، على سبيل المثال، مشتق، فيما يقال، من أصل "أوني" (هيليوبوليتي). وقد يكون الأمر كذلك، ولكن ما من أحد يستطيع أن يقول أنه كذلك بصورة مؤكدة. فنحن لا نعرف إلا أقل القليل عن "أون"، فلم نخضع الموقع وليس في مقدورنا أن نخضعه للتقريب إلى حد كاف، حتى نخطو باطمئنان، خلال تتبعنا لمنابع عناصر العبادة الجديدة حتى أشكالها الأولى في موطنها الأصلي هناك. ولا نستطيع أن نتوقع من الأدلة المستقاة من مجال الفن، بحال من الأحوال، الكشف عن ردود الأفعال التي أبدتها الأهالي تجاه الصدمة الأولى التي تلقوها عندما وجدوا معابد قديمة مغلقة وأخرى جديدة مفتوحة ومزخرفة، أيضاً، بأسلوب جديد فاقع. فليس في وسعنا أن نعثر في الوجوه السعيدة سواء لرجال البلاط أو الكهنة أو عامة الشعب من العلمانيين أي (غير رجال

الدين م.) ممن يحيطون بالملك في الجداريات أى ظل للاستهجان. والجيش موجود في كل مكان أما خلع الولاء فلا أثر له. وهذه قراءة دقيقة على وجه الترجيح الكامل للأدلة المستقاة من فن التصوير : إنطوت العبادة الجديدة، وبصفة خاصة، عيد اليوبيل، على مثل ذلك الإنفاق الواسع من ثروة الملك على هيئة أطعمة متنوعة وهدايا مختلفة لجموع الأهالي، مما يخفف معه الامتنان بادئ ذي بدء أى قدر من السخط. ومع ذلك فهناك نوع ما من "البرطمة" لا تخطئه أذن. ففي نص يرجع إلى وقت لاحق، يقسم فيه "أمين - حوتب" الرابع ألا يغادر بالمرّة مقره الجديد في مصر الوسطى . ويشير خلاله، من طرف خفي إلى ما أسماه "الكلمات الأثمة"، التى كان والده وجده مضطرين إلى الإنصات إليها، بل واضطر هو شخصياً في عصره إلى سماعها. إلا أننا لا نستطيع أن نميّ أنفسنا بطبيعة الحال بأن نعثر على أى توضيح لهذه الإيماءات المبهمة، ولكنها تعكس ، بقوة ، نقداً عاماً للخطوات التى إتخذها الملك.

وسواء أكانت المعارضة خطيرة أو غير مؤثرة، سافرة أو خفية، فلقد إتضح أن الخطوة التالية التى خطاها الملك مباغطة ولا رجعة عنها : هجر هو وبلاطه "المدينة الجنوبية". ولم تكن "طيبة" هذه، هي المدينة الوحيدة التى انتفعت من الزخرفة وفقاً للأساليب الجديدة التى جاءت بها العبادة الجديدة : كانت "أون" قد حصلت على معبد - شمسي يدعى : "أمين - حوتب" هو مُجد القرص" (٢). وكانت "منف" بمثابة الموضع الذي أقيم فيه أحد المزارات وفق أحدث الطرز (٣). وفى النوبة في أقصى الجنوب بدأ المهندسون والفنيون في إنشاء معبد على غرار قرص - الشمس اهتدينا إليه" أو "جم - ت - با - أتون" أطلق إسم "جم - أتون" أو قرص الشمس وجدناه" ، وربما تباهات "سام - بحدت" في شمال الدلتا بمعبد آخر للشمس كذلك، إلا أن الملك لم ينتقل إلى أى من هذه المواقع. فلقد وقع اختياره على موقع إختاره له - كما يقول - قرص - الشمس نفسه، وهو موقع قد يكون الملك قد اكتشفه خلال رحلة ما، غفل عنها التدوين، انحدر فيها مع نهر النيل. ويصفه "أمين - حوتب" الرابع كـ "مقر قرص - الشمس لدى الحدث الأول" أى لدى اللحظة الأولى للخلق، وهو المقر الذي أوجده لنفسه حتى يستقر فيه متى شاء.

ولم يكن ذلك الموقع سوى سهل فسيح تذرّوه الرياح، تبلغ مساحته سبعة أميال طولاً وحوالي ثلاثة عرضاً، ويقسّع على الضفة الشرقية للنيل في "مديرية الأرنب" في مصر الوسطى. وإذا ما نحينا جانباً، ذلك التشابه الغامض، وإن كان مثيراً للفضول، بين الموقع عندما ينظر إليه المرء من النهر وبين الرمز الهيروغليفي لكلمة "الأفق"  (٤) فإن ذلك الموقع المقفر لا يملك شيئاً ذا بال يزيه. فالصخور الوعرة تتقهقر عن النيل تاركَةً خليجاً رملياً عميقاً، لا ماء فيه، وترتفع حرارته إلى درجات قصوى، ولا يملك سوى أضيق شريط من الأرض القابلة للزراعة على إمتداد نهر النيل. ويقترب الموقع من الطريق الذي يقود إلى محاجر المرمر في "حانتوب" وقبل أن ينحت نبلاء المديرية مقابرهم في الصخور التي تطل على الطرف الشمالي لذلك السهل بألف سنة. وإذا صرفنا النظر عن الأطلال الباقية من قرية أو قرينتين ترجعان إلى تاريخ أقدم فإن "أفق - قرص - الشمس" أو "أخيناتون" ذاك، كما دعاه الملك "أمين - حوتب" الرابع لم يكن سوى موقع بكر، وحتى مدينة الأشمونين العتيقة، موطن "تحوت" إله الحكمة، والواقعة أمامه بالضبط على الضفة الغربية للنيل لم يترك أثراً ثقافياً على سائر المنطقة التي ضمته.

ورغم أن عزم "أمين - حوتب" الرابع كان قد إختمر في السنة الرابعة من حكمه، فلا يبدو أنه إتخذ أى خطوة نحو الانتقال إلى الموقع الجديد حتى سنته الخامسة. وعندئذ ظهر المخططون والمساحون والبنّاءون في هذا الموقع المختار وبدأ العمل بوتيرة محمومة.

إلا أن الملك لم يكن قد إنتهى تماماً من "طيبة". فقبيل الرحيل، وعلى غرار الطلقة الفارسية (أى طلقة الانسحاب.م) على وجه التقريب كشف عن نواياه الحقيقية في تحطيم التقاليد المتوارثة. فأعلن أن الإله "أمون" ملعون، وغير إسمه من "أمين - حوتب" المقدس، حاكم "طيبة" إلى "أخيناتون" التي تعنى على وجه التقريب : ذاك الذي يخدم "قرص - الشمس" أو "روح قرص - الشمس" التي تحفها هالة المجد". وفي كل مكان، سواء في "طيبة" أو غيرها من المدن، غطى العمال في كل معابد الشمس التي بناها جلالته، الجزء الثاني من الخراطيش الملكية بعجينة من

الجبس، وأعادوا نقش الاسم الجديد مطرح القديم (اللوحتان رقم ٨-٢٠١) وفي نفس الوقت، ودون شك، أرسل حاملي البلط كي يطوفوا خلال سائر المعابد في أرجاء البلاد لينتهكوا قدسية اسم "أمون" أينما ظهر، سواء على الحوائط أو الصواديـد أو المقابر أو الأعمال الفنية. ولم تسلم من الكشط أيضاً أسماء الآلهة الشبيهة، "موت" الإلهة الأم و"أوزوريس" إله الموتى وآخرين، ولكن بدرجة أقل. وبلغ برنامج الكشط هذا من الاتساع والتدقيق في حقيقة الأمر، حداً يستطيع معه الباحثون اليوم في غالب الأحيان أن يحددوا تاريخ أثر ما وما إذا كان سابقاً أو لاحقاً لفترة "أخيتاتون" بفحص الرمز الهيروغليفي للإله "أمون". ويبدو واضحاً، وإن كنا لا نملك على ذلك دليلاً، أن هذه الفترة شهدت مصابرة ممتلكات المعابد، بصورة رسمية وقت ذلك، بعد أن ظلت تعاني لخمس سنوات متتالية من انخفاض عائداتها. وبحلول السنة السادسة كان العائد الذي تغله أملاك "أمون" في طريقه للتحويل إلى "بيت القرص" في المدينة الجديدة "أخيتاتون". كما توقف العمل كذلك، في بناء معابد الشمس في "طيبة". ونزل الصمت وقت ذلك على أفنية معبد "قرص الشمس اهتدينا إليه" بعد أن ضجعت في يوم ما بتهليل الجموع الحاشدة خلال "عيد السد"، بل وهُجرت لاثنتي عشرة سنة. وتركزت الجهود الآن على تشييد المدينة الجديدة "مدينة الأحلام": "أخيتاتون" أو "أفق - القرص" (٥).

تشييد أخيتاتون

في وقت ما خلال السنة الخامسة لحكمه، وصل "أمين - حوتب" الرابع أو "أخناتون" كما سنسميه من الآن وصاعداً، إلى موقع التشييد مع بلاطه، ولم يكن قد اكتمل بناء أى مبنى حتى تاريخه، بل ولم تكن المباني في معظمها أكثر من تخطيط مرسوم على الأرض، إلا أن الملك كان يريد، بفارغ الصبر، أن يعيش مع أبيه "قرص - الشمس" في مدينته الخاصة. وفي سبيل ذلك كان على استعداد لأن يحتمل السكنى في أجنحة مؤقتة. ولقد أقامت العائلة الملكية بقية تلك السنة وجزءاً لا بأس به من السنة السادسة في نزل سابق التجهيز، قد يكون على وجه الاحتمال أشبه

بالخيمة، تسمى في النصوص "غرف" (٤) الخيمة" (٦).

تمثل أول الأمور في رسم حدود الموقع. ولعله من الواضح أن "أخناتون" تخيل رقعة لوالده قرص - الشمس، أوسع قليلاً من هذه التخوم الضيقة للفضة الشرقية لنهر النيل، رغم أن تلك كانت الرقعة المخصصة لتشييد المدينة ذاتها. فنحت الفنيون ١٤ صادوداً في الصخور الحية لتحديد التخوم، وامتدت هذه الصواديذ على هيئة قوس ضخمة عبر نهر النيل وبحر يوسف (حالياً) حتى حافة الصحراء الغربية ثم عادت مرة أخرى وبالتالي حددت معالم مدينة "أخناتون" (الكبرى). وكان الفنيون قد نحتوا بصورة متقنة، كل صادود حاملاً الإعلان الرسمي للملك بتشييد المدينة، مع رسم زخرفي جميل يصور العائلة أثناء أداء شعائر عبادة إله - الشمس.

في أحد الأيام الأولى من شهر إبريل - برمودة سنة ١٣٧٠ ق.م وبينما التشييد في الموقع الذي سيضم المدينة جارياً حقاً على قدم وساق، ظهر الملك على متن عربته الضخمة المصنوعة من الإلكتروم (خليط الذهب والفضة م.) مثل قرص - الشمس عندما يشرق على أفقه ويغمر الأرض بدافئ حبه... تهلت الأرض بالبهجة وعم السرور القلوب عندما اكتحلت عيونهم بمرآه (أى الملك) أثناء قيامه بالوليمة الكبرى التى شملت مائة رأس لوالده (قرص - الشمس) بالإضافة إلى الخبز والبيرة والمواشي الطويلة والقصيرة القرون والحيوانات البرية والطيور والنبذ والفواكه والبخور و"الصبيان أى صبب النبيذ وكافة أنواع الخضراوات الطازجة (٧). وكان الملك إبان إقامته في "طيبة" يغدق في غالب الأحيان في تقريب مثل هذا النوع من القربان إلى قرص - الشمس، فلقد كان مشغولاً بالإفصاح عن ورعه خلال هذه الطريقة، إلا أن هذه المرة كانت فريدة، وعقب تقريب القربان:

"أعلن جلالتة : إلى رجال البلاط الملكي، والشخصيات البارزة في القصر وضباط الجيش (و) وسائر أفراد الحاشية فمثلوا جميعاً في حضرته ثم انكفأوا على وجوههم، وهم يقبلون الأرض أمامه فقال جلالتة لهم : أنظروا ما هي (أخناتون) التى شاء قرص - الشمس أن تبنى لجلالتة كأثر خالد يحمل اسمه. والآن : لقد كان قرص - الشمس والذي هو الذي طرح المشروع (حرفياً : شاهد) الخاص

بـ "أخيتاتون" ولم يطرحه أى مسئول، ولا أى شخص في مختلف أنحاء البلاد... ولقد كلمني والدي قائلاً : لسوف تكون لي كأفق القرص لأبد الأبدية" (٨).

ويتقدم الملك كي يعطى لمحة مختصرة عن خطته للموقع والمباني التى يرغب في إقامتها : "بيت قرص - الشمس" و"لوار قرص - الشمس" و"ضليلة الملكة" و"بيت البهجة" بالإضافة إلى غرف ملكية لجلالته وأخرى للملكة ومدينة للأموات أى جبانة.

وبعد ذلك بتسعة أيام، وفى "يوم تأسيس" أخيتاتون" لقرص - الشمس الحي" (٩) عاد الملك مرة أخرى كي يدور مرة بعد أخرى على الصوايد الحدودية على عربته وفى كل دورة كان يرفع يده نحو السماء ويقطع على نفسه عهداً بالآلا يجور أبداً على أى أرض أخرى وراء هذه الحدود، وبألا ينتقل إلى أى موقع آخر. وهكذا غدت "الهجرة" رسمية : وأصبح لمصر الآن عاصمة جديدة أى مركز محوري جديد للحكومة (١٠).

كانت المباني التى بنيت في مدينة "أخيتاتون" مثلما هو الحال مع كافة المباني التى أقيمت خلال حكم "أخنتاتون" مخططة في تسرع ومجموعة في تعجل. وإذا ما طلبنا من مهندس معماري أن يلقى حكماً على معبد "قرص - الشمس" اهتدينا إليه في شرق الكرنك، فلن يكون في وسعه أن يقول أى شئ آخر تنوى أنه بناء "مطلق" Jerry-built. وفى طوع هذا الرأي أن يسير دون شك، على أبنية المدينة الجديدة. وكان البنائون لا يزالون يستخدمون، هنا، الحجر الرملي على هيئة كتل منحوتة بخشونة، وأصغر قليلاً من كتل "الثلاثاء" التى عرفها البناء في الكرنك. إلا أنهم لجأوا، أيضاً، إلى استخدام الطوب النقي على نطاق واسع في الحشو - النواة. وقت ذاك كان الحجر الجيري قد دخل نطاق الاستخدام بشكل عام كقشرة خارجية ينحت الفنانون على سطحها الجداريات. وعلى غرار ما كان عليه الأمر في "طيبة" توسع المهندسون في اللجوء إلى الأعمدة والخوازيق. وتظهر الأعمدة بنوعيتها، لوتسية الشكل والنخيلية (نسبة إلى نخيل م). الجذع. وكان المهندسون يستخدمون في بنائها كلاً من الأحجار والأخشاب كمواد خام. وقت ذاك أخذت المناظر الملونة تظهر، بقدر من الإسراف، على الحوائط الداخلية وكذلك

الخارجية، وكزخارف على الأرضيات المغطاة بالملاط. وكان الفنانون يزينون الحوائط والأرضيات أيضاً، بالبلاطات القيشاني . وهذه عادة يرجع أصولها أيضاً، وعلى ما يبدو إلى "السنوات الطيبة" من حكم "أمين - حوتب" الرابع - إلا أن المؤكد أن "الأصول الطيبة" تقف وراء كثير من "بوابات الصروح بـ"كرانيشها "غير المكتملة ، تلك البوابات التي سبق ورأينا فيها إحدى العلامات البارزة التي تميز معبد "بيت حجر البينبين" في الكرنك.

كان الملك "أمين - حوتب" الرابع مطلق اليد، نظرا لخلو الموقع من أى احتلال أو وضع يد سابقين، في تصميم مدينته كيفما شاء وشاء والده "قرص - الشمس". وكان لازماً أن تنتظم أجزاء الكل خلال طريق يخرقها من الشمال إلى الجنوب. (أطلق عليه المحدثون : الطريق الملكي) ويبلغ طوله ما يزيد على ثمانية كيلومترات، ويمتد من "الحوالة الشرقية" - حالياً - في الجنوب حتى "شمال المدينة" وراء السفوح الصخرية التي تضم مقابر المملكة القديمة. وفي نهاية المطاف شمل التخطيط ثلاثة "أحياء" كي تشكل مراكز للمباني "السكنية" والإدارية : ضم قلب المدينة كلاً من القصر والمعابد والمخزن والمدن الصغيرة التي تدور، شمالاً وجنوباً، في فلك المدينة الأم. وإلى الغرب من "الطريق الملكي"، وباتساع كل المساحة على وجه التقريب التي تمتد حتى نهر النيل، بُنيت الغرف الفخمة والواسعة لواحد من أكبر القصور التي عرفها الشرق الأوسط طوال تاريخه (١١). على أن المساحة الأكبر لهذا البناء الهائل، بما في ذلك المداخل القادمة من النهر، غدت مدفونة في الوقت الحاضر تحت الزروع، وهو الأمر الذي لا يحول، عقلاً ، دون القيام بعمليات تنقيب واسعة في المستقبل. غير أن الجزء الأكبر الذي خضع للتنقيب من القصر حتى الآن كان يركز على حوش واسع غير مسقوف، تحوطه من جانبيه على الأقل تماثيل للملك، أكبر من الحجم الطبيعي له. وكانت تلك التماثيل التي تقف على الجانب الجنوبي تحمل نفس السيماء، إلى حد كبير، التي تحملها تماثيل الكرنك. وخلف هذه التماثيل يمتد رواق بأعمدته المنحوتة وبمناظره الجدارية، وهذه تتشابه مرة أخرى مع نظيراتها في معبد "قرص - الشمس اهنتيشا إليه" في "طيبة".

ويبدو أن غرف الملك الخاصة كانت ممتدة على الجانب الشرقي للطريق العام، بالعرض مباشرة من القصر. وفي وقت ما بعد السنة التاسعة تقرر وصل القصر بالغرف عن طريق "كوبري" يستند إلى "قواعد" من الطوب الأخضر (النيي)، ولكن الدليل يعوزنا إذا اعتقدنا أن الملك أطل يوماً من "شرفة التجلي" على هذا الكوبري. فالمناظر الجدارية تشير إلى أن الشرفة كانت مفتوحة في واجهة القصور، كما هو الحال، في "طيبة"، وتطل على فناء القصر. (شكل رقم ١٦).

وجنوبي القصر، وعلى نفس جانب الطريق، وقف "دوار قرص - الشمس"، الذي يعد أفضل الأطلال القليلة التي قاومت عوادي الدهر في هذا الموقع. ولعله من المثير حقاً للاهتمام أن "دوار قرص - الشمس" هذا يملك إلى هذا الحد أو ذاك نفس الأبعاد ١٢٧ X ٢٠٠ متراً، التي قدرناها لمعبد "قرص - الشمس" اهتدينا إليه في الكرنك. وقد ثبت ترتيب الأفنية (الأحواش) على نحو تتلقي معه نهاياتها، وتفصل بينها الحوائط المستعرضة وبوابات الصرح، أنه سمة أخرى من السمات المشتركة بين هذا المبنى وذاك. ولكن المقارنة تصل هنا إلى نهايتها. فحتى الآن وكما هو معروف لا يزال البناء الجديد مفتقراً إلى تماثيل عملاقة وأروقة بأعمدتها، إلا أنه أضاف أكتافاً خارجية إلى المحيط الدائري. وهذه سمة لم نعر لها (حتى الآن) على أثر في الكرنك. وفي الحوش الثالث، الواقع في أقصى الطرف الشرقي لـ "دوار قرص - الشمس" يقوم قدس أقداس، مشيد بشكل منفصل، وتمتد أمامه كُنة مسقوفة ولو أن الوظيفة المحددة التي بُنى من أجلها هذا المبنى لا تزال مجهولة حتى الآن؛ والقول الذي يذهب إلى أنه كان "مصلى ملكياً" ليس إلا شطحة من شطحات الخيال. والأقرب كثيراً من الحقيقة، في ضوء الاسم والتوجه، وتمشياً مع الوادي الذي يضم المقبرة الملكية، أن يكون الهدف من المبنى، وكما ذهب البروفيسور "إن - بي. ميلليه" أن يقوم مقام المعبد الجنائزي للملك.

وعلى الضلع الشمالي للحى المركزي، وإلى الشرق أيضاً من الطريق يقع أكبر معبد بين سائر معابد المدينة وهو "بيت قرص - الشمس" الذي يتكون من حوش فسيح مسور مستطيل تصل مساحته إلى ٧٦٠ X ٢٩٠ متراً، ويدخله تقوم معابد عديدة مستقلة. وهذه المعابد، تتوالى، من الطرف الغربي، الذي يعتبر

المدخل الذي يقود إلى الكل : "بيت البهجة"، وهو عبارة عن قاعة أعمدة، من نوع ما، تشرف على معبد "جم - أتون" أو "قرص - الشمس وجدناه"، ثم سلسلة تضم ستة أحواش متتاقصة في المساحة، الواحد عن الآخر، ومفتوحة على السماء، ثم معبد "بيت حجر البينيين" في الطرف الشرقي، وهو المعبد الذي يتصل بالمجزر. وعلى غرار معظم منشآت العبادة سواء هنا أي في "أخيتاتون" أو في "طيبة" كانت كل الأبنية مفتوحة على السماء حتى يشع قرص الشمس على كافة الشعائر التي تقصد وجهه. وكانت موائد القرابين التي تثن تحت النعم التي أنعم بها قرص الشمس، ممتدة في كل مكان. فاستمرار تيار الزمن وانضباط التوقيت يعتمدان بصفة كاملة على الانتظام الذي لا يكل ولا يمل لدوران قرص - الشمس، فيما يبدو وكأنه احتفاء بالمدار السنوي، إذ تمتد ٣٦٥ مائدة قرابين بطول ضلع معبد "جم - أتون" أو قرص - الشمس وجدناه" و ٣٦٥ مائدة مماثلة بطول الضلع الآخر (١٢). ورغم أن معبد "بيت - حجر بينيين" يذكرنا بـ "طيبة"، فإن الأحجار المقدسة التي استخدمها البناؤون في "طيبة" اكتسبت شكلاً جديداً. فلقد مضت تلك المسلة التي جعلت من نفسها مخصصاً ضخماً لإسم ذلك المعبد الذي يضم حجر البينيين، وحل محلها صาดود مدور القمة، يقف على منصة بارزة. وتظهر المناظر التخطيطية لهذا المعبد في المقابر الخاصة جوقاً من العازفين العميان بصاحبهم مغنون قرب الصادود.

يشكل التغير الذي دخل على "البينيين" لغزاً آخر من ألغاز عصر "أخيتاتون". لماذا تلائم شكل الصادود المدور الرأس مع الملك على نحو أفضل من الشكل الجليل للمسلة الممشوقة ؟ أيا كانت الإجابة، فلقد وجد المنقبون في معبد "بيت قرص - الشمس"، وعند النقطة التي أشارت فيها مناظر المقابر إلى وجود "البينيين"، شطفاً من حجر المرو (الكوارتز) منثورة على الأرض. ونفس هذا الحجر هو المادة التي قطع منها صادود سامق مدور الرأس، أكتشف منذ مدة طويلة في "أون"، وهو الصادود الذي يصور "أخيتاتون" وعائلته أثناء ركوعهم في حضرة الشمس - الإله (١٣). ولما كان وضع الركوع من الأوضاع النادرة التي اتخذها الملك، فإن ندرتها تتم عن إستهدافها هدفاً خاصاً. هل يكون الصادود

"الأوني" هو حجر "البينيين" المقدس الذي أستخدم في مدينة الشمس كمركز محوري للعبادة ؟

داخل نطاق "بيت البهجة" المبنى إزاء سور القفاء إنتصب عدد من المصليات الصغيرة و"الضليلات". وهذه كانت تخص، في الأصل الملكة، وربما عضوات أخريات (؟) في العائلة الملكية. إلا أن كريمات الملك وضعن أيديهن عليها في وقت لاحق. ولولا عمليات التنقيب التي قام بها الألمان في الأشمونين حيث انتقلت كثير من كتل البناء من مدينة "أخيتاتون"، في أعقاب تدمير المدينة، لما كان في طوعنا الآن وصف أى زخرف من زخارف هذه المصليات، وربما ولا زخارف "بيت قرص - الشمس" بصفة عامة (١٤). ولم يكن ولع "أخيتاتون" بتقريب قرابينه إلى قرص - الشمس كالموضوع الرئيسي لزخارفه قد ضعف منذ أيامه في "طيبة": فعلى غرار ما كان عليه الأمر في الكرنك، كان المنظر السائد، على ما يبدو، في "أخيتاتون"، هو ذلك الذي يظهر فيه الملك "أخيتاتون" والملكة "نفرتيتي" وإحدى بناته يؤدون الشعائر الدينية أمام المذبح. وكان هناك بطبيعة الحال أربع بنات حتى وقت ذاك، وبناتان أخريان في الطريق. ولكن المنظر الأصلي الذي لا تظهر فيه سوى طفلة صغيرة تسير في ذيل أمها كان لا يزال يسيطر على خيال النحاتين. كما خصصت مساحة كبيرة بشكل ملحوظ من الحائط أيضا لتصوير الغرف الملكية والمخازن، التي لا بد وأن تكون قد قامت بوظيفة تفصيلية مصاحبة في المناظر التي تتناول الأنشطة الملكية. وبدأت واجهة القصر وكذلك أفنيته ذات الأعمدة مشابهة بصورة ملحوظة لما كنا قد ألفناه في الكرنك : فالبوابات والأعمدة و"شرفة التجلي" والسلامم والأثاث، لا تكشف عن تعديلات ذات بال عند مقارنها مع سابقاتها في "طيبة". واستمرت مناظر العربات (والأحرى الحناطير م) الضخمة تزين الحوائط على نحو ما كانت تفعل في معبد "ثابتة تلك آثار قرص - الشمس إلى الأبد" أو "رود منو ...". في "طيبة"، وظل الفنانون يستشعرون البهجة في نقش كميات كبيرة من الأطعمة في كل مكان ؛ على المذابح والموائد وفي غرف التخزين.

وتتمثل إحدى سلاسل الجداريات، التي يلفت غيابها النظر، في تلك التي تصور "عيد - السم". وليس لدينا أى دليل على أن "أخيتاتون" احتفلت بأي أعياد -

يوبيل أخرى. وحتى تاريخه لم يظهر في "أخيتاتون" ما يمكن أن نقارنه بالجداريات اللانهائية المخصصة لذلك الموضوع في "طيبة".

وسرعان ما اكتظت كل المساحات المتاحة في قلب المدينة بمبان ثانوية. فالمخازن الطويلة امتدت على جانبي المعبدن الكبيرين، وقامت بيوت الكهنة قريبة ورهن الإشارة في أفضل المواقع. كما وقفت المصالح الحكومية ودور الأرشيف وقشلاقات (ثكنات) البوليس والجيش إلى الشرق تماماً من مقر إقامة الملك. وفي أطلال مبنى الأرشيف عثرت فلاحه مصرية في شتاء سنة ١٨٨٧ - ١٨٨٨، بمحض الصدفة على خبيئة على جانب كبير من الأهمية لمراسلات الدولة فيما عرف باسم "ألواح أخيتاتون". وفي العمق الشرقي شُيّدت قرية مسورة للعمال الذين انخرطوا في عمليات التشييد في الموقع. ومتاخمة لسفوح الجبال الشرقية.

امتدت منطقة سكنية إلى الجنوب على جانبي "الطريق الملكي" ضمت "الفلل" (والأحرى البلل. م) الواسعة الخاصة بأعيان المدينة الجديدة. فهنا قام بيت الوزير "ناخت" الذي شغل مساحة ثمانية آلاف قدم مربع، بما في ذلك جناينه والأبنية المنفصلة التابعة له. وهنا أيضاً سكن الكاهن "بواح"، وكذلك النبي الثاني للملك - الإله "بانحسي". وكانت الرابطة مع الملك والعائلة الملكية في هذه الدوائر الخاصة وثيقة وشخصية تماماً : ففي أى مكان في البيت كان لينتصب صناديد كرمز للتوفير، يحمل صورة الزوجين الملكيين وأطفالهما، أو جديهما "أمين - حوتب" الثالث و"تي". وفي الغالب كانت لهجة الأيقونة هذه هادئة وحميمة. فـ "أخناتون" يهشك الأطفال أو يربّت على ركبة زوجته : أما والده فيسترخي في كرسيه وقد لف ذراعه حول قرينته "تي". ترى هل كانت هذه الصناديد هدايا من الملك، صنعت في ورشة ملكية تحت إشراف عام من أعلى ؟ أم يحق لنا أن نرى فيها تعبيراً عن رؤية رجاله المقربين له ولزوجته وذريته ؟

بينما كانت المقار الرئيسية لإقامة الملك تقع، دون شك في قلب المدينة، إلا أن هناك سبباً قوياً يدعونا إلى الاعتقاد بأن الملك ربما يكون قد فضل أن يتخذ مقره الرئيسي في "فيلا" (والأحرى بيللا. م) فسيحة قرب الضلع الشمالي للمدينة. ففي الطرف الشمالي الأقصى للسهل، حيث يقترب الجبل الصخري من النيل، يقوم

بناء ضخمة بواجهة فخمة غربي الطريق الملكي، معطيا ظهره للنيل، ولما كان هذا البناء يرقد ممتدا في الوقت الحاضر تحت الزروع، وتعرض لعملية تحات شديدة إلى حد ما في تاريخ لاحق لتشييده، فإننا لا نستطيع أن نقول إلا أقل القليل حول الغرض الذي شيد من أجله هذا القصر، أو حتى تخطيطه ذاته. (ولا نقدر إلا أن التخطيط كان لقصر) من ناحية أخرى يقوم ما ندعوه بـ "القصر الشمالي" الذي قاوم بصورة أفضل عوادي الدهر، على بعد حوالي ٦٠٠ مترا في العمق الجنوبي على نفس الجانب للطريق الملكي. ولقد بنى هذا "القصر الشمالي" على هيئة مستطيل (١٢٠ X ٢٩٠ متراً)، حول فناء مفتوح على السماء (غير مسقوف) وجنية، ويضم مجاميع من الغرف التي تشمل أجنحة منزلية وغرفة للعرش. كما تشمل أيضاً مع ذلك، غرفاً تُستخدم كمخازن وشُون (جمع شونة. م) وزرايب للمواشي. وهذه الزرايب تستدعى إلى الذهن ثور مينوفيس المقدس، ذلك الحيوان المذخور في "أون" (هليوبوليس) للشمس، وهو نفس الثور الذي قدسه "أخيناتون" هو الآخر في إطار عبادته الجديدة التي دعا إليها، وهو نفسه الذي يقول عنه أن جلالتة أعد له مثواه الأخير في الموقع الجديد أي في "أخيناتون".

وجنوبي المدينة، وبالقرب من قاعدة الجبال الصخرية شديدة الانحدار في الجنوب قام ذلك المجمع الغريب المعروف باسم "مارو - أتون" وهو عبارة عن حوش فسيح مسور تحفه الجنابين وأحواض السباحة التي تضم جزيرة صناعية، وجواسق (أكشاك.م) في الهواء الطلق. ولقد ظن المنقبون الأوائل للموقع أن هذا الـ "المارو - أتون" منتجع، إلى هذا الحد أو ذاك من منتجات المتعة. ورغم أن جواريفاً كان يحيط بالموقع، إلا أن الفرعون "أمين - حوتب" الثالث يتحدث عن الـ "مارو" الذي ابتناه لـ "أمون" بصفته محفوفاً بالجنابين وتكاعيب العنب، وأحواض السباحة، ويبدو أن الغرض الرئيسي، دون شك كبير، من وراء هذا المبنى كان دينياً. وفي أوقات لاحقة زودت معابد الآلهة الشمسية بـ "مارو" وتشير النصوص الواصفة والاسم ذاته (الذي يتخذ رسم العين كمخصص) كلاهما، إلى أن "مارو" تعد ترجمة لـ "مطرح الرؤية" والحقيقة أن الـ "مارو" كان "خُص الإله" (المفتوح الجانب. م) أو Gazebo

رجال مدينة "أخيتاتون" ونساؤها

انتقل حشد من الأنصار من مختلف المشارب، في أعقاب ملكهم، إلى الموقع الجديد في المديرية الخامسة عشرة. ويقف المرء مذهولاً أمام الافتقار الملحوظ لطابع الاستمرار بين "طيبة" و"أخنتون": معظم الوجوه جديدة. وغاب "الحرس القديم" إلا أقله (١٥).

قام الملك نفسه بتعديل أسمائه بما يعطى سيادة أكبر لعلاقته بقرص الشمس وبالمدينة الجديدة. فاسمه الحوري (من حورس م.) أخذ يظهر منذ الآن على هذا النحو: "محبوب قرص الشمس" واسمه الذي يتضمن "السيدتين" ("اللتين تشيران إلى الوجهين القبلي والبحري م.") ظهر كـ "صاحب الملك في أخيتاتون"، وإسم "حورس الذهبي" أصبح يعبر عن فكرة "تمجيد إسم قرص الشمس" وإلى جواره، بطبيعة الحال كانت زوجته "نفرتي" التي سرعان ما أنجبت ثلاث بنات أخريات: "نفر - نفرو - أتون" الصغرى و"نفر - نفرو - رع" و"سا - تي - بن - رع" ويبدو أن ثلاثتهن كن قد ولدن على وجه الاحتمال بحلول السنة العاشرة، إلا أنهن لا يظهرن، إلا نادراً، في الجداريات، وربما يكون قد وافتهن الأجل في طفولتهن، وكانت المربيات حاضرات في كافة المناظر الجدارية، وهن يحمن بحدب، حول عهدتهن. وإحداهن معروفة لنا بالاسم وهى "تيا" مربية كريمة الملك "عنخ - إس - إن - با - أتون". وفى معية الملك انتقلت والدته الملكة "تي"، رغم أن إقامتها في المدينة الجديدة ربما لم تكن دائمة. وبصحبتها جاء، بدوره، مدير أعمالها "حويا" ذلك الذي يفضلته سيد الأرضين، ناظر حريم الملك، وأميين الخزانة، الوصيف (٢) الأول في بيت أم الملك "تي". كما انتقلت كذلك شقيقة الملكة "موت - نجمت" ورغم أن هذه السيدة تحوم في الظل، إلا أن دوراً بارزاً كان ينتظرها خلال الفترة التي أعقبت عصر "أخيتاتون". وكذلك إنتقل "ميري - رع" الأمين الأول للملكة "نفرتي" وسائر خدمها وحشمها. لكن الغريب حقاً في الأمر كان وجود الزوجة "الأخرى"!

رغم توفر الأدلة منذ سنوات طويلة، فالملكة "كيا" لم تعرف على نطاق واسع في الدوائر العلمية إلا في الآونة الأخيرة، نوعا ما، خلال أبحاث البروفيسور "فيرمان" بجامعة "ليفربول" في إنجلترا (١٦). وكان الأجل قد وافاها قبل "أخيتاتون"، ومعظم الآثار أو الجداريات التي حملت اسمها أو رسمها إما أنها نهبت أو حطمت. وإذا شئنا منحها ألقابها بالكامل فهي : الزوجة المحبوبة للغاية من ملك مصر العليا والسفلى الذي يقتات بالصدق "نفر - خبرو - رع، واع - إن - رع"، الطفل الجميل الذي أنجبه هرقس - الشمس" الذي سيحيا أبد الأبد، "كيا". ونلاحظ أن ألقابها، تزهو، خلافا للألقاب التي حازتها "نفرتي" بمكانة زوجها، الأمر الذي يشير، على وجه الترجيح، إلى أنها كانت تحتل منزلة أدنى بصورة نسبية بين زوجاته. ومع ذلك، كانت تستحوذ على قدر من الأهمية يكفي لأن تظهر في بعض الجداريات، بل وربما تكون قد أنجبت طفلة (ولو أن هذا أمر غير مؤكد). وهناك نظرية تذهب إلى أن "كيا" ليس سوى اسم لدع حملته "نفرتي" نفسها. ولكن هذه النظرية تتبدد، في تصوري الخاص، في ضوء الاختلاف البارز بين مجموعة الألقاب التي حملتها. ولو أن هذا الاسم : "كيا" يحمل كل قسمات أسماء "التدليع" وهو عبارة عن شكل مختصر لاسم طويل. ولطالما تساءل صاحب الكتاب الذي بين يدي القارئ عما إذا كنا نجد في اسم "كيا" شكلا مختصرا للاسم "جيلو - خيبا" Gilu khepa الذي تكتب الأبجدية المصرية حرفه الأول : "الجيم" كافا، وهو اسم الأميرة الميتانية التي كانت قد دخلت في صباها المبكر، قبل خمس وثلاثين سنة في سلك حريم الفرعون "أمين - حوتب" الثالث. وليس هناك شيء مستبعد بطبيعة الأمور في هذا الصدد : لم تكن "جيلو - خيبا" قد تجاوزت الثامنة والثلاثين أو الأربعين على الأكثر، من عمرها عند الانتقال إلى المدينة الجديدة "أخيتاتون"، ويمكن أن تكون قد حازت، لدى الإبن، نفس الإعجاب الذي حازته لدى الوالد.

احتل طاقم الملك الخاص مكانة بارزة في المقر الجديد. وأحد أعضاء هذا الطاقم، وأوسعهم نفوذا، الذي قدر له أن يلعب دورا هاما في الفترة التي تلت عصر "أخيتاتون" كان "آي" ؛ الذي يفضلته الإله الطيب، حامل المروحة التي على يمين الملك، الكاتب الصادق للملك ووالد الإله، والمؤتمن في أسائر أرجاء البلاد،

وقائد عربيات الخيول (١٧)، ولقد ظن البعض أن اللقب الذي كان "آي" يفضلهُ لنفسه
 أي "والد الإله" يعنى أن "آي" كان حما "أخناتون" إلا أننا لم نصادف في أى مكان
 آخر أى إشارة للرجل بصفته والدًا سواء لـ "تفرتيتي" أو "كيا" زوجتي الملك -
 الإله، ومن جانب آخر، نجد أن اسمه ذاته والوظيفة العسكرية التي شغلها تربطه
 بصورة وطيدة مع عائلة "يوي"، والد الملكة "تي" ولعلنا لا نبعد كثيراً عن الحقيقة إذا
 اعتبرناه ابناً لـ "يوي" و، أخاً، لكل من "تي" و"أنين". وبالتالي فإن صلات عائلته
 كانت كافية وحدها لرفعه إلى أعلى الدوائر في البلاد، إلا أن المصادر النصوصية
 أى الكتابية ظلت تتجاهله، على نحوٍ مستغرب، حتى وصلنا إلى "أخناتون".
 ولقد كانت زوجة "آي" هي مرضعة "تفرتيتي"، وهو الأمر الذي ساهم، دون
 شك، في تعزيز حظوته مع الجانب الأموي في نسب العائلة المالكة.

كما يظهر في "أخناتون" كذلك "بار - إن - نفر" النظيف - اليد، الذي شغل
 منصب رئيس خدم جلالتة، ورأياءه في "طيبة". وكذلك الأمر مع "توتو" كبير الأمناء
 في بلاط سيد الأرضين وأمين الصندوق و"خاي" كاتب الترابيزة أو المائدة لسيد
 الأرضين و"رع - نفر" القائد الخاص لعربة الملك. ولقد إصطنع بعض هؤلاء
 الوجهاء، ألقاباً متكلفة وعتيقة الطابع نوعاً ما فـ "أح - موسى" الذي كان يشغل
 منصب أمين الملك على سبيل المثال، يطلق على نفسه ألقاباً مثل : حامل أختام
 الملك لشؤون الوجه البحري، والصديق الفريد الذي يسير في كعب سيد الأرضين،
 والممدوح على لسان الإله الطيب، والمحبوب دائماً من شغاف قلب سيده، والكاتب
 الصادق للملك الذي يحظى بحبه، كبير مدبري بيت "أخناتون" وناظر الباب
 العالي... الذي يستطيع الاقتراب من الأعضاء المقدسة، أوجه الوجهاء، أول رجال
 البلاط... إلخ. ولقد اقتبس كبير الأمناء وكبير الأطباء "بنتو" نفس هذا الرطان لدى
 تلقب نفسه، وأضاف نعتاً غداً شائعاً في المدينة الجديدة، وهو : السادن الأول لـ
 "قرص - الشمس".

ولما كانت "أخناتون" قد أصبحت مقر الحكومة، فلقد تقاطر عليها الوزراء
 والمسؤولون الحكوميون. ولقد سنحت لنا الفرصة في وقت سابق كي نذكر
 الوزير "ناخت" الذي يعاونه "رع - موسى" ناظر شئون الغلال، الذي كان يشغل

أيضا منصب قائد عجلات الخيول، ومنصب أمين معبد "بيت - أتون"، "حبوت - أتون"، و"حوى" أمين الصندوق، و"أبيا" الأمين الأول المكلف بـ"منف" و"رع - موسى" كاتب التجنيد، و"ماحو" قائد البوليس، و"نفر - خبرو - حر - سي - خبر" عمدة المدينة. ولما كانت أعمال التشييد تتصدر على وجه التقريب قائمة الأولويات في رأس الملك، فلقد إحتل المهندسون المعماريون بالتالي مكانة بارزة. ويبدو أن رجلين مثل "با - أتون - إم - حب" و"معا - إن - خوتيف"، اللذين عرفناهما، الأول خلال إحدى المقابر، والآخر خلال قائمة خشبية لأحد الأبواب، كانت لهما بالضرورة مهام ما عملية في البناء.

وعلى غرار ما كان عليه الحال في "طيبة"، حيث كان الجنود منتشرين في كل مكان، وبأعداد كثيفة حول الملك : كان أفراد سرايا "أخيتاتون"، يسرون بخطى عسكرية سريعة أو بخطى مسترخية أو يركعون، إلا أنهم لا يبتعدون، في سائر الأحوال، كثيرا في أى وقت من الأوقات عن شخص الملك. وتكفي نظرة واحدة نلقها على صور وجداريات مدينة "أخاتون" كي نتحقق من أن ضباط تلك السرايا كانوا يتمتعون بمكانة رفيعة. فكان "مايا" ؛ المولع بالطنطنة والشقشقة ؛ يحمل لعب "جنرال جيش سيد الأرضين"، لأنه كان دون شك (وحسبما يقول هو) "يحظى بثقة كبيرة عند سيده"، القادر الأوحده في حضرة سيد الأرضين الذي ملأ أذني حورس (أى الملك) بما هو حق، ذاك الذي رفع الملك شأنه نتيجة لخصاله الحميدة ؛ ذاك الذي يعد النافع الأوحده في نظر الملك، ومن فرزه الملك كمسئول تنفيذي بارع (حرفيا : من يأتي بأعمال ناجحة) وكان في طوع الملك أن يستدعى، دون شك "رع - موسى" جنرال الجيش "أو" لها (؟) إم - با - أتون "قائد الكتائب أو "رع - نفر" أو "آي" قائد عجلات الخيول، طالما كان "مايا" بعيدا عن منصبه لسبب أو لآخر، ولو أن ذلك كان أمرا نادرا. وبطبيعة الحال كان أولئك ضباطا ورثوا - بصرف النظر عن خدمتهم في سلك العسكرية (أو افتقارهم إلى هذه الخدمة) - تقاليد عسكرية تستحق الفخر : كان سابقوهم تحت السلاح وكان بعضهم لا يزال على قيد الحياة) قد زحفوا على أربعة أركان المعمورة وغزوا الشطر الأعظم منها. ويحتاج كسب الحرب باستمرار إلى قدر ما من العُجب والخيلاء كي يلزاما، بالضرورة،

عملية الانخراط في سلك العسكروت، أو الجندية، أو على الأقل هذا ما قد يذهب إليه بعض القدماء وبعض المحدثين على حد سواء.

لا عجب في المنزلة الرفيعة التي احتلها الكهنة في النظام الجديد. وسوف نتوقف عما قريب أمام الخدمات التي قدموها للعبادة الجديدة. وكفيينا في الوقت الحاضر أن نضع قائمة بأسمائهم. فكاهن الشمس الرفيع الذي طالما رأيناه بصحبة الملك في "عيد السد" يظهر في "أخيتاتون" باسمه وكامل ألقابه المقدسة. فهو : أعظم أنبياء قرص - الشمس في "أخيتاتون"، وحامل أختام الملك لشئون الوجه البحري، والصدیق الفريد، وحامل المروحة عن يمين الملك، "ميري - رع". ويبدو أن شخصا من سلك الكهنوت ، لم تكشف جداريات الكرنك عن اسمه، قد ظهر في المدينة الجديدة. وقد رفع القناع عن وجهه، أقصد : "ميرايا" كاهن الترتيل والسادن الأول لـ "بيت قرص - الشمس" (١٨). وكان في طوع رجال من أمثال "بنتو" الطبيب أو "با - نحسي" راعي زرايب المواشي أو "توتو" العظيم ذاته أن يطلقوا هم أيضا، على أنفسهم لقب "السادن الأول لقرص - الشمس". وبخصوص "با - نحسي"، على الأقل تكشف ترجمة اللقب عن دور إشرافي، أسند إليه، على مجزر المعبد. على أن مسئولين آخرين عن المعابد في مدن أخرى في البلاد قدموا للإقامة في "أخيتاتون". ولقد تمتع كل من "بواح" كاهن الشمس الرفيع الشأن في "أون" و"مايا" الجنرال بدور إداري في نفس الدائرة.

لم نكد سبع سنوات تمر على صعود "أخيتاتون" إلى العرش، وكان النسق الموحد على مستوى السياسة والاقتصاد والدين، ذلك النسق الذي ظلت مصر لا تعرف سواه لسبعة عشر قرنا قد دخل عليه تعديل حاد، إن لم نقل انقلاب رأسا في عقب. حقا بدا الأمالي في المدينة الجديدة سعداء ومتخمين إلى حد البشم : إذ اتضح أن الأسلوب الجديد للحياة مؤثر وحتى ذلك الوقت ناجح. إلا أن تركيز الانتباه على مدينة "أخيتاتون" قد ينسينا الأوضاع التي كانت قائمة في أماكن أخرى. فلقد وقف المركزان الإداريان اللذان عرفا الإزدهار يوما ما : "طيبة" و"منف" عاطلين دون عمل. فأغلقت المعابد والمصالح الحكومية فيهما أو كادت. ووجد أبناء البيوتات الراقية

الذين كانوا في خدمة الفرعون، أنفسهم على حين غرة مجردين، ليس من وظائفهم وحسب بل ومن صلاتهم بالبلاط الملكي أيضاً. ترى من كان السبب في كل ذلك ؟ ومن ذا يـكـسـون ذلك الـ "أختاتون" ؟ لقد أرجأنا المحاولة التي سنبدلها نحو تقديم إجابة على هذا السؤال بما فيه الكفاية. أليس كذلك ؟

الباب الثالث

قرص - الشمس الحي المعظم

الفصل التاسع

البيئة الروحية وراء رد فعل "أخناتون"

مال المصريون القدماء في تأملاتهم حول بداية وأصل الكون ووضع مصبر داخله ميلا قويا نحو تفسير التعددية الواضحة للكون في ضوء وحدة كامنة. أحد الأنساق التي عرفتها مصر، وقد يسمى، بحق "الأونى" يفضل "أتوم"، "الكامل" و"الواحد" الذي خرجت منه (عن طريق الانبثاق والامتزاج اللاحق للمواد الأولية) كافة أشكال الوجود في الكون. أما النسق "المنفى" فيعظم شأن القلب (العقل) بصفته العنصر الأولى. فالقلب هو الذي خلق الأشياء عن طريق الفكر أى الإسقاط المتجسد للفكر الذي تحدوه الإرادة، وإذا مددنا هذه الفكرة على استقامتها المنطقية فإنها تقودنا إلى النتيجة التى نقول أن الوجود كائن والأشياء موجودة بقدر ما يوجد القلب. وكل ما هو موجود ليس في حقيقة الأمر إلا تجل متنوع الأشكال لوحدة كامنة تدعى القلب أو العقل. وهناك نسق ثالث من الأفكار تنتسب، عادة إلى الأشمونين تصف العنصر الأولى باعتباره اللامتناهي: اللامتناهي في الحجم، اللامتناهي في الظلمة، الهلامي بصورة كاملة والباطن بصفة تامة (١)

وتلك كانت بمثابة البشائر الفلسفية التى استبقت فلسفة ما - قبل - سقراط Pre-socratics، إلا أن العبادة المفروضة، كرمز مجرد، التى جاء بها "أخناتون" كانت تنتمي لنسق غاية في الاختلاف عن تلك البشائر. فحيثما كانت العبادات الأخرى نسبية، كانت العبادة التى دعا إليها "أخناتون" مطلقة، وحيثما كانت تلك العبادات قائمة بصورة واعية على التعدد، كانت عبادة "أخناتون" وحدانية دون تردد. وبينما كانت العبادات الأخرى تبحث عما نستطيع نحن المحدثين أن نطلق عليه "السبب الأول"، لم يبد "أخناتون" في كتاباته التى وعاهنا لنا التاريخ أى اهتمام، مهما قل شأنه، بما لا يمكن إدراكه. ترى ما الذي دفع الملك إلى مثل هذا التحول الجذري عن الفكر التقليدي ؟

كان عصر "أخناتون" ورد فعله العنيف ضده (أي ضد ذلك العصر) نتيجتين

لصدام بين تيارات مختلفة ظلت تتنامى جيلاً بعد جيل داخل الهيئة السياسية وبيّن صعود مفاجئ لشخص غريب الأطوار ميّال لتحطيم القيم المتوارثة، إلى العرش. ولكي نفهمه ونفهم ما أقدم عليه يتعين على المرء أن يفحص عن كُتب ما يلي :

١- ظاهرة عبادة "أمون".

٢- صعود الشريحة الإدارية الجديدة.

٣- شخصية الملك ذاته.

عبادة "أمون"

تتمثل أبرز سمة على وجه الإطلاق للديانة المصرية في مطلع الأسرة الثامنة عشرة في علو شأن الإله "أمون" الذي يعني اسمه "الباطن". فلم يكَل الفراعنة في تلك الفترة ولم يملوا من تكديس الغنائم التي يعودون بها من حملاتهم الأجنبية عند أقدامه، نظراً لأنهم أرجعوا فوزهم في حملاتهم الحربية، خارج الحدود، إليه وحده دون سواه. فانتفخت خزائن هذا الإله بثروة لم تشهد مصر لكمياتها مثيلاً من قبل. وخلال مناخ الشعور بالمساواة الذي ولّدته حرب التحرير (ضد الهكسوس)، لم يكن في طوع الفرعون أن يدعى ملكيتها أى تلك الثروة ويسلم في نفس الوقت من كل خطر. ولم يكن من المستصوب أن يوزّعها بين أعضاء أى طبقة معينة دون سائر طبقات المجتمع، وهو الأمر الذي كان ليخلق - لو حدث - عائلات واسعة الثراء. ولم يكن هناك حل أفضل من منحها لشخصية غير دنيوية، يلتف حولها أناس ما بصفتهم حراساً لها وحسب. وانشأفت إلى ممتلكات "أمون" الدنيوية التي تضمنت خلال الغزو الخارجي عطايا المواشي والعقارات التي حصل عليها من داخل مصر ذاتها. وكان تقليد منح الفرعون لمثل هذه العطايا الصريحة للإله "أمون" ضارباً في أعماق القدم، ولكن نشأت مع مطلع الأسرة الثامنة عشرة على وجه الاحتمال بواعث إضافية. فمع إعادة تشكيل وادي النيل من البحر المالح حتى "دنفلة" في أقصى الجنوب تحت ظل نظام واحد، دخلت ملكية الأرض بالضرورة، في حالة من التغير المستمر. وهل هناك حل يضمن الإدارة الفعالة للأراضي

الخالية من الحيازة، ويحرم المزاحمين المحتملين من ركيزة لقوتهم سوى منح مناطق شاسعة للإله ؟ وعلاوة على ذلك، طالما عاد البلاط الملكي، بقوة الانجذاب، إلى مقره المفضل في "منف" إعتباراً من حكم "تحوت - موسى" الأول، كان لابد من التوصل بطريقة أو بأخرى إلى وسيلة فعالة لإدارة الأراضي البعيدة عن العاصمة في أعماق الجنوب. وكان ذلك ليتم خلال عصر سابق بمساعدة مديري المديرية "نومارش" Nomarchs* وحاكم الجنوب. إلا أن "بيت أمون" أصبح وقت ذاك يقوم مقام نائب دائم للملك في الوجه القبلي. وبحلول عصر الفرعون "أمين - حوتب" الثالث كانت المؤسسات الكبرى الأخرى المالكة للأراضي الزراعية في منطقة "طيبة" كالمعابد الجنائزية على الضفة الغربية للنيل قد أصبحت تُعامل كمؤسسات معانة في إدارة عقارات "أمون".

ومن الواضح أن الأشخاص الذين أسندت إليهم مهمة إدارة "بيت أمون" كانوا ينهضون بمسؤولية عظمى، وكانوا بالضرورة يكوّنون فيما بينهم تشكيلة واسعة (٢). ولكن حجم وتشابك كهنوت "أمون" كانا جديدين نسبياً. ففي المجتمعات المحلية المحدودة الأفق التي عرفت الفترة الانتقالية الأولى* والمملكة الوسيطة كان الأفراد المنقرغون بصفة كاملة لخدمة معبد الإله المحلي لا يشكّلون سوى طاقم صغير يقف فيه نبي الإله وكاهن الترتيل كعضوين يتمتعان بالاحترام داخل مجتمعهما. وفي النصوص التي سنحت فيها الفرصة لكاتبها كي يرتب الكهنة بشكل هرمي وفق مناصبهم نرى كبير الأنبياء وقد جاء في المقدمة ثم يليه، وإن لم يكن بصفة دائمة، أمين خزانة الإله ثم كاتب المعبد ثم الكاهن المقرئ ورئيس القبيلة والأنبياء الثانويون (٣) (٤) والمقرر، "ذاك الذي يقوم على الأسرار" ومرئدي النقبة ثم المشرف على ورشة العبيد والأسرى ورئيس القاعة الوسيطة ثم المشرف على مزار "كـو" * وكاتب المعبد ثم كاتب المذبح ثم الكهنة المرتلين (٤). وفي العادة كانت القائمة أقصر حتى من اللائحة. ففي مدينة "إدفو" لا نسمع إلا عن كاتب وكاهن مرتل والكاهن "وعب" وأنبياء وكهنة ساعات للمعبد (٥). وكان طاقم معبد الإله "أوزيريس" إله الموتى في المملكة الوسيطة لا يضم سوى أنبياء وكهنة "وعب" وكهنة مرتلين وكتبة (٦). أما معبد "موننتو - حوتب" الجنائزي خلال عصر

"سنوسرت" الأول، فقائمته تضم كهنة مرتلين وكهنة "الوعب" وكهنة ساعات وفلاحين مستأجرين. وبخصوص معبد "أمون" خلال نفس العهد لا يشير المصدر الذي بين أيدينا حالياً إلا إلى قائمة محدودة تشمل نبياً واحداً وعدداً من كهنة الساعات (٧).

غير أن المملكة الحديثة في "طيبة" تواجهنا بصورة مفاجئة بكهنوت يضم عدداً ضخماً من المحترفين. ففي ظل الفرعون "تحوت - موسى" الثالث كانت القائمة في معبد "أمون" تضم بالفعل، في ترتيب تنازلي، أنبياء، وآباء إله وكهنة ومشرفين على الأسرار وفتاحي مزار وكهنة شمسيين، وكهنة ترتيل ومساعدين وكهنة - وعب، وكهنة جنائزيين وجيش من المسؤولين العلمانيين ومع النصف الثاني من الأسرة الثامنة عشرة كانت عائلات بكامل أفرادها تكسب عيشها في نطاق صفوف كهنوت "أمون"، وكانت قد ظلت على هذا الحال على امتداد أجيال عديدة.

على رأس التشكيل الوليد، الذي تحول بمرور الوقت ليصبح بمثابة شريحة اجتماعية مغلقة داخل الدولة، وقف النبي الأول لأمون. وكان الملك والملكة يراقبان عن كثب أعمال صاحب هذا المنصب، بالإضافة إلى منصب النبي الثاني الذي يليه في المرتبة مباشرة، وفقاً لما يخبرنا به أحد النقوش التي ترجع لعهد "أحمس". ولعل فعالية هذه الرقابة إلى جانب أبعاد ممتلكات "أمون" التي كانت لا تزال حتى ذلك الوقت متوسطة الحجم، هي التي تفسر لنا ضائلة الأهمية بصورة نسبية التي حازها شاغلو المنصب الثلاثة السابقون، والمعروفون لنا : "خونسو - إم - حب" و"جحتي" و"مين - مونتو". ولكن مع عهد الملكة "حتشبسوت" حدث تغيير في الوضع (٨). فعندها يتميز بوجود زمرة من كبار المسؤولين الذين حازوا سلطتهم، على وجه شبه محتمل، بإيعاز منها بل وربما على حسابها هي ذاتها. وقد يكون هؤلاء المسؤولون قد استشعروا الحاجة إلى إضفاء طابع التجنيد على الخدمات الخاصة بأجهزة الدولة، بما في ذلك عبادة "أمون" كي يسوغوا حكماً غير شرعي، أو حكماً لم تعرف مصر له مثيلاً من قبل في أقل تقدير. وتكشف الألقاب الكهنوتية التي حملها رجل دين مثل "حابو - سي - نيب" عن اتجاه مزدوج للسياسة الدينية

في ذلك الأيام، أولاً : دمج ممتلكات "أمون" الدنيوية" بصورة تامة في قبضة سلطة واحدة، وثانياً: دمج ممتلكات كافة الآلهة المصرية ورجال كهنتها في قبضة السلطة "الأسقفية" * التي يتولاها الكاهن الأعلى لـ "أمون". وبالإضافة إلى توليه منصب النبي الأول لـ "أمون" ووالد الإله الأول لـ "أمون، كان "حابو - سي - نيب"، هذا، مشرفاً على كافة المناصب في "بيت أمون"، فهو مشرف على أنبياء الوجهين القبلي والبحري، ومشرف على المعابد. ووفقاً لهذا النظام الذي ابتكر للتو، جرى إخضاع وظيفة المشرف على كهنة الآلهة في المديرية، وهى وظيفة قديمة قدم الزمان نفسه، وتوازي على وجه التقريب سلطة "الأسقف" في وقتنا الحاضر، لسلطة من نوع جديد تعادل سلطة "المطران".

ويبدو أن الرجلين اللذين خلفا "حابو - سي - نيب" قد اقتنيا أثره، إلا أن صعود الفرعون "تحوت - موسى" الرابع إلى العرش رافقته هزة شاملة. فلقد وقع اختيار الفرعون، كما يبدو واضحاً، على شخص يدعى "أمين - إم - حات" لتولي منصب "الكاهن الأعلى". وهو ابن امرأة من أصل متواضع، وكان لا يزال مجرد كاهن بسيط عندما شارك في الرابعة والخمسين من عمره في الحداد على وفاة الفرعون "أمين - حوتب" الثاني. فهل كان الفرعون "تحوت - موسى" الرابع يؤكد، باختياره ذلك، وعن عمد، حقاً ملكياً خالصاً كان قد أصبح محل التجاهل؟ وبعبارة أخرى هل تجاوز الفرعون بصورة مقصودة مرشحين أوسع صيتاً من بين مسؤولين يتمتعون بـ "حقوق مكتسبة" تمسكاً بحقه الخالص في تعيين "رجل الفرعون"؟ حقاً أصبح "أمين - إم - حات" الكاهن الأعلى لـ "أمون"، والمشرف على كافة أنبياء الوجهين القبلي والبحري، إلا أن مناصبه المدنية كانت، على ما يبدو، قليلة. كما قام الفرعون "تحوت - موسى" الرابع أيضاً بتعيين أحد الكهنة يدعى "أمين - حوتب"، من مرتبة دنيا بالتأكيد، وإن لم تكن واضحة على وجه التحديد، في منصب "النبي الثاني" لـ "أمون". وقد شغلت مراسم التنصيب مساحة كبيرة بشكل ملحوظ في مقبرته: لقد وجد (أي الفرعون) أنسي ممن يصلحون لخدمة جلالته... وقد جرى تنصيب... وعندما وصل الأمر إلى رجال البلاط الملكي، استبدت بهم النشوة وكالوا المديح لجلالته. ووقزت كلمة

"مرحباً... على السنة الكهنة... فلقد رقيت إلى منصب النبي الثاني... وارتفعت كسي
شاهد قدسية سيد الآلهة" (٩). هل ينطوي الأمر هنا على إيماءة إلى أن "أمين -
حوتب"، هذا، لم يكن ينتمي حتى ذلك الحين إلى معشر الكهنة؟ ولقد شملت
التعيينات الجديدة الأخرى التي تمت تحت ظل الفرعون "تحوت - موسى" الرابع
"تانونا" الذي كان يشغل وظيفة الأمين الأول في منصب المشرف على الخزائن،
وتعيين "تيب - أمون" الذي كان يشغل وظيفة حامل الراية على سفينة الملك
الحربية في منصب رئيس جهاز البوليس، وتعيين "سوبك - حوتب" في وظيفة
بارزة في الغرف الخاصة بأطفال الملك، وربما تعيين "تيبى"، هو الآخر، في منصب
عمدة مدينة "تارو".

إلا أن المؤسف حقاً أننا لا نعرف إلا أقل القليل عن الشخصيات التي شغلت
المناصب العالية في السلك الكهنوتي في ظل حكم الفرعون "أمين - حوتب" الثالث.
فلا نكاد نستوثق إلا من شخص يسمى "ميري - بتاح" في السنة العشرين من حكم
الفرعون، وشخص آخر يدعى [؟] حوتب أي (راضى)، خلال مقبرة "رع -
موسى"، وشخص ثالث يطلق عليه اسم "بتاح - موسى" الذي كان قد شغل أيضاً في
وقت ما من حياته المهنية منصب وزير الوجه القبلي. وبين هؤلاء الثلاثة، يبدو أن
الأخير كان أهمهم، ونستند في حكمنا هنا إلى الألقاب، على الأقل، التي حملها :
وقد يكون من المثير للاهتمام أن نعرف المدى الذي بلغه شأوه ونفوذه حتى شكّل
في نظر معاصريه خطراً سياسياً.

ولقد شغل عدد كبير إلى حد ما من الشخصيات منصب المشرف على جميع
أنبياء الوجهين القبلي والبحري إبان عهد الفرعون "أمين - حوتب" الثالث. ويصعب
علينا أن نتحقق من السبب الذي يقف وراء ذلك. هل وافى الأجل بعض الذين
شغلوا المنصب بفارق فترة قصيرة بين الواحد والآخر؟ هل اشترك أكثر من
شخص واحد في شغل المنصب في وقت معين؟ أم أن الوظيفة انتقلت بشكل سريع
في واقع الأمر، من شخص لآخر حسب مشيئة الفرعون، الذي كان حريصاً، فيما
يبدو على الحيلولة دون أن يجمع "مطران" ما في قبضته خيوط نفوذ قوى بطول
استمراره في ولاية المنصب؟ ولقد شغل اثنان من أولئك منصب الكاهن الأعلى

لـ"أمون": وثلاثة منهم احتفظوا بصلوات ما مع عبادة "بتاح" في "منف". هل ينبغي أن تذهب الظنون بالمرء إلى أن الاستحسان الذي أبداه الفرعون بالإله "بتاح" إنما يعكس محاولة جسيمة من جانبه نحو موازنة قوة النبي الأول لـ"أمون" أم أن التبادل بين المسؤولين، "المنفى" (نسبة إلى "منف") و"الطبيي" (نسبة لـ"طيبة") نجم عن الحقيقة المجردة بأن الفرعون غير مقر إقامته المفضل بنهاية العقد الثالث لحكمه من "منف" إلى "طيبة"، وفي إطار هذه العملية اختار رجله من بين مرشحين محليين ؟

يقف "أمون" بين الآلهة المصرية في ظل المملكة الحديثة كمحدث نعمة انتهازي. ومن الواضح أن هذا القول ليس إلا صورة على المستوى اللاهوتي لحقيقة اجتماعية، تتمثل في أنه خلال صدفة تاريخية غدت عبادة "أمون" - أي كهنوته - رابطة يستطيع في نطاقها الطامحون إلى السلطة أن يحققوا ذواتهم. فالآلهة الأخرى، في معظمها تملك صفات ورموز مميزة، إلا أن "أمون" أي "الباطن" كان إلهاً باهتاً لا يستطيع المرء، من واقع تعريف الاسم ذاته أن يعوف إلا أقل القليل عنه أو حتى لا يعرف شيئاً بالمرّة. وقد لا يكون مثيراً للدهشة، بالتالي، أن نجد أن طبيعة "أمون" تقوم على الاقتباس، بصفة رئيسية، من مختلف العبادات الأخرى، فمن الإله - الملك اقتبس ألقاباً مثل : ملك الوجهين القبلي والبحري، وملك الأرباب، وسيد كل الآلهة، وأمير الأمراء (١٠) كما تزيى بزي ملك عظيم، جرى تفصيله على فرعون أرضى، بعد انعكاسه في السماء. وهو "ملك السماء" الذي ارتفع مثل "حور - آختي" - أتموم الذي لا يعرف أحد جسده (١١). ومن اللاهوت الحلولي الذي يرتبط عادة، بالإله "بتاح" اقتبس "أمون" فكرة التفرد (أي كونه فرداً لأشبيه له) والألوية (أي كونه الأول الذي لا سابق له)، وأصبح العنصر الأولي في الكون، وهو الإله الفرد الذي "يحول نفسه إلى عدد لامتناهي الحصر من الأشكال، فكل الآلهة موجودة أو فانية في ذاته" (١٢) وهو "أبو الآباء واللامتناهي في العدد، ولا نظير له، والفرد المتفرد، الموجد لكل ما هو موجود، والخالق لكل ما هو كائن، وهو الذي ربط بين أعضاء عشيرة الشمس * (١٣). ولما كان "أمون" قد تطابق منذ وقت مبكر مع إله الشمس، فكان من الطبيعي أن يستحوذ

لنفسه على القدرة على الخلق ومنح الخير من "رع"، وهو "قيس النور الحي السذي انبثق من الفيضان". وهو "الذي خلق كل ما هو حي، وقدر لكل قوته... الراعي القوى الشكيمة الذي يسوق رعيته إلى حماه... وكافة الأراضي تهتز فرحاً كلما أشرق كل يوم (١٤). وعود على بدء "هو الذي يشق السماء كي يشرق على هيئة قرص الشمس كل صباح (١٥) " وهو ليس خالقاً وحسب، بل هو "أب رحيم وعطوف على أطفاله كذلك. "الإله الفرد الذي لا نظير له، وهو "رع" الذي يشع نوره في الأعالي، وهو أتوم "أى الكامل" الذي خلق البشر، الذي يسمع دعوة الداعي كلما دعاه، وهو الذي ينجي الإنسان من قساوة قلبه. وعندما يشرق بحيا الناس وتتبضض قلوبهم وتستطيع عيونهم أن ترى. وهو الذي يمنح نفس الحياة لذلك الذي لا يزال في بيضته، وهو الذي يوهب الحياة للبشر والطيور ويوفر للفئران في جحورهم كل ما تحتاج إليه، وكذلك كل ما يزحف وكل ما يصفق الهواء بجناحيه على حد سواء (١٦).

ولم يكن نفوذ "أمون" مقصوراً، مكانياً، على مصر، إذ امتد إلى سائر أرجاء المسكونة، وهو النفوذ الذي عمقته، بقوة، الترانيم التي قصدت وجه ذلك الإله الذي ذاع صيته إبان الأسرة الثامنة عشرة. وفي ظل هذا الاتجاه العالمي للنزعة، اقتسم "أمون" مع "رع - حور - آختي"، وسائر أشكال الآلهة الشمسية، ربما خلال تماثله مع الشمس، سيادة جاءت كنتيجة روحية للظاهرة الجديدة التي تمثلت في الإمبراطورية العالمية. يقول أحد الأتقياء الذين يدينون بديانة "أمون - رع": "ترتفع ريشتك عالياً. وبهما ترى السماء، وبهما تنظر من على "الأقواس التسعة" (١٧) فإنه الشمس هو : الذي تصور كل شيء قبل خلقه رب العالمين، الذي خلق كل ما هو مخلوق، الإله الواحد الذي يقات بالصدق.. (١٨) وخير ما يمثل هذه النزعة العالمية على المستوى اللاهوتي، ولو أن هذه النزعة لم تبرز بشكل واضح في ترانيم الفترة السابقة على فترة "أخيتاتون" ؛ هو الترنيمة الكبرى لـ "أمون" التي ترجع على وجه التقريب إلى عهد "أمين - حوتب" الثاني : يا من صنعت البشر و خلقت الحيوانات... خالق شجرة الحياة والحشائش التي تتغذى عليها المواشي... صانع ما هو فوق وما هو تحت.. وهو الذي ينير الأرضين، ويمر في

مركبته عبر السماء بسلام... وهو الذي خلق الأرض بأسرها، وهو الذي خص كل إله بطبائعه... لك التحيات، يا "رع" يا رب الحق الذي يخفى ضريحه على الأبصار. رب الأرباب يا "خبري" الذي يحوز صيغة الأمر "كن فيكون" التي خلقت الآلهة. فأنت "أتوم" الذي سوى البشر وميزهم بهيئاتهم، الواحد عن الآخر، موجد الحياة، وفارق لون الإنسان عن لون أخيه، وهو الذي يسمع دعاء الذين أننبوا بقلوب واجف عندما يسألونه التوبة (١٩)

وعندما يجمع إله في ذاته ليس قسمات عديدة من قسمات الملك على نطاق كوني وحسب، بل وكذلك قدرات كلية بصفته خالقاً لخلقه، فإن هذا الإله يكون في حقيقة الأمر قد أصبح قوة يُعمل لها كل حساب. وعندما تتعكس مثل هذه المنزلة السماوية لإله ما على المستوى الاجتماعي في قوة دينوية تُمارس خلال طبقة ناشئة واسعة النفوذ من رجال الكهنوت على الأرض، فإن المرء لا يستطيع على وجه الاحتمال إلا أن يغفر لأسيا دنيويين آخرين خوفهم على أوضاعهم. ترى من ذا يكون ذلك الإله - الملك إلى جانب هذا الـ "أمون" الجبار، حتى ولو كان ذلك الإله - الملك أقدم، بما لا يقاس، من "أمون"؟ وألم يندس "أمون" خلسة حتى في السر المقدس لبنوة الإله - الملك لـ "رع" عن طريق إزاحته أي إزاحة "رع"، خداعاً وختالاً وال طول محله، أو دمج في ذاته وحجب نوره على أحسن تقدير، وإجبار حورس الدنيوي "الظاهر" على حمل لقب "ابن أمون"؟

دوائر الحكم

كانت هناك عوامل عديدة تعمل خلال الأسرة الثامنة عشرة في الحط من المكانة التقليدية التي ظل الإله - الطيب يحتفظ بها طويلاً على الأرض : ميل جارف نحو السلطة الأموية (نسبة إلى الأم. م)، ومشكلة وراثية الحكم التي تتفجر بشكل متكرر، والحرص البالغ على الارتفاع إلى مثال مستحيل للقوة البدنية، ونفوذ "أمون" الذي كان آخذاً في النمو بصورة مطردة، ورجحان كفة دائرة من المسؤولين ذوي المناصب الرفيعة.

دفعت الأسرة الثامنة عشرة عاليا عددا من النماذج لـ "مجالس وزراء" تضم مسئولين أكفاء، إن لم نقل نوابغ، وقع عليهم اختيار الملك الحضيف أو الملكة الحصيفة حتى وإن شكل ذلك الاختيار حجبا جزئيا لهالته هو - أو هالتها - في نظر الرعايا. وتشكل مجموعة المسئولين التي كانت تحوم في الظل إبان حكم الملكة "حتشبسوت" الذي دام عقدين من الزمان إحدى الحالات التي ينطبق عليها ما نذهب إليه، إلا أن الفرعون "تحوت - موسي" الثالث كان محاطا بحاشية مماثلة من الرجال ذوى الهمة واسعى الحيلة دون إلحاق أى خدش بهالته. واختار الفرعون "أمين - حوتب" الثالث، كما ورأينا، فيما قد ينطوي على مغزى ما بالنسبة لتاريخ العهد التالي، دائرة من كبار المسئولين الذين يتمتعون بقدرات بارزة وتعليم لا يضارع، الأمر الذي جاء في صالح الحكم ومصلحة العمل.

ولقد رعت عائلة التحامسة، فى ضوء حاجتها إلى رجال أكفاء يتمتعون بخيال خصب في خضم المهمة الدؤوبة التي أخذتها على عاتقها في بناء إمبراطورية، ازدهار هذا النوع من الإداريين ذوى العزم. وغنى عن البيان أن المصلحة الأولية للدولة كانت، في الأساس، مع ما قد نسميه نحن المحدثين بالنطق "المدني - الديني": قطع الأحجار في المحاجر والتشييد وأعمال الحرب وجباية الضرائب؛ وهو الأمر الذي فرض على المسئول المثالي إبان الأسرة الثامنة عشرة، حتى ولو كان كاهنا، أن يكون أكثر إنشغالا، وأكثر دربة، في أنشطة أخرى، خلاف تلك المتعلقة بالعبادات. وكان الشطر الأعظم من هؤلاء المسئولين، وكما أشرنا في الفصل الثاني، قد صعدوا إلى السلطة من بين صفوف أطفال القصر وكانت أمهاتهم إما أثريات ملكيات أو مرضعات (لغير أولادهن). ونجم عن ذلك أن تشكيلة البلاط المصغر في كل حكم إبان هذه الأسرة ضخمت، بالضرورة، التنافسات والولاءات الكامنة لمجموعة منازرة لتلك التشكيلة، خصوصا وأن أبناء هذه وتلك نشأوا وترعرعوا وظلوا معاً منذ طفولتهم.

وأياً كان المعنى المحدد الذي رمى إليه "أخناتون" من وراء ذلك "السوء" الذي قال أنه سمعه فليس هناك كبير شك في أنه كان يشير إلى معارضة صريحة ولا هوادة فيها لمشاريعه من أشخاص غير بعيدين عنه : "لما كان والدي (القوص)

حياً ! إذا...حتى ولو كان "أسوأ" مما سمعته في السنة الرابعة من حكمي، ومما سمعته في السنة...من حكمي، ومما سمعته في السنة الأولى (٢)، ومما سمعه والدي "تيب - ماعت - رع"، أو ما سمعه "مين - خبرو - رع.. (٢٠) ولمما ينطوي على مغزى أن ينكر "أخناتون" في نفس النقش الحدودي ذاته أن يكون أى مسؤول قد أبلغه شيئاً بخصوص المقر الجديد، ويمضى كى يجزم بأن هذا المقر لم يبن إلا للقرص (الإله) وليس لأي مسؤول أو لأي شخص آخر، ثم يؤكد بحماس بالغ أنه لن يكون في طوع لا الملكة ولا أى من رجال البلاط المقربين أن يصرفاه عن بحثه عن "أفق" القرص (الإله) إلى أى موقع آخر. ويبدو بالضرورة أن المستويات العالية من الإدارة حازت بمطلع حكم "أخناتون" سلطة تكفى لإثارة خوف أعمى وغيط بالغ في سليل هزيل نسبياً لبيت كان يوماً ما عظيماً. على أن الظلال الانفعالية للتعهد الذي قطعه "أخناتون" على نفسه بتجاهل نصائح الآخرين يشير، أيضاً، بوضوح إلى وخز الآلام النفسية التى يستشعرها بشأن وهن قدرته على الحسم، وحول خوفه من قوة الإقناع التى تملكها الملكة والحلقة الضيقة التى تحيط به من رجاله.

أخناتون الرجل

قد يكون حقاً ذلك الافتقار الكامن إلى الثقة في النفس هو الذي قاد "أخناتون" إلى نبذ العائلات القديمة التى تولت مناصب إدارية جيلاً إثر جيل لصالح "رجال جدد"، كثير منهم يعدّون دخلاء على الدوائر السياسية. ولا يحتاج المرء إلا أن يمعن النظر في الشجر العائلي لأولئك الذين ظلوا لما يزيد على قرن يتولون المناصب سواء في الوزارة أو الخزانة أو إدارت التشييد أو إنتاج المواد الغذائية كي نزن، حق الوزن، السقوط المفاجئ من دست السلطة، على نحو ما حدث، لكل عائلة، على حدة، خلال حكم "أخناتون"، فلم يكن جلالته، ببساطة، ليعرف هذه العائلات، وهذه العائلات لم تسنح لها أى فرصة، بالمقابل، خلال عهد والده "أمين - حوئب" الثالث كي تتعرف عليه. فمثل هذا الملك الشاب، الذي انزوى بعيداً عن

الأنظار وتُجوهل، لمدة طويلة، قد يكون مفتقراً حقاً إلى القدرة على الحكم على الأشخاص، وبالتالي أصبح عرضة لاقتحام محدثي النعمة إلا أنه ليس من الإنصاف أن نحكم على الشخص الدراميين الذين سعدوا على مسرح "أخيتاتون"، أولئك الذين ظهروا بشكل مفاجئ تماماً واختفوا بصورة سريعة للغاية، بأنهم جميعاً انتهازيون. غير أنني أظن أن الشطر الأكبر من القلق الذي يساور المرء حول العهد اللاحق لفترة "أخيتاتون" بشأن فئة المسؤولين الحكوميين ينبع مباشرة من التجارب التي عرفها الحكم في عهد "أخيتاتون".

تعرف سائر البيروقراطيات سواء في العصور القديمة أو الحديثة أن إستراتيجية مكافأة الأتباع تعد بمثابة الشحم الذي يضمن استمرار آلة النظام في العمل. ولقد سبق لنا أن شاهدنا سخاء الملك، الذي ذهب، كما يبدو، إلى مدى لا يصدق عقل، في الأعياد الضخمة التي تنصب في اليوبيل، وفي شعائر تقريب القرابين إلى إله العبادة الجديدة. والآن، وفي "أخيتاتون"، أصبح التوزيع الرسمي للمكافآت واحداً من أكثر الإجراءات الملكية شيوعاً (٢١). فلا نكاد نعث على أي مقبرة في الجبانة "مدينة - الموتى" في "أخيتاتون" لا يظهر على أحد حوائطها، رسم يصور المراسم المستفيضة التي تمنح فيها العقود المصنوعة من الذهب، والأساور، ومختلف الجواهر الثمينة الأخرى للمحظوظ من بين رجال البلاط. ففي أحد المناظر المرسومة في مقبرة "ميري - رع" الذي شغل منصب "الكاهن الأعلى" يصدر الملك توجيهاته إلى تابعه بمكافأة كبير أنبياء قرص - الشمس في "أخيتاتون": "ميري - رع" على هذا النحو: بالذهب طوق عنقه دون أن تهمل منه بوصة واحدة. وبالذهب غط قدميه كلتيهما، فلقد نفذ توجيهات الملك له الحياة واليمن والصحة، وصنع كل ما قيل بشأن تلك الأماكن الرائعة التي خصصها الملك له الحياة واليمن والصحة - في لوار البينيين في بيت قرص - الشمس في "أخيتاتون"... ويرد "ميري - رع" الممنون على ذلك بهذه الصيغة المهذبة: فلترفل في ثوب الصحة يا "وع - إن - رع أيها الابن البهي الطلعة الذي أنجبه قرص الشمس! فلنسأله أن يمنحك طول العمر - يمنحه لك إلى الأبد. نعم." (٢٢) ويكون حفل المنح مناسبة لإقامة الولائم ونصب الأفراح. ونلاحظ أن الحاشية التي

حضرت حفل مكافأة "توتو" نموذجية : ستة رؤساء سوريون يقودهم مصري، ومدائح منغمة للملك، أربعة أشخاص يحملون الشماسي يهتفون : يا بهي المحيا ! يا من يحيا الشعب بروياه...! يا راسخاً رسوخ "قرص - الشمس" لدى البروغ، عديدة تلك الأشياء التي تستطيع منحها !" وستة كتبه يدونون، وتسعة قضاة بينهم الوزير يهتفون : كم هي رائعة خطتك يا نفر - خبرو - رع"، يا نوع - ابن - رع"؟ كم هو ميمون من يشمله عطفك؟ أيها البهي الطلعة الذي أنجبه قرص الشمس...!" (٢٣) وإذا كان الملك يضم، في أعماق حنايا نفسه، أى تخوف من ألا يروق لمعاصريه أو يكسب رضاهم، فإن إنفاق الثروات التي كدسها أسلافه كان سياسة فعالة : لقد أخلص له أهالي "أخيتاتون" الحب، فلقد كانت الأيام تمر وكأنها، كلها، أعياداً.

لعل الفرضية التي طرحناها في الفصل الرابع بأن "أمين - حوتب" الرابع حُجب في الظل قبل صعوده إلى العرش، وبالتالي كان مجهولاً إلى حد بعيد، تجد ما يعززها في مراسلات "أخيتاتون" فالخطابات التي أرسلها "توشراتا" ملك (الميتانيين) وتلك التي تلقاها في ذلك العهد تكشف أن "تي" أم "أمين - حوتب" الرابع كانت بمثابة الشخصية الوحيدة التي تستطيع التأثير عليه، فراها تبصر "توشراتا" على هذا النحو : وطد مصالحك (؟) مع "تب - خوروريا". راقبه والأحرى (حط عينك عليه) ولا تكف عن إرسال الوفود المبهجة إليه (٢٤). وفي خطابات "توشراتا" نفسه إلى الملك الشاب استمر يذكره بأن "تي" هي الشخص الوحيد الذي إطلع على كل الأسرار التي كانت تدور بينه وبين "أمين - حوتب" الثالث . والشكوى الرئيسية التي تتردد في هذه الخطابات تتمثل في أن جلالة لم يستجب للطلب الذي تقدم به "توشراتا" لوالده "أمين - حوتب" الثالث بشأن بعض التماثيل العالية الجودة، ولكن عوضاً عن ذلك أرسل تماثيل خشبية أقل جودة وموشاة، وحسب، بالذهب. ويكتب "توشراتا" إلى "تي" : "لقد تحدثت بنفسك معي. ولكنك لم تطرحي الأمر على "تب - خوروريا" (٢٥). ويمضى إلى القول بأنها إذا لم تطرح هي الأمر عليه فلن يفعل ذلك أحد.

إذا كان الناس قد تعاملوا مع "أمين - حوتب" الرابع في البداية بشيء ما مني الحذر الذي يرجع إلى الخوف من كم مجهول، فإنهم سرعان ما لمسوا أن هذا

الملك يفتقر إلى ما كان يحوزه والده من صفات تبعث على الرهبة. والسياسة التي تستند إلى قواعد العدالة، التي أمل "أمين - حوتب" الرابع في انتهاجها تجاه الدويلات التابعة لمصر، وكشف عنها في لحظة طيش من لحظات الصدق حتى لأقل تابعيه جدارة بالثقة، يمكن أن يأخذها كثيرون على أنها مظهر من مظاهر الضعف. وربما ينطوي الأمر منذ البداية على ضعف حقاً يسوّغه للملك لنفسه كنوع من العدل. وفي سائر الأحوال سرعان ما وجد "أمين - حوتب" الرابع استحالة في فرض إرادته في مناطق النفوذ الشرقية التي كانت خاضعة لمصر. وأخذ يؤنب المرة تلو الأخرى "عزيرو"، المراوغ، بعنف شديد، لا ينبغي أن يأتي من ملك إلا قبيل إصدار أمر اعتقال. غير أنه يرق ويسمح لهذا الوغد بمزيد من الشهور على سبيل الإهمال. وعندما يرتكب هذا التابع عملاً يمكن أن يرقى إلى الخيانة، خلال الترحيب بمبعوث قوة أجنبية والإعراض في نفس الوقت عن رسول ملك مصر، لم يتجاوز رد فعل "أمين - حوتب" الرابع رفع صوته بشكوى مولولة : "لقد رحبت برسول ملك "خاتي"، ولكن رسولي لم ترحب به (٢٦). وبلغت الحماسة بـ "أمين - حوتب" الرابع حد إبداء ملاحظة يغلقها مصطلح يناظر عبارات المعاصرة : "هذا آخر خطاب نفص غلافه من..." : هل يستشعر مسئولية عن المدينة أكبر من زملائه" (٢٧) ، عندما كتب إليه ذلك الحاكم الطيب القلب سلسلة متتالية من الخطابات يشكو ويطلب فيها المدد. ولقد وجدت هذه الملاحظة أو هذه الإيماء الساخطة طريقها إلى خطاب بعث به جلالتة إلى هذا السيد الذي يدور حوله الحديث، وهو الأمر الذي سبب له قدراً من الحق. وعلاوة على ذلك كانت سيطرة جلالتة على حكمه على بلاد كنعان واهنة إلى الحد الذي سوّغ لهم أن يعترضوا بصورة مخزية طريق مبعوثين رسميين من بابل إلى مصر وينهبوهم، دون أن يلقوا أي جزاء، فيما يبدو واضحاً، على جرائمهم. ولا تشير الالتماسات التي لم يستجب لها جلالتة بطلب تعزيزات عسكرية، وهو الأمر الذي يلوح بارزاً في خطابات "أخيتاتون"، إلى التنازع عن الغرض، بل إلى التردد وعدم الحزم. ولقد ألمح "أكيزي" حاكم "قطنة" بشكل واضح إلى أن فشل سياسة جلالتة تجاه دويلاته التابعة في الشمال بعد مصدر إزعاج لـ "أمين - حوتب"

نفسه.

يكن قدر من مشكلة جلالتة في التعامل مع العالم الخارجي في الحقيقة التي تقول أنه اعتمد، إلى حد كبير على الوسطاء في نقل الأخبار إليه وفي الانتصاح بنصائحهم حول ما ينبغي عمله. وفي خطابات "أخيتاتون" يشكو الكتبة من أن مستشاري الملك يطعنون فيهم ويصفونهم بما ليس فيهم. والاحترام الذي يكنه "عزيرو" لـ"توتو" رئيس الحجاب وأمين الصندوق يفوق على وجه الترجيح ما يكنه من تقدير لجلالتة. ويشعر "عزيرو" باضطرابه إلى إبداء أسبابه التي تحدوه إلى اتخاذ ما اتخذه من إجراءات إلى "توتو" في خطابات يوجهها إليه مثلما يوجهها إلى جلالتة. ويصف "توتو" في مقبرة "أخنتاتون"، بما ينطوي على مغزاه، أحد واجباته على النحو التالي: "وبخصوص الرسل القادمين من البلدان الأجنبية، فلقد كنت للشخص الذي نقل طلباتهم إلى القصر" (٢٨). أما زميله "مايا" الذي حمل ألقاباً أكثر منه، فكان، هو الآخر، الشخص الذي تُحال إليه كافة الأمور كي يطرحها على سيد الأرضين (٢٩) ولكي نعرف أن هذا لم يكن عرفاً سائداً، لا نحتاج إلا إلى الرجوع إلى مراسلات الفرعون "رمسيس" الثاني في "بوغاز كوى" *، تلك التي توضح أنه كان على علم كامل ومباشر بما يدور في الخارج. وكان الفرعون "أمين - حوتب" الثالث، بالمثل، مهتماً بشكل مباشر بالكتابة سواء إلى رفاقه من الملوك العظام أو أتباعه من الحكام. ولا يستطيع المرء إلا أن يستشعر أن "أخنتاتون" نفّض يده من مسؤوليته بأن يظل على اتصال دائم بالعالم الذي يحيا فيه، وأوكل هذه المهمة إلى مؤسسه.

الفصل العاشر

بواعث العبادة التي دعا إليها "أخناتون"

يصدّم الباعث السلبي بالدرجة الأولى الذي يقف وراء "الإصلاح" الذي أدخله "أخناتون" على العبادة في مصر حتى المراقب العابر. فلقد اقتطع من الدين التقليدي أكثر كثيراً مما أضاف. إذ أبطل عبادة الآلهة، وجعل معابدهم تقف بلا عمل. وعلى أثر إبطال هذه العبادة، اختفت، ببساطة أساطير الإلهة التي كانت تمدنا بروح كثير من شعائر العبادة. ولم يكن إله الشمس الذي انتصر له "أخناتون" يتمتع، بطبيعة الحال بأي أساطير. ولقد مرت الشهور الأولى من حكم "أخناتون" دون أن يظفر إلهه بتصوير يخلع فيه الإنسان صفاته عليه.

ولم تكن هناك بنية رمزية أصيلة نشي بالأسلوب الفني الذي يصلح لتبجيل الإله الجديد، والأسماء والألقاب القليلة للغاية التي اقتبسها قرص - الشمس - تنتمي بصفة كاملة إلى عبادة "رع" الشمسية وأقران "رع" المقدس فلقد أقصى "أخناتون" عالم "الغيب" الذي اتسم بتركيب رائع عن أذهان الناس. ولم يعد الحق يصدر من أحد اللهم سوى الملك، وهذا الحق الذي يصدر عنه ضرورة تحميه بشكل كامل فلا اله إلا "أتون" ولا معابد احتفالية، ولا شعائر دينية فيما عدا تقريب القرابين وهو أمر أولى، ولا تصويراً دينياً، ولا تشبيهات للإله الجديد بالإنسان، ولا أساطير، ولا مفهوماً حول التجلي دائم التغيير للعالم المقدس. وكان في وسع العالم الروماني أن يصف "أخناتون"، بحق بأنه "ملحد" فما تركه جلالته لمصر لم يكن إلهاً بأي حال من الأحوال بل مجرد قرص في عرض السماء ! (١)

قرص الشمس في مصر قبل القرن الرابع عشر ق م

يميل كثيرون إلى أن يتركوا الكلمة المستخدمة للإله الذي عبده "أخناتون" وهي "أتون" دون ترجمة، كما لو كانت اسم علم، غير أن هذه الكلمة في الحقيقة، إسم عام قديم في القاموس المصري الدارج على الألسنة ولا يزيد معناه عن "قرص" * * ولقد عثرنا عليه منذ عهود المملكة القديمة مستخدماً للأشياء الدائرية مثل المرايا أو الأجسام الشبيهة بالأقراص التي تُستخدم في العبادات. ويبدو من المرجح أن الكلمة كانت مستعملة بالفعل في نفس الوقت في التعبير الذي يقول عن الشمس المادية : "قرص النهار". وهذا الاستعمال الأخير هو الذي أدى إلى انتشار مشتقات عديدة من هذا الاسم في الأدب الديني. فنسمع كثيراً أن الإله الشمسي "رع" بصفته "الكائن في قرصه" أى هو الذي يتجلى في قرص الشمس المادي الذي نراه بأعيننا، وكان الأتقياء الورعون يتوقون إلى اليوم الذي يركبون فيه، بعد وفاتهم، في "القرص" إلى جوار إله الشمس الذي يعبر السماء كل يوم. وفي مثل هذه الحالات كان الحديث يدور حول القرص بصفته كياناً متميزاً عن إله الشمس الذي يتجلى بذاته خلاله. وتربط فقرات قليلة قرص الشمس بالكلمة التي تعنى "ضوء الشمس" أو "أشعة الشمس"، وهو ربط لا يخلو من مغرر.

إعتباراً من المملكة الوسيطة، ولو أن ذلك كان على نحو متفرق، ولكن بشكل أكثر تواتراً في المملكة الوسيطة، استعارت لغة الإمبراطورية التي نهضت كظاهرة جديدة قرص الشمس كرمز ملكي وعام وشامل. وكان من الممكن أن يقال عن الغزو الذي يقوم به الملك أنه طوق "كل ما يحيط به قرص الشمس": وأن يقال عن مآثره بل وأحياناً عن شخصه أنه يضارع قرص الشمس. كما يمكن للفرعون وقد ارتدى تيجانه وجواهره اللامعة أن "يضىء الأرضين أكثر مما يفعل قرص الشمس"، وبصفته حاكماً عالمياً كان في الإمكان وصفه بأنه "قرص الشمس كافة البلدان". وخلال ارتباط الحية التي تزين جبين الملك، بصرف النظر عن التاج

الذي يرتديه بـ"عين رع" أى الشمس المتوهجة، اكتسبت الحية تلك، صفات "قرص - الشمس"، كما سار قرص الشمس أمام الجيش الإمبراطوري إلى الحروب.

ويشهد ذيرع ترنيمة الشمس خلال أوائل الأسرة الثامنة عشرة على وجود اهتمام متزايد بعبادة "رع". ففي غالب الأحيان كان نص الترنيمة يُنقش على جانبي مدخل المقابر النموذجية التي كانت تُحفر داخل الصخر، مما عرفتة تلك الفترة، حيث يضفي رونقاً، كما ينبغي عليه أن يفعل، على شخص المتوفى الذي يكون مرسوماً وهو متوجه إلى الخارج كي يستقبل شمس الشروق بالتحيات. ومع حكم الفرعون "تحوت - موسى" الثالث كان هناك نوع من التماثيل قد أصبح مألوفاً يظهر شخصاً راكعاً وهو شخص صاحب المقبرة، ممسكاً صائدوداً نُقشت عليه ترنيمة "رع" التي صارت بمثابة ضرورة لا غنى عنها. وتختلف هذه الترنيمة عن تلك إختلافاً يسيراً في كل حالة من الحالات، ولكن اللهجة واحدة إلى حد بعيد:

"التحيات لك يا من تكون رع" عند بزوغك وتكون "أتوم" عند غروبك الجميل. فأنت تشرق وتضيء على ظهر أمك (الأرض. م)، ساطعاً كمالك للتاسوع، و"نوت" (إلهة السماء) تركع أمامك، و"ماعت" (إلهة الصدق والحق) لا تكف لحظة عن احتضانك. فتعبر عباب السماء بقلب يملأه السرور... رع" في مركب النهار، ويكون مركب الليل قد قضى بإهلاك من يحمل عليه. الجنوبيون والشماليون والشرقيون والغربيون يقطرون مركبك تمجيذاً لك. فأنت الأول، وأنت الأزلي الذي خلقت وحدك دون خالق لك / وأنت الملك وسيد كل خلقت... يا أيها الفرد الفريد الذي ظهر إلى الوجود بين السماء والأرض في الوقت الذي لم يكن فيه للأرض أو العالم السفلي وجود. (٢)

كان "أمون" قد اندمج مع "رع" منذ وقت طويل، وأصبح الاسم المركب "أمون - رع" يدل على إله للعالمين، وملك سماوي، يشارك بشكل كامل في كافة المفاهيم الشمسية. ويستطيع المرء أن يلاحظ خلال العقود السابقة على "أخناتون" ميلاً نحو تصور "رع" أو "أمون - رع" في ضوء قرصه المادي، وفي إسباغ قدرات "رع - أتوم - خبري" في الخلق والحفظ على هذا القرص. ويستشعر

المرء، على نحو يضبطه الإبهام أن هذه "الأيقونة" الشمسية القديمة، أى هذه الكرة المرئية التى تعبر عباب السماء يومياً كانت ترتقى من وضع التجلي البسيط لإله الشمس إلى مرتبة إله مستقل.

تمتع كل من الفرعون "تحوت - موسى" الرابع والفرعون "أمين - حوتب" الثالث أى كل من جد ووالد "أخناتون" بعلاقة أوثق بقرص - الشمس من سابقيهم من الفراعنة. فأول هذين الفرعونين يطلق على قرص الشمس، في جعران تذكري مشهور اسم واهب النصر في ميدان المعركة. وتشير لغة البلاط البالغة التزييق والتميق إلى الملك بصفة "القرص في أفقه" وإلى القصر الملكي كـ "دار القرص". وفى ظل حكم الفرعون "أمين - حوتب" الثالث صك لقب "تيب - ماعت - رع" (أى "أمين - حوتب" الثالث) هو قرص الشمس الباهر" وامتد اللقب كي يسير أيضاً بأشكال متنوعة، على القصر الملكي على الضفة الغربية لنهر النيل في "طيبة"، وعلى المركب الملكي، وعلى هذه الفرقة أو تلك من فرق الجيش. وخلال حكم نفس الفرعون بدأت مظاهر إله الشمس كموضوع للتفكير والتأمل في أدب الترانيسم إلى مدى أكبر مما كان عليه الأمر من قبل : وتمتعت الآلهة الشمسية بصيت أكبر في المعبد الملكي الجنائزي مما كان عليه الحال فيما مضى. وأخيراً تستقل ترنيمة طويلة رائعة منقوشة لإله الشمس على صنادود للمهندسين التوأم "سوتي" و"حور" بقرص الشمس كإله تام الريش (كامل النمو). وتصفه على هذا النحو: "هو الذي خلق الناس جميعاً وقدر لهم أعمارهم".

إله "أخناتون" وأيقوناته

في وقت ما خلال الشهور الأولى من حكم الابن سيئ الطالع، للفرعون "أمين - حوتب" الثالث أعرب لرجال البلاط عن رغبته الملكية في عبادة إله جديد وفريد. لماذا اتجه "أخناتون" إلى هذا الإله ؟ ما هي التأملات الخاصة التى سبقت إعرابه عن رغبته ؟ يبدو أننا لن نعرف على وجه الترجيح. ولولا الصدفة الحسنة التى حفظت لنا كتلتين تحملان فقرة من خطبة "أخناتون" في هذا الصدد، بين حشو

الصرح العاشر الذي ابتناه الفرعون "حور - إم - حب" لما كان في وسعنا أن نحوز حتى هذا القدر المحدود من المعرفة بالأمر. حقاً نص الخطبة مهلهل في الوقت الحاضر، إلا أننا لا نزال قادرين على قنص بعض العبارات المغربة التي تشير إلى اتجاه واحد وحسب. يقول الملك :

[...] حورس (?) [...] معيدهم (?) دب فيها الخراب... [أجسامهم (?) سوف أو لا [...] منذ عصر (?)... الأسلاف] ؛ فالحكماء هم... [...] ينظرون. انني أتكلّم كي أبلغ / كم [...] أشكال (?) الآلهة. أعرف معابدهم [...]. [...] كتابات، ودليل جرد أجسامهم الأولية (تماثيلهم. م) [...] لقد كفّوا، الواحد بعد الآخر، سواء أكانوا من الأحجار الكريمة، [الذهب] [...] الذي ولد نفسه بنفسه، وليس هناك من يعرف سر [...] يذهب حيثما يشاء وهم لا يعرفون عن ذهابه... [...] إليه (?) في (?) الليل. لكنني أقترّب [...] التي سواها، يالهم من مجلّين ! [...] بهم [...] كنجوم. التحيات لك في بهائك، على أى صورة سوف يكون، هل سيأخذ صورة أخرى من نفس نوعك ؟ فأنت الذي [...] اسم جلاتك. [...] (٢)

يكشف لنا هذا النص عن مفاجأتين مذهلتين : سجّل الملك اعتقاده بأن الآلهة قد فشلوا على نحو أو على آخر، أو "كفّوا" عن أن يكونوا فعّالين،، ويصف إلهه الذي دعا إليه في الآونة الأخيرة باعتباره فرداً لا نظير له بصورة مطلقة، وكائناتاً في السماء. وعلى جدران البوابة الجنوبية نفسها، التي لا بد وأن يكون هذا النص قد جاء منها في الأصل، نجد رسوماً زخرفية عديدة تبيّن بوضوح تام أن الإله المشلر إليه هو "رع - حور - آختي"، "رع - حورس الأفقي" إله "أون" الشمسي العظيم. وتعد هذه المناظر المرسومة على البوابة الجنوبية، وتلك التي وصلت من الكرنك. وترجع إلى نفس الفترة الزمنية أى مطلع حكم "أخناتون" (سنته الأولى على وجه الاحتمال، بمثابة تكرار إلى حد الإملال لنفس المنظر الأساسي (اللوحتان ٤-٥) : رجل ذو رأس صقر يرتدى نقبة، ويمسك في يده صولجان ويعلمو رأسه قرص - شمس ضخم، يواجه الملك عبر مائدة تقريب القرابين، التي تشمل ما تعودنا عليه في قوائم الأطعمة والأشربة الشعائرية : الماء والنبيد واللحوم

والخضراوات والخبز والزهور.. الخ

وتختلف صفات الإله : "إله اللحظة الأولى ذو المهابة والجلال"، "رع - حور - آختي"، قرص الشمس العظيم، صانع البهاء، "قرص الشمس الحي الذي يسطع جماله على سائر أرجاء البلاد"، غير أن اسم الإله، بصفاته تلك الخاصة ظل دون تغيير : "رع - حور - آختي" الذي يبتهج في الأفق في اسمه، الضوء الكائن في أو البازغ من القرص". وهذه الصفة تضيف على الإله "إسماً" تقليدياً، وتسبغ عليه لقباً إضافياً يجعله يتطابق مع الكائن في قرص الشمس. وسوف يعمد "أخناتون"، بصفة دائمة، مع ذلك إلى استخدام عبارة "قرص الشمس" في الإشارة بصورة جامعة مانعة إلى إلهه.

ولعله من المهم أن نلاحظ أن أقدم الصور التي تخيلها "أخناتون" لإلهه كانت تتطوي بالفعل على علاقة وثيقة بين الملك والإله. وفي بعض المناظر يكشف ذلك الهجين أى الرجل - الصقر عن كرش بارز، بما يشبه تماماً شخص الملك الواقع أمامه ! (لوحة رقم - ٤ - ٦).

وجاءت المرحلة الثانية والأخيرة في تطور أيقونات (تماثيل وصور م) الإله الجديد في وقت متأخر من السنة الثانية أو أوائل السنة الثالثة من حكم "أخناتون"، وبدأت، دون شك، بشكل متزامن مع الاحتفال باليوبيل. (معظم المباني التي يظهر على جدرانها التصوير الجديد للإله مبنية من كتل "الثلاثاء"، إلا أن بعض الكتل الضخمة في حشو الصرح العاشر، المزخرفة بالصور الجديدة تثبت أن زخرفة المباني القديمة كانت لا تزال رهن الاستكمال) وقت ذاك لو كان ذلك في أى وقت من الأوقات كان تحطيم "أخناتون" للأيقونات (القديمة) قد أصبح جليلاً تماماً. إذ اختفى الرجل ذو رأس الصقر، وبقي منه قرص - الشمس، متضخماً، ومواجهاً عين الرائي على استقامتها (كما يبين ذلك وضع الحيات المقدسة التي تعلو جبينه). وحيثما كانت صورة الإله، حلت الآن، عوضاً عنها، سلسلة من الأذرع الطويلة، الشبيهة بالعصي النحيلة، التي تمتد إلى أسفل وتنتهي بأيدي بشرية، (وهذا هو التنازل الوحيد الذي قدمه الدين الجديد لمفهوم تشبيه الإله بالإنسان) وهذه الأيدي إما مفتوحة كي تمسك بالقرايين، أو تمد رموز الحياة (عنخ) والصحة إلى

الملك الذي يحظى شخصه بالحفاوة. وأصبح الاسم أو اللقب النموذجي الآن منقوشاً داخل نطاق خرطوشين رأسيين، تماماً من نفس نوع تلك الخراطيش المستخدمة لاحتواء اسم الملك ولقبه، المنقوشة، زوجاً فزوجاً على أحد جانبي القرص، والمصحوبة بالصفة الجديدة "القرص الحي العظيم" الذي يحيا في بهجته، سيد السماء والأرض الذي استوى في... (اسم معبد) " (شكل ١٩).

بشرت التجديدات التي دخلت على أسلوب التصوير، وأقمتنا على وجودها الدليل هنا بتغيرات عميقة في تفكير "أخناتون". وتتمثل أبرز هذه التغيرات على وجه الاحتمال في الصفات الملكية التي أخذت تزحف إلى الألقاب الإلهية، وهو ما سوف نتناوله بتفصيل أكبر في وقت لاحق. وعلى نفس الدرجة من الوضوح، على وجه التقريب، نجد الوضع الذي شرع الملك في إسناده لنفسه في ترتيب الأمور. ففي النوع القديم من المناظر التي يواجه جلالته فيها الإله على جانبي الإطار المستطيل الشكل، كان التوازن محفوظاً بين كافة العناصر سواء البشرية منها أو غير البشرية، التي تدخل في بناء الصورة الزخرفية. أما الآن، وبعد تحول الإله مع قوة جذبته إلى أعلى المنظر في شكل قرص متوارعٍ عن الأنظار، ظلت صورة الملك بمثابة أكبر عنصر يقف بمفرده في المنظر، وعلاوة على ذلك أصبح الآن يحتل المركز منه وانصب تركيز الأعين بالتالي عليه بطبيعة الحال. وكان ذلك على وجه التحديد ما قصد إليه التدبير الذي انعقدت عليه النية.

وأخيراً لا يعد تقليص إله الشمس إلى مجرد قرص لاشري سوى الخطوة الأوسع على طريق متدرج يهدف إلى تخليص مفاهيم القداسة بل وحتى الفن ذاته من كافة الصور التي تشبه الإله بالإنسان أو بالحيوان.

فالتصوير التقليدي - أو أي رسم، يتناول ذلك الأمر - للآلهة لم يعد يُنحت أو يُنقش وتجوّلت سائر رموزها، فيما عدا تلك الشعارات المحدودة التي يحتاجها الاحتفال بـ "عيد السد". وشمل هذا النهج حتى الكتابة الهيروغليفية، إذ مالت إلى تجنب استخدام صور الحيوانات والبشر كعلامات ومخصصات في هذه الكتابة ولم يعد يحظى بالسماح سوى عدد محدود من الصور التي ترتبط بعبادة الشمس : الصقر. أبو الهول. القرد، الثور وعلى وجه الإجمال كان "أخناتون"

يوجه، بذلك، رداً ساحقاً لا تعقيب عليه ضد الانخراط السائد للسحار والحرفي في تصنيع "الجسم" الأرضي للإله أى : عبادة - تماثله. ويشير الملك، وبوضوح كمل إلى "القرص" بصفته: "الفرد الذي أنشأ نفسه بنفسه، بيديه الاثنتين. دونما حاجة إلى أى صانع كان!"

القرص المطلق

لعله من الغريب حقاً أن آلهة مصر المتعددة استطاعت أن تستمر على قيد الحياة، على هذا النحو أو ذلك خارج نطاق "طيبة" خلال السنوات الخمسة الأولى من حكم "أخناتون" رغم نفيه، بصورة لا لبس فيها لكافة الآلهة الأخرى باستثناء إلهه الخاص. فإذا كان جلالاته قد حرّم عباداتها، فالمرسوم الذي أصدره في هذا الخصوص لم يكن قد وُضع بعد موضع التنفيذ فالصوايد الجنائزية على سبيل المثال، كانت، في نفس الوقت الذي تُجَلّ فيه الخراطيش الملكية واسم قرص - الشمس، لتُضفي تبجيلاً على آلهة مثل "نخبت" أو "أوزيريس" أو "أنوبيس". واستمرت الترانيم التي تقصد وجه إله الشمس في الظهور بين الحين والآخر، دون "تطهير" من العناصر النابعة من التعددية، بل ومثقلة بشكل واضح، بالإشارات إلى مركب - الشمس، و"توت" و"بحر النار" واتجه أمين سر الملك إلى الآلهة والإلهات التي تقام في "منف" في ضراعتة خلال السنة الخامسة من حكم جلالاته، وهو أمين السر الذي مضى في هذا الشوط كي يقول أن "بتاح" هو والد "أخناتون". إلا أن الحقيقة على ما يبدو أن درجة الكثافة التي سار وفقها البرنامج، في بداية حكم جلالاته، كانت تخف بشكل مطرد كلما ابتعدنا عن الحضرة الملكية.

غير أن كل ذلك تغيّر في السنة الخامسة. ففي نفس الوقت على وجه التقريب الذي كان جلالاته يرسى أساس خطته للانتقال إلى الموقع الجديد في "أخيتاتون" خضع برنامج الديني لتغيير حاد. ولكن زخرفة المعابد الجديدة قد أوشكت على الانتهاء في الوقت الذي أعلن فيه قطع كل صلة بين "بأمون". وعندئذ شهد ملك الأرباب - الذي ظلت عبادته مباحة حتى هذه النقطة، ولو أن هذه العبادة كانت قد

خفنت حميتها على وجه الاحتمال من جراء النقص في عدد الكهان ، لعن اسمه رسميا وإغلاق معابده. وكان برنامج رفع الاسم الذي أعقب ذلك من الدقة إلى الحد الذي يفرض علينا أن نفترض إما إرسال جيش صغير من حملة البلط (جمع بلطة. م) إلى مختلف أنحاء البلاد، أو إرسال عدة أفواج من المفتشين مكلفين بالتحقق من أداء المسؤولين المحليين ؛ كل في منطقته، للمهمة. ففي كل مكان، سواء في المعابد أو المقابر أو ورش التماثيل أو النقوش العابرة جرى كشط العلامة الهيروغليفية التي يرسم أو يكتب بها اسم "أمون" ونفس الأمر مع صوره وجدارياته، كما لقيت الأشياء التي كانت مقدسة بالنسبة له نفس المصير، وأجبر الذين يحملون أسماء مركبة على اسم "أمون" على تغييرها. وقاد الملك هذا السبيل بنبذه اسم "أمين - حوتب" الذي غدا وقت ذاك غير مقبول لصالح اسم "آخ - إن - أتون" أي "سادن - أتون". (اللوحتان رقم ٨-١، ٨-٢) كما عانى "أوزوريس" وحلقته من آلهة الموتى، هم أيضا من لعن أسمائهم. وصار في مقدور الشعائر الجنائزية أن تستمر، ولكن بشرط "تطهيرها" من كافة عناصر التعددية. وأصبح في وسع الأهالي أن يواصلوا وضع تماثيل "الشوابتي" أي "المجيبين" وهذه عبارة عن تماثيل صغيرة للخدم تصاحب المتوفى إلى العالم السفلي، ولكن دون أن تحمل هذه التماثيل نقش الفصل الذي يحتوى على الرقبة المخصصة لإعادة المتوفى إلى الحياة من "كتاب الموتى". أما جعارين القلب التي كانت تمنع القلب من الشهادة، في المنظومة الأوزيرية القديمة، ضد المتوفى في المحاكمة الأخيرة، فلقد استمرت على قيد البقاء، مع حملها نقشا لصيغة بسيطة لتقريب القرابين إلى "القرص". كما تجهل كل من التاسوع و"عبيب" (أو "أبو فيس" كما نطقه اليونانيون. م) ومختلف الآلهة التي تقيم في العالم السفلي بشكل صريح في الأدب الجنائزي، ولم يعد العالم السفلي ذاته ليشار إليه إلا كمجرد مكان يخرج منه المتوفى كي يطالع وجه الشمس. وحتى الفنون الزخرفية والخطية جرى "تطهيرها" من المواد المرفوضة مثل الرموز التي تشبه الآلهة بالإنسان أو الحيوان، ومال الكتابة إلى رسم الكلمات بصورة صوتية عوضا عن الرسوم المشخصة.

وإذا كان الأمر لا يزال بحاجة إلى مزيد من البراهين على ما كان الملك

يسعى إليه، فأعتقد أن هذا الحذف الذي ينطوي على مغزى هام كاف : صيغة الجمع "آلهة" لم نعثر لها على أثر بعد السنة الخامسة من حكم "أخناتون" اللهم إلا إذا كانت مكشوفة في الكتابات التي وصلت إلى أيدينا بين الحين والآخر. فلقد تبلى "أخناتون" في برنامج بصورة ضمنية في البداية ثم بعد ذلك بصورة صريحة وشاملة، وحدانية من شأنها ألا تطبق أى تجليات مقدسة أخرى. فـ"قرص الشمس" فرد فريد وكائن يعلو على كل الكون، ولم يكن هناك إله سواه. ولم يكن ليغير شكله أو يتخذ أى صورة أخرى : كان الفرد الدائم : قرص - الشمس الحي" ، ولا إله إلا هو".

صفات "قرص - الشمس"

هذا الإله الواحد الأحد كان سيداً سماوياً للنور. وتُركز نقوش كتل "الكتلات" المستخرجة من الكرنك على الحقيقة التي تقول أنه "ارتفع" للأعلى على سائر البشر، الذين يعتمدون، بقوة، على أعمال الخير التي يجود بها دون حساب ، ضوء "القرص". "هو الذي يقدّر الحياة وهو سيد أشعة الشمس، وهو خالق الضياء" و"هو الذي يسبب الأسباب كي يحيا كل فرد، ولا يمل الناس من التطلع إليه".

ينبع الشطر الأعظم من معارفنا، في "أخناتون"، حول طبيعة "القرص" من الترنيم الكبرى المنقوشة في مقبرة "آي"، وهي من نظم الملك نفسه على الأرجح. فبعد نبذ "أخناتون" للأساطير وما دفعته إليه رمزيته من حذف كل الاستعارات المماثلة من هذا النوع الأدبي أى نوع الترانيم ؛ لم يعد هناك مفاهيم يمكن طرحها بشأن الإله الجديد، اللهم سوى مفاهيم العالمية واعتماد الحياة على الشمس، والمفارقة (التعالي)، وقدره الخلق، وتنظيم الكون، والقوة المطلقة. ولم يكن أى من هذه المفاهيم جديداً، وهذه نقطة لا ينبغي لعبقريّة "أخناتون" في الصياغة الشعرية أن تحجبها عن ذهننا، فـ"القرص" هو الخالق والحافظ لكل ما على الأرض

وما تحتها : "خلقت يا ذا الجلال الأرض وما عليها في سموك عن الجميع
 أى خلقت الإنسان والحيوان وكافة الأسراب، وكل ما يسعى على قدمين
 على وجه الأرض، وكل ما يطير بجناحين في الجو، والبلدين الأجنبيين
 سوريا و"كوش"، وأرض مصر، ووضعت كل شخص في مكانه، وفرت
 لهم غذاءهم. فكل من كان يحصل على طعامه، وعمره مقدر وعلى نفس
 المنوال، لغاتهم مفروقة تماما الواحدة عن الأخرى على مستوى النحو. وإذا
 كانت ألوانهم مختلفة، فلأنك خلقت الشعوب الأجنبية مختلفة". وعود على
 بدء : "انبثق الخلق من بين يديك، لكونك خالقهم"، وحتى الزمن ذاته فمن
 خلق "القرص": "وأنت - يا ذا الجلال - خالق الشهور وبأري
 الأيام ومقدّر الساعات". وتجد مفارقتها وقوته تمجيدها في هذه السطور :
 "وأنت - يا ذا الجلال - تشع على الأفق الشرقي وتملأ الأرض بأسرها
 بجمالك، فأنت جميل، وعظيم وباهر، ومبجل فوق الأراضي
 جميعها... فبينما تكون بعيداً بعيداً ترسل أشعتك على الأرض، وأنت في كل
 وجه ! لقد سويت السماء في الأعالي كي تشع فيها، ولكي ترى من عليك
 كل ما صلغته يدك، وأنت تشع في تجليك كـ "القرص الحي" مشرقاً
 ومتألقاً ومتعالياً". وكل الأحياء يعتمدون في حياتهم على "القرص" عندما
 تشرق يحيون، ومتى تغرب يفنون، فأنت - يا ذا الجلال - عمرهم، وفيك
 يحيون وكل العيون تكتحل بمراى جمالك إلى أن تغرب، حتى يكتمل
 العمل". وكذلك فأشعة الشمس تعنى أن يبصر كل ما خلقت. يقول البشر
 أن الحياة في رؤية وجهه، بل ويموتون إذا لم يروه". "والحياة السرمدية
 كامنة فيك كي تنعشهم، وكذلك أنفاس الحياة التي تحتاج إليها أنوفهم. تلوح
 أشعتك، فإذا بكافة النباتات المغذية تنبت في ثرى الأرض، وليس هناك
 سبب ننموها سوى أشعتك ! "و"رع - حور - آختي" هو الذي أسبغ جماله
 على سائر البشر، حتى يحسوا، وعندما يهب أشعته، تضئ الأرض عند
 مولدك كل صباح كي تجعل خلقك يحيا "ولما كان خالقاً وحافظاً للخلق،
 فلقد حاز "القرص" سلطاناً مطلقاً على خلقه : "القرص" الحي هو سيد كل ما

خَلَقَ وما وَجَدَ" وعلى غرار كل ملك أرضى يبهج قدومه رعاياه :
 "أضاعت أشعتك الأرض من أدناها لأقصاها، وتغعم مشاهدة رؤياك كل
 القلوب بالسرور، فلقد أشرقت كسيد لهم" (٤)

تتخلل كل هذا الشعر دهشة عميقة الجذور أمام جمال قرص الشمس وقدرته
 في منظومة الطبيعة، مع عزوف راسخ عن التوسع في الشرح في صيغ أسطورية.
 إلا أن المفهوم الجديد للإله الذي طرحه "أخناتون" كان فاتراً. فلقد خلق "القرص"
 الكون "كيف ؟ ليس هناك من يخبرنا ويبدو أن هذا الأمر لم يكن ليهم الملك. وحفظ
 عليه استمراره، ولكنه يبدو كأنه لا يستشعر عطفاً على خلقه. حقا يدهمهم بالحياة
 والقوت معاً، ولكن بصورة أقرب إلى عدم الاكتراث إذ لم يقع في أيدينا أي نص
 يخبرنا أنه يسمع صرخة الفقير أو يشفى المريض أو يغفر للمذنب. ولم يكن هناك
 سبب وراء كافة ما نفقده، على نحو ما هو واضح في العبادة الجديدة سوى أن
 إلهاً، رحيماً على هذا النحو، لم يكن، بكل بساطة، ليقدم الغرض الذي توخاه
 "أخناتون".

فلم يكن قرص - الشمس - بالنسبة لـ "أخناتون" أكثر من أقنوم
 للملكية المقدسة، وانعكاس باهت لصورته هو على هذه الأرض، وقد
 أسقطت باتجاه السماء. وكانت كنية "القرص" الجافة قد شقت طريقها، مع
 عيد "السد" الأول الذي أقامه، وكما سبق لنا رأينا، إلى الخراطيش، كما لو
 كان ذلك "القرص" ملكاً، بل وموصفاً بهذه العبارة التي تليق بالملوك
 وحدهم : فليهب عمراً مديداً إلى الأبد. ولما كان هذا "القرص"
 حاكماً مطلقاً للكون، فلقد استحق التوقير الذي يجدر بالملوك : فكل الذين
 يكونون في معية الملك يروحون ويغدون في وضع الركوع، أو يقبلون
 الأرض عند قدميه. وكانت المخلوقات التي يرسمها الفنانون لأغراض
 الزخرفة، مثل طيور "رخيت" * أو الحيات ذات رؤوس الثعابين مزودة
 بأيدي ترفعها تقديساً لـ قرص - الشمس -، وكانت القروود ترفع كفوفها على
 نفس النحو تعبداً له.

الملك و"قرص - الشمس

كانت عقيدة "قرص - الشمس" تنطوي على إعادة تأكيد جازم للملكية المقدسة، كما يتضح من الدور الذي أسنده لنفسه. فالنصوص التي وصلتنا مهشمة من كتل "الثلاثات"، وترجع إلى السنوات الأولى من حكم جلالته، تؤكد على أبوة "القرص" و"بنوة" الملك : الملك هو ابن "قرص - الشمس"، وهو الطفل الجميل المحيا لـ "القرص" الذي خلق النور السماوي و"جماله"، ولقد وهب الوالد الملكية لابنه "أخناتون" الذي يشغل عرش أبيه على الأرض : السماء والأرض ملك له، وحدود ملكه تصل إلى أجواز السماء، وكل البلدان تستلقي تحت قدميه.

وجرى تعزيز كل هذه الأركان العقائدية في "أخناتون" حيث لا تستطيع ذكريات صامته أو خصوم متوفون أن يعترضوا على نشر وإذاعة الموضوع الذي لا موضوع سواه. فـ "أخناتون" هو الابن الجسدي دائماً الذي يسطع عليه. وليس هناك من يعرف حقاً قلب "الأب" سوى ابنه. وفي المقابل فإن هذا "الأب" السودود يصغي للصلوات التي يرفعها ابنه. فـ "أخناتون" هو الملك على الأرض وأبوه هو الملك في السماء، وهو يشبه أباه. بل ويعد في الحقيقة صورة لأبيه على الأرض. و"جماله" هو جمال "قرص - الشمس"، ومنصب الملك نابع من "قرص - الشمس". وهو، دون سواه، الذي نصب "أخناتون" على العرش : الملك يستوي على العرش الذي خلقه "قرص - الشمس" : وأنت - يا ذا الجلال - أي القرص قد أقمته فسي منصبك كملك للوجهين القبلي والبحري". ومن الطبيعي أن يحابي "قرص - الشمس" ابنه. وكان جلساء الملك يقولون عنه : لم يعظم "قرص - الشمس" اسم أي ملك آخر، سوى اسم جلالته".

وهكذا تمتع الملك بأوثق العلاقات مع أبيه. فكان صورة "القرص" على الأرض. ولهذا السبب على وجه التحديد شغل موقع المركز في مجمل النسق. ولما كان جلالته، هو ودون غيره، الذي يقف على ما ينتويه إلهه وما يرضاه، فهو وحده

الذي يستطيع أن يفسّر ما يريده لسائر البشر. والتعاليم الصادقة لا تصدر إلا عن "أخيتاتون"، والنصوص المتوفرة تحت أيدينا تركز على هذه "التعاليم" دون أن تحدد، مع ذلك مضمونها.

سدانة "قرص - الشمس"

يلفت الأنظار غياب الكهنة القدماء، وخصوصاً كهنة "أمون" (٥) خلال حكم هذا المارق، إلا أن ذلك لم يكن مرجعه إلى نقص في عدد الكهنة. فلربما يكون الكهنة الذين عملوا في خدمة آلهة آخرين في أوقات سابقة قد جرى تجنيدهم وقُت ذلك كسدنة للإله الجديد. وفي "طيبة" كانت الدرجات هي نفسها في أي مكان آخر فـ "حم نوتر" أي "خادم الإله" وإيت نوتر" أي "والد الإله" و"وعب" أي كاهن عادي. أما في "أخيتاتون" فلقد سمعنا عن سدنة "القرص" في "دوار الشمس" في "أخيتاتون". كما تطلب الاحتفال بعيد "السد" وجود "الكاهن المرتل"، ولكنه من المشكوك فيه أن يكون قد رتل أو قرأ من كتاب الشعائر الخاص به، ففي ضوء المقت الذي أفصح عنه "أخيتاتون" للعبادة التقليدية.

اقتبست هرمية العبادة الجديدة بعضاً من تنظيمات كل من "أمون" و"رع". فعلى غرار "أمون" "سدن" نبي أول "أي كاهن أعلى" "قرص - الشمس"، إلا أن هذا الكاهن الأعلى لم يكن أي شخص فأن، بل كان الملك ذاته. وعلاوة على ذلك فلقد تقلد الرائي الأول لـ "رع - حور - أختي"، وهذا لقب مشتق، بشكل واضح من مصطلح عبادة الشمس في "أون"، هذا المنصب أول الأمر في "طيبة" ثم في وقت لاحق في "أخيتاتون". وقد يكون من الضروري أن نرى في هذا الكاهن، العقل المدبر للعبادة الشمسية، ولو أننا لا نراه في مختلف جداريات الكرنك بطولها إلا كتابع لجلالته، مرتدياً نقبة وطربوشاً بزر، ويحمل إما مبخرة أو صولجاناً في يده مع قنينة صبيان النبيذ. ويبدو أن كل وظائفه الرئيسية لم تكن لتتجاوز وظيفتين: مناولة الملك الذي يدور حوله الاحتفال الأدوات التي يحتاج إليها، أو التبخير أمام جلالته أينما حل. وبصفته إلهاً على الأرض، أي الشخصية المحورية في إدارة

شؤون الأرض بأسرها، كان لجلالته كهنوت خاص يقوم على خدمته برئاسة شخصيتين يشغلان منصب النبي الأول والنبي الثاني للملك : "تفر - خبرو - رع ، وع - إن - رع". ويبدو أن النبي الأول منهما كان بمثابة "لييس" (شماشجي. م) الملك، إذ يظهر في الرسوم التي وصلتنا، سائراً في أعقاب الملك عند تأدية شعائر العبادة، وهو يحمل كرسيًا خشبياً بلا مساند بالإضافة إلى صندوق سيده.

تعد السدانة المقدسة الموقوفة على "قرص - الشمس" تقليصاً حاداً لشعائر تقليدية، خصوصاً وأن العقيدة الجديدة كانت قد فرضت حذف كافة أشكال الرمزية الأسطورية على سبيل "التطهير". ولم تبق هذه العقيدة إلا على الشعيرة الرئيسية التي تتمثل في تقريب القرابين، وهي الشعيرة التي تركزها الجداريات إلى حد الإملال. والعبارة الأكثر شيوعاً لتقريب القرابين هي "سماع - عابت" أي "أداء التقريب العظيم"، وهي العبارة التي حددها أحد النصوص، بصفتها تشتمل على : الثيران ذوات القرون القصيرة والنبيد وكافة الأشياء الفاخرة والطاهرة وكل الخضراوات. ويمتد منظر سوق المواشي وطرحها وذبحها في شريط طويل على امتداد قاع مناظر اليوبيل في معبد "جم - ت - با - أتون" أو "قرص - الشمس اهتدينا إليه". ففي كل مكان نشاهد السدنة يحملون الخبز والحلوى وأفخاذ الثيران وقناني النبذ... الخ.

في كل مثل هذه المناظر يجري التركيز على موضوع واحد : كرم الملك وجود والده "القرص" فالوفرة التي تغلها أراضي مصر، تعتمد عليهما دون سواهما ، والملك هو "النيل الذي يغمر سائر الأراضي" ويوجه إليه الخطاب بصفته "النور" (نشو) : "أحيا على رؤيتي لك، ويشد أزري بسماعي صوتك" وينتقل عالم الطبيعة بسهولة كبيرة في العقل المصري إلى عالم الأخلاق، والاستدلال على القدرة الكلية للزوجين المقدسين معروف عند القدماء. فالملك هو "الذي يهب لمن يحب، وهو الذي يرتب شعائر الدفن لمن يسكن قلبه" وانطلاقاً من هذه المقدمة المنطقية تصدر تلك النصيحة الكلاسيكية من فم والد الإله : "آي"، تلك التي نسمع فيها أصداء نفس اللحن الذي يرن خلال عبارة "بتاح - حوتب" أو "سي - حوتب - إيب - رع -

عنخ" التي وجهها إلى "أنى": إيه يا كل الأحياء الذين يدبون على سطح الأرض، وأولئك الذين سوف يحدون شباناً يافعين يوماً ما ، لسوف أحتكم عن طريق الحياة، ارفع آيات المديح إلى القرص" الحي ولسوف تسعد بحياة اليسر والرخاء، ادعوه قائلين: فلتمنح الحاكم الصحة بلا حدود، وعندئذ يضاعف لك العطاء ... عظم جلالة الملك الذي يضاهي القرص" في تفرد، فليس هناك قرين آخر بجواره . وعندئذ سوف يهبك عمراً ترفل فيه سعيد القلب، خلال العون الذي لا ينسى يحبو به الناس" (٦) فالملكية هي المركز، وهي وحدة غير قابلة للتقسيم وفريدة لا شبيه لها ولا نظير. وهي كذلك سواء في الأرض أو في السماء، وهي شمسية فهي أصلها وتجلياتها. وليس في طوع أي من كان أن يهرب من سلطانها أو حقوقها عليه أو واجباته نحوها.

الباب الرابع

الغروب

الفصل الحادي عشر

عن السياسات والشؤون الخارجية

تتقصدنا معلومات كثيرة فيما يتعلق بتاريخ السياسة الداخلية لهذا الحكم .ولا غرابة في ذلك طالما كانت كافة النصوص المنشورة، بصفة رسمية، قد استهدفت محو كل أثر عقب أقول نجم النظام الذي أسسه "أخناثون". بل ولم تستطع حتى أعمال التنقيب التي قمنا بها في منطقة الكرنك، أو قامت بها البعثة البريطانية التي استأنفت العمل أن تفعل شيئاً ذا بال في سبيل ملء الفراغ الذي نعانيه بالنسبة للمصادر التاريخية عن تلك الفترة من الحكم .وقد يكون في طوعنا أن نللم أطراف تاريخ ما، يعدد الأحداث التي نعرف، أو نظن، أنها وقعت، إلا أن الأمانة العلمية ستتخلى عنا إذا لم نشر إلى أن مصادر معلوماتنا عشوائية، وفي غالب الأحيان بعيدة الاحتمال وشبه خيالية .ولا يعد ما تحمله البطاقات المصقوفة على قناني النبيذ أو العلامات الأصلية المنقوشة عليها عند صنعها بالنصوص المأمولة التي يستطيع المؤرخ أن يعول عليها ! وبالتالي فإننا لا نملك فكرة واضحة عما إذا كان تأريخنا ذلك يشمل الأحداث الهامة حقاً ويحمل سجلاً بشكل عام، حتى ولو كان موجزاً، لحكم المارق.

تأريخ فترة "أخناثون"

أثمر النشاط المحموم الذي شهدته السنوات الأولى في الموقع الجديد كثيراً من الثمار. ففي الذكرى التاسعة لارتقاء "أخناثون" العرش، كان بوسع أن يرنسو إلى مدينته التي كانت مبانيها الكبرى قد انتهت أو أوشكت على الانتهاء. ويبدو أن عيد "سد" آخر جرى الاحتفال به، على ما يبدو، على نطاق أضيق من الاحتفال الأول الذي شهدته "طيبة" (١). وفي السنة التاسعة أو نحوها، ولسبب

مجهول، قرر "أخناتون" أن يغير ذلك الاسم الرسمي التعليمي : "قرص - الشمس"، الذي ظل ينتصر له لأكثر من عقد من الزمان، وهو الاسم الذي استمر لمدة طويلة يدخل في الخراطيش. ولقد شطب التغيير بصفة رئيسية إسمي "حور - أختي" و"شو" من اللقب، وحاول ملء الفجوات التي نشأت، بإدخال اسم "رع". أما الاسم الجديد أو "الأخير"، كما كان يسمى، فكان : "رع" الحي، حاكم الأفق، الذي يبتهج في الأفق في اسمه "رع"، الأب الذي تجلى كـ قرص - الشمس".

وكانت "تفرتيتي" لا تزال حاضرة هناك، إذ أن بطاقات النبيذ التي تعود إلى السنة العاشرة والحادية عشرة تقول : "نبيذ بيت نفر - نفرو - أتون"، وهذه إشارة إلى الملكة (٢)، إلا أن المرء يستشعر أن نفوذها أخذ يتقلص بالتدريج كلما كبرت بناتها.

وشهدت السنة الثانية عشرة حفل استقبال فخماً للسفراء الأجانب الذين قدموا حاملين الجزية في نوع من الاستعراض الدوربار durbar ، (إذا جاز لنا أن نستعير هذا المصطلح من الحكم البريطاني). ولقد وقف الملك في جوسق (كشك. م) في السهل الواقع شرقي المدينة على وجه الاحتمال، بينما أخذ في التدفق في كافة الأرجاء الرسل القادمون من النوبة وليبيا وسوريا بالإضافة إلى مبعوثي الحيثيين. ووضع الذهب والفضة وسائر المعادن النفيسة والملابس الثمينة والمصنوعات الغالية على الأرض في حضرة الملك. وفي نفس الوقت سيقّت المواشي وهي تخور. وكل ذلك لا يشكل سوى "العطايا" الواجبة على، والمنظرة من الأعيان في مختلف ربوع الإمبراطورية. وكانت "تفرتيتي" وبناتها الست بصحبة الملك. ولكنها كانت المرة الأخيرة التي نرى فيها العائلة مجتمعة الشمل. (٣)

رحلت إلى العالم السفلي "مكت - أتون" الابنة الثانية للزوجين الملكيين في وقت لا يبعد كثيراً عن السنة الرابعة عشرة. ويبدو أن الموت خطفها عن عمر لا يتجاوز الحادية عشرة. ونرى حداد الملك والملكة بتعبيره المشحون في منظر جداري منحوت في مقبرة الملك، رغم الغرابة التي ينطوي عليها اختيار هذا الموضوع في سياق جنازتي خاص بجلالته.

ووافى الأجل أعضاء آخرين في العائلة المالكة في تتابع سريع. وتوفيت

"كيا" قبل زوجها "الملك" على وجه الاحتمال. (ورد ذكرها لآخر مرة مع لقبها "المحبوبة" في السنة السادسة) (٤). وظهرت "تي" الملكة الأم للمرة الأخيرة في السنة الرابعة عشرة عندما ظهرت، هي وابنها، في جدارية في إحدى المقابر، وهما يزوران أحد المعابد. ويبدو، وعلى سبيل التخمين، أنها رحلت قبل نهاية حكم جلالتة بوقت طويل. كما اختفت، كذلك، البنات الثلاث الأصغر سناً من السجلات سواء المكتوبة أو المرسومة بعيد السنة الثانية عشرة. والواضح أنهن توفين، دون شك، قبل وفاة والدهن. إلا أنه يصعب علينا أن نقول أي شيء بشأن تبدل صروف الدهر في أحوال سائر المقربين من الملك. فالمقابر الخاصة التي نُحِتَتْ في صخور الجبال الشرقية عثر عليها المنقبون خالية في حقيقة الأمر، إلا أقلها، من موميائاتها. ولكن البداهة لا تقبل ألا يلقى أحد من حاشية الملك حتفه طوال فترة حكمه.

قد تجد الوفيات المفاجئة التي نعرفها إعتباراً من السنة الحادية عشرة على وجه التقريب وما بعدها، تفسيراً في عواقب وباء الطاعون الذي اجتاح - كما أشار عالم المصريات الألماني "هيلك" Helck - بلاد المشرق في ذلك الوقت. (٥) ولقد سمعنا عن هذا الوباء لأول مرة في رسائل "أخيناتون"، تلك التي جاءت من السلح الفينيقي. فهناك، تفشى الوباء. وبدأ في مدينة "سومور" مقر الحكم المصري للإقليم، ثم انتقل في وقت لاحق إلى مدينة "بيلوس"، الأمر الذي لم يلق بالرحب في قلوب السكان وحدهم، بل وفي أفئدة المسؤولين المصريين المقيمين في الإقليم كذلك. ولقد بلغ الخوف بحاكم "بيلوس" من احتمالات فرض الحجر الصحي على مدينته، وهو الأمر الذي كان ليؤدي إلى عدم تلقي أي عون آخر، أن يكتب بصورة مهووسة، إلى "أخيناتون" على هذا النحو: "هم يتجهون إلى ارتكاب جناية كبرى عندما يلقون على مسامعكم بقول مثل "هناك طاعون في تلك الأنحاء! فلا تنصت لأقوال أولئك الأشخاص! فليس هناك وباء في هذه البلاد! والأمور تسير على ما يرام مثلما كانت تسير من قبل" (٦) ومع ذلك فإن الحديث لم ينقطع عن وجود الوباء في مراكز ساحلية أخرى على اتصال بكل من "سومور" و"بيلوس"، فضلاً عن تفجر نفس الوباء بعد ذلك بعشرين سنة بين الحثيين. ولما كانت الروابط بين

الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وبين مصر أوثق مما بينه وبين "خلاتي" أي بلاد الحثيين، فالاحتمال الأقوى أن يكون ذلك الوباء قد امتد إلى مصر وأنزل بها هلاكاً مماثلاً.

وعلى غير ما هو متوقع، وفي الوقت الذي كان فيه حكم "أخناتون" يقترب من نهايته، اقتربت كبرى بناته "ميريت - أتون" من دائرة النفوذ. ففي السنوات الأخيرة لحكم والدها دأبت بطاقات قناني النبيذ، وكذلك مناظر الجداريات على الإشارة إليها بصفتها "ابنة الملك (المحبوبة)". وذات مرة، وردت الإشارة في السنة ١٦ إلى "بيت المحبوبة". ولكن المسألة ليست محسومة حول ما إذا كانت "ميريت - أتون" هي المقصودة بذلك اللقب: "المحبوبة"، خصوصاً وأن "كيا" حملته في وقت أسبق من حكم جلالتة. إلا أننا لا نشك كثيراً في أن "ميريت - أتون" حلت محل الكثيرات في الاستئثار بحب والدها، إذ يشير ملك "بابل"، "بورنابورياس" في جواب أرسله لـ "أخناتون" إلى: "كريمتك" "ماياتي"، بصفتها "سيدة بيتك" (٧). ويشكو الملك البابلي في جوابه من أنها لم ترسل أي هدية أو أي عبارة "تدحبل" أثناء مرضه. والهدايا ورسائل تطيبب خاطر لا يتوقعها ملك إلا من ملك آخر وقرينته، وليس من مجرد أميرة بين أميرات عديدات. ويبدو واضحاً أن "ميريت - أتون"، وصلت منذ آخر مرة رأيناها فيها، بطريقة أو أخرى، إلى هذه المنزلة الرفيعة. وبناء على ذلك أخذت "ميريت - أتون" تظهر وقت ذاك في مناظر الجداريات، وقد نُحتت صورها "فوق" صور سيدات ملكيات أخريات، وخصوصاً "كيا" بل و"فوق" صور والدتها "نفرتي".

واعتباراً من السنة الخامسة عشرة، على وجه التقريب، أخذت "ميريت - أتون" تظهر بعض الأحيان سواء في فن النحت أو الجداريات بصحبة شخص ذهب كثيرون إلى أنه زوجها الشاب. (٨) ويشار إلى اسمه بين الحين والآخر كـ "سنخ - كا - رع" أي "ذاك الذي مجّده روح رع"، ويجوز أن يُضاف إليه نفس اللقب الذي حملته "نفرتي" منذ السنة الثانية أو الثالثة على أبعد تقدير: "نفر - نفرو - أتون". وهذا اللقب يبدو، في الحقيقة، أكثر تردداً من الاسم ذاته، رغم أن هذه النتيجة قد تكون خطيرة، في ضوء قلة الأمثلة نسبياً. فلقد تمع "سنخ - كا

— رع" بكل تأكيد بنفس القدر الذي تمتعت به "ميريت — أتون" من حب "أخناتون".
 فمنذ اللحظة التي ظهر فيها في فن "أخناتون"، أدى "سمنخ — كا — رع" دور
 شريك الملك في الحكم : حصل على الاسم الأول "عنخ — خبرو — رع" أي "خبرو
 — رع — الحي" بالإضافة إلى ألقاب من قبيل "محبوب نفر . — خبرو — رع"
 و"محبوب رع — إن — رع". وهذان اللقبان يكشفان في بنائهما ليس عن انشغال
 بشخص "أخناتون" وحسب، بل عن استخدام اسمه مطرح إسم الإله، وذلك لأن
 الألقاب التي تبدأ بـ "محبوب كذا" تنسب الحب إلى إله كامل الريش . كما يمكن أن
 نقدم أدلة إضافية في هذا الصدد على وجود علاقة حميمة مع "أخناتون" من
 التحف الفنية الصغيرة، فبعضها يصور ملكين يداعب كل منهما الآخر، ولكن نظراً
 لافتقار هذه التحف إلى نصوص مرفقة تكشف عن شخصية هذين الملكين، فإن
 تأييدها للفرضية المطروحة أقل وقعاً مما قد يبدو لأول نظرة. ولقد أوجت قوالـب
 الطوب المختومة باسم "سمنخ — كا — رع" التي استخرجها المنقبون من إحدى
 القاعات ذات الأعمدة جنوبي حجرات القصر، للبعض بأن القاعة شُيّدت خصيصاً
 بمناسبة تنويجه، إلا أن ذلك لا يخرج في الوقت الحاضر عن كونه تخميناً.

لا يزال السؤال حول ما إذا كان "سمنخ — كا — رع" و"ميريت — أمون" قد
 تبوأ عرش البلاد، وهدهما، في أي وقت من الأوقات رهن البحث. إذ يبدو أن على
 جدران إحدى المقابر، بوضوح تام، وقد تزيّنا بالأزياء الملكية، أثناء مكافئتهما
 لصاحب المقبرة. وفي هذا المنظر لا تقع العين على أي أثر لـ "أخناتون" (٩).
 وعلاوة على ذلك يرجع تاريخ البطاقات التي تحملها قناني النبيذ وتشير لعزبة ما
 لـ "سمنخ — كا — رع" إلى السنة الأولى من حكم ملك ما (ولا يرد ذكر لاسم
 الملك الحاكم في مثل هذه البطاقات) (١٠)، كما يعود نقش جرافيتي (مخريشات. م)
 في مقبرة من "طيبة"، وهو النقش الذي يشير، بصورة عابرة إلى معبد نذر "سمنخ
 — كا — رع" لـ "أمون" (هكذا !) في السنة الثالثة (١١) من حكم ذلك الملك.
 والآن يعزي المؤرخون، في العادة السنوات الأولى والثانية والثالثة في أحد نقوش
 المخريشات، وكذلك بطاقات النبيذ إلى "توت — عنخ — أمون" رغم أننا لم نستطع
 التوصل إلى أي نص فوق الظنون لحكم هذا الرجل أدنى من السنة الرابعة. وهذه

مشكلة قد تجد حلاً لها في الافتراض الذي يذهب إلى أن "توت - عنخ - آمون"، واصل، عند وفاة "سمنخ - كا - رع" في السنة الثالثة لحكمه، التسلسل العددي لسلفه هذا، كسنوات حكم له هو. ومن جانب آخر قد تكون سنوات "سمنخ - كا - رع" في الحكم مترامنة، بصفة كاملة، مع السنوات الأخيرة من حكم "أخناتون".

لا ينزع أحد في أن "سمنخ - كا - رع" بدأ قبل عدة شهور من وفاته في أعمال تشييد لـ "أمون" في "طيبة". ولكن عودته شخصياً إلى المدينة الجنوبية القديمة "طيبة" تعد أمراً أبعد كثيراً عن اليقين، ولو أن إكتشافاً تم في وادي الملوك قبل سبع وسبعين سنة يشير إلى أنه دُفن على الأقل هناك.

وفي سنة ١٩٠٧ اكتشف فريق أثري يعمل تحت رعاية المليونير الأمريكي "تيودور ديفز" مقبرة صغيرة منحوتة في صخر الجبل يصل إليها المرء عبر دهليز وعدد من درج السلالم قرب المدخل الذي يقود إلى أعماق وادي الملوك. ولكن القبر ذاته كان منهوياً بصفة جزئية، رغم كونه مختوماً. وكان التلف قد دب فيه نتيجة للنشع والمطر. وكان المدفن قد أقيم في تسرع، وزود بالحد الأدنى من المستلزمات، وما بقي من الأثاث العادي والأواني والأثاث الجنازي يحمل في الغالب إسمي "أمين - حوتب" الثالث و"تي". وقد توصل المنقبون إلى نتيجة مفادها أن المقبرة هي مقبرة الملكة "تي"، ونشروا المقبرة باسمها. إلا أن مشكلة عميقة سرعان ما أطلت برأسها. فبينما نجر صندوق المومياء، كما هو واضح، إبان عصر "أخناتون" المزدهر لسيدة تنتمي إلى البلاط وتسري في عروقها دماء ملكية، إلا أن أدوات الإعراب، في النقوش التي يحملها الصندوق على لسان شاغله، دخل عليها تغيير دقيق، من حالة المؤنث إلى المذكر ! كما اتضح أن الجسد المسجى، الذي أعلن أحد أطباء التوليد في وقت سابق أنه لامرأة، هو لرجل عندما قام أحد أطباء التشريح بفحصه بدقة أكبر في القاهرة. إلا أن ميل بعض أجزاء رفات الهيكل العظمي نحو صفات الأنوثة جعل بضعة دارسين يقفزون إلى نتيجة مفادها أن الجثمان لـ "أخناتون" نفسه. إلا أن فحصاً لاحقاً في أواسط الستينات انتهى إلى أن بنية الجسم تكشف عن أن صاحبه ذكر سوي. كما حدد العمر عند الوفاة بنحو

عشرين سنة، أي أصغر كثيراً من الفرعون المارق، في ضوء سنواته السبع عشرة في الحكم وبناته الست. (١٢)

كان بوسع النصوص التي يحملها التابوت أن تحل اللغز، لولا الحقيقة المؤسفة أن اسم المتوفى، أينما ورد، كان مفتقداً، اللهم سوى استثناء واحد. يقول النص الطويل الموجود على قاعدة التابوت :

"منطوق يخرج من فم "خرطوش مكشوط" المتوفى : فلا تفسد النفس الزكي الذي يأتيني من فمك . وأرى جمالك بصفة يومية، وإنني لأدعو في صلاتي أن أسمع صوتك العذب الذي يشبه النسيم . وتتفتح أطرافتي بالحياة خلال حبي لك ! ولتمد ذراعيك نحوي وهما يحملان روحك حتى ألتقأها وبها أحيا . فلتطلب إسمي لحياة الأبدية، وسوف يستمر اسمي يخرج، دون توقف، من فمك يا والذي (؟) (الخرطوش مكشوط) أنت (...) إلى أبد الأبدين . تحيا مثل قرص - الشمس (...) ملك مصر العليا ومصر السفلى، قوتك الصدق، سيد الأرضين (الخرطوش مكشوط)، الإبن الطيب الذي أنجبه قرص - الشمس، الذي سيقم هنا، حياً، لأبد الأبدين . (خرطوش مكشوط، ومستبدل بخرطوش مكشوط هو الآخر) (١٣)

واقع الأمر أن عصر "أخيتاتون" لم يطرح أي لغز أكثر مراوغة والأحرى تحنيساً من هذا اللغز ! جثمان من ذاك الذي ضمه التابوت ؟ من هم المذنبون، ومن هم الضحايا ؟ بادئ ذي بدء تشير مثل هذه الألقاب "الذي يقتات بالصدق" و"الطفل الوسيم الذي أنجبه قرص - الشمس"، بكل وضوح إلى أن الشخص المخاطب الذي كُشِطت خراطيشه، هو "أخيتاتون"، وعلاوة على ذلك، فالمتكلم، وفي الحقيقة، المتكلمة ليست سوى سيدة ترتبط به بعلاقة شخصية حميمة: كلمة "والدي" تظهر كنقش نال، ولكنها قد تكون، في الحقيقة، الكلمة الأصلية في النص والبديل الوحيد الآخر هو أن تكون "أخي". وعود على بدء، أن يكون التابوت مصنوعاً لسيدة تنتمي للبلاط الملكي لأمر يؤيد بقوة التعرف على شخصية المتكلم والأحرى المتكلمة (وليس المخاطب) بصفتها صاحبة التابوت أي شاغلته.

وإلى هنا قد يتفق معظم الدارسين، إلا أن الإجماع بينهم على شخصية هذه السيدة مفقود. فإذا كانت كلمة "والدي" تنطوي على تحديد سديد للأصل المكشوط،

إذن، فالمرأة تكون هنا أميرة. وقد إقترح البعض أن تكون "ميريت - أتون"، وإقترح آخرون أن تكون "مكت - أتون" رغم أن "عنخ - إس - إن - يا - أتون" التي لم يكن لها أن تستخدم تابوتاً راجعاً لفترة "أخيتاتون" تبدو مرشحة أكثر احتمالاً. أما إذا كانت الكلمة الأصلية المجددة هي "أخي"، إذن فهي لا تخرج عن كونها زوجة ، وعندئذ لا تعوزنا الشخصيات اللواتي نستطيع ترشيحهن في هذا الصدد مثل "نفرتيتي نفسها أو "كيا" المحبوبة.

يتصل بما نقوم به حالياً من نقص، وبصورة أوثق ، الوقوف على شخصية الرجل الذي تعدل التابوت خصيصاً كي يشغله إلا أن التحويرات الطفيفة التي كانت كافية لهذا التعديل تدلنا بوضوح على أن هذا الرجل كانت تجمعه، هو الآخر، بـ "أخناتون" صلة قرابة قوية، ولا يضيره الدفن في تابوت معد في الأصل لسيدة. ورغم أننا لا نعرف على وجه التحديد عدد أبناء عمومة الملك وأبناء خؤولته وكذلك أبناء أخوته وأخواته، إلا أن الدليل الذي تحت أيدينا يضيّق لحسن الحظ نطاق حيرتنا (اختياراتنا). فالقسم الأخير من النص المكشوط قد استبدل لصالح شاغل التابوت برقعة تحمل هذا اللقب "ابن رع" إلى جانب خرطوشه. وفي موضع آخر تمدنا شطقة صغيرة من الذهب نجت لحسن الحظ من عوادي الأيام، من طلاء التابوت، بهذا اللقب "محبوب واع-إن-رع" ويبدو أنه لا مفر من الإقرار بأن هذا التابوت جري تعديله كي يستقبل مومياء الملك "سمنخ-كارع". ولقد أسفر المزيد من الفحص الذي خضعت له رفات الجسد المسجى في الستينات ومطلع السبعينات عن كشافين مذهلين : ينتمي كل من "توت-عنخ-أمون" والشخص المسجى في التابوت إلى نفس فصيلة الدم. ومع إعادة تركيب بقايا عظام الجمجمة، كان المنظر الجانبي لوجه شاغل ما يسمى بـ (مقبرة "تي") أي "بروفيله" يشبه "توت-عنخ - أمون" إلى حد بعيد. وكونهما شقيقان مسألة عبرت الآن من ضفاف الظنون إلى ممالك الحقائق التاريخية التي يتفق عليها الجميع.

إذا كان سيناريو سنوات الأقول بالنسبة لـ "أخناتون" أخذ يتكشف لنا، فليسمح لي القارئ إن أنبهه إلى ضرورة أن يكون مستعداً للعودة لحالة الشك. ماذا حدث لـ "نفرتيتي" خلال السنوات الأخيرة من نزوة زوجها "أخناتون" ؟ ماتحت

أيدينا من وثائق ناصعة في هذا الصدد ضعيف بطبيعة الحال : ليس عندنا في "أختاتون" ما نستطيع مقارنته بالغرارة في مصادر المعلومات التي استقننا منها في الكرنك إلا أن "تفرتيتي" استمرت تظهر في الجداريات، ولو أنها لم تعد تحتل الصدارة القديمة. فلقد حلت محلها، على ما يبدو، محبوبات ملكيات أخريات مثل "كيا" بل وكبرى بناتها "ميريت - أمون" ذاتها. ولكن "تفرتيتي" ظلت تغتصب شعارات ملكية أصيلة، مثل تاج الحرب الأزرق ** الذي لم تره عين، على وجه التقريب، على رأس سيدة أخرى (يجب الإقرار هنا بأنها لم تضعه على رأسها إلا في حالات شبه نادرة).

ولقد ظهرت عبارة "بيت زوجة الملك" بصفة منتظمة في بطاقات قناني النبذ التي يرجع تاريخها إلى السنة الرابعة عشرة، والأرجح لأول وهلة أن الزوجة الملكية المقصودة في تلك العبارة هي "تفرتيتي"، رغم أن زواج "ميريت - أتون" من "سمنخ - كا - رع" أدى إلى إضفاء نفس اللقب أي "زوجة الملك" عليها هي الأخرى.

هناك افتقار طوال السنوات الأربع الأخيرة من حكم "أختاتون" إلى الدليل الذي نستطيع الركون إليه في تحديد تاريخ "النّف" التاريخية القليلة التي لا تزال على قيد البقاء. ويستطيع المرء، بالتالي، أن ينتهي، بحق، إلى مغادرة شخصية رئيسية لمسرح الأحداث، دون عودة، وهو أمر بعيد تماماً في الحقيقة عن الواقع. ولقد طرح "جي. آر. هاريس" نظرية جديدة، وأيده فيها "جي. سامسون" وآخرون، مفادها أن "تفرتيتي" غادرت المسرح بصورة لا تخطئها العين. لكن المنظرين يفترضون، تحت تأثير الحقيقة التي تقول أن هذا الاختفاء المقترح للملكة من المسرح يتزامن مع ظهور شريك الملك "سمنخ - كا - رع" الذي يحمل نفس اللقب الذي تحملته الملكة : "تفر - نفرو - أتون"، وهو أمر لا يخلو من مغرر، أنهما شخص واحد، وأن "تفرتيتي" تخلت عن دورها كزوجة للملك كي تقوم بدور شريك والأخرى شريكة لزوجها في الحكم. وقد احتاجت هذه الوظيفة المختارة ألقاباً وصوراً فنية مذكرة على نحو كلي، كما انطوت على علاقات رجالية،

وعلى رأس هذه العلاقات يقف "الزواج" والقيام بدور الزوج لـ "وريثة العرش : ميريت - أتون" (١٤)

إلا أن هذه النظرية، وعلى ما هي عليه من مهارة وبراعة في التعليل، تتغاضى عن العديد من الصعوبات، وإن نجحت في نفس الوقت في إبرازها !
فالحقيقة التي تقول أن كلاً من "نفرتي" و"سمنخ - كا - رع" يشتركان سوياً في نفس اللقب ليست ذات بال. فـ "نفر - نفرو - أتون" ليس إسماً (وظل كذلك إلى أن ظهر كاسم في خرطوش "سمنخ - كا - رع"، واستمرت "نفرتي" تستخدمه كلقب لها وحسب. كما أننا نصادف "نفر - نفرو - أتون" وكلمتي "نفر - نفرو" كعنصرين في أسماء إثنين من بنات "نفرتي"، وليس هناك ما يمنعنا من الافتراض أن الاسم قد خُلع كلقب على شاب من "ربائب الملك". وهناك، إلى جانب ذلك، اختلاف طفيف، وإن كان متواتراً، عند التمعن عن كُتب، في كتابة اللقب عند إسباغه على "سمنخ - كا - رع"، وذلك على العكس من تهجئته التي تتسم بالشمول والكمال عندما ننظر إليه في خرطوش "نفرتي"، وهو تغير ينتصر لصالح التمييز بين الشخصين. وعلاوة على ذلك، ليس من المستصوب أن نفترض أن اسم "نفرتي" وألقابها كملكة قد جرى التخلي عنهما نحو السنة الثالثة عشرة : فلقد ظهرتا في فرع أحفادها الذين لا نستطيع إرجاع ميلادهم إلى تواريخ متقدمة على نهاية حكم زوجها. فهل نفترض، إذن، أنها تراوحت، بعد السنة الثالثة عشرة بين مجموعتين مختلفتين من الأسماء ؟ وعود على بدء، ما الذي نفهمه من الدفن الملكي في مقبرة "تي" في وادي الملوك ؟ وحتى لو نفينا أن تكون "نفرتي" و"سمنخ - كا - رع" شخصاً واحداً، فلسوف يظل إلزاماً علينا أن نفسح مجالاً في إعادة البناء التاريخي، لرجل، ينتمي بوضوح، إلى العائلة المالكة، وتولى الحكم، دون شك، وكانت تربطه بـ "توت - عنخ - أمون" صلة قرابة قوية، وحمل لقباً لم نصادفه بالمرة، إلا بين ألقاب "سمنخ - كا - رع" ! وأخيراً، رغم أن الأمر يستعصي على الإثبات، على أي وجه من الوجوه، فإن ظهور ملكة في الأعمال الفنية كزوج لابنتها، وبالتالي إضفاء لقب "الزوجة الرئيسية للملك" على كريمتها، يعد إنحرافاً بالغ الشطط حتى بالنسبة لعصر "أخيتاتون".

يتعين علينا أن نضع حداً لتاريخنا الذي عمل فيه الخيال عمله، على امتداد هذه الخطوط : رفع "أخناتون" في السنة الخامسة عشرة، على وجه التقريب، أو بعد هذا التاريخ بفترة وجيزة، ابنته الكبرى "ميريت - أتون" إلى مرتبة "ربة" بيته المحبوبة. ولقد ظهرت في الجداريات الجديدة بصحة والدها كفتاة يافعة، وهما يؤديان شعائر دينية متعددة. كما جرى إقحام اسمها في المناظر الأسبق عهداً على حساب "كيا" بل ووالدتها : "نفرتي" ذاتها. وفي نفس الوقت اتخذ "أخناتون" صبيّاً في الرابعة عشرة من عمره، عرفه البلاط في وقت لاحق باسم "سمنخ - كا - رع" كـ "ربيب" له وشريك في الملك. وكان هذا الصبي ينحدر، هو وأخوه، "توت - عنخ - أمون" البالغ من العمر سبع عشرة سنة، من فرع ثانوي، على وجه الاحتمال، من العائلة المالكة. وقد راج افتراض بأن أمهما هي إحدى أخوات "أخناتون" (١٥) أما القول بأنهما إبنا سفاح لـ "أخناتون" نفسه، فأقل احتمالاً، رغم أننا لا نستطيع في ظل الوضع الراهن لمعارفنا عن الموضوع أن نفقده جملة وتفصيلاً. ولقد تمتع "سمنخ - كا - رع"، إذا كان لنا أن نحكم استناداً إلى ألقابه، بحظوة خاصة من جانب "أخناتون". ويتمشى زواجه من كبرى الأميرات ووريثة العرش "ميريت - أتون" مع تقليد ضارب في القدم في إطار الرغبة في الحفاظ على السلالة الملكية، إلا أن "الطفل" الصغير الذي يظهر في أواخر حكم "أخناتون" عندما بلغ الزوجان الشابان السابعة عشرة من عمرهما، فهو بنت هي "ميريت - أتون" الصغيرة.

وبعد ذلك بوقت قصير، وربما في أثناء حياة "أخناتون"، تزوج الأخ "توت - عنخ - أتون" من الابنة الثالثة "عنخ - إس - إن - با - أتون"، وكان عمرهما عشية وفاة الملك، بالضرورة، حوالي التاسعة والثانية عشرة على التوالي. وبعد ذلك، ولو أن "أخيتاتون" كانت لا تزال مزدهرة كمدينة، ولدت بنت أخرى، ولكن هذه المرة كانت لـ "عنخ - إس - إن - با - أتون"، وأطلق عليها اسم، يعكس إفتقاراً غريباً إلى الخيال، هو: "عنخ - إس - إن - با - أتون" الصغيرة. ولقد مكثت "نفرتي" على قيد الحياة طوال تلك الفترة، وفي بعض الأحيان كان اسمها يرد عند ذكر جدود الحفيدة، ولكن يبدو أنها كانت قد فقدت الكثير من علو

الشأن الذي بلغته فيما مضى.

ليس هناك ما يدعونا إلى الشك في أن "أخناتون" لفظ أنفاسه الأخيرة بسلام في "أخيتاتون" في صيف سنة ١٣٥٩ ق. م. وجرت مراسم دفنه، كما ينبغي لمثلها، في مقبرة ملكية في أعماق الضفة الشرقية لنهر النيل. (١٦) كما أن أعضاء آخرين من العائلة المالكة الذين وافاهم الأجل قبل "أخناتون" كانوا قد دفنوا على وجه الاحتمال، أيضاً هناك. ولكن في أي مكان كانت وفاة "سمنخ - كا - رع" ؟ هذا أمر مجهول، رغم أنها قد تكون في "طيبة" إلا أن الثابت أن إستقرار جثمانه في آخر المطاف في وادي الملوك لم يكن سوى الدفن الثاني للجثمان.

"الملك المظفر،

سيّد البلدان الأجنبية دون منازع"

لم تستبعد فنون الرسم والنحت بكافة أشكالها خلال عهد "الابن الطيب ل - قرص - الشمس" موضوعي الحرب والغزو. فلم يحظ الجيش من قبل بوجود أشد وضوحاً في فن الجداريات على وجه الخصوص. فالأسرى موجودون بكثرة زائدة في "موتيفات" المثل أمام الملك على جانبي المنصة الملكية وتحت "شرفة التجلي"، وفي "عيد السّد" يقدم أبناء رؤساء البلدان الأجنبية بلداً بلداً، جزيتها. (اللوحان ٣-٢، ٣-٣) بينما ترفع الزمر التي لا استغناء عنها في كل منظر من الأمراء الأسويين والنوبيين أيديها بابتهالات الشكر والثناء. (اللوحان ٣-٤، ٣-٥) واستمر حكام البلدان الأجنبية في إرسال الهدايا والعطايا، تحت سوط التخويف: السفن القادمة من النوبة وسوريا والجزر اليونانية في بحر إيجه، التي يأتي منها الخزف الميساني الرائع، كانت تزحم أرصفة المرافئ في "أخيتاتون" على نحو ما كانت تفعل مع أرصفة المرافئ في "منف" و"طيبة".

قد يقودنا ما قلناه في الفصل التاسع حول النزق والتردد اللذين كشفنا عن نفسيهما في شخصية الملك إلى نتيجة مفادها أن سياسته الخارجية كانت غير ناجحة. ولكن ذلك لم يكن صحيحاً إلا بصفة جزئية. فلقد سارت سياساته تجاه

المقاطعات التابعة لمصر في النوبة في الجنوب، رغم أنها كانت تقليدية، مهمة وبراعة. كما استمرت تسير على قدم وساق التقاليد التي أرساها الجدود لاستقرار (السودان ؟) مع زرع مدن هناك ذات طابع مصري. وفي مدينة "كاوا" قرب الشلال الثالث، أنشئ معبد لـ "قرص- الشمس". ولقد قُدِّرَ "أخناتون" المواهب القتالية التي تمتعت بها السرايا النوبية في جيوشه. وكان أول ملك مصري يتوسَّع في الاعتماد عليهم في الحاميات العسكرية التي تمركزت في البلدان التابعة لمصر في آسيا. إلا أنه رأى في النوبة، وعلى النقيض مما رآه في آسيا، منفى بديعاً للمناوئين. ولقد رحَّل إلى هناك أعداداً ضخمة من مثيري الشغب الأسسيويين من زمام دمشق (كما سيرد ذكره)، بل وتمنَّع جلالته بنجاح، بالوكالة في الجنوب بصفتة "سيد حرب"، رغم أنه لم يكن بصحبة قواته. ففي شهر أبيب - يوليو من سنة غير محددة، وإن كانت بعد السنة التاسعة في الحكم، على وجه الاحتمال، وصلت إلى الملك، كما يبدو واضحاً، معلومات تفيد أن عدداً من القبائل الجنوبية تثير القلاقل في قطاع "أكيتا". ورغم أن الوقت، وهو ذروة الصيف، كان شديداً للتفكير في اتخاذ أي إجراء في مناطق الجنوب التي يغمرها القيظ، إلا أن "أخناتون" فوَّض نائبه أو المندوب السامي المصري في "كوش"، وكان يحمل اسم "تحوت - موسي"، في التحرك بجيشه ضدهم. ويصف نص - يحمله صادود مهشم نحته ونصبه هذا النائب في "بوهين" في وقت لاحق - الموقعة بعبارات تقليدية مقولبة، ويسجِّل أسراً ما لا يزيد على أكثر تقدير، على ١٤٥ نوبي و ٣٦١ رأس من رؤوس المواشي، بالإضافة إلى إعدام عدد لم يُكشف عنه الستار حرقاً. (١٧)

قد يجد المرء لنفسه عذراً في التساؤل عما إذا كانت الأبعاد المتواضعة لهذه العملية الحربية تبرر مثل تلك الوحشية، إلا أنها وفَّرت، مع ذلك، المناسبة التي تسمح للمندوب السامي المصري، أن يزف آيات التزلف إلى الملك، فيقول مخاطباً جلالته : "لا يعرف عصرك أي متمردين، وصيحة الحرب التي تطلقها أشبه بالسنة النار التي تمسَّط كافة البلدان الأجنبية !" ويصف جعران تذكاري ضُرب في وقت قريب من ذلك التاريخ "أخناتون" بأنه يُطلق صيحة حرب كبرى، لوقعها دوي هائل. وفي طوبة - يناير من سنته الخامسة في الحكم، وقبل بضعة شهور وحسب

من انتقاله إلى حاضرة البلاد الجديدة : "أخيناتون" أرسل أمين سره من موقعه في "منف" إلى جلالته خطاباً يهنئه فيه على "أن كافة البلدان قد فتحت أمامك بفعل الرهبة، وأن "أمون" (٢) قد وضعها تحت قدميك"، ويأخذ الملك لقب : "سيد القواد السعيد الذي خضعت له كافة البلدان" و"الملك الجبار سيد كافة الأراضي الأجنبية"، وذلك في نص يحمله صاود "تخت - مين" في مطلع حكم جلالته.

لكن الوضع الذي كان يواجهه الملك على حدود مصر الشمالية كان أكثر تعقيداً بكثير من هذه العلاقة التي تتسم بالصراحة والاستقامة مع رجال القبائل النوبية. فعلى الرغم من الحقيقة التي نقول أن هذا التعقيد عمل في البداية لصالح مصر، والفضل في ذلك يرجع إلى الدبلوماسية الحاذقة التي انتهجها والده "أمين - حوتب" الثالث، إلا أن تردد "أخيناتون" وافتقاره إلى بعد النظر أفقده المبادرة.

يتحمل "أخيناتون" المسؤولية الرئيسية، على وجه الخصوص، في إنهيار "الوفاق" المصري - الميتاني، في ذلك الوقت بالذات، الذي كان فيه مثل هذا الانهيار ليلحق أشد الضرر بالبلدين على حد سواء. ولقد أعربت الملكة "تي" في رسالة لها إلى "توشراتا" ملك الميتانيين، عقب وفاة الفرعون "أمين - حوتب" الثالث بوقت قصير، عن قلقها تجاه مستقبل العلاقات بين البلدين. وتبدو لهجة القلق هنا غريبة، نظراً لأن "أخيناتون" كان قد تبادل للتو الهدايا مع "توشراتا"، وكان على وشك الزواج من ابنته. ولكنه لم يكن، بذلك، إلا ممتثلاً، على وجه الاحتمال، لترتيبات خاصة اتخذها والده قبيل وفاته. وبمجرد أن شعر الملك الشاب أن العوش قد استقر تحته، حتى أدار ظهره لـ "ميتاني". ونستقي من خطابات "توشراتا" إليه أن جلالته رفض إرسال أي هدايا إليه أو حتى يرد على خطاباته تلك، بل وجعل رسله إليه ينتظرون في البلاط أربع سنوات قبل أن يعطيهم رداً !

"متى تشاجر طرفان ابتهج طرف ثالث"، وكان الطرف الثالث، في هذه الحالة، هو "خاتي" أي مملكة الحيثيين الكبرى في الأناضول. وكان الحيثيون، على نحو ما رأينا في الفصل الأول، قد عانوا الأمرين على أيدي الميتانيين نتيجة لصدفة جغرافية وتاريخية. ولم يكن بوسعهم إلا أن يبتهجوا لرؤيتهم "توشراتا" وقد استبد به الإحباط. فلقد نجا الحيثيون من الهزيمة واليأس لمدة تزيد على قرن كامل بانسحابهم

إلى جبال الأناضول المنيعه .ولكن قبيل صعود "أخناتون" إلى عرش مصر، تحولت الأقدار لصالحهم بارتقاء ملك جديد سده الحكم هو "سوبيلوليوماس" الأول. فلم يدخو هذا الملك، الذي يستحق أن يحتل مكاناً بارزاً إلى جانب أعظم الإستراتيجيين في التاريخ، وقتاً في العمل على تعميق الفجوة بين مصر و"ميتاني".

فلقد كتب . ، بلباقة فائقة، إلى "أخناتون" كي يهنئه بارتقائه العرش، كما بعث إليه بالهدايا اللاتقة. واتخذ أعضاء آخرون في العائلة المالكة الحيثية نفس الخطوة .وكان لذلك وقع المفاجأة السارة على وجه الترجيح، على "أخناتون"، الذي بدأ، خلال الفترة التي أقامها في "طيبة"، مستعداً لمراعاة "خاتي" أكثر من أي بلد آخر. وسرعان ما فكر الملك الشاب عقب وصوله إلى العرش بوقت وجيز للغاية في عقد معاهدة مع الحيثيين، ويبدو أنه أبرم في الواقع معاهدة من هذا القبيل في نهاية المطاف، رغم النصيحة السديدة التي أسداها إليه ملك قبرص : لا تربط نفسك بملك "خاتي" ... ! " (١٨) وقد يستعصي على المرء أن يرى أي نفع كان يمكن أن يعود على مصر من إبرام أي اتفاق مع الحيثيين . ولكن هذه المعاهدة كانت، بالنسبة لـ "سوبيلوليوماس" هبة من السماء. إذ صار في وسعه أن يحمل على "ميتاني" دون أن يلحقه أي جزاء.

تفجرت الحرب — وانطوت ملابساتها على نزاع حدودي على وجه الترجيح — في وقت ما بعد سنة ١٣٧٠ ق.م بوقت قصير حيث شن "سوبيلوليوماس" هجوماً باتجاه الشرق في أعماق "أرمينيا"، ثم استدار فجأة نحو الجنوب، ونزل بجيشه إلى سهول الرافدين الشاسعة. ولما بوغت "توشراتا" على حين غرة بالهجوم ولى الفرار مع بلاطه، تاركاً عاصمته للعدو. ثم تحول "سوبيلوليوماس" غرباً عبر نهر الفرات كي ينزل الهزيمة بملوك سوريا الشمالية، الذين كانوا توابع، فيما مضى، لـ "ميتاني"، وجروا على منأوته. كما حاول ملك "قادش" وولي عهدا أن ينصبا كميناً للحيثيين في أقصى الجنوب على ضفاف نهر العاصي، ولكنهم تجرعوا كأس الهزيمة ورُحّلوا إلى "خاتي". وتوقفت الحملة الحيثية في جنوب لبنان بعد أن انهارت المقاومة المحلية لـ "دمشق". لا يبالغ المرء، مهما قال، في النتائج التي أسفرت عنها هذه الحملة الفريدة.

فلقد انتهت "ميتاني" كقوة عظمى: وسرعان ما اغتيل "توشراتا". وفي خبطة واحدة لا غير دفعت دولة جديدة بنفسها إلى مسرح الأحداث في المشرق. واجتاحت الشائعات المدن الساحلية الخاضعة لمصر: "سمعت أن القوات الحيثية تشعل النيران في البلاد ... والحقيقة الآن أن جنود "خاتي" كانوا يتخذون العدة لاستيلاء على "بيلوس" (١٩) ولكن اتضح أن ذلك لم يكن صحيحاً. فلقد كان "سوبيلوليوماس" حريصاً في الواقع، على تجنب أى مواجهة مع أى من البلدان التابعة لمصر: لم يهاجم الساحل واقتصر على سوريا الجنوبية وعلى وجه الخصوص وادي العاصي. ولكنه ارتدى في التبرير الذي ساقه للهجوم ديباجة المعاهدة التي فرضها في وقت لاحق على ابن "توشراتا". فلم يتحدث إلا عن غطسة الملك "توشراتا" وتحاشى أى إشارة إلى مصر. (٢٠)

كان الحيثيون قد سرقوا، بذلك، زحفاً من المصريين. فطالما أحجم "سبيلوليوماس" عن التدخل بشكل سافر في المدن أو المناطق الساحلية جنوبية نهر العاصي. لم يعد أمام "أخناتون" كثيراً مما يستطيع أن يثيره كمسوخ لشن أى حرب ضد الحيثيين، إلا أنهم زحفوا على "عمورو" شمالي أكثر المقاطعات التابعة لمصر بعداً عن الساحل. وفضلاً عن ذلك، ليس لدينا دليل على أن "أخناتون" لجأ إلى أى نوع من الانتقام.

وإذا كان المصريون قد ردوا في إطار دبلوماسي ثاقب النظر، فإن الوضع كان أبعد ما يكون عن العلاج. فالمدن — الدويلات الكبرى في شمال سوريا لم تكن متحمسة بأي من الأحوال للدخول في علاقة ما مع إمبراطورية جديدة. فبالأمس كانت مرتبطة مع الملك "توشراتا" بمعاهدات التوابع، ولو أن النسر أى (النساف م) الميتاني أثبت أنه خفيف الحمل. ولما كان ملوك دويلات شمال سوريا قد شاركوا الميتانيين في خوفهم من هؤلاء الغزاة الجدد الزاحفين من وراء جبال "طوروس" فسرعان ما كشفوا عن استعدادهم لمقامرة يائسة تتمثل في طلب النجدة من المصريين. ولو أن مصر لم تشأ أن تمد هيمنتها، منذ أيام الفرعون "تحوت — موسى" الثالث إلى ما وراء "حلب" أو "تيبا". وحتى في تلك الأيام، لم تدم سيطرتها في هذه المنطقة إلا لوقت قصير. غير أن رباط "الأخوة" الذي جمع، في وقت

لاحق، الملك "أمين- حرتب" الثالث وملك الميتانيين "توشراتا" تعرّض للنفخ على نطاق واسع، وصار لزاماً على مصر، بعد العجز الذي لحق بـ"ميتاني" أن تضع التزامها "الأخوي" موضع التنفيذ بملء الفجوة. وعلى هذا الأساس وضعت ثلاث مدن -دويلات تقع على مشارف الحدود السفلى لنهر العاصي" وهي؟ "ماكيش" و"تينا" (حيث قام الفراعنة السابقون هناك بصيد الحيوانات البرية) و"توخششي"، الخطط لشق عصا الطاعة، وكلها ثقة من أن فرعون مصر لن يتوان في إرسال النجدة.

فاتح الملوك المتمرّدون الثلاثة بلاط "أوجاريت": هذه المدينة الساحلية الكبرى، الواقعة جنوبي مصب نهر العاصي، ويتمتع ملكها "تيكمادو" بعلاقات ودية مع مصر، بل وكان قد تزوج من نبيلة مصرية. وجاء ذلك في ظل تصور أضمره الملوك المتمرّدون الثلاثة، على ما يبدو، بأن بسط نفوذهم على الساحل السوري من شأنه أن يوفر ميزة استراتيجية لمغامرتهم. ولكن الملك "تيكمادو" فزع، دون تصنع، على ما يبدو، من توريط نفسه في مثل ذلك العصيان المزمع. وبذلك وضعت "أوجاريت" بصفاتها دويلة ساحلية تلتزم مبدأ الحياد، مصالحها التجارية فوق النزاعات العدائية في أعماق الأراضي السورية : وبناء على ذلك رفض الملك "تيكمادو" الدعوة التي تلقاها في هذا الشأن. وهنا حاول الملوك الثلاثة استخدام القوة. وغزت جيوش المتمردين، مجتمعة، منطقة "أوجاريت" وبدأت في النهب والسلب وتدمير القرى الحدودية. وخلال موقفهم المعادي للحيثيين وميلهم الواضح نحو مصر، استقطب الملوك الثلاثة الموقف لصالحهم وأذلوا "أوجاريت". إلى أين يستطيع "تيكمادو"، والحالة هذه، أن يتوجه سوى إلى الحيثيين؟ فكتب الملك "تيكمادو" بتسرع بالغ، يناشد "سوبيلوليوماس" على هذا النحو الذي وصلنا عبر صياغة حيثية لاحقة : أيها الشمس، الملك العظيم. سيدي خلصني من قبضة العدو / فأنا خادم الشمس الملك العظيم، وعدو أعداء سيدي ... هؤلاء الملوك يضغطون علينا دون هوادة" (٢١).

ليس هناك بين الخبيثة الغنية من النصوص التي اكتشفها المنقبون الفرنسيون في الأراشيف الملكية لـ "أوجاريت" سوى نصوص قليلة تتطوي على أهمية

تاريخية أكبر أو تأثيراً أفتاناً أكثر من المراسلات أو المعاهدة اللاحقة بين "أوجاريت" والحيتيين. وكان رد "سوبيلوليوماس" على هذا النحو:

"لا تخش بلاد بوشششي" وبلاد "ماكيش" رغم عدائهما لي في الوقت الحاضر، وضع ثقتك في نفسك يا نيكماو. وعلى غرار ما كان عليه أسلافك من صداقة، لا من عداوة لـ "خاتي"، تكون أنت يا نيكماو. فكن عدواً لأعدائي وصديقاً لأصدقائي... والآن إذا شن كل أولئك الملوك هجوماً لغزو بلادك، فلا ينبغي لك يا نيكماو أن تخشاهم، أرسل إليّ رسولك من فورك. وإذا اتخذت لنفسك إجراء وقائياً، وأنزلت بزنديك، وحدهما، الهزيمة بالعدو... فلا تدع أبداً كان يطلقه من قبضتك..." (٢٢).

كان العرض المطروح في الخطاب غاية في الدبلوماسية إذ انطوى على دعوة لـ "نيكماو" إلى أخذ زمام المبادرة بين يديه وأن يتصرف بشكل مستقل، مع ضمان تلقيه العون من الحيتيين. ومع ذلك كان جلالة أجبن من أن يتخذ أي إجراء بنفسه. وسرعان ما كان رسوله في طريقه إلى "خاتي" ودخلت القوات الحثيية بقيادة ولي العهد إلى سوريا.

ملاً وجود الحيتيين قلوب المتمردين بالرعب. حقاً كان المتمرّدون قد حققوا بعض النجاح، إلا أنهم يؤسوا من إحراز النصر دون عون. وكتب أحد أولئك الملوك المتمردين إلى "أخناتون"، كي يشير إلى أنه سليل شخصية بارزة هو "تاكو"، الذي كان الفرعون "تحوت - موسى" الثالث قد نصبه ملكاً. ومضى كي يلمح أيضاً إلى أن "ملك" "خاتي" قد أرسل إليّ عدة خطابات طالباً عقد معاهدة" ولكنه يفضل، على ما يبدو، أن يخلص الولاء لمصر. واختتم خطابه قائلاً "... وإذا لم يرغب سيدي في الزحف، فليرسل، إذن، أحد قواده على رأس القوات والمجالات الحربية" (٢٢).

أبدى "أكيزي" (٢)، ملك قطنوم (قطننة في وقت لاحق. م.)، ورغم أنه لم يكن في حالة عصيان بصفة رسمية، ضد "خاتي" تعاطفاً قوياً مع قضية التمرد. وأصبح ناطقاً باسم الملوك الشماليين فأعلن، بجرأة شديدة، نفسه تابعاً لمصر. وكتب إلى "أخناتون" طالباً العون: "يا مولاي/إنني لأحب جلالة الملك سيدي! وكذلك يحبه

ملك "نوخششي" نفس حبي له، وكذلك الأمر مع ملك "نينا" وملك "زنزار" وملك "تونانات". كل هؤلاء الملوك خدم في الحقيقة لمولاي. (ولكن ليس هناك حاجة ملحة لإرسال عون عسكري) إذا شاء جلالة الملك مولاي أن يخرج على رأس جيشه، فليخرج. ولكنهم يقولون أن جلالة الملك مولاي لن يخرج. وبناء على ذلك فليرسل جلالته القواسين رماة السهام وليأتوا (وخدمهم) (على أن المتمردين لا يطلبون العون مجانا، فليسوف يدفعون الجزية) فليحدد وزراء مولاي جزيتهم ولسوف يدفعونها" (إرسال عون عسكري سوف يخفف أيضا قلق "أخناتون"، يا مولاي إذا كان عبء هذه البلاد سيزول عن فؤاد جلالته، إذن فليرسل مولاي القواسين رماة السهام وليجعلهم يقدمون" (٢٤)

لكن القضية كانت قد باءت الآن بالخسران. فحتى لو أسرع المتمرّدون بإرسال خطاباتهم إلى مصر، فإن جيوش "سوبيلوليوماس" كانت قد وصلت إلى سهول "حلب" كي تتلقى بصورة مخزية، استسلام شمال سوريا بأكمله "وعندئذ أدى "نيكامادو" ملك "أوجاريت" فروض الخضوع لأبناء الملك (الحيثي) ولقواده، وأعطاهم هدايا الذهب والفضة والنحاس الأحمر ... والتجأ إلى "الالاخ" في حضرة "الشمس" الملك العظيم مولاه" (٢٥) وسرعان ما هرع رؤساء الدويلات في سوريا إلى تقديم فروض الاحترام لـ "سوبيلوليوماس". ولقد ولول، في هذه الأثناء، حكم مصري عميق الولاء لمصر على هذا النحو "كل خدم مولاي الملك توجهوا إلى "خاتي" (٢٦). وعندما دعا البعض "أكيزي" أن يحذو حذو الآخرين، أكد أنه رد على هذه الدعوة بقوله: "أنا خادم جلالة الملك مولاي ملك مصر ا" كما أرسل نفس القول وأفصح عن نفس الموقف لملك "خاتي" ولم يمض وقت طويل، مع ذلك، قبل أن يجلب مثل هذا الموقف الصريح على صاحبه الانتقام ثل الانتقام. فلقد اجتاحت القوات الحيثية "قطنوم"، واختفى "أكيزي"، وانتقلت سوريا الشمالية بأسرها طوال السنوات المائة والسبعين التالية إلى السيادة الحيثية.

يصعب علينا أن نجد تفسيراً لوقوف "أخناتون" مكتوف اليدين على مثل ذلك النحو الواضح، في وجه ذلك الخطر الذي أحرق بأصدقائه. حقا لا تعطينا خطابات "أخناتون" سوى جانب واحد للصورة: فليس في حوزتنا الردود التي يمكن

لـ"أخناتون" أو الجنرال "مايا" أن يكونا قد كتباهما إلى المتمردين السوريين، إلا أنها ربما حملت في طياتها أسباباً مقنعة. وربما يكون الإجماع في "أخيتاتون" قد استقر على أن إرسال أي قوة من قواصي الملك إلى سوريا لم يكن في طوعها إلا تقديم عون رمزي لقضية تبدو خاسرة منذ البداية. فالرد على التحدي الذي شكله الحيثيون بأي أمل في النجاح يحتاج إلى حشد حملة عسكرية يصل قوامها إلى عشرة آلاف رجل أو يزيد، وهو الأمر الذي لم يكن "أخناتون" مستعداً بعد لأن يقدم عليه. إلا أن الإجماع عن إرسال أي قوات إلى هناك كان ليهبط إلى الحط من شأن مصر سواء في نظر الصديق أو العدو. غير أن "أخناتون" إما أنه لم يقدر حجم الخطر وإما أنه كان مستعداً لتحمل نتائجه مهما كانت. لكن الانطباع الذي رسخ، وبصرف النظر عما إذا كان ذلك صحيحاً أو خاطئاً، لدى شعوب المشرق هو أن الفرعون الجديد لن "يزحف من مصر"، كم أنه كان أكثر عزوفاً عن السماح لجيشه بأن يقدم على مثل هذه الخطوة.

هناك عامل آخر، على ما يبدو، في الموقف الخارجي ساهم في عزوف "أخناتون" عن شن هجوم مضاد على نطاق واسع في الشمال يتمثل في الشائعة حول العصيان الذي شرع يدب في أطراف الإمبراطورية. فعلى نحو ما أشرنا في الفصل الثاني كان تقليد نقل أولاد حكام البلدان الأجنبية إلى مصر وتثقيفهم بأساليب الحياة المصرية قد أدى إلى نشوء شريحة عميقة الولاء من نواب الملك بين أبناء تلك البلاد، إلا أنها دقت في غالب الأحيان إسفيناً بينهم وبين شعوبهم التي يسوسونها بالنيابة عن مصر. فلقد سعد "رب - عدي" حاكم "بيلوس" و"عدي خيبا" حاكم "أورشاليم" و"أبي - ميلكي" حاكم "صور" بإخلاصهم للقضية المصرية، لكنهم لم يكفوا لحظة عن التماس تعزيز الحاميات المصرية المتمركزة هناك بمزيد من القوات للمساعدة في إخماد الانتفاضات داخل مناطق نفوذهم. وفي خضم السياسات المشرقية التي سادها الاضطراب والتلاطم، وحيث هبطت السيطرة الإمبراطورية المصرية عند حدها الأدنى، كانت المسألة مسألة وقت قبل أن تقوم شخصية انتهازية بارعة بالسعي إلى استغلال الميل نحو الصراع الفئوي بين المدن الفينيقية على الساحل السوري.

كان هذا الخطر قد تبلور بالفعل في أواخر أيام "أمين-حوتب" الثالث في إمارة "عمورو" التي تنفقر إلى أي تنظيم في أعالي "العاصي"، في وادي البقاع. فهذه الإمارة تشكل مع دويلة "قادش" أقصى المقاطعات التابعة لمصر بعداً عن الساحل. ولم يكن ولاؤها للفرعون أمراً مفروغاً منه في أي يوم من الأيام. فخلال حكم "أمين-حوتب" الثالث قفز حاكم سيئ السمعة يدعى "عبدي-عشيرتا" إلى مكانة عالية هناك، وحاول تعزيز وضعه السياسي بفرض إدعائه حق حكم جزء من الساحل حول "سومور" التي ضمت مقر الإدارة المصرية في المنطقة. وفي نهاية المطاف شن الفرعون "أمين-حوتب" الثالث حملة تأديبية صغيرة على الساحل الفينيقي، أدت إلى إلقاء القبض على "عبدي-عشيرتا"؛ ووضعت نهاية لحياته السياسية القصيرة. وجاءت هذه الحملة بعد أن قام الحكام التابع الموالون لمصر بإيقاظ الفرعون من حالة السبات التي خلد إليها بصيحاتهم الحانقة طلباً للعون. إلا أن عائلة "عبدي-عشيرتا" استمرت على قوتها في "عمورو". حقاً لا نعرف سوى أقل القليل عن أصول هذه العائلة، إلا أن المرجح أن هذه العائلة تنتمي إلى عشيرة من السكان الأصليين الذين يقيمون في منطقة قصية لم تلمس تخومها الحضارة المصرية. وعلى أي حال تمتع "عزيرو" ابن "عبدي-عشيرتا"، الذي سرعان ما تولى زعامة العائلة، بتأييد قوي من جانب طبقة الـ"خوبشو" وهم المزارعون الريفيون في معظم المدن السورية. فضلاً عن ذلك ضمنت له أصوله الاجتماعية تعاطف الـ"عابيرو"، وهم عبارة عن طبقة من المارقين الذين يشبهون الغجر في صعلكتهم على مشارف المجتمع الحضري للكنعانيين. فلقد بدا وثيق القربى في تفكيره ووسائله منهم إلى الحد الذي كان شأنه يطلقون عليه اسم "العابيرو"، ولكن سواء أكان ذلك صحيحاً أو غير صحيح، فإن تلك المسبة لم تصده عن استعمال أولئك "العابيرو" في تحقيق غاياته. ويبدو أن ترحيل "أخناتون" لعدد من "العابيرو" إلى النوبة جاء في إطار محاولة قام بها جلالته نحو تقليص حجم القاعدة التي تستند إليها سلطة "عزيرو" في وادي البقاع. (٢٧)

لم يدخر "عزيرو" الذي برز على وجه الاحتمال عقب الهجوم الحيثي الأول على شمال سوريا، وقتاً في الضغط على مقر الإدارة المصرية في "سومور" حتى

تعتزف به (حاكماً). ولقد وبخ "أخناتون" هذا الـ "عزيرو" لقيامه بتحركات تهديدية باتجاه "ببيلوس" التي وقعت على عاتقها مسئولية الاستطلاع المبكر بشكل عام حول "سومور". ولكن "عزيرو" رد على وجه السرعة على هذا النحو: "منذ زمن ضارب في القدم ظللت على ولائي لخدم الملك مولاي. ولكن حكام "سومور" لم يعتزفوا بي". وفي الحال ضرب "عزيرو" الحصار حول "سومور" ولما عجزت المدينة عن الصمود أكثر مما فعلت قام الحاكم المصري بفتح أبوابها أمام "عزيرو" ثم انسحب على وجه العجل إلى مصر، أما "عزيرو" فلقد دمر المدينة عن آخرها. وهكذا فقدت مصر مركزها العصبي على الساحل السوري.

مرت شهور فيما ظلت المدينة خراباً. فكتب "أخناتون" إلى "عزيرو" طالباً تفسيراً لعدم القيام بإعادة بنائها. ورد "عزيرو" بأنه يرغب في أن يُعَيَّن حاكماً، وبأنه لم يبن "سومور" لأن زملاءه من الحكام يققون منه موقف العداء. وقد يكون ذلك صحيحاً، فكل تصرفاته وسواء أكانت متعمدة أو غير متعمدة تؤدي إلى غرس بذور العداء. لكن ذلك لا يصلح في سائر الأحوال لأن يقف على قدميه كعذر من الأعداء. وكان "عزيرو" قد توصل بالفعل إلى اتفاق مع كثير من زملائه الحكام، بل وأبرم معاهدات مع كل من "أرفاد" و"صيدا" و"قادش" و"أوجاريت". أما أولئك الذين أخلصوا لمصر الولاء، وعارضوا تحركات "عزيرو" ففقدوا مناصبهم على وجه العجل. وتتمثل أسوأ الحالات "جُرْسَة" في هذا الصدد في حالة "رب-عدي" حاكم "ببيلوس" الذي دأب على إرسال التقارير، تقريراً إثر تقرير، طوال خمسة عشرة سنة إلى العاصمة المصرية، محذراً من الخطر الذي ينطوي عليه إفلات عائلة "عبدي-عشيرتا" من يد العدالة. لكن "رب-عدي" وجد نفسه مجبراً على أن يرقب، دون حول أو قوة، استيلاء "عزيرو" على المدن والقرى الواقعة على أطراف "ببيلوس". وفي نهاية المطاف واجه الطرد من مدينته نفسها، كي يقع في أيدي "عزيرو" الذي ضرب عنقه.

جاء التوبيخ المتوقع بعد وقت قصير من "أخناتون" وكان توبيخاً عنيفاً (٢٨). فهناك قائمة بخطايا "عزيرو"، بما فيها معاملته القاسية لـ "رب-عدي" الطاعن في السن، وكرر "أخناتون" مطلبه مجدداً بإعادة بناء "سومور". فأرسل "عزيرو" ثماني

سفن محملة بخشب البقس مع رهائن إلى مصر، وكان يأمل بلا شك في تطليب خاطر "أخناتون" وقتذاك، وكانت هذه الخطوة حاذقة، لأن "أخناتون" الذي ظل لسنوات عديدة يطالب بحضور "عزيرو" إلى مصر كي يرد على التهم الموجهة إليه، هداً ولان. ومنح "عزيرو" مهلة لمدة سنة. وفي لحظة غفلة في نفس خطاب التوبيخ فلتت زلة قلم بالدافع وراء سياسته أي سياسة "أخناتون" الشمالية أنت تعرف يا "عزيرو" أن الملك لا يريد أن يكون قاسياً مع أرض كنعان" وتكشف النتائج اللاحقة أن "عزيرو" فهم من هذه العبارة أنها علامة ضعف.

استغل "عزيرو" وجود الحيثيين في شمال سوريا" كي يخدموا التمرد السذي وقع هناك، كعذر يتعذر به عن عدم الحضور فوراً إلى مصر. وبلغت به الجرأة حد الاحتفاء بمبعوثي الحيثيين، وهو الأمر الذي أثار ثائرة "أخناتون". ولكن إذا كان "عزيرو" قد وصلت به الظنون حد امتحان صبر جلالته إلى مالا نهاية، فإنه يكون قد جانب الصواب فلقد كانت الإدارة المصرية لا تزال من القوة بما يسمح لها وضع أوامرها موضع التنفيذ، حتى في قلب سوريا. فسرعان ما وصل المبعوثون المصريون كي يصطحبوه إلى مصر. وهناك إغراء قوي بأن نذهب إلى أن ذلك الاستقبال الحافل للجزية الواردة من البلدان الأجنبية، الذي أقيم في السنة الثانية عشرة جري تنظيمه في وقت مقارب لوصول "عزيرو" إلى مصر، ولو أننا لا نستطيع إقامة دليل لا يرقى إليه الشك على ذلك.

لا نعرف خردلة عن الكيفية التي نجّا "عزيرو" نفسه بها أثناء محاكمته في مصر، ولكن حتى في ظل غيابه عن سوريا، كان لا يزال في طوعه أن يستكمل خطته "الميكافيلية" على المدى الطويل. فلقد بدأت الأنباء ترد تباعاً من أربعة حكام تابع لمصر في منطقة "إمكي"، مفادها أن "إيتاكاما" حاكم "قادش" وصديق "عزيرو" وحليفه قد تولى قيادة القوات الحيثية وأخذ في إحراق مدن مولاي الملك^(٢٩) وجاء تأكيد ذلك على لسان "إيلو-ري" الحاكم-التابع الجديد في "بيلوس"، الذي استبد به الغيظ لقدرة "عزيرو" على الاستمرار في ارتكاب جرائمه، حتى بعد استجواب جلالته له. أعلم أن "عزيرو" ارتكب جريمة في الوقت الذي كان فيه مائلاً أمامكم. جريمة ضننا ! فلقد أرسل رجاله إلى إمرة "إيتاكاما" وأنزل

البلاء بكل أراضي "إمكي" أراضي مولاي. والآن هاهو يتمادى فيرسل رجاله كي يستولوا على "إمكي" (٣٠). وربما يكون هذا هو السبب الذي دفع "أخناتون" إلى احتجاز "عزيرو" لأجل غير مسمى. ولكنه ليس معروفاً كم من الوقت امتد بقاء "عزيرو" على وجه التحديد في مصر، لكنه مكث مدة كافية لرواج الشائعات من هذا القبيل : "عزيرو لن يعود من مصر و"عزيرو" يقيم في مصر" (٣١).

إلا أن "عزيرو" أطلق سراحه في الواقع في نهاية المطاف، رغم أننا لا نعرف ما إذا كان ذلك قد تم قبل أو بعد وفاة "أخناتون". وبمجرد أن استعاد ملكه حتى نبذ ولاءه لمصر (ربما عقب علمه بوفاة "أخناتون")، وأصبح تابعاً للحثيين. ورحب به الملك "سوبيلوليوماس" في الحظيرة وأثنى عليه لصموده. وتعرض معاهدة التبعية التي أعقبت ذلك، التي نجت من عوادي الأيام كي تصل إلى أيدينا لحسن الحظ، على "عزيرو" جزية سنوية تبلغ قيمتها ٣٠٠ شيكل، كما تحظر عليه انتهاج أي سياسات خارجية مستقلة سواء تجاه مصر أو بابل أو بلاد الحوريين (٣٢).

يذهب رأيي إلى أن "عزيرو" كان واحداً من القلائل الذين سبروا غور "أخناتون" بشكل كامل. فلقد وزن بصفته شيخ قبيلة لا ينقصه لا الدهاء ولا سعة الحيلة، أي المكافئ لد "بلطجي" أو "قبضاي" الشوارع الخلفية للمدن حالياً، الحدود التي تفرضها التربية الراقية وحياة الدعة، على حاكم تختلف ثقافته بوجه عام عن ثقافته هو. ولقد كان في طوع "أخناتون" أن يوظف عناصر وحشية، وإن كانت فعالة في السياسة، غير أنه لم يشأ أن يكيف نفسه مع التنظيم الضروري اللازم لإطلاق حملة تتمتع بالكفاءة والقدرة. وكان في وسع "أخناتون" أن يوجه تهمة شنيعة، إلا أن خطره كان يطيب بسهولة ويسر.

ولما كان "أخناتون" شخصاً منتسكاً واقعاً تحت سيطرة فكرة واحدة ثابتة، فلقد كان خليقاً بجلالته أن يستشعر الملل للفترات الطويلة من التركيز العقلي، اللازمة لانتهاج سياسة خارجية متسقة. ولم يكن ليزعجه إلا الإضطرار إلى أن يأخذ ويعطي، ويساوم ويشارط مع الآخرين، فلقد كان في أعماقه رعيدياً. ولم يكن عزمه معقوداً بصورة لا نقض فيها ولا إبرام، إلا على برنامجه الديني، وليس على

شكل التعامل مع حكامه الإقليميين التوابع (سواء في الشمال أو الجنوب م.). ولقد فطن "عزيرو" إلى كل هذه السمات التي تسم شخصية "أخناتون"، وهي سمات ملائكت نفس "عزيرو"، على وجه الترجيح بالازدراء. ولعل خلع الولاء لمصر راجع إلى نفوره من شخص جلالته بنفس القدر الذي كان خضوعاً من جانبه لـ "قوة عظمى"، تلك التي مثّلها "سوبيلوليوماس".

الفصل الثاني عشر

تعايش : حكم "توت عنخ أمون"

كانت عبادة قرص-الشمس الواحد الأحد وما استتبعته من تحطيم الأيقونات (تمثيل الآلهة وصورها . م) مدموغة بصورة لا تحول ولا تزول بشخص "أخناتون" إلى حد لا يسمح لها بالاستمرار على قيد الحياة طويلاً بعد رحيله. فهي لم تكن عبادة من ذلك النوع الذي يستطيع شخص آخر سواه أن يزود عنها وينتصر لها ؛ لأن "بنوة أخناتون" إزاء "القرص" والسده كانت علاقة شخصية على نحو عميق. ويشك المرء فيما إذا كانت عائلته ذاتها وأعضاء حاشيته قد فهموا حق الفهم أو حتى أرادوا أن يفهموا أفكار الملك في هذا الشأن. وفي سائر الأحوال لم تكن المظاهر السلبية لتركيزه على "الوحدانية" Oneness لتروق لأحد، كما لم تكن أيضاً عملية. وقد يكون رجال البلاط في "أخناتون" قد استكنوا في الدفاء والرفاهية ورغد العيش مما يلزم بالضرورة العاصمة السياسية للدولة، ولكن نصيب الأغلبية الساحقة من أبناء الشعب في شتى ربوع البلاد كان صفراً. فمصادر الدخل قُطعت، وبالتالي أغلقت المعابد، وأبطلت العبادات اليومية، والاحتفالات، التي ظلت لما يقرب من ألفي سنة، تعطي للحياة معنى. وطالما استمر مؤسس العبادة الجديدة على قيد الحياة، استمرت هذه الأغلبية بلا مورد.

ومع ذلك فلنتخيل هذا المؤسس في سنته السابعة عشرة من حكمه، وهي السنة التي اتضح أنها الأخيرة. فبالنسبة لأي رئيس دولة يرغب في ضمان بقاء نظامه في المستقبل لم تكن أحداث الماضي القريب تبشر بخير، فلقد رحل أربعة من بناته الست، واجتاح البلاد وباء عارم. ووقف صبيان ضعيفان في طابور ورثة العرش، أحدهما تم تعيينه كمشريك للملك، وأصغرهما ولد بعد الفتنة. أما "أي" العجوز، الذي شغل منصب القائد العسكري وسكرتير جلالته، فكان لا يزال على قيد الحياة، وكذلك الأمر بالنسبة لـ "نفرتي" التي حملت في وقت سابق لقب "زوجة الملك الرئيسية"، بالإضافة إلى عدد من الوجوه التي تظهر في المناظر الجدارية :

سيدات أنيقات، قريبات من درجة بعيدة للملك، دون شك، إلا أن المرء يستطيع إرجاع أصولهن إلى الفرعون "أمون-حوتب" الثالث، وندماء الملك الذين يحظون بالرعاية والاحترام والوزراء، وهم يركعون؛ إلا أنهم مجهولون جميعاً لنا من جراء التقاليد المعاصرة بذكر أسماء أعضاء العائلة المالكة المباشرين دون سواهم. وتلك كانت مجموعة الأشخاص المتزلفين، الذين يتصفون بالتخمة والضعف والخور، على نحو ما تعرضهم أمامنا هذه الجداريات : لا يتقيدون بأي عمل سواء في الجيش أو القطاع المدني. هل كان "أخناتون" يعقد على مثل "هولاء" توفير الدعم الرئيسي لربيبه "سمنخ-كارع" ؟

تشير العواقب اللاحقة إلى أن "أخناتون" لم يعقد أي آمال كما أنه لم ينتهج يوماً سياسة حازمة. وعندما رحل جلالته بصورة مفاجئة، على نحو ما يقودنا حقاً الحدس، ترنحت سفينة الدولة دون دفة لثلاث سنوات. وما نحن نسمع عن خطوات تجريبية يقوم بها "سمنخ-كارع" الذي كان شريك-الملك في وقت سابق وأصبح الآن ملكاً، لإعادة الاعتبار مرة أخرى لـ "أمون" اله الإمبراطورية. وعندئذ وافاه الأجل، فتغير الحال. وبدا وقت ذاك أن هناك تصميماً راسخاً على البقاء في "أخناتون" رغم أن الجداريات التي وصلت إلينا قليلة، إن لم نقل نادرة، عن هذه الفترة القصيرة في بداية حكم "توت-عنخ-أمون". ومع ذلك، شهد نفس الوقت، وبعد الفجوة التي دامت ثلاثة عشرة سنة، استئناف أعمال التشييد في "طيبة" على قدم وساق (اللوحة رقم ١٢-١) إذ شيدت إضافات جديدة للمعابد القديمة التي سبق لـ "أخناتون" أن أقامها. وكان الأسلوب الفني رائعاً في أواخر عصر "أخناتون" ولم يغفل ذكر "أخناتون" أو الملكة العجوز أو الحفيدة الصغيرة (١). إلا أن مظاهر الصرامة التي اتسمت بها الوجدانية القديمة ظلت قائمة : لم يُذكر اسم أي اله آخر اللهم سوى *القرص*، ولم يُسمح بأي شعائر عبادة أو أي أساطير. ومع ذلك فإن نفس الفترة شهدت التخطيط لأعمال حربية من نفس طبيعة الأعمال الباهرة التي عرفتها الإمبراطورية قديماً. كما أن الفرعون الصغير السن أخذ، أو مُنح في مطلع حكمه، الاسم الحوري (نسبة إلى حورس) : "طالباً رضا الآلهة (في صيغة الجمع. م)" وهي الخطوة التي تتطوي على المغزى الأعرق بين سائر الخطوات التي اتخذها

هذا الفرعون.

انتهى التردد والتذبذب في السنة الثالثة من حكمه باتخاذ قراراً بمغادرة المدينة الجديدة. وانتقل الفرعون وبلائه، بكل تأكيد، رغم أن بعض السكان ظلوا يقيمون على وجه الاحتمال هناك. ولا يتمالك المرء نفسه من العجب، في ضوء الوجود المشهود لـ "نفرتي" في السنوات الأولى للحكم، فيما إذا كان موتها هو الذي وضع نهاية لفترة التردد في اتخاذ القرارات ووضع عناناً أكثر تحرراً في أيدي أولئك الذين يملكون صوغ سياسة أكثر تماسكاً واتساقاً. أيأ ما كان الأمر، فلن إقامة الملك مرة أخرى في منطقة "منف" أعاده من عالم الأحلام في "أخيتاتون" إلى واقع المعابد المهجورة وأطلال الماضي المجيد لمصر.

كما وضعت هذه الإقامة مزيداً من السلطة في أيدي الرجل الذي كان في طريقه لأن يغدو "الموجّه الخفي" *eminence grise* للنظام. وكانت قد سُنحت لنا الفرصة كي نلقي نظرة عابرة على شخصية "أي" التي يكتنفها الغموض، ذلك الرجل الذي دأب على التنقل خلال المدينة التي ضمت مقر الإقامة الجديد، وكان قريباً بصفة دائمة من شخص الملك. لكننا لا نعرف عن أصوله شيئاً سوى ما تضمنه هذه الفقرة التي تحمل طابع السيرة الذاتية، ونجدها منقوشة في مقبرته في "أخيتاتون": كنت لأحد الذين تمتعوا بعطف مولاه كل يوم، ولقد زادت أفضاله عليّ سنة عن أخرى نظراً لأنني كنت كفاءاً كفاهة فائقة في رأي جلالته، ولذلك ضاعف مخصصاتي حتى بلغت عدد الرمال. ووضعني على رأس كل من الأمراء وعامة الشعب.. وكنت شخصاً مستقيماً، بحق وصدق. فكنت شخصاً لا يعرف الطمع طريقاً إلى فؤاده. اسمي (أي صيتي) بلغ القصر لأنني كنت ذا نفع للملك، مطيعاً لتعاليمه، ومنفذاً لقوانينه ... كنت كفاءاً ومتمتعاً بأخلاق حميدة ... وكنت قنوعاً صبوراً. يتبع كـ *Ku* (٢) الملك مثلاً يكون قد أمر، فأنا لا أكف لحظة عن الإنصات إلى صوته (٢). أما ألقابه التي تشمل قائد الجيش وجنرال العجلات الحربية وحامل المروحة عن يمين الملك، وكاتب جلالته فتدل على أن أصوله ترجع إلى طبقة العسكريين، كما تسوغ المكانة الرفيعة التي وصل إليها في أواخر الحكم. وعلاوة على ذلك كنا قد ارتأينا أنه ابن كل من "يوي" و"توي"، وبالتالي شقيق

الملكة "تي"، إلا أنه يعزف، على نحو غير مفهوم عن التباهي بأنه خال "أخناتون". وليس هناك سبب يدعونا إلى التشكك في فحوى الفقرة السابقة، ولو أن لغتها تقليدية مقولبة بعض الشيء : فكان "أي" على وجه الاحتمال كفاءاً، وخادماً مطيعاً ومقرباً من الملك. وكانت الأقوال التي تصدر عن جلالته تملأ فؤاده بالروع. إلا أنه كان رجلاً عملياً. وبرحيل "أخناتون" وترقيته تحت ظل حكم "توت-عنخ-أمون" إلى رتبة شرفية بحتة : "أكبر أبناء الملك"، لم يجد "أي" بكل تأكيد أي سبب يحذوه إلى الاستمرار في اللغز، فكان الطريق الذي أختط، في معظمه، خلال الحكم الجديد، من رسمه على وجه اليقين.

ويتمثل جوهر التغيرات التي حدثت في السنة الثالثة من حكم "توت-عنخ-أمون" في التسامح عوضاً عن الاستهجان والإدانة. فلم يتعرض أي معبد من معابد "قرص - الشمس" للإغلاق، ولم تكشف بالأزامل نقوشها ولم يواجه أعضاء الكهنوت فيها محنة التسريح من أعمالهم أو الذبح. كما لم تصدر بصورة مفاجئة مذكرة لعن ضد "أخناتون" أو "نفرتي" أو أولئك الذين ارتبطوا بسبب أو لآخر بهما. فالواقع أن عبادة "القرص" استمرت قائمة طيلة عشر سنوات كاملة، إن لم نقل مزدهرة في المراكز الدينية التي شهدت ولادتها : "طيبة" و"منف" و"أون".

و لكن إختلافاً شاسعاً وذا مغزى عميق قام الآن : لم يعد "قرص - الشمس" الإله الواحد الأحد. إذ أصبح الأتقياء أحراراً مرة أخرى في ذكر أسماء الآلهة القديمة دون أن يخشوا عقاباً. وقاد الفرعون والملكة بنفسيهما المسيرة على هذا الدرب بإيماءة لا تخلو من فطنة في اتجاه إعادة الاعتبار : تحول "توت - عنخ - أتون"، وهو اسم الميلاد للفرعون ليصبح "توت - عنخ - أمون"، وفي نفس الوقت تحول اسم الملكة "عنخ - إس - إن - با - أتون" كي يغدو "عنخ - إس - إن - أمون".

جاء افتتاح المعابد القديمة وإعادة الاعتبار إلى المجمع الإلهي القديم كخطوة تستند علناً إلى المبدأ الذي يقول أن المحن التي تعرضت لها مصر إنما تتبع بشكل مباشر من تجاهلها لآلهتها، وتخلي هذه الآلهة عن مصر. ويلخص لنا المرسوم الذي أصدره "توت - عنخ - أمون" الأمر على النحو التالي :

(الآن صعد جلالته إلى العرش في وقت كانت فيه معابد الآلهة والإلهات من جزيرة إلبانتين "جنوباً" حتى مستنقعات الدلتا قد تهيّمت ودب الخراب في أضرحتها وتحولت إلى تلال تهيّبها الحشائش الضاربة. كما بدت وكأن أقداسها (جمع قدس)، لم يكن لها وجود في يوم من الأيام : تخللت المدقات صحنوها. فلقد حُلّت الكوارث بهذه البلاد : أدارت الآلهة ظهورها لها. وإذا حدث وأرسل الجيش إلى المشرق كي يوسع حدود مصر، فإنه لا يحقق نجاحاً. وإذا ما حدث وصلّى شخص لإله ما طالباً شيئاً منه، فإنه لا يتجلى له أبداً ؟ وإذا عن لشخص ما أن يتضرع لإلهة ما فإنها على نفس المنوال لا تتجلى له بحال من الأحوال. فلقد وهنت قلوب الآلهة في أجسادها، وذلك لأن الدمار كان قد لحق بما صبعوه" (٣)

ينتهي "الموتيف" في هذا المقتطف إلى مستوى التتظير الذي تكشف عنه "عصور الاضطراب"، ونعرفه نحن منذ غداة طرد الهكسوس إلى الأسر الليبية التي تولّت عرش مصر. فعلى نحو ما هو حادث هنا، وما يُضمّر، في العادة، في شكل اجترار للماضي إزاء احتلال لجنوبي للبلاد، يُرجع "الموتيف" في الغالب الحالة الراهنة للمجتمع إلى الصدع في العلاقات بين البشر والآلهة. وليس في وسعنا التوصل إلى بروتوكول أكثر ملائمة للمرسوم الفرعوني. فالتغيّر الذي دخل على السياسة يبدأ وينتهي باسترضاء الآلهة، والجهود الأولى التي بذلها "توت - عنخ - آمون" نحو استعادة الحالة السابقة كانت موجّهة، مما ينطوي على دلالة خاصة، نحو إعادة المعابد وعباداتها، التي كان حموه "أخناتون" قد أغلقها. إلا أنه لم يعد في الإمكان بعد الآن تجاهل الدور الاقتصادي للمعابد القومية :

الآن وعندما كان جلالته في قصره القائم في ثبيت - عا - خبر - كا - رع" (تحت - موسى الأول) مثل رع في السماء* ، فإنه كان معتاداً على إدارة شؤون البلاد بصفة يومية. وتعود جلالته على أن يستفتي قلبه في بحثه عن كل أنواع الأساليب الفعالة وتفتيشه عن الوسائل الناجعة (لئيفيد) والده "أمون"، (وعلى سبيل المثال) في صوغ تمثاله المهيّب من الإلكتروم الخالص.

ولقد مضى في هذا الشأن ، إلى أبعد عما جرت عليه الأمور في الماضي، وصاغ والده "أمون" على قوائم خشبية يصل ارتفاعها ١٣ ذراعاً، فتمثاله المقدس

أصبح يصنع من الإلكتروليت واللازورد والفيروز وأحجار كريمة نفيسة متعددة :
والآن كان جلالة هذا الإله المهيّب يُحمل في الماضي على قوائم خشبية لا يزيد
ارتفاعها عن أحد عشر ذراعاً. فالتماثيل المهيّب لـ "بتاح - جنوبي - سوبه" سبب
حياة الأرضيين المصنوع من الإلكتروليت كان يُحمل على قوائم خشبية لا يتجاوز
ارتفاعها ١١ ذراعاً" (٤) ويبدو أن استئناف العبادات وتجديد تماثيل "آبائه كافة
الآلهة" كانا الشغل الشاغل لـ "توت - عنخ - أمون" طوال حكمه . ويوصف
جلالته في نصوص مستقاة من مقبرته المشهورة على هذا النحو :
"هو الذي شيد الآثار التي انبثقت للتو لآبائه : كافة الآلهة، وهو الذي بنى
معابدهم من جنيد، وهو الذي نحت تماثيل العبادات من الإلكتروليت، وسد النقص في
تمويلها من قرايين الخبز على الأرض"

وعود على بدء، تعود النصوص التي وصلت إلى أيدينا من نفس المصدر،
كي تصفه بأنه الذي قضى حياته يصنع تماثيل الآلهة كي يعطيهم كل يوم البخور
والصبيان والقرايين" (٥) .

وبنفس الروح يقول أحد أتباع الملك الذين كلّفهم بترميم المعابد، ويدّعي
"ماي": لقد طهرت مصر لاستقبال أسياها (أي آلهتها) وكنت الناطق باسم الملك،
الذي جلا صدا الإهمال عن المعابد ونحت تماثيل الآلهة، وكنت ذلك الفرد الفريد
الذي دخل إلى دوار الذهب "كي أهدي روع صورها أي التماثيل المقدسة" (٦)

ومما ينطوي على أهمية كبرى ذلك التركيز على نحت تماثيل جديدة
للعبادات. ويجدر بنا أن نعيد إلى الأذهان أن خطاب "أخناتون" الذي وصلت إلينا
أجزاء منه خلال الشطف المستخرجة من الصرح العاشر أشار إلى كل من تماثيل
الآلهة والدليل النموذجي لمستلزمات شعائر العبادات في فقرة تحمل نبذة مُحطّة
بالشأن من كل بد. وينهض الهدف الذي توخاه "توت - عنخ - أمون" على نحو ما
هو واضح كردٍ عنيف على هذا الخط من شأن التماثيل والأيقونات على المستويين
النظري والعملي في نفس الوقت. فلا بد أن يكون كثير من التماثيل قد تعرّض
للنهب أو التدنيس (دون أن يصدر، بالضرورة، بذلك مرسوم رسمي) إذ يكفي أن
يكون معروفاً أن تلك هي رغبة "أخناتون". ولا بد أن مرسوم التسامح الذي أصدره

"توت - عنخ - أمون" كشف الحاجة الماسة إلى أيقونات وتمائيل جديدة. وفي نفس الوقت جاءت سياسته بمثابة تأكيد قوي بأن الآلهة "تسكن" في الواقع، بمعنى من المعاني، في نسخ طبق الأصل، منحوتة لها، من الخشب والحجر والمعادن.

يشكل حكم الفرعون الشاب "توت - عنخ - أمون" من مقره فاصلاً من السحر بين التشدد الذي ساد خلال مرحلة تحطيم تماثيل الآلهة وبين التحول التام إلى تسامح التعددية، حيث تمتع هرص - الشمس بالتعايش مع الآلهة الأخرى. وهكذا فإن هذا العقد (السنوات العشر) قد أسفر عن غرائب من نوع تصوير الفرعون الذي كان لا يزال يحمل اسم "توت - عنخ - أمون" أثناء عبادته لـ "أمون" (٧)، أو مثل تلك النصوص القادمة من مصليات الصحراء التي تتأخم "أخيتاتون" التي تدعو فيها صيغة تقريب القرابين "أمون": "سيد السماء"، الذي خلق الأرض ... الواحد الأحد" (٨). ولم تستشعر شخصيات رفيعة - مثل "بين - بوي" أو "بتاح - ماي" - كانت تزهو بتقديم خدماتها في بيت هرص - الشمس، بأي وخز للضمير أثناء الابتهاال لـ "أمون" أو "بتاح" أو أي أرباب أخرى (٩).

وصار في طوع الفرعون أن يشير إلى "آبائه، كافة الآلهة" ويمزج بين رطان الوجدانية الذي عرفته "أخيتاتون" ولهجة التعددية في النقوش التي يحملها الأثاث الذي سيتبعه إلى المقبرة: "ابن أمون" ونسل كا - موت - إف، ذاك الذي ربته "موت" سيدة السماء وأرضته لبن ثديها، ذاك الذي خلقه رب الكرنك كي يحكم كل ما يحيط به هرص - الشمس، مورثاً إياه عرش "جب" السادن الأمين لـ أتوم" ... صورة زرع والابن البكر لـ هرص - الشمس في السماء" (١٠). وقد تكون عبادة هرص - الشمس قد هبط شأنها، لكن بعض فرق الجيش العسكرية استمرت تضع "قرصاً" على دروعها، وتحمل مثل هذا الاسم: "الفرقة التي يحبها هرص - الشمس" (١١) وبينما عادت الحناجر تعلو بالترانيم التي تقصد وجه "أمون" من جديد، إلا أنها كانت قد اكتسبت، بلا شك، رنيناً "أتونياً" على هذا النحو:

"أمون" هو الأول المقدس في مقر البينيين، سيد السماء الباهر الزاهي، الذي تفيض أشعة شمس على سائر البلاد، لك التحايا يا من تضيء في قرصك! (١٢)

بينما يصدمننا نحن المعاصرين التجاور جنباً إلى جنب بين بلاغة "قرص - الشمس" والعبارات التقليدية، إلا أن الأمر المستغرب حقاً كان إعادة الاعتبار لـ "أمون" والمجمع الإلهي القديم بصفة عامة. وقد يكون من الخطأ أن نتصور وجود حزب يدافع عن "مصالح مكتسبة" أي "كهنوت أموني" نسبة إلى "أمون" يتربص في الظلام، وهو يتميز غيظاً، ضد عباد "أتون" الحسني الطوية. فلم يكن هناك رجال دين محترفون من ذلك القبيل في القرن الرابع عشر ق. م.، وكم من كاهن سابق في معبد "أمون" بالكركك وجد نفسه مدفوعاً إلى أداء شعائر العبادة الجديدة، إلا أننا لا نستطيع أن نتجاهل المظاهر الاقتصادية - الاجتماعية في الموقف : كان لا بد لمعابد الآلهة أن تعود للعمل. ولما كان "أمون" بمثابة الهدف الأول للإضطهاد من جانب "أخناتون"، فإن "أمون" ملك الآلهة هو المرشح لجني الشطر الأعظم من المكاسب، في التبدل الراهن في الحظوظ.

كثرت التعيينات الجديدة للمنصب الكهنوتي. وقامت هيئة هرمية الشكل لمعبد "أمون" إلى جانب هيئة أخرى من الموظفين العلمانيين (غير الكهنوتيين م) للإشراف على ممتلكات هذا الإله. والواقع أن مثل هذا الحذب الملكي كان آخذاً في الكشف عن أبعاده في "طيبة"، حتى قيل أن الفرعون "توت - عنخ - أمون" (شيد المدينة من جديد). وإذا كان لنا أن نصدق ما جاء في المرسوم الملكي، فلقد وقع اختيار كافة المعينين في مناصب الكهنوت من بين صفوف المواطنين حسني الصيت : فلقد رسم (أي الملك) الكهنة والأنبياء العاديين من بين أبناء الأمراء المحليين، وكان كل منهم يوماً لأحد الأعيان ذائعي الصيت" (١٣)

في نفس الوقت أشرف الفرعون على استعادة المعبد لعائداته بل والاستزادة منها في حالات كثيرة :

كافة رسوم المعابد ضوعفت، وزيدت ثلاثة أضعاف، وأربعة أضعاف، من الفضة والذهب واللازورد وسائر الأحجار الكريمة النفيسة، والكتان الملكي والتيل الأبيض والتيل الفاخر وزيت الزيتون والصمغ والدهن ... الخ. كما قام جلالتة برسم عدد من العبيد والجواري والمغنيات والراقصات، مما كانوا يعملون في بيت الملك وتحمل القصر نفقاتهم أي خزانة سيد الأرضين "

وبعبارة أخرى كان الفرعون يقوم، كعمل من أعمال التقوى والورع، بحل
 جمعية المترفين الذين أحاطوا بـ "أخناتون"، وكان يزودُ بهم أو ببعضهم، وعلى
 نفقته الخاصة، أجواق الغناء وفرق الرقص الشعائري التي تتبع المعابد. (١٤)
 هناك ملمح آخر لحكم "توت - عنخ - آمون" اتضح أنه كان بشيراً بما
 سيحدث في المستقبل. فلقد عاد الفرعون الشاب مرة أخرى إلى غرس - بوعي -
 كامل - صورة "الفرعون - البطل الرياضي"، تلك التي ظلت مركونة في الظل،
 إن لم نقل مستهجنة على طول الخط لخمسين سنة أو نحو ذلك. وكان "الفرعون -
 القوي البنيان" مشرباً بروح إمبراطورية، أي من ذلك النوع من الفراعنة الذين
 اختارهم "أمون" وبسط عليهم رعايته. وما كان في طوع فرعون، يسعى إلى عودة
 الحالة السابقة، أن يتجاهل ذلك. وكان الفرعون اليافع أكثر من شغوف بأداء هذا
 الدور. فنراه، في "موتيف" تقليدي، وقد خرج إلى البراري كي يصطاد على متن
 عجلاته، أو يطارد بعجلاته تلك ذاتها حشداً من الأعداء الذين يولون الفرار. فهل
 كان الجيش يعود مرة أخرى كي يطرح المثل الأعلى لإنجاز الرجال ؟

الفصل الثالث عشر

مصر و"خاتي": قصة الحرب والسلام

دبت عوامل عديدة في الأراضي الواقعة على مشارف المناطق الخاضعة لنفوذ مصر منذ اتضح حقيقة حكم "أخناتون"، الذي جلب على بلاده النوائب. وكان أسلوب الحياة الأشبه بالأحلام في "أخيتاتون" قد جعل من العالم الخارجي يبدو بالنسبة للقدماء الذين يعيشون بين حيطانها موعلاً في البعد ضارباً في أعماق الوهم، إلا أن المحزن حقاً أن كل ما كان في ذلك العالم كان موعلاً في القرب ضارباً في أعماق الصدق. وهذه الحقيقة هي التي استيقظ عليها "توت - عنخ - آمون" فجأة من النوم.

تمثل الحدث السياسي الفريد الأشد أهمية الذي وقع بغرب آسيا خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد في النصر الساحق الذي أحرزه الحيثيون بقيادة ملكهم "سوبيلوليوماس" على الميتانيين تحت ظل "توشراتا". فعلى إثر الزحف المظفر لملك الحيثيين في سوريا، بدأت "ميتاني" في الانهيار: أغتيل "توشراتا" وتمزقت أسرته المالكة. وعندما انقشع الغبار كانت سهول وأسط بلاد الرافدين بأسرها قد غدت تشكل فراغاً في القوة، تحده من الناحية الشمالية الغربية "قوة عظمي" هي "خاتي"، ومن الناحية الشرقية دولة "أشور" التي كانت قد تحررت قبل قليل. واستمرت تتشبث بالبقاء إمارة "ميتاني" التي دب فيها الضعف إلى حد كبير بين نهري "خابور" و"الفرات"، لكنها كانت خاضعة تماماً لـ "خاتي". وفي هذه الأثناء هرب "شاتيوزا"، وهو أحد أبناء "توشراتا" الذين بقوا على قيد الحياة بعد مقتل والده. وبعد طول تجوال توجه إلى "خاتو ساس" *، ثم عاد كريبب للملك الأكبر إلى "واسو كاني" *، حيث حكم كدمية في أيدي الحيثيين. واستولت دولة "خانيجالبات" التي تحكمها شظية من شظايا أسرة "توشراتا"، قد تكون فرعاً ينتمي إلى ابن أخيه. وسعى هؤلاء الملوك إلى ممالأة "أشور". ولكنهم وجدوا أنفسهم حين ذاك يخضعون بصورة متزايدة لسيطرتها. وأسفرت النتيجة عن مواجهة، على

امتداد حدود متذبذبة، تسير إلى هذا الحد أو ذاك، بالقرب من نهر "خابور" بين المناطق التي تصطرع فيها المصالح الحيثية وتلك الآشورية. (١)

لم يكن من المستغرب أبداً أن ترى مصر، والحالة هذه، مصالحها متماثلة مع مصالح "أشور" فـ "خاتي"، فضلاً عن ذلك، هي التي مسحت إمبراطورية "توشراتا" عن وجه الخريطة، وهو الأمر الذي عرّض للخطر، في حد ذاته، الحليف الوثيق لـ "ميتاني" أي مصر. ولا ينطوي على أهمية تذكر، في هذا الصدد، أن يكون "سوبيلوليوماس" قد تجنّب، على نحو دقيق، خلال زحفه في سوريا الدول التي يرتبط حكامها بالتبعية للفرعون : إلا أن صهر فرعون مصر هوجم وأنزلت به الهزيمة ثم قُتل. ولم يعد في طوع مصر إلا أن ترى في "خاتي" عدواً. (شكل رقم ٢)

لعل من المرجح ألا يتوصل أحد إلى معرفة إلى أي حد، كانت يدا "توت - عنخ - أمون" طليقة، وسط ذلك الخضم الدولي الناجم عن كل ذلك، في تشكيل السياسة الخارجية لبلاده وقت ذاك. حقاً كان "أي" شخصية بارزة في الحكومة الداخلية، ولعله كان يملك بصفته رجلاً عسكرياً رأياً مسموعاً في وضع الإستراتيجية المصرية. لكنني لا أستطيع التوسّل إلا بالحاسة السادسة، إذا ارتأيت أن "توت - عنخ - أمون" سرعان ما استقل برأيه بعد أن ابتعد عن "أخيتاتون". ففي الحملة السورية التي كان على وشك الانطلاق بها، يستطيع المرء أن يقف، بسهولة، على عقل وروح شاب في مقتبل العمر، حيي وواع بجذوره، يريد باستئصال أن يرتفع إلى المثل الأعلى الذي وضعه أسلافه الأولون.

كان "أشور - أوبالت" الأول أقدم معاصرة بدرجة بسيطة من الفرعونون "توت - عنخ - أمون"، إذ صعد إلى عرش بلاده "أشور" في الأيام الأخيرة من حكم "أخيتاتون"، بما لا يسمح له إلا بالبدء، وحسب، في التراسل معه. وتشير إحدى رسائله التي نجت من عوادي الدهر في خبيئة "أخيتاتون" إلى رغبته في إقامة علاقات طيبة مع مصر. وبصرف النظر عما إذا كان العمر قد أمهل "أخيتاتون" كي يرد عليه، فإن الفرعون "توت - عنخ - أمون" قد رحب، بكل تأكيد، بهذا العرض. (٢) وما تلي ذلك يحمل من ألفه لياته كافة علامات التنسيق في العمل الذي

جرى الاتفاق عليه بصورة مسبقة بين الطرفين. ولقد انطوت الإستراتيجية على شن هجوم واحد على محورين : كانت "أشور" لتضرب في الغرب عبر نهر الفرات، في حين تهاجم مصر من الجنوب عند أسافل نهر العاصي. ولو نجحت هذه الخطة، لكانت قد خلّصت سوريا بأسرها من قبضة الحيثيين. ولكن لسوء حظ مصر لم يحالف النجاح هذه المغامرة الجسورة. ولو أن الأمور بدت في البداية وكأنها تسير على خير ما يرام. فلم تجد القوات الآشورية أي صعوبة في عبور نهر الفرات، ونجحت خلال المباحثة التي انطوى عليها هجومها، في تضيق الخناق على الحلكم الحيثي لسوريا في مقره. وفي نفس الوقت عبّر الجيش المصري الحدود المعترف بها للإمبراطوريته في أعالي نهر العاصي، وشق طريقه نحو "قادش" (إلهة الانتقام القديمة) وكانت "قادش" دولة تابعة للملك الميتاني "توشراتا" في أواخر حكمه، إلا أنها وقعت تحت سيطرة "سويلوليوماس" خلال حملته الكبرى على سوريا، وهو الأمر الذي فت في عضد المصريين الذين وطمّوا النفس باستمرار على أن تكون هذه المدينة الإستراتيجية داخل نطاق سيطرتهم أو في أقل تقدير، تحت سيطرة قوة صديقة. وسرعان ما تفهّرت قوات "قادش"، وفرض المصريون حصارهم على المدينة. (٣)

بوغت الحيثيون، بصورة جلية، بالهجوم. وكان "سويلوليوماس" منخرطاً بشخصه في عملية تأديبية في الربع القصي لآسيا الصغيرة أو الصغرى عندما وقع الهجوم. ولم يكن بوسعه أن يتصدى شخصياً للأمر. لكنه تصرف على وجه السرعة. فأرسل من فوره قوتين، قامت إحداهما بهجوم مضاد للتغلغل الآشوري، وتوجّهت الأخرى لتخفيف الضغط على "قادش". وجوبه الآشوريون واضطروا إلى التفهّز مرة أخرى عبر نهر الفرات، بينما رفع المصريون حصارهم لـ "قادش" على أثر سماعهم، على ما يبدو، أنباء الزحف الحيثي، وانسحبوا جنوباً. إلا أن القوات الحيثية رفضت التوقف عند "قادش" في أعقاب انسحاب المصريين. وعبرت، في واحدة من مثل هذه المناسبات القليلة في تاريخ العلاقات المصرية - الحيثية. وهاجمت مدن دويلة "إمكي" عند منابع نهر العاصي التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية المصرية. وبعد فترة سادها الالتباس، وإن كانت قصيرة،

شن الحيثيون هجوماً آخر على "إمكي"، وبلغ الأمر حد نقل أسرى مصريين إلى "خاتي". (٤)

لزمّت المصادر المصرية الصمت إزاء هذه النكسات الخطيرة. والمعلومات المتوفرة عندنا في هذا الصدد مستقاة بالكامل، من الأراشيف الحيثية. غير أن الحملة صوّرت عند عودتها إلى أرض الوطن على أن النجاح قد حالفها. وتظهر كتل "الثلاثاء" التي نجت من عوادي الظروف، أجزاء من مناظر تصوّر العجلات الحربية المصرية وهي تطأ على جثث الجنود الحيثيين الذين يرتدون الخوذ على رؤوسهم. كما تصوّر مدينة أسيوية (قادش ؟) أثناء تعرّضها للهجوم. ونجد على الواجهة الجنوبية للصرح الضخم في الكرنك، وهو العاشر في العدد النموذجي للصرح، ويزينه تمثال عملاق للفرعون "أمين - حوتب" الثالث، منظراً تقليدياً لضرب العنق مصحوباً بالشرح الملازم لمثل هذه المناظر من الأشكال البيضاوية المرصوفة رأسياً تحتوي أسماء الأماكن "المقهورة"، ويعلو كل منها جذع أسير أسيوي يرسف في قيوده. إلا أن معظم أسماء المدن عمومية الطابع : "ريتينوالعليا"، "ريتينو السفلى" و"حاونبو" الإيجية. إلا أن أحد هذه الأماكن، وهو "تاخسي" يشير إلى ضاحية تقع شمال غربي "دمشق"، لا بد وأن يكون الجيش المصري قد مر بها في طريقه إلى "قادش". (٥)

يبدو واضحاً أن الأجل وافى "توت - عنخ - أمون" بعد وقت قصير من عودة الجيش المصري من سوريا. وتسجّل الحوليات الحيثية هجمات الحيثيين، وتصور المصريين وقد دب بينهم الهلع من جراء المأساة المزدوجة التي حلّت بهم بالهزيمة العسكرية وفقدان زعيمهم. وقد ألمح البعض إلى أن الأمر انطوى على لعبة قذرة، ورغم أن ذلك ليس مستبعداً، إلا أننا لا نملك دليلاً من أي نوع على مثل هذا الزعم.

يصعب علينا للغاية أن نقيّم بإنصاف حكم "توت - عنخ - أمون". فلقد صادف هذا الحكم محنة مزدوجة بمجيئه، على وجه "تقريب، في أعقاب أكثر شخصيات التاريخ المصري إثارة للجدل، وبرحيله المفاجئ، في ريعان العمر. وعلاوة على ذلك بهرنا الغنى الذي يكاد يذهب العقل لمقبرة التي لم تمسها أيدي

العابئين إلى حد يستعصي علينا أن ننظر إليه كابن إنس مثلاً. كما عرّض ذلك الغنى الباهر رؤيتنا له لتشويه بالغ على نحو ما هو واضح، حتى أن بعضنا بدا مستعداً لتصديق كل ما يقال عنه، من أنه كان، في الحقيقة أسود اللون أو سكيراً يعاني مشاكل عويصة أو من ذلك النوع الذي يستطيع إنزال لعنة الفراعنة على كل من ينتهك حرمة مقبرته. ولنقلها مرة واحدة وليسمعها الجميع : مثل هذه الأفكار، أياً من كان الذي يفصح عنها، أو أباً ما كان المقال أو الكتاب الذي يقبلها بلجلال لا تستحقه، ليست سوى محض هراء لا يؤيده أضعف دليل تحت أيدينا. والحقيقة أن الفرعون "توت - عنخ - آمون" كان شاباً صغير السن، وربما كان، على وجه الاحتمال، مأخوذاً بما حوله بعض الشيء. ولما كانت ولادته قد جاءت في عالم كان تحطيم تماثيل الآلهة على أيدي "المارق" قائماً بالفعل على قدم وساق، فلم ير، بصورة مباشرة، مصر التقليدية التي تقوم عباداتها على التعددية أو القواعد المحافظة للتعبير الفني. كما حرّمه الموت المبكر من إمكانية الكشف عما كان في طوعه أن يفعل فيما لو واثته الفرصة. غير أن السياسات الجذبية التي نرصدها له، تشي ببرنامج ليس سيئ التصور، رغم ما أبطل به من مشورة طائشة. فلربما تفوق عليه، في قيادة المعارك خصم أكبر سناً وأعمق خبرة، لكنه كان لا يزال قادراً في الداخل على السيطرة على القوى العاملة وامتلاك المهارة التنظيمية لتشييد الآثار الضخمة التي يحفها الجلال.

ومن المؤسف أن جلالاته لم يكن له وريث يستطيع أن يسلم إليه زمام الحكم. فالسليل الذي نعرفه هي "عنخ - إس - إن - با - أتون" الصغيرة، التي رحلت إلى العالم السفلي في ميعه الصبا. ولم يكن هناك قريب آخر من أي نوع حتى ولو كان بعيداً، من العائلة المالكة قد استمر على ما يبدو، على قيد الحياة. ويرحله كان هناك ثلاثة ورثة كبار أمام العرش هم : "عنخ - إس - إن - آمون"، أرملته التي لا يزيد عمرها عن إثنتين وعشرين سنة، والعجوز "آي"، وجنرال شاب واعد في شمال البلاد يدعى "حور - إم - حب". كنا قد أشرنا في وقت سابق إلى أن "آي" كان قد اعتصر من الفرعون "توت - عنخ - آمون"، وأثناء حياته، منصب الوزير و"الابن البكر للفرعون"، فيما يعد إشارة أمينة إلى أن جلالاته اعترف، طوعاً

أو كرهاً، بمستشاره كوريث له. وبدأ الفرعون "توت - عنخ - أمون" و"آي" يبذلان جهوداً منسقة في تشييد المباني، أحدها صالة الأعمدة في معبد "أمون"، وهو المعبد الذي تشهد على وجوده الأغرابة (جمع غرابية وهي حلية معمارية. م) التي وعاهها لنا الدهر. (اللوحتان ١٢-١، ١٣-١). وتصور بعض المناظر "آي" واقفاً بسيماء الحكيم الحصيف خلف الفرعون "توت- عنخ - أمون"، وهو شرف عظيم لشخص بسيط. (٦)

لم يكن هناك صراع ظاهر على الحكم عند رحيل الفرعون "توت- عنخ - أمون". فلقد صعد "آي" إلى العرش دون منازع. وقد صورته الجداريات وهو يؤدي مراسم الدفن في جنازة الفرعون المتوفى. كما استمر برنامج البناء المشترك في الكرنك والأقصر. ووضعت الخطط لتشييد نصب تذكارية أخرى في سائر أنحاء البلاد. وقد نحت أحد هذه النصب، على هيئة صادود ومزار، في أعلى الصخور الجبلية الشرقية في وادي النيل شمالي مدينة "أخميم" مباشرة، بما لا يبعد كثيراً على وجه الظن، عن المدينة التي شهدت مسقط رأس "آي". وباختصار لا تشي المناظر الملكية التقليدية المقولبة بأي دليل، أيا ما كان، على أن شيئاً لم يكن يسير على ما يرام في البلاط الملكي.

لكن الحوليات الحديثة التي تتم عن نقطة تامة تشي، بكل تأكيد. ويتضح من النتائج اللاحقة أن "عنخ - إس - إن - أمون" التي سارت خلف زوجها الشاب حتى مقبرته ووقفت ترقب "آي" وهو يغتصب دور صاحب المأتم لم تقبل التشكيل الجديد لسدة الحكم. ورغم تولى "آي" بصورة رسمية مقاليد الحكم الفرعوني، إلا أنه لم يبد على الملكة النكلى أن تكون قد تعرضت للتهميش. فلقد استمرت تتمتع بقدر معين من الحرية في تصرفاتها. والحقيقة أن فنون الخطوط (الكتابة والرسم على وجه الخصوص) جمعت، على المستوى الرسمي وحده، في ذلك الوقت، حتى بينها وبين "آي" بصفتها قرينته. لكنه "جَمَع" يخله التفاوت الواسع في عمرهما، بما يصل إلى أربعين سنة. ولا ينهض عندنا أي شك في أن الملكة الشابة "عنخ - إس - إن - أمون" لم تكن ذات نفع كبير لـ "آي". ويبدو أنها، لهذا، أقامت في "منف" بعيداً عن "آي" الذي كان مشغولاً، على ما يبدو، بمجريات الأمور في "طيبة" (وهذه

فرضية تفسر بصورة أيسر قدرتها على التصرف بشكل مستقل). ولعله من الواضح أن "عنخ - إس - إن - أمون" لم تقطع الأمل، على نحو من الأنحاء في الوصول إلى السلطة السياسية التي كانت تستشعر أنها حق من حقوقها. لكنها كانت في ذلك الوقت تفتقر إلى حزب من الأنصار في بلادها. فلقد فقدت الثقة، بشكل كامل، في الأسرة المالكة التي تنتمي إليها. وما كان في طوع أي مساندة إلا أن تأتيها من الخارج.

حضر الملك العظيم "سوبيلوليوماس" إلى سوريا، غداة الهزيمة التي أنزلتها قواته المظفرة بالآشوريين والمصريين وإجبارها إياهم على التراجع، كي يتفقد ميدان المعركة. وكانت مدينة واحدة قد واصلت صمودها في وجه الحيثيين، تلك التي تضم قلعة "كاركميش" على نهـر الفرات، وهي المدينة التي سارع "سوبيلوليوماس" إلى فرض الحصار عليها. وبينما كانت المدينة تحت الحصار وصل رسول مصري بمفرده إلى معسكر الحيثيين. كيف استطاع أن ينسل خارجاً من مصر، أو يجتاز مصاعب ذلك الطريق الطويل الذي يمر عبر الأراضي الخطرة، وأحياناً المعادية التي تمتد من "غزة" إلى الفرات، أمر ظل مجهولاً. إلا أنه وصل إلى المعسكر حاملاً رسالة من "ملكة مصر" إلى ملك الحيثيين، تجري مسطورها، كما هو مسجل في الحوليات الحيثية، على النحو التالي :

"زوجي وافته الأجل. وأنا لم أنجب. لكنهم يقولون أن لك أبناء عديدين. فهل لك أن تمنحني واحدا منهم كي أتخذه لي زوجا. فلن يحدث بالمرّة أن ألتقط رجلاً من رعاياي وأرفعه إلى منزلة زوج لي ... إن الخوف يحاصرني "

ولعل هذه اللوحة الصريحة عن واقع الوضع السياسي في مصر قد هالت "سوبيلوليوماس" بنفس القدر الذي تهولنا به الآن. فعلى حين غرة نجد الصورة التقليدية لفرعون مصر، كسيد بلا منازع له، على نفسه وعلى العالم بأسره وقد انهارت. كما نلاحظ، بشكل عابر، بلاطاً دب فيه الانقسام، ويغص بأشخاص مذعورين يقفون بأنفسهم على نقط ضعفهم. وتخبرنا الحوليات الحيثية، التي وضعها "مورسيليس" الثاني ابن "سوبيلوليوماس"، أن ملك الحيثيين قال فور تلقيه تلك الرسالة :

لم يحدث أن سمعت بمثل ذلك طوال عمري ! (٧)

إلا أن "سوبيوليوماس" كان من الفطنة بما يحول بينه وبين القفز فوراً إلى اغتنام هذه الفرصة، ومن سعة الخيال بما لا يجعله يترك هذه البادرة تفلت من يده. وبناء عليه أرسل سفيراً له إلى مصر كي يستطلع الأمر. وكان في مقدور "عنخ - إس - إن - أمون"، وكما يشير المجرى اللاحق للأحداث، أن تكرم وفادة السفير وأن تترك عنده إنطباعاتاً عظيماً، خصوصاً وأن الرجل لم يكن عنده، على نحو ما هو واضح، أي فكرة عن اعتلاء "آي" عرش البلاد وقت ذاك. فلو كانت هناك أي علامة على تولي "آي" الملك أو على وجود "آي" نفسه، لما عاد المبعوث إلى سيده بمثل ذلك التقرير المشجّع للغاية. وعود على بدء لا نجد في جعبتنا فرضية تفسّر بشكل كامل هذه الحقائق سوى تلك التي تذهب إلى أن "آي" كان مشغولاً، وكان موجوداً بشخصه في الوجه القبلي طوال السنة الأولى لحكمه. بينما اتخذت "عنخ - إن - إس - أمون" مقر إقامتها، كنانة للفرعون في "منف".

تشكك "سوبيوليوماس"، بكل جلاء، في العرض الذي طرحته الملكة المصرية. وأفصح شفويّاً عن مخافة الخديعة إلى سفيره قبل إيفاده إلى مصر. وعندما عاد السفير إلى وطنه في ربيع السنة التالية، بعد أن نقل، بأمانة، إلى "عنخ - إس - إن - أمون" هواجس سيده، كان بصحبته سفير مصري مطلق التفويض يسمّى "حانيا"، وفي جيبه رسالة شكية :

لماذا عن لك أن تقول : قد يخدعونني على ذلك النحو ؟ هل لو كان لسي ابن، كنت كتبت عما يشينني ويشين بلادي إلى بلد أجنبي ؟ أنت لا تصدقني ... ذلك الذي كان زوجاً لي وإفاه الأجل. وليس لي ابن، ولن أرفع خادماً من خدمي كي أتخذه لي زوجاً. ولم أكتب إلى أي بلد آخر ... فامنحني ولداً من أولادك، فليسوف يكون لي زوجاً، وفي مصر سيكون ملكاً "

ولم يكن في طوع "سوبيوليوماس" أن يدع فرصة امتهان المبعوث المصري تفلت من يده. فأخرج نسخة من المعاهدة التي أبرمها مع مصر، ولا بد أنه كان يتشفي وهو يشير لـ "حانيا" كيف أن المصريين وليس هو، الذين نقضوا بنودها :
"من جانبي كنت صديقاً، ولكنكم أسأتم إلي على حين غرة. فلقد جنتم

وهاجمتم رجلي" أي الملك أو الحاكم) في "قادش" التي انتزعتها من ملك الحوريين (أي "توشراتا"، ملك "ميتاني") إلا أن "سوبيلوليوماس" وبعد أن أطلق هذه الطلقة الفارسية (طلقة الانسحاب. م) نزل عند رغبة "عنخ - إس - إن - أمون"، وأرسل أحد أبنائه ويدعى "زيدانزا" إلى مصر. (٨)

تركز الأحداث التي تتسم بالاضطراب خلال السنوات اللاحقة على شخصية الجنرال "حور - إم - حب" (أي حور أو صقر الحبناوي م) الذي يعد من أشد الذين ساسوا الحكم ببراعة فائقة في المملكة الحديثة إلغازاً. كما يعتبر الرجل الذي وقعت على كاهله مسؤولية إنهاء، مرة ولأبد، تلك المحاولات إلي بذلها عضو الأسرة الثانية عشرة الذي بقي على قيد الحياة نحو إنقاذ الموقف. ولكن لم يصلنا أي نص كي نخبرنا بشيء عن السنوات الأولى من حياة "حور - إم - حب" هذا، ولا حتى عن مسقط رأسه إلا أن اسمه الذي يدخل في بنائه اسم "حوريس"، ذلك الإله الصقور دفع البعض إلى الالتفات إلى المديرية السادسة عشرة حيث كان "حوريس حبنو" إلهاً محلياً. غير أن ذلك لا يعدو كونه تخميناً. وهناك شك عميق فيما إذا كان "حور - إم - حب" قد زار "أخيتاتون"، ولو مرة واحدة في حياته. ولو أن هناك من يقول بأن اسمه في "أخيتاتون" كان "با-أتون - إم - حب" (ومن هنا أصبح "حور - إم - حب" بعد نبذ عبادة قرص - الشمس" في وقت لاحق". جرى انقضاء حامل هذا الاسم من مقبرة "أخيتاتون" رقم ٢٤ بصفته "حور - إم - حب" الشاب. ومع ذلك يكشف هذا اللقب "با-أتون - إم - حب" أنه لنبيلاً آخر، مختلف تمام الاختلاف. (٩)

تأتي أقدم معلومات، لا لبس فيها، عن "حور - إم - حب" من المقبرة الرائعة التي شيدها في الجبانة المنفية (نسبة إلى "منف") في سقارة غير أن تحطيمها خلال القرن الماضي كي يوفر الحطام كسراً من الجداريات الفاتنة يحتفظ بها جامعو التحف، أدى إلى تآثر أكثر القطع المزخرفة التي ترجع إلى هذه المقبرة الرائعة في رقعة تمتد من نيويورك بالولايات المتحدة إلى برلين في ألمانيا. ولقد نجحت عمليات التنقيب التي قامت بها "جمعية استكشاف مصر"، تحت إدارة د. جوفري مارتن، خلال السنوات القليلة الماضية، في إعادة تعيين أماكن ما تبقى من تلك الكسر في الموقع الأصلي، كما زودتنا بمناظر جدارية إضافية. (١٠) وإستناداً إلى

أسلوب الزخرفة، نقول أن تاريخ المقبرة إنما يرجع إلى أواخر حكم "توت - عنخ - آمون". ولقد استمرت عملية الزخرفة فيها خلال حكم "آي"، عندما جاء أحد رجال البلاط كي يدفن (وكان في الأربعينات من عمره) قرب المقر "المنفي". كون إطلاق لقب "ولي العهد" بالفعل على "حور - إم - حب" في هذه المقبرة : "إيوي - باعت" يؤيد بقوة، أن تكون الزخرفة قد جرت في العصر الذهبي لـ "آي" رغم أن بعض الأحداث التي تصورها المناظر قد تعود إلى وقت أسبق).

تلوح أمام أعيننا، خلال الأدلة المستقاة من هذه المقبرة، الصورة التالية لحياة "حور - إم - حب": في أواسط حكم الفرعون : "توت - عنخ - آمون" على وجه التقريب قفز "حور - إم - حب" إلى مركز الصدارة بتوليته مركزاً مرموقاً في شمال مصر. وتشبي ألقابه بحصوله على تدريب عسكري، فهو "القائم مقام الملكي" (وأحياناً "قائم مقام البلاد بأسرها")، كما كان يتولى مسؤولية البلدان الأجنبية. ويبدو على وجه الترجيح أن "حور - إم - حب" هو القائد الذي اختاره "توت - عنخ - آمون" ليسيّر على رأس حملة تآديبية إلى النوبة، كي تتزامن مع تعيين مندوب سام (نائب للملك) جديد لمصر في الأراضي الجنوبية يدعى "حوي". وتكشف مقبرة هذا المندوب السامي، في أسلوب فني أعمق تقليدية عن منظر تقلده المنصب وقافلة السفن السعيدة التي تصعد بالمندوب السامي الجديد جنوباً إلى مقر إدارته. ولكن حيوية و"طبيعية" الأسلوب الفني لعصر "أخيتاتون" المتأخر الذي زُخرت خلاله مقبرة الفرعون "حور - إم - حب"، هما اللتان تتقلان إلينا، بصورة أدق، روح المناسبة. ويصف النص الذي تحمله إحدى الكتل المنهوبة من مقبرة "منف" تلك، "حور - إم - حب" باعتباره موفداً كرسول ملكي إلى أطراف الأراضي التي يديرها قرص الشمس". وعندما عاد من هناك أقيم احتفال كبير لاستقباله ... فما من بلد يستطيع الوقوف في وجهه، فلقد فتحها (أي البلاد) فيما لا يزيد عن لحظة واحدة. وبعد ذلك أبحر نحو الشمال. وعندما تجلّى جلالاته (شخصياً) على عرشه كي يستقبل الجزية، وبينما أحضر

الخدم جزية الجنوب وجزية الشمال، كان ولي العهد "حور - إم - حب" واقفاً بجوار العرش، شاكرًا الإله، فجلاسته ... (١١) وتعلي الجداريات من شأن هذه المغامرة النوبية، التي لا تزيد في سائر الأحوال عن حملة تأديبية صغيرة أو حتى غارة بوليسية. كما تظهر الجداريات الأسرى جالسين بخنوع في صفوف، ويسحبون إلى الأمام أو يضربون. ويبدو أن الإحباط الناجم عن سنوات الهزيمة قد أفصح عن نفسه خلال صيغة الانغماس في القسوة التي وجدت نحاتاً مجهولاً، على درجة من التأهب والصدق توازي ما تصادفه جرائم الحرب الحديثة عند المحرر - المصور.

يظهر "حور - إم - حب" بعد ذلك كـ "المشرف الأول على الجيش"، وهذه رتبة توازي عندنا رتبة "الفيلدمارشال" أو "الجنرال الذي يضع على كتفه خمس نجوم". وتصوره الجداريات في احتفال باهر، تعيد إلى الأذهان أيام "أخيتاتون" التي اتسمت بالبذخ والإسراف، فالقلادات الذهبية تزين صدره، أثناء تقديمه لأسراه إلى جلالته. ويتساءل المرء عما إذا كان هو الذي قاد، بالتنسيق مع "أمين - موني"، وهو "فيلد مارشال" آخر في ذلك العصر، الهجوم الفاشل على "قادش". فمقبرتا الرجلين، كلاتهما، في منطقة "منف" تصور أن أسرى أسويين نُقلوا إلى مصر، إلا أن جداريات "حور - إم - حب" تتميز بتصوير مجموعة من الأمراء السوريين المستسلمين، وإن علت ملامحهم سيمااء الحق.

لم يكن لـ "آي" ولد من صلبه (على قيد الحياة؟). وكان من المتوقع على وجه التقريب أن يقع اختياره في هذا الشأن على "حور - إم - حب"، فكل منهما ينتمي إلى نفس المؤسسة العسكرية. ولم يكن "حور - إم - حب" ملوثاً بالمروق الذي عرفته "أخيتاتون". كما كان نشطاً واسع الخيال وملتمزاً، بالإضافة إلى أن قلبه كان مفعماً، على نحو ما هو واضح، بالمصلحة العمومية للبلاد. ويشير تعيين "حور - إم - حب"، كولي للعهد - وسواء حدث ذلك في ذلك الوقت أو بعد فضيحة زيدانزا - إلى تغير دخل على الشؤون الداخلية لمصر: كان الجيش قد استولى على العرش. وما كان لسليل ينتمي لعائلة التحامسة العظيمة، أي الأسرة الثامنة عشرة أن يجلس مرة أخرى على عرش مصر. فلقد صمم الجيش وقت ذاك،

على أثر الإحباط الناجم عن فشل أبناء تلك العائلة في إدارة الشؤون الداخلية والخارجية، على إحكام سيطرته على المؤسسة السياسية. وحتى الكهنة أصبحوا يُختارون، في بعض الأحيان، من بين العسكريين !

كان هذا هو محور السلطة الذي قابل زمرة الحِيثيين التي لا تُكِن إرتياباً، عند إقترابها من الحدود المصرية، وهي تصاحب "زيدانزا" إلى زفافه المرتقب : فرعون عجوز، كان قد وصل إلى علمه وقت ذاك، بكل تأكيد، ما كان يجري على قدم وساق، ورجل عسكري قوي كامن في الظل. وكان ما حدث بعد ذلك عملاً من أعمال السيادة أذن به أعلى أمين على السلطة الشرعية في البلاد، أي فرعون مصر ذاته. ولكننا لا نعرف بأي حال من الأحوال ما إذا كان لـ "حور- إم - حب" ضلع مباشر حقاً في الأمر: اغتيل "زيدانزا" في اللحظة التي وطأت فيها قدماء أرض مصر. أما "عنخ - إس - إن - أمون" فاختلفت. *

نستطيع بسهولة أن نخمن ما نجم عن ذلك من ردود فعل : استشاط ملك الحِيثيين "سويلوليوماس" غضباً عندما وصلتته أنباء اغتيال "زيدانزا". وأخذ يعد العدة من فوره لعمل عسكري. وهاجمت القوات الحِيثية مرة أخرى الحدود على حين غرة عند سهول لبنان، وعاثت تخريباً في مدن "إمكي". ولا توفر لنا مصادرنا سوى صورة مضطربة ومليئة بالثغرات للقتال. ولكن الحِيثيين اشتبكوا، فيما يبدو واضحاً مع الجيش المصري، وأخذ الجانبان أسرى، كل من الآخر. إلا أن الأعمال الحربية أخذت تخبو بصفة تدريجية. وانفض الجانبان دون أن يتوصلاً إلى نتيجة حاسمة. وكف الحِيثيون عن مزيد من التورط جنوباً إلى أبعد من أعالي نهر العاصي، ليس بسبب بعد المسافة بالدرجة الأولى، ولكن نتيجة للوجود المصري في هذه الأصقاع من جانب والمشاكل السياسية الملحة قرب حدودهم من جانب آخر. فبالنسبة للحِيثيين كانت قبائل "الكاسكا" شمالي عاصمتهم، ومملكة "أروانزا" إلى الغرب، وبلاد "الحوريين" إلى الشرق تحتاج منهم إلى يقظة أشد، فضلاً عن كونها أكثر نفعا لهم من سوريا في الجنوب. أضف إلى كل

هذه العوامل الجغرافية والسياسية، "سوبيلوليوماس" نفسه الذي كان قد طعن في السن. وليس هناك كثير من العجب لإحجام الحيتيين عن محاولة فرض حلٍ معين. وحصلت مصر على فسحة قصيرة من أعمال الحرب وعلى استراحة من التشوش والارتباك. وصار في وسع "أي" أن يقول أنه ارتفع إلى مستوى الجدارة باسمه الحوري: "قاهر الأسويين". وصار في طوع قُواده أن يعرضوا، بفخر مناظر لمعاركهم في مقابرهم دون أن يخشوا الوقوع في تناقض.

الفصل الرابع عشر

خاتمة

في نهاية المطاف رحل الفرعون "أي" العجوز بعد عدة شهور وحسب موت على بدء سنته الرابعة في عرش مصر. وكان قد نحت لنفسه مقبرة في الصخر الحي قرب مقبرة الفرعون "أمين - حوتب" الثالث، في وادٍ جانبي مجاور لوادي الملوك في "طيبة". وهذا هو الوادي الذي احتله، على وجه الحُدس، في موته، بالقرب للغاية من الرجل الذي قد يكون صهره (زوج أخته الملكة "تي"). ولعله من الغريب حقاً أن المقبرة كانت مزخرفة، ضمن زخارف أخرى، بمنظر لملك يصيد الطيور البرية في البرك، وهو "موتيف" مماثل في روحه للذخائر الفنية "الدنيوية" والأخرى العلمانية في فترة الازدهار التي عرفت بها "أخيتاتون". ولكن هذه كانت بمثابة الفهقة الأخيرة للروح المعادية للعبادات المتعددة التي تبناها محطم تماثيل الآلهة : وكان الوريث الجديد للعرش خالي الذهن سواء عن "أخيتاتون" أو حركته.

المصلح

"حورس. الثور الجبار : المتأهب بتدابيره. صفى السيدتين عظيم الروائع في الكرنك. ملك مصر العليا ومصر السفلى"، "زوسر - خبرو - رع"، قاضي الحق، من اختاره "رع" وابن "رع"، "حور - إم - حب". هذا هو وريث المملكة، وهذه هي الألقاب التي أذاع بها أوراق اعتماده، وخططه وطموحاته.

ولم يكن هناك منازع : لم يكن المطالبون بالعرش الذين بقوا على قيد الحياة من سلالة التحامسة، ليأمل أي منهم في الفوز. وكانت الحروب قد وضعت، في ذلك الوقت، أوزارها : انشغل الحيثيون بجبهات أخرى. وفي سائر الأحوال وقعت بلادهم فريسة لجائحة الطاعون. وأصبح في وسع الفرعون "حور - إم - حب" ورفاقه من العسكريين الذين يشاطرونه أفكاره أن يمضوا قدماً في مهمتهم نحو

إعادة الأمن والنظام إلى الدولة.

يعد الفرعون "حور - إم - حب" الشخصية الأولى، بلا منازع، على مسوح الأحداث التي شهدتها هذه الفترة. لكنه عانى من إعلام سيئ لاحقه بالتشويه. فلقد أثقلت استوديوهات "هوليوود" والكتابات الرخيصة كاهله، دون وجه حق، سواء بصورة الفاجومي الجاهل أو "الميكيا فيلي". وكلتا صورتين لا تحملان أي شبهة مهما ضؤل، مع الرجل. ولا يليق بالقارئ الواعي الذكي إلا أن يعبر ذلك النهر الدافق من الهراء الظالم الذي انبجس من قلم الروائي المعاصر - لا ينبغي لفقر أسلوبه أن يجعل الأمر صعباً في سائر الأحوال - ويركز بشكل كامل على الأدلة التي وصلت إلى أيدينا سواء على هيئة نصوص أو آثار. وإذا ما قام القارئ بذلك، فإن صورة أخرى، غاية في الاختلاف سوف تظهر لـ "حور - إم - حب". فلن يسقط انحذاره واشترائه في بلاط "أخيتاتون" من مملكة الترجيح وحسب، ولكن أيضاً دوره المزعوم كـ "الرجل القابع خلف الكواليس" خلال حكم الفرعون "أي" سوف يغدو بصورة متزايدة غير محتمل الحدوث.

قبل صعوده إلى العرش لم يكن "حور - إم - حب" سوى قائد وديع يعمل من أجل سيده، وبعد ذلك أصبح نشطاً وواقعياً وقيماً أعاد البلاد إلى رشدها. ولو أن ذلك لا يستبعد امتلاكه لخيال خصب وحس مرفه تجاه المواقف المتوترة. ومع مطلع حكمه، وإتساقاً مع روح الابتهاج التي استشرها الجميع محلقة في الهواء، أعد "حور - إم - حب" العدة لموكب نصر إلى "طيبة" في إطار واحد من أكبر الأعياد. وقاد الإله "حورس" الإله الراعي أسطول السفن المشاركة في الموكب أثناء تصعيدها ضد التيار إلى المدينة الجنوبية. كما قدم "التمهيد" إلزام لعودة الإله "أمون". وسار كل شيء مثلما كان مخططاً له من قبل : استقبل "أمون - رع" الفرعون "حور - إم - حب" بفرحة عارمة، وقاد خطاه إلى داخل "القصر". وعندئذ وكان نذ ألبسه "أمون"، وفي صحبته "سبعة آلهة عظمى" التاج وسائر شارات الملك وشعاراته. وأمام القصر، وفي ضوء الشمس الساطع، وتحست سمع وبصر مواطني "طيبة" المبهورين، احتضن "أمون"، "حور - إم - حب" بصفتيه ابنه، وأعلنه بصفة رسمية فرعوناً. وليس هناك خطوة أخرى أبلغ، تستطيع أن

تشير إلى نهاية عصر "أخيتاتون"، وبدء حكم موفق يؤدي واجباته على النحو الأكمل. (١)

وجه الفرعون "حور - إم - حب" جهوده الرئيسية نحو استئصال فساد البيروقراطيين والأحرى الموظفين العموميين، والقضاء على الفوضى التي انتضح، مع الأسف، أنها ليست سوى إرث مباشر لفترة المروق (عن الدين القومي، م). وعلى إثر نتيجته، قام جلالته بجولة تفتيشية كبرى. وعلى غرار سائر الفراعنة الأتقياء انصرف ذهن "حور - إم - حب" في بادئ الأمر إلى الآلهة :

"صاغ كافة تماثيلهم بأعداد تفوق ما كان قائماً فيما مضى، وعزز آيات الجمال فيما صاغ. فابتهج "رع" عندما وقعت عيناه عليها... وشكل مائة تمثال. وكانت أجسامهم" كلها صحيحة ومصنعة بكل حجر كريم نفيس ورائع" (٢)

شهدت نهاية عصر "أخيتاتون" انزلاقاً في مرحلة من نهب المقابر من جلبب أهالي "طلبية". فعانى "تحوت - موسي" الرابع على سبيل المثال، من انتهاك حرمة مقبرته وموميائه. وهذا ما أعاده الفرعون "حور - إم - حب" إلى نصابه. كما أعاد تنظيم عمال الجبانات في أطقم خاصة. (٣)

جاءت أهم وثيقة عن حكم الفرعون "حور - إم - حب"، وأعني بها "مرسوم الإصلاح". حول صراع جلالته ضد الفساد سواء في الجيش أو القطاعات المدنية على حد سواء. وقد وصلنا هذا المرسوم، الذي صدر على وجه الترجيح في مطلع حكم الفرعون، عبر نسخة فريدة وجدناها منشورة عبر أحد الصواديدي شمالي الصرح العاشر للكرنك. (٤) ورغم أن ثلث النص مفقود الآن، إلا أن ما تبقى أكثر من كافٍ كي يتيح لنا إعادة تركيبه بصفة جوهرية. ويبدو أن جلالته توخى غاييتين : أن يقضي على الخروج على القانون أو اللامشرعية على صعيد موظفي الدولة عن طريق فرض عقوبات صارمة، وأن يصلح القضاء. وقد صدرت العقوبات خلال سلسلة من السطور (التي نستطيع أن نرتبها في فقرات) تصف كل فقرة منها جريمة محددة والنتائج التي تسفر عنها، والإدانة الرسمية لها، ونوع العقوبة الخاصة التي يستحقها مرتكبها. وهذه الجرائم تنقسم بشكل عام، إلى ثلاثة أقسام :

أ- الابتزاز الذي يقدم عليه جباة الضرائب.

ب- التستر الذي يلجأ إليه المفتشون الملكيون.

ت- الأعمال غير المشروعة التي يركبها العسكريون.

ويشمل القسم الأخير ابتزاز السلع من الفلاحين وتسخيرهم في أداء خدمات معينة، والنهب السافر وسرقة المواشي. وكانت العقوبات تنطوي بصفة دائمة على رد الممتلكات المسلوقة إلى أصحابها الشرعيين. ولكنها كانت تستتبع، في حالات كثيرة، إلى جانب ذلك، بتر الأطراف. فجابي الضرائب الغشاش لا يستطيع، شأنه شأن جاويش الجيش الفاسق، إلا أن يتوقع جدع أنفه، بالإضافة إلى النفي إلى شبه جزيرة سيناء. (ولعله من اللافت للنظر أن هذه المنطقة الحدودية ظلت حتى عصر البطالمة أي بعد هذا التاريخ بألف سنة، بمثابة المنفى الذي يستقبل المجرمين المجدوعي الأنف) (٥) ولكي يعالج المشكلة عند الجذور، أصدر الفرعون عن فطنة واسعة أمراً بإعفاء الفلاحين من الضرائب، وإسقاط الضرائب المتأخرة عن العمد والمجالس القروية، وأعاد إلى الحياة تقاليد دعوة موظفي الخزانة بصفة شهرية إلى مأدبة رسمية على نفقة جلالته.

إلا أن الفرعون "حور- إم - حب" كان أكثر إفتخاراً، على ما يبدو، بـ "تطهير" بيت وزارة العدل من الداخل. إذ نستشعر تياراً دفيناً يتخلل سطور هذا النص من الاشتمزاز تجاه إنتهازي عصر "أخيتاتون" الذين افتقدوا الأصل الطيب بنفس الدرجة التي افتقدوا بها إلى الذمة الطاهرة. ولننصت إلى جلالته يقول :

لقد جبت دروب البلاد، سواء حدودها أو أعماقها، بحثاً عن أصلح الرجال. لقد فتشت عن الأمراء، الغصحي اللسان، الطيب الطباع، الذين يعرفون كيف يحكمون على الطبيعة الإنسانية، ويمثلون لتعليمات القصر، وشرعة الباب العالي. ولقد رفعتهم إلى مراتب الذين يقضون بين أهالي الوجهين القبلي والبحري، بما يرضي ذلك الجالس في قصره، وعينهم في المدن الكبرى في مصر العليا ومصر السفلى، نثراً لأن كلاً منهم بيدي حرصه على الإنصات... ووضعت القواعد تحت أنظارهم والقوانين في دفاترهم. ولقد وجهتهم إلى طريق الحياة وقدت خطاهم إلى الحق، وفطنتهم على النحو التالي : لا ترفعوا الكلفة بينكم وبين الأهالي، ولا تقبلوا رشوة من أحد، فليس هناك مسوغ للرشاوي. وسوف تتشكل كل محكمة من أنبياء

المعابد وعمد مدن مصر وقراها، بالإضافة إلى الكهّان العاديين كي يقضوا بين المواطنين في سائر الأرجاء"

لم يمزق القناع عن الوجه الحقيقي لعصر "أخيناتون" شيء قدير "مرسوم الإصلاح" (والأحرى شريعة "حور - إم - حب". م). فالصورة التي يرسمها المرسوم لا تشبه تلك التي تقدّمها المناظر الجميلة في الجداريات سواء في الكرنك أو في "أخيناتون". فلقد اختفت السيدات الأنيقات والرجال المتأنقون الذين يركعون أمام ملك طيب القلب يقف تحت قرص - الشمس" أبيه، وعوضاً عن ذلك ظهر، بصفة مطلقة، جيش مفوّض بإخماد الشغب، وفلاحون معدمون، وقضاة فاسدون. وقد نصادف من يؤكد أن تلك الأوضاع لم تعم البلاد إلّا قرب نهاية عصر المورق (عن الدين القومي. م)، ولكن الأدلة المتوفرة تتعارض مع مثل هذا الدفاع. فانسحاب رأس الدولة مع بلاطه إلى حاضرة جديدة، وما نجم عن ذلك من عزلة، وهو الأمر الذي جر الفوضى على البلاد، ينبغي إلقاء المسؤولية عنه على "أخناتون" نفسه (٦)

العودة للطريق القويم

شرعت النصوص ذات الفحوى الديني، منذ ما قبل وفاة الفرعون "توت - عنخ - آمون"، وبصورة متزايدة تحت كل من "آي" و"حور - إم - حب" في تبني خط أكثر تشدداً تجاه الوحدانية التي عرفها الجيل السابق. ونستطيع أن نرصد بجلاء، وجود نبرة تعليمية تصل إلى الوعظ، فالجهود كانت جارية على قدم وساق لمقاومة التعاليم الخاطئة للمارق. وكان المنشد يترنم على هذا النحو: تُضيء عينا "رع" الأرضين، وليس قرص - الشمس" هو الذي يظهر لأولئك الذين يسكنون السماء، ولكنها الرأس التي بلغت عنان السماء"

وهذه عبارات تصوّر المفهوم الأسطوري لنوع ما من "الرجل الكوني" (٧) إلّا أن قرص - الشمس" لم يُستأصل تماماً، من ترائيم العبادات. وما كان ذلك ممكناً بعد أن حاز كل تلك السطوة. لكن شأنه نزل مرة أخرى إلى مستوى أحد

تجلّيات رب الأرباب :

"أمون" الذي خلق السماء وأضاءها بالنجوم، وهو الذي سوى عرشه هناك كـ قرص - الشمس" ... ومن يمتدح روحك (أي روح "أمون") ينير ضوء الشمس أعضائه، وتراك عيناه، ويمتلئ جسده بالصدق لأنني أعرف أنك تعيش عليه وبه تنقّات" (٨)

فهنا، وفي لغة تذكرنا بمفاهيم "أخناتون"، نجد تأكيداً قوياً على "أمون"، وقد تجلّى كـ قرص - الشمس"، وليس قرص - الشمس" وحده، هو الذي يشرق بالنور والصدق والفضل على دنيا تتوجه إليه بعباداتها. وعود على بدء يعود التأكيد على العقيدة التي تقول بأن قرص - الشمس" ليس سوى "الجسم" أو "التجلي المنظور" لرب متعال، سواء أكان "أمون" أو "رع" أو "أوزيريس". وليس هناك شيء بالمرّة في قرص - الشمس"، دون سواه، ما يسوّغ قصر شعائر العبادة عليه. فـ "ملك الآلهة أي أمون"، إله صدق، وهو يعرف من يعرفه، ويؤتي فضله لمن يشكره، يرعى من يرعاه، ويحمي من يتبعه، وهو "رع" وجسمه قرص - الشمس" ... (٩)

وجدير بالذكر، كذلك، هذا التحذير المقنّع: "أمون" يرعى من يرعاه ! وأصبح تخفيض رتبة قرص - الشمس" إلى أحد الأشكال العديدة لتجلّيات جوهر إله عظيم، أمراً يجري تأكيده في كل مكان. وصارت صيغة تقرب القرابين تشير، بصورة صريحة، إلى قرابين وشعائر "صبيان" تقصد وجه "رع - حور - أختي"، ووجه جسده قرص - الشمس". (١٠) ولم يعد "أوزيريس" ذلك الإله الذي دفعه "أخناتون" إلى حدود الانقراض، وحسب، إلى الحظيرة، بل وارتبط الآن بـ "رع":

أنت أي أوزيريس" الذي أشرق مثل "رع" في الأفق، فـ قرص - شمس" هـ، هو قرص - شمس" كـ وصورته صورتك ... (١١)

وتثبت كل هذه الفقرات أن قرص - الشمس" ليس إلهاً فريداً لا نظير له، لم يعد يتجاوز كونه رمزاً أسطورياً. وليس من باب الصدفة أن تشهد غداة عصر "أخناتون" الظهور الفجائي لفيض من "كتب" الأساطير، التي أخذت تنقش، في

غالب الأحيان، في المقابر الملكية، وهي الكتب التي تعيد تأسيس حقيقة، بروح ثارية، هي حقيقة تعديدية القوى المقدسة في الكون والعالم السفلي" (١٢)

قد يكون في طوعنا نحن المحدثين أن نقف على المعنى الحقيقي لما كان دائراً في ذلك الإشكال اللاهوتي، إذا كان لنا أن نتصور كاهناً مسيحياً متعصباً ينكر كلاً من المسيح والثالوث والقديسين لصالح الصليب الذي وقف في المسيحية التقليدية أو المعيارية كرمز للخلاص. وكان هذا الصليب، الذي أسبغ المسيح خلاله، مئة الخلاص على العالم ليرفع، على يدي هذا الكاهن، خلال التمجيد والتأليه، الآن إلى منزلة الإله الواحد الأحد، والآب السماوي! وإذا تمكّن المرء من اقتناص النبرة والإيماءات التي ينطوي عليها مثل هذا الضلال الجنوني لديانة "أتون"، فإنه قد يستطيع أن يقيم الأسباب التي دعت أولئك اللاهوتيين الذين عرفتهم فترة ما بعد "أخيتاتون" إلى بذل أقصى جهودهم في سبيل استئصال ذلك الخطل خلال العودة للتعالم "الصحيحة".

كان الفرعون "حور - إم - حب" هو الذي أغلق في نهاية المطاف معابد قرص - الشمس". وعلى نحو ما أشرنا في وقت سابق، استمرت هذه المعابد في عملها، جنباً إلى جنب مع مزارات الآلهة التي عادت للعمل. وكانت السنوات الإثنتي عشرة التي قضاها "أخنتاتون" في "أخيتاتون" قد شهدت وقف كافة عمليات التشييد والزخرفة في معابد الشمس في "طبية" و"منف" و"أون" وفي كل مكان آخر. ولكن عمليات الزخرفة تحت حكم كل من "سمنخ - كا - رع" و"توت - عنخ - أمون" استؤنفت في كل مكان على وجه الترحيح، وبالأسلوب الجميل الذي أثر عن العصر المتأخر لـ "أخيتاتون". إلا أن هذه المحاولة، التي جاءت في آخر لحظة، لتفكيك المركزية، باءت بالفشل. ولقد عانت الإدارة الجديدة من الآثار الناجمة عن تلك الوجدانية المركزية، لكنها لم تأبه لها. فلقد ذاقَت مصر كأس تحطيم تماثيل آلهتها، وأدركت أنها بالغة الماراة. ولما كانت عبادة قرص - الشمس قد تأسست باعتبارها بديلاً لتعددية العبادات الأقدم، فلقد كان من المستحيل منطقياً أن تعود للتعالم معها. ولم يكن الفرعون "حور - إم - حب" يستهدف، بتدميره معابد الشمس، مجرد إزالة مباني لاستبدالها بمباني أخرى، أو استخدام أحجارها عوضاً

عن الأحجار الجديدة التي كان يمكن جلبها من المحاجر رأساً، كما يريد البعض أن يفتننا، بل كان في حقيقة الأمر يتخلص من الرموز الوحيدة التي ظلت على قيد البقاء للفشل المطلق الذي حاق بالبيت الملكي الذي حل هو محله.

لم تبق طوبة واحدة على أخرى في "أخيتاتون". فمُهدمت الجدران حتى أساساتها، ونُهبت قوالب الطوب الأخضر، وحُطمت الصوادر ومجاميع التماثيل إلى درجة تُشيع اليأس في إمكانية تخيل الصورة التي كانت عليها، وبالتالي وفُرت الأطلال محجراً لانتزاع الأحجار لما يزيد على قرن من الزمان. ولقد عبرت معظم الكتل المعروفة نهر النيل إلى الأشمونين التي عرفها اليونانيون باسم "هرمبوليس"، حيث إستفاد منها الرعامسة على نطاق واسع، ولكن بعضها انتهى به الترحال في "أبيدوس" على بعد ما يصل إلى مائة ميل جنوباً. وليس في وسعنا إلا أن نخيل المصير الذي انتهت إليه معابد الشمس سواء في "منف" أو في "أون". غير أن معبد الشمس في "منف" بدم دون شك. ونجد كتل "الثلاثات" مبعثرة حتى اليوم في القاهرة والدلتا.

عودة إلى "طيبة"

عاد الفرعون وبلاطه إلى شرق الكرنك في وقت ما خلال العقد الأول من حكم "حور - إم - حب". ولكن ليس بقصد العبادة أو الاحتفال بيبويل ما. فلقد كانت المباني الجديدة تنهض واقفة على مشارف مجمع "أمون"، وهي المباني التي طُمست من فورها معابد الشمس للأبد، بل ومالت على كتلها الحجرية كي تستخدمها كحشو حجري في نواة هذا المبنى أو ذاك أو أساساته.

كانت المزارات أو المعابد الأربعة الكبرى لا تزال قائمة كما هي، وإن طالها بعض التخريب. فلقد وجد المكلفون بهدمها، عند اقترابهم من معابد الكرنك، على غرار ما وجدوا في "أخيتاتون"، وكانت قد هُجرت وقت ذاك، أن المخربين كانوا قد كشطوا بعض الجداريات بشواكيشهم من على هذا الجدار أو ذاك.

فكانت وجوه الملكة قد دُفَّت وأزيلت في غالب الأحيان، وتعرضت ملامح

الملك أيضاً لنفس المصير، وإن كان على نطاق ضيق. (اللوحات أرقام ٤-٥، ٧-١٧، ١٤-١) كما مُحيت الخراطيش في غالب الأحيان بما فيها خراطيش "القرص" ذاته. وكشطت أذرع الشمس بين الحين والآخر. ومن الغريب أن رسوم الخدم أو الكهنة كانت تتعرض من وقت لآخر للكشط، كما لو كانت الشخصية المرسومة معروفة للجميع، رغم عدم وجود تعريف بتلك الرسوم. ومع ذلك، فما من كشطة واحدة قد جرت من بدايتها حتى نهايتها بشكل متسق. فكانت النزعة التخريبية مقصورة بصفة أساسية على تلك الأجزاء من الحائط، التي تستطيع الأيدي أن تصل إليها من مستوى الواقف على الأرض دون مساعدة سلاسل نقالي. والأدلة لا (؟) تشير بشكل قاطع، بالتالي، إلى أن انتهاك حرمان المعابد، أشرفت عليه هيئة حكومية ووضعت موضع التنفيذ.

لم يكن تفكيك تلك المعابد عشوائياً. فعلى غرار ما قام به أي طاقم تفكيك آخر، انتهج الطاقم المكلف بهذا العمل نفس النهج وفقاً للخطة المرسومة بشكل مسبق. فبادئ ذي بدء هُدمت أي مبانٍ مشيدة بالطوب الأخضر داخل نطاق معبد "القرص- الشمس اهتدينا إليه" أو "جم - ت - ب - أتون"، وسوي الرديم بالأرض. ثم هُشمت أرجل التماثيل العملاقة المنصوبة حول الفناء الخارجي. وتُركت الأجزاء العليا من هذه التماثيل تسقط على وجوها في ساحة الفناء. ويأتي بعد ذلك نزع الكتل التي تشكل السقوف وإلقاؤها في الفناء والأحرى الحوش. وعندئذ يبدأ هدم الأعمدة واحداً بعد الآخر. وبعد الانتهاء من هذه العملية يشرع طاقم الهدم في تفكيك مداميك "الثلاثيات" في الحوائط، بما تحمله من جداريات لم تكد تجف ألوانها، على الفور قسماً إثر قسم. ولما كانت المونة قد أُستُخدمت لملء الفراغات بين الحين والآخر، فلقد لجأ طاقم الهدم إلى قوة الطرُق أحياناً لفك الكتل، الواحدة من الأخرى. ثم تُجر هذه الكتل بعيداً عن الحائط إلى الشريط الذي يبلغ عرضه خمسة أمتار من الأرض المدكوكة الواقعة بين الحائط الحجري وسور الفناء الخارجي المبني من الطوب الأخضر. وكان كلما أُلقي المزيد من كتل "الثلاثيات" إلى الأرض، كلما شرعت في الظهور طبقة من الشطف المهشمة والجريش المأخوذ من الحجر الرملي. وكان السور الشمالي أول ما هُدم. ويتعين علينا أن نتخيل، والحالة هذه،

صفاً من العمال، كل منهم يحمل كتلة من كتل "الثلاثات"، يتحرك بها بين شرق الكرنك وبين موقع تشييد الصرح الثاني وصالة الأعمدة المسقوفة. ومع امتداد الهدم إلى الضلع الجنوبي، كان العمل في تشييد الصرح التاسع جارياً على قدم وساق. وفي هذا المكان كان للمنظر الاحتفالي الرائع الذي وصل إلى أيدينا في نهاية المطاف، من المربع رقم A أن يهجع لإثنين وثلاثين قرناً.

كل ما ترك على سطح الأرض لم يعد ينطوي على أي قيمة من أي نوع. فالصوايد وموائد تقريب القرابين والتماثيل الأصغر حجماً التي بقيت كانت مهشمة إلى درجة يتعذر معها التعرف على أصلها. كما كانت الأواني الفخار الملونة بالألوان الزرقاء، التي شكلت جزءاً من أدوات المطبخ في مؤسسة المعبد خلال أيام الصفاء والسرور، قد هُشمت وكُنست على هيئة كومة من الرديم على الضلع الغربي. على أن بعض الكتل الضخمة القليلة العدد تركت ببساطة حيثما كانت، نظراً لما يشكله نقلها من صعوبة بالغة.

وفي نهاية المطاف جاء الحريق الكبير. فلقد تملكنا الحيرة خلال عمليات التقيب التي قمنا بها في مناطق المربعات التي عنوانها بالحروف E, A, B، قرب الضلعين الجنوبي والغربي للفناء منذ البداية إزاء وجود طبقات منحدرّة من ألوان تتفاوت ما بين البرتقالي والأسود والرمادي، هابطة باتجاه سور الفناء الخارجي إلى الجنوب، زيادة على خندق الأساس، الذي تعرّض للنهب، والخاص بحائط "الثلاثات"، بالإضافة إلى التماثيل العملاقة المتساقطة، التي تناثرت أجزاءها في نهاية المطاف على أرضية الفناء. وجاءت التفسير بعدد الأشخاص الذي وقعت أعينهم على خيوط الألوان. لكن الحل جاء في نهاية المطاف بمساعدة زملائنا في قسم الكيمياء بجامعة "تورونتو" بكندا. إذ أثبتت الاختبارات (مثل تنشيط النيوترون والتأليق الحراري وغيرها) التي أجروها على الطبقات البرتقالية اللون أنها تتكون من الهباب المتخلف عن حرق الطوب الأخضر، المتحلل الذي تعرّض للحرق مرة أخرى. أما الخيوط الرفيعة السوداء اللون، التي تتبادل مع الخيوط ذات الألوان الأخرى على مسافات منتظمة، فنانجة عن التبن الذي كان المصريون القدماء يخلطون به الطين، بالإضافة إلى البقايا المتفحمة، بكل

تأكيد، من طبقات نبات البردي، التي كانوا يضعونها بين كل مدماكين أو ثلاثة مداميك عند بنائهم حوائط من الطوب الأخضر. ولا بد أن يكون سور الخوش الخارجي قد أشعلت فيه النار باستخدام مادة سريعة الاشتعال، على الضلع الجنوبي على الأقل، فانهار كل ما كان قائما على صالة الأعمدة وفي الحوش الداخلي. (١٣)

في الوقت الذي كان مهندسو الفرعون "حور - إم - حب" يرسون فيه أساسات الصرحين الإضافيين جنوبي الكرنك، انهار معبدا أو مزارا "مبجلة تلك هي آثار قرص - الشمس" إلى الأبد أو "تتي منو ...". وكذلك "ثابتة تلك هي آثار قرص - الشمس" إلى الأبد أو "رود منو ...". ولقد وجدت أحجار المعبد الأخير طريقها، بصورة جزئية، إلى أساسات الصرح التاسع، إلى جانب كتل حجرية يرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية عشرة، بينما منح المعبد الآخر : "مبجلة تلك هي آثار قرص - الشمس" إلى الأبد أحجاره بعد تفكيكها إلى الأجزاء العليا من نفس الصرح. أما بوابة "أمين - حوتب" الثالث الجنوبية، التي نجد أجزاء من جدرانها وقد نحتت عليها مناظر شائنة للملك المارق. فلقد جرى تفكيكها في ذات المكان، وأعيد بناؤها فوراً في الصرح العاشر (الحالي)، مع توشيشها (من وش. م) بقشوة جديدة من الأحجار لإخفاء الجداريات المكروهة. (تلك التي تمجد فرعون "أخيناتون". م)

رحلت بعض أحجار الكرنك هائمة على وجهها وأوغلت في رحيلها. ووجدت كميات هائلة من كتل معبد "ثابتة تلك هي آثار قرص - الشمس" إلى الأبد طريقها بصورة تدريجية إلى الأقصر حيث كان لـ "رمسيس" الثاني أن يستخدمها، بعد ذلك بسبعين سنة في تشييد صرحه الهائل. أما الشطف التي انتهى إليها معبد قرص - الشمس "اهتدينا إليه"، فلقد مضت ناحية الشمال الشرقي من "المدامود" على بعد ثمانية أميال، ولا تزال الكتل الحجرية المبعثرة تظهر بين الحين والآخر في هذه القرية أو تلك في أعالي النيل أو أسافله.

وذات يوم كان الخولي الذي يشرف على أعمال الهدم في معبد "قرص - الشمس" اهتدينا إليه قد ظهر، كما هي عادته، بعصاه. وربما يكون قد لوح بعصا الخولي، تلك، بحمية زائدة نحو رجاله، وربما يكون قد ضرب أحد الأنفار الكسالى.

لياً كان السبب، فلقد سقطت الحلية الزخرفية من الحجر، وكانت تحمل خرطوش "حور - إم - حب" منقوشاً عليها، من القمة، وضاع في الأنقاض. وربما لم يكتشف ذلك الخولي ضياع تلك الحلية الحجرية، لكننا عثرنا عليها في بؤونة - يونيو في سنة ١٩٧٨ بين كتل "الثلاثات" في المربع رقم ٤٠ وكان الفرعون "حور - إم - حب" قد وضع، عن طريق السهو أو الخطأ، إمضاءه على عمليات التدمير. (١٤)

وقد يكون الفرعون "حور - إم - حب" قد تزوج من "موت - نجمت"، شقيقة "تفرتيتي"، في سبيل إضفاء الشرعية ** على صعوده إلى عرش البلاد، ولكنه لم يعترف، على الملأ، بتسلم أي تراث من عصر "أخيتاتون". ويثور الجدل في بعض الأحيان بين الدارسين المحدثين حول ما إذا كان الفرعون "حور - إم - حب" قد اختتم الأسرة الثامنة عشرة أو افتتح التاسعة عشرة. وذلك جدل عقيم لا طائل وراءه. فمع الفرعون "أي" كانت عائلة التحامسة قد سقطت هيبتها وانمحى وجودها ذاته. ولقد أضيفت فترات الملوك الأربعة الذين يبدوون بـ "أخناتون" وينتهون بـ "أي"، وهي تصل إلى إحدى وثلاثين أو اثنتين ثلاثين سنة إلى الحكم الرسمي للفرعون "حور - إم - حب"، الذي يبدو - بذلك متمتعاً بتسعة وخمسين ربيعاً رائعاً في سدة الحكم.

ولعلنا نلاحظ أن خرطوشه يتلو مباشرة، في قائمة الفراعنة، خرطوش الفرعون "أمون - حوتب" الثالث. ونرى اسمه في الآثار محفوراً في كل مكان على اسم "توت - عنخ - أمون". وإذا نهضت ضرورة الإشارة إلى "أخناتون" في السجلات اللاحقة، فيتم ذلك بعبارة مسهبة ومراوغة تحط من قدره باستمرار. ولقد سنحت الفرصة ذات مرة لنسخة من حكم قضائي كي تشير إلى { حكم ذلك الملعون الذي عرفته "أخيتاتون" }، {وذكر أن شهادة أرخت في "السنة التاسعة من حكم المارق ..."} (١٥) وكان كل ما عاش من ذلك الحكم في التراث الشفوي للمصريين، أي في الذاكرة التاريخية الجماعية للشعب، لا يزيد على ذكريات مضطربة لشعب وقع فريسة الوباء والترحيل إلى المحاجر وإغلاق معابده والتعرض، المرة تلو المرة، لمحاولة الأجانب بسط سيطرتهم على مصر. وأمسى "أخناتون" وعائلته "لأناس". (١٦)

الفصل الخامس عشر

الابن الجميل الذي أنجبه قرص - الشمس

أتوق خلال تناولي للتاريخ القديم سواء بالتدريس أو التأليف أن يقف الطالب المبتدئ أو القارئ العادي بين الحين والآخر، وجهاً لوجه أمام الأدلة التي تستند إلى الحقائق المجردة، سواء أكانت دامغة أو واهية. ولنقرأ الرواية التي تتطوي على مسوح رومانسية، ويرويها الباحث أو الروائي ولنستمتع بتفاصيلها بصورة عابرة وننخبها جانباً، ثم نستدير كي ننقب عن الحقيقة.

كاف، على ما أرجو، ذلك الذي سقته في الصفحات السابقة كي أوضح أن "أخناتون" كشخص تاريخي مختلف بصورة ملموسة عن الصورة التي خلقها لنا كتاب العوام الواسع الانتشار عنه. فلم يكن إنساني النزعة، وبكل تأكيد لم يكن ليشبه ذلك الرومانسي الإنساني العطوف. أما المحاولة التي ترمي إلى رسمه كشخصية تراجمية "أشبه بالمسيح" فليست سوى تزيف بحت، كما لم يكن معلماً لـ "موسى": هناك بون شاسع يفصل بين "وحدانية" Monotheism جلالتة التي تتسم بالصرامة والجبر والقلق وبين "الواحدية" Henotheism العبرانية، التي نطل عليها في سائر الأحوال خلال منشور مشوه من النصوص التي دُوت بعد سبعمائة سنة من وفاة "أخناتون". حقاً أشار البعض منذ وقت طويل إلى وجود ملامح متشابهة بين ترنيمة "أخناتون" وبين المزمور رقم ١٠٤، وإلى ضرورة أن نأخذ هذه التشابهات على محمل الجد، إلا أن الأمر هنا ليس أمر تأثير أدبي بل أمر استمرار في التقاليد (الشعبية) في المراكز الشمالية للإمبراطورية المصرية التي كانت يوماً ما عظمى لموضوعات تلك الترنيمة التي تعد عملاً شعرياً رائعاً.

إذا مررنا في عرضنا، على تلك الحقائق الصلبة التي أوردناها في الصفحات السابقة، وفي ظل غيبة حقائق أخرى قائمة على أدلة مفصلة، فإننا نكون عندئذ قد أمسكنا بلمحة عن "هذه" الشخصية التي تولت حكم مصر: رجل يعد قبيح المنظر بالمقاييس المقبولة لعصره، ويعيش صباه في عزلة تامة في القصر الملكي،

بالقرب من أمه على وجه التأكيد، ولا يحظى من جانب والده سوى بالتجاهل على وجه التقريب ويبيزه أخوته وأخواته وغير واثق من نفسه . ثم يعاني سوء حظ، لا مثيل له، بارتقائه عرش مصر؛ في ذروة إمبراطوريتها. وفي هذا الصدد لا نعرف شيئاً عن أو عما أثر عليه في سنوات تكوينه الأولى، لكنه لم يتربّ على مقربة من بلاط والده، كما أننا لا نملك أي دليل على إقامته لمدة ما في "أون" ونتيجة لذلك تولّد عنده خوف ونفور نحو حاشية والده التي ضمت إداريين موهبين ونحو العائلات النبيلة التي ينتمون إليها، وامتدت ظنونه وشكوكه إلى أولئك الملوك الذين احتفظ والده بعلاقات حميمة معهم. وهناك ما يدل على أن الرجل كانت تعوزه القدرة على الحكم على الأشخاص، وكان فريسة لتعلق الممثلين. ورغم أنه كان على وعي بافتقاره إلى الحزم، إلا أنه تبنى سياسة تتسم باللين تجاه أقاليمه الشمالية، وهي السياسة التي حالت بينه وبين اتخاذ إجراءات حاسمة لا تعرف التردد في المجال الأسبوي. ولما كانت تعوزه المواهب الإدارية، فلقد كان راغباً في ترك إدارة شئون الحكم اليومية، سواء على الصعيد الخارجي أو الداخلي، في أيدي الوسطاء العسكريين منهم والمدنيين، كي يتابع هو برنامجه في "الإصلاح الديني" كما تصوّره.

لم يكن "أخناتون" بصرف النظر عن كونه ، على صعيد آخر، بالمتقف ذي الوزن الثقيل. فلقد عجز على أن يفهم (وإن كان قد فعل فإنه يكون قد عجز عن أن يقيم) الدور الفعلي والمحتمل للأسطورة الدينية، وقد يكون قد تصور أنها وسيلة لإخفاء الإله بدلاً من إبرازه للعيان. وقد يكون موقفه هذا بمثابة رد فعل على النزعة الكلبية المضللة للعصر، تماماً مثلما فعل "لوتر" في القرن السادس عشر بعد الميلاد، ولكن إذا كان الأمر كذلك فإن "أخناتون" يكون، عندئذ، قد ارتكب خطيئة الخلط بين شوارد النسق وبين جوهره ذلك لأن الأساطير تمثل عناصر البناء في أي دين، بما في ذلك اليهودية-المسيحية. فرغم أن الأساطير انحدرت إلينا في غالب الأحيان كأمتعة بالية من مرحلة موعلة في القدم أو مريكة نوعاً ما من مراحل تطورنا العقلي، إلا أنها تضع تحدي إعادة التفسير على مستوى أرقى، فضلاً عن التكامل، الواحدة مع الأخرى، في سبيل توفير رؤية جديدة ومتماسكة لما

وراء الطبيعة. ولقد ارتفع اللاهوتيون المصريون القدماء، على غرار ما يفعل اللاهوتيون المحدثون، إلى مستوى التصدي لهذا التحدي، ونجد في وثائق من قبيل "اللاهوت المنفي" * وترانيم المملكة الحديثة لـ"الهين" "بتاح" و "أمون" رسائل فلسفية على درجة عالية من الإنجاز. فما الذي جاء به "أخناتون" كبديل لها، طالما أعلن عليها اللعن؟ الجواب لا شيء! وإذا كانت مجموعة الأساطير (في أوسع معاني المصطلح) الوسيلة الوحيدة للوحي المقدس، بصرف النظر عن رؤية الصوفي، فلن ما نافع عنه "أخناتون" ليس إلا الحاد بالمعنى الدقيق للكلمة.

ويخصوص الأيقونة التي ابتدعها، وأقصد، ذلك القرص الأشبه بعش العنكبوت، فمن المستعصي أن يرى فيها أحد "إلهاء". أما ماذا تكون تلك الأيقونة في الحقيقة، فإن "أخناتون" يخبرنا عنها بصراحة وبدرجة كافية: "القرص" يكون والده. وهو ملك العالمين ولما ينطوي على مغزى، فيما يبدو لي، تلك الحقيقة التي تقول أنه عشية رحيل الفرعون "أمين-حوتب" الثالث، كان الفرعون الذي يجلس على عرش مصر يحمل هذا اللقب الذي يعد أوسع ألقابه انتشاراً: "قرص-الشمس الباهر"، وغداة الفتنة كان موضوع التقديس الأوحى في مملكة السماء هو "قرص-الشمس" الملك، الذي يحاط بالتبجيل في أعلي عليين ويوصف في كل مكان من جانب "أخناتون" بـ "والدي"، ولن أمضي إلى تعداد الإحياءات التي ينطوي عليها هذا الأمر، رغم أنه يبدو لي واضحاً بما فيه الكفاية.

إذا كان "أخناتون" قد امتلك قدرة خارقة كشاعر فهذا أمر-فيما أرى- لا يحتاج إلى دليل. فالطبيعة ذاتها، بالنسبة إليه، تكشف في كافة صورها عن سحر يغني عما سواه. والسرور الذي يستطيع المرء استشعاره في تأمل مالا نستطيع الإحاطة بكنهه يشحب عند المقارنة. ورغم أن كثيراً من الصور الشعرية التي صاغها مشتقة من مثيلاتها، فإن الترنيمة الكبرى لـ "القرص" تقف شامخة كتعليق هائل يكاد يكون وضعياً على جمال الخلق.

يذهب ظني إلى أن "أخناتون" كان يضمر أيضاً ميولاً عميقة نحو الفن، والنحت والتصميم المعماري، رغم الصعوبة الأشد التي تقف في وجه أي محاولة لإثبات ذلك. ولكن يبدو مرجحاً أن النزعة التعبيرية الجديدة التي تخلص الأبواب،

ونفجرت في مناظر الجداريات في السنة الثانية من حكم جلالتة ترجع إلى ذوق "أخناتون" الخاص أكثر مما ترجع إلى أذواق فنانيه. وفي ضوء القدرات ذائقة الصيت للملك التحامسة في مجال التخطيط، فله من الصعب أن ننكر أن لجلالتة ضلعاً أيضاً في صياغة تفاصيل القواعد الجديدة. ويذهب رأيي إلى أن الفن المرتبط ببرنامج هو ما يظل بالنسبة لنا الإسهام الفريد الأكثر أهمية لما تركه "أخناتون" وراءه.

إلا أن جداريات "أخيتاتون" تكشف، رغم ما تتطوي عليه من جمال أخاذ، عن واحدة من أكثر السمات إثارة للكدر أي أسلوب الحياة الذي رفعت "أخيتاتون" كنموذج يحتذى: البرخاوة و"الروقان". هل يكون في طوع ملك ألا يخرط في أي نشاط جاد، سوى تقريب القرابين؟ حقاً يركب مركبته، ولكن كم مرة مشي فيها على قدميه؟ بين الحين والآخر نلمحه مضطجعا، في استرخاء تام، في كرسي بمساند أو بدون، كما نراه يتناول الطعام أو الشراب على مائدة تثن تحت مختلف أنواع الأطعمة والأشربة، وأحياناً يقطع انغماسه في ملذاته كي يطل في ليونة ونعومة من الشرفة وهو يبتسم في وهن على شخص مجهول يسيل أنفه تزلفاً نحو جلالتة في الأعالي. هل هذا الملك الرخو الذي لا يستطيع الخروج وراء صيد أو خوض معركة، منحدر، حقاً من صلب التحامسة الذين بنوا الإمبراطورية المصرية؟ لم يكن البلاط الذي يرأسه سوى جمعية تضم ع. دأ من المرفهين الحريصين على الاستمتاع الذاتي وأتباعهم من الانتهازيين.

إذا كان الملك والدائرة المحيطة به قد بعثا داخلي قدراً من الازدراء، فإن الشعور بالنفور هو الذي يملأني كلما تأملت "الديانة" التي جاء بها. فالشمس قد تكون في مصر طاقة خيرة يعتمد عليها، لكنها مع ذلك مهلكة. ويسعى الناس إلى الاحتماء منها، وإذا كان لـ "رع" أن يُعبد، فليكن هناك ملجأ ظليل قريب المنال!

يغدو "الكرنك" و"أخيتاتون"، كلاهما، جحيماً خلال موسم الصيف الطويل الذي يبدأ من برمهات - مارس حتى هاتور - نوفمبر. ومع ذلك يعد جلالتة - بمتعة زائدة على ما يبدو - إلى اختيار هذين المطرحين غير المقدسين لإقامة معابده. ولا يكفي بذلك بل يصير على المعبد المكشوف غير المسقوف الذي لا

يوفر ظلاً يُذكر كي يعبد والده. وإذ يقف المرء على صفحة الرمل التي تشبه بلاطة القرن في فناء "أخيتاتون" الشاسع، فإنه لا يملك بديلاً عن الإحساس بالشؤم إزاء كل ما يدور.

و لم يكن هذا الحاكم المطلق ليكتفي بتعريض جسده هو وحده لأشعة السده في كل ساعة صحو، بل وكان يطالب الجميع بأن يحذو حذوه ! وعلى الأقل هذا ما يخبرنا به خطاب مذهل من ملك "أشور" عُثر عليه ضمن ألواح "أخيتاتون"، وهو الأمر الذي يعطينا منظوراً جديداً للحالة العقلية لـ "أخيتاتون". فلقد بعث "أشوروباليت" الأول وفداً إلى مصر في ظل حرصه على بدء علاقات طيبة معها، بعد أن أصاب الضعف مملكة "ميتاني". ولا بد أن أعضاء الوفد عادوا إلى بلادهم كي يقولوا شيئاً لا يخرج عن : هذا الملك مجنون بكل تأكيد ! إذ كان يعتقد استقبالاته واحتفالاته، بصفة دائمة، في وهج الشمس. ويفرض على الحاضرين جميعاً أن يقفوا في صهد الحرارة ! وهو الأمر الذي دفع ملك "أشور" إلى إرسال هذا الاحتجاج إلى "أخيتاتون":

لماذا تفرض على رُسلي أن يقفوا في صهد الشمس. كان يمكن أن يقضوا نحبهم في صهدا. إذا كان يفيد الملك أن يقف في صهد الشمس، فليقف، إذن، في صهدا، وليمت تحت صهد الشمس. وعندئذ فلينع الملك بما سيعود عليه ! ولكن لماذا يفرض عليهم أن يقفوا في صهد الشمس ؟ ... كان يُمكن أن يلقوا مصرعهم تحت صهد الشمس !

تعد الصورة التي ترسمها هذه الرسالة مضحكة ومثيرة للغضب في نفس الوقت. فلقد أصبح النظام بصراحة تامة، بوصوله هذه المرحلة، لا يُطاق. يظل "أخيتاتون" في جوهره، وبصرف النظر عن كل ما يُمكن أن يقال لصالحه، حاكماً شمولياً. إذ كان يجهل كل الجهل حق الفرد في أن يختار بحرية. ولقد انتصر لوجود قوة سماوية، كلية تطلب خضوعاً كلياً وتزعم أنها الحق الكلي، ولا يتوقع منها أحد أي وحي أو أي إلهام آخر. الحقيقة أنني لا أستطيع أن أتخيل نظاماً آخر أشد إرهاباً يقود الحظ خطى المرء إلى العيش في ظله.

قائمة

| اسم الفرعون | فترة الحكم ق. م |
|---|-------------------|
| الأسرة الحادية عشرة : | |
| سهر - تاوي - أنتف الأول | ٢١١٨ - ٢١٣٤ |
| واح - عنخ - أنتف الثاني | ٢٠٦٨ - ٢١١٨ |
| نخت - نب - تب - نفر - أنتف الثالث | ٢٠٦١ - ٢٠٦٨ |
| نب - حرت - رع - مونتو حوتب الأول | ٢٠١١ - ٢٠٦١ |
| سي - عنخ - إيب - تاوي مونتو - حوتب الثاني | ٢٠٠٠ - ٢٠١١ |
| نب - تاوي - مونتو - حوتب الثالث | ١٩٩٨ - ٢٠٠٠ |
| (صراع داخلي ١٩٩٨ - ١٩٩١) | |
| الأسرة الثانية عشرة : | |
| سحتب - إيب - رع - أمين - إم - حات الأول | ١٩٦٢ - ١٩٩١ |
| خبر - كا - رع - سنوسرت الأول | ١٩٢٨ - ١٩٧١ |
| نب - كا - رع - أمين - أم - حات الثاني | ١٨٩٥ - ١٩٢٩ |
| خع - خبر - رع - سنوسرت الثاني | ١٨٧٧ - ١٨٩٧ |
| خع - حا - رع - سنوسرت الثالث | ١٨٤٣ - ١٨٧٨ |
| ني - ماعت - رع - أمين - إم - حات الثالث | ١٧٩٧ - ١٨٤٣ |
| ماعت - خرو - رع - أمين - إم - حات الرابع | ١٧٩٠ - ١٧٩٨ |
| سوبك - كا - رع - سوبك نفرو | ١٧٨٦ - ١٧٩٠ |
| الأسرة الثالثة عشرة : | |
| سوبك - حوتب الأول | ١٧٨٣ - ١٧٨٦ |
| سخم - كا - رع | ١٧٨٠ - ١٧٨٣ |
| (١٣ فرعونا) | حوالي ١٧٨٠ - ١٧٦٠ |
| سوبك حوتب الثاني | ١٧٥٦ - ١٧٦٠ |
| خين - جر | ١٧٥١ - ١٧٥٦ |

| | |
|-------------------|--|
| ١٧٤٩ - ١٧٥١ | (٣ فراغة) |
| ١٧٤٧ - ١٧٤٩ | سوبك حوتب الثالث |
| ١٧٣٦ - ١٧٤٧ | نفر - حوتب الأول |
| ١٧٣٥ | سي - حاتحور |
| ١٧٢٥ - ١٧٣٤ | سوبك - حوتب الرابع |
| ١٧٢١ - ١٧٢٥ | سوتب - حوتب الخامس |
| ١٧١٢ - ١٧٢١ | ياع - إيب |
| ١٧٠٠ - ١٧١٢ | آيا |
| ١٦٩٨ - ١٧٠٠ | مير - حوتب - رع |
| ١٦٩٥ - ١٦٩٨ | سي - عنخ - إن - رع |
| ١٦٩٢ - ١٦٩٥ | نفر - حوتب الثاني |
| ١٦٩١ | حوري |
| ١٦٨٨ - ١٦٩٠ | سوبك - حوتب السادس |
| ١٦٦٥ - ١٦٨٨ | (١٨ فرعوناً) |
| | الأسرة الخامسة عشرة (الهكسوس) : |
| ١٦٥٤ - ١٦٦٥ | مير - إيب - رع شيشي (شاريك - سالييتيس) |
| ١٦٤٥ - ١٦٥٢ | ؟ بنون |
| ١٦٣٥ - ١٦٤٥ حوالى | مير - أوسر - يعقوب - إيل (أبا شنان) |
| ١٥٩٥ - ١٦٣٥ | سوسر - إن - رع خايان (إناس) |
| ١٥٦٣ - ١٥٩٥ | عقن - رع - أبوبي (أبوفيس) |
| ١٥٥٨ - ١٥٦٣ حوالى | عاسح - رع - خامودي (أسيز) |
| | الأسرة الثامنة عشرة : |
| ١٥٨٧ - ١٦٠٠ حوالى | سا- نخت - إن - رع - تاعو الأول |
| ١٥٧٥ - ١٥٨٧ حوالى | سقن - رع - تاعو الثاني |
| ١٥٦٩ - ١٥٧٥ حوالى | ودج - خبر - رع - كاموسي |
| ١٥٤٥ - ١٥٦٩ حوالى | نب - بحت - رع - أحموسي |

| | |
|-------------------|---|
| ١٥٢٥ - ١٥٢٥ حوالى | زوسر - كا - رع - أمين - حوتب الأول |
| ١٥١٤ - ١٥٢٥ | عا - خبر - رع - تحوت - موسى الأول |
| ١٥٠٤ - ١٥١٤ | عا - خبر - إن - رع - تحوت - موسى الثاني |
| ١٤٥١ - ١٥٠٤ | مين - خبر - رع - تحوت - موسى الثالث |
| ١٤٨٣ - ١٤٠٢ | ماعت - كا - رع - حتشبسوت |
| ١٤٢٦ - ١٤٥٣ | عا - خبرو - رع - أمين - حوتب الثاني |
| ١٤١٦ - ١٤٢٦ | مين - خبرو - رع - تحوت - موسى الرابع |
| ١٣٧٧ - ١٤١٦ | نب - ماعت - رع - أمين - حوتب الثالث |
| ١٣٦٠ - ١٣٧٧ | نفر - نفرو - رع - أمين - حوتب الرابع |
| ١٣٦٠ | عنخ - خبرو - رع - سمنخ - رع |
| ١٣٥٠ - ١٣٦٠ | خبرو - رع - توت - عنخ - أمون |
| ١٣٤٧ - ١٣٥٠ | خبر - خبرو - أي |
| ١٣١٨ - ١٣٤٧ حوالى | زوسر - خبرو - رع - حور - إم - حب |

الخارطة رقم (١) التوزيع على طول الضلع الجنوبي

| رقم المربع | المناظر ————— المشهودة | عدد الأمتار من الركن |
|------------|---|-------------------------|
| AD 1 | — خراطيش عمودية ضخمة لـ قرص - الشمس — رجال بلاط راكعين. | ٤ - ١ |
| ADII | — شُطَف لم يُستدل على أصلها. | ٨ - ٤ |
| AC I | — شُطَف من نقش، (تظهر منه عبارة : قالوا ...) — قرص - الشمس "بأشعته المعهودة. — أطلال سور مائل. | ١٣ - ٨ |
| AC II | — أطلال سور مائل. — مدخل. — صناديق الخُلي في القصر. — الملك يقرب قرباناً في إطار شعائر المعبد. — رجال بلاط يركعون. | ١٨ - ١٣ |
| AB I | — طرح الثيران أرضاً كي يذبها الجزارون. — (شُطَف عديدة). (لوحة رقم ٧-١٠) — رجال بلاط يركعون. — نماذج لـ قرص - الشمس "بأشعته المعهودة. | ٢٤ - ٢٠ |
| ABII | — الملك (————) مائدة تقريب قرابين. — باقات زهور — خراطيش ملكية. — الملك مع الكهنة. — صرح المعبد. | ٢٨ - ٢٤ |
| A1 | — أطلال سور مائل. — كاهن الترتيل الأول. | ٣٢ - ٢٨ |

- نوبيون يرفعون أيديهم إيتهالاً.
 (—) (لوحة رقم ٣ - ٥)
 كهنة راكعين مع بيارقهم. (—)
 — حمّال (—) يحملون جلالته في تختروانه في العيد الثلاثيني.
 (لوحة رقم ٥ - ٣)
 ٣٦ - ٣٢ — رجال بلاط راكعين (شكل رقم ١٣) AII, III
 — الملك خلال إعتلانه تختروان العيد الثلاثيني مرتدياً الناج الأبيض.
 — الملك مرتدياً زي العيد الثلاثيني (اليوبيل)
 ٣٦ - ٤٠ — حاملو التختروان (—) ونرى بعضهم ساجداً. AII, IV
 — جلالته يقرب قرباناً في أحد المعابد.
 — كهنة خلال أداء الشعائر.
 — باب (معبد ٤)

الخارطة رقم (٢) التوزيع الجغرافي على طول الضلع الغربي

| عدد الأمتار من الركن | المناظر ————— ر المشهودة | رقم المربع |
|-------------------------|---|------------|
| ١١ - ١٤ | — علامات هيروغليفية ضخمة ، يرجع بعضها إلى خراطيش قرص - الشمس" | |
| ١٤ - ١٨ | — خدم مع حواملهم . — الملك جالساً إلى المائدة | EEII-I |
| | — خدم وقفاني نبيذ . — رجال بلاط ، بعضهم وقوف والآخر راكعين . — تختروان وحُمّاله . (—) | |
| ١٨ - ٢٣ | — حُمّال تختروان خلال إنزالهم حمولتهم الغالية — كهنة ببيارقهم المقدسة . (لوحة ٧-١٥) — أبواب لجوسق (كشك) — جنود وخدم وحشم . | EIV-III |
| ٢٣ - ٢٧ | — كهنة ببيارقهم المقدسة . — صور لخدم وحشم . (—) — أحد رجال البلاط يصب قربان النبيذ (أي يؤدي الصبيان) | EII-I |

حواشي المؤلف *

آخ - منو : اسم درج في الاستعمال إعتباراً من المملكة القديمة للمباني المقدسة على هذا النحو : "كان الملك الفرعون (س) سخي اليد في بناء الآثار (آخ - منو) " ويتمثل المثال الأكثر شهرة، في هذا الصدد، في قاعة الأعمدة التي بناها الفرعون "تحوت - موسي" الثالث على الضلع الشرقي لمعبد "أمون" في الكرنك.

الأكادية : لغة تنتمي للفرع الشرقي من عائلة اللغات السامية التي تكلم بها سكان وادي دجلة والفراة منذ الألف الثالث ق. م. وكانت تُستخدم خلال عصر "أخناتون" كلغة دبلوماسية في سائر أرجاء الشرق الأوسط القديم.

الالاخ : مدينة تقع في شمال سوريا. وكانت عاصمة لدولة "موكيش".
حري-شا-اف : حرفياً "هو الذي يقف على بحيرته" وهو اسم الإله-الكبش الذي انتشرت عبادته في مديرية الفيوم في مصر الوسطى. وقد نطقه وكتبه اليونانيون على هذا النحو : "أرسافيس"

أثريب : مدينة تقع في المديرية العاشرة في الوجه البحري قرب رأس الدلتا على بعد نحو ٣٠ ميلاً شمالي مدينة "أون" أو "هيليوبوليس".

حصنة الخباز : عدد الأربعة من نوع معين (أي مشمول الدقيق) التي تخرج من وية القمح.

باكلي : حصن في بلاد النوبة على الضفة الشرقية لنهر النيل يقع على بعد حوالي ٦٥ ميلاً جنوبي جزيرة "إلفانتين".

بوغاز كوي : هو الاسم الحديث للموقع الذي ضم حاضرة الحيثيين في أواسط آسيا الصغرى.

رئيس كهنة الترتيل : (باللغة المصرية : "ذاك الذي يحمل لفة الكتاب") وهو الكاهن المسؤول عن المحافظة على صيغ العبادة وحفظها بالإضافة إلى الترتيل التي تصاحب الشعائر المقدسة.

كويل-سوريا : مصطلح هيلينستي (يوناني-شرقي) يطلق عادة على الأطراف الجنوبية لسوريا فيما بين الساحل وجبل الشيخ.

ديبين : مقياس مصري قديم للوزن يساوي بالتقريب ٩١ جراماً.

الدير البحري : اسم عرفته المملكة الوسيطة لمعبد الملكة "حتشبسوت" ذي الشرفات التي تطل على الضفة الغربية للنيل قرب "طيبة".

مخصص : علامة هيروغليفية توضع في نهاية الكلمة كي تشير، بصفة عامة، إلى النوع الذي تنتمي إليه هذه الكلمة.

دراع أبو النجا : الاسم الحديث لذلك القطاع من جبانة "طيبة" الذي يمتد شمالي معبد "حتشبسوت" في الدير البحري.

أيام النسيء : الأيام الخمسة التي تأتي في نهاية التوقيت المدني في مصر القديمة وتشير إلى أيام ميلاد الآلهة الخمسة "أوزيريس" و"إيزيس" و"سيت" و"نفتيس" و"حوريس".

فنخو : هو الاسم الذي أطلقه المصريون القدماء على السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وفي وقت لاحق عرفوها باسم "فينيقيا".

خندق أنبوب الغاز: وحدة طولية في عمليات التنقيب تصل مساحتها، بصفة تقريبية، إلى ٣ في ١٠ ، وهي وحدة تمكن المنقبين من الفحص الدقيق للطبقات المترامية، الواحدة على الأخرى، حيث يقومون برفع ما يتطلبه الأمر من طبقات.

جب : اله الأرض في المجمع الإلهي المصري وهو ابن اله الهواء "شو" ووالد كل من "إيزيس" و"أوزيريس". وكان "جب" وريث الآلهة، وخلال يمر الحق في بسط السلطان الشامل.

والد الإله : لقب تحمله رتبة خاصة من رتب الكهنة في المستويات العليا من كهنوت المعبد، كما كان لقباً يطلق على رب عائلة الأسرة المالكة، أو حمي الفرعون أي والد زوجته.

دوار الذهب : ورشة الحرفيين حيث يجرى صوغ تماثيل العبادة للآلهة إلى جانب تصنيع مختلف اللوازم المقدسة الأخرى.

الخماسين : رياح جافة شديدة الوطأة تهب على مصر وشمال أفريقيا لمدة

خمسين يوماً على وجه التقريب في شهري برمهاث (مارس) وبرمودة (أبريل).
حتحور : كانت في الأصل، وعلى ما يبدو، رمزاً لقصر الفرعون،
 وأصبحت إيان المملكة الحديثة إلهة الحب والجمال والأثوثة في موطن عبادتها في
 "ندرة" في المديرية السادسة بالوجه القبلي.

حجر حم-جت : هو العقيق الأحمر على وجه الترجيح.
بيت أوخبر-كارع : قصر الإقامة الذي بناه الفرعون "تحوت-موسي" الأول وظل
 خلفاؤه يشغلونه من وقت لآخر على امتداد السنوات المائة والخمسين التالية.
الهكسوس : حرفياً : "الحكام الأجانب" وهو اسم أطلقه المصريون القدماء
 بصفة عامة على أي رؤساء دول ينحدرون من أصول أجنبية. وقد شاع هذا الاسم
 أكثر ما شاع بين المصريين القدماء على أولئك الملوك العموريين الذين أخضعوا
 مصر لسيطرتهم، وحكموها في الفترة من ١٦٦٥ ق.م. إلى سنة ١٥٥٧ ق.م. على
 وجه التقريب. وهم الذين شكلوا الأسرة الخامسة عشرة وفقاً للمؤرخ المصري
 "مانيتون" الذي كتب تاريخه باللغة اليونانية.

إفاو IFAO : المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، وهو معهد فرنسي مقره
 القاهرة يعنى بالدراسات الأثرية واللغوية والتاريخية في مصر.
الفترة الانتقالية : مصطلح يطلق على فترتين اثنتين في تاريخ مصر جلب
 الملوك الضعاف، خلالهما، على مصر المعاناة الاقتصادية والفوضى. وتقع الفترة
 الأولى ما بين ٢١٨٠ - ٢٠٥٠ ق.م. على وجه التقريب والثانية ما بين ١٧٧٨ -
 ١٥٥٠ ق.م. على وجه التقريب.

إتر (في الملاحه) : مقياس طولي يتراوح حول ١٠,٥ كيلومتراً أو ٦,٥ ميلاً.
خاتبجالبات : اسم جغرافي-سياسي يطلق على وادي "دجلة" شمالي
 "أشور" والقطاع الشرقي من سهل الرافدين، وكانا خلال القرنين الرابع عشر
 والخامس عشر ق.م. جزءاً من الإمبراطورية الميتانية وكان هذا الاسم يستخدم بين
 الحين والآخر بدلاً من "ميتاني" في الألقاب الملكية.
خاتمي : اسم آخر للملكة الحيثية في آسيا الصغرى (تركيا الحديثة).
 وكانت عاصمتها "خاتوساس".

خاتوساس :عاصمة "خاتي" و هي "بوغاز-كوي" الحالية.

خنوم : الإله-الكبش الذي كان معبود جزيرة "إليفانتين" في المديرية الجنوبية القصوى بالوجه القبلي، ويتميز "خنوم" بصفته إله الخلق.

خبري : أحد الأرباب الشمسية. سادت عبادته في "أون" (هيليوبوليس) وامتدت إلى أماكن أخرى على هيئة "جعران" (خبر)، صار بالتقمص أحد أشكال "رع".

ضريح كو : اسم عام يطلق على أي منشأة جنازية حيث تعبد روح المتوفى (قربنه) وتقام لها الطقوس.

كوش :مصطلح جغرافي أخذ يسود في الاستعمال بصورة متزايدة اعتباراً من المملكة الوسيطة فصاعداً للدلالة على الأراضي السودانية جنوبي الشلال الثاني على نهر النيل.

الفترة المتأخرة :الأسر التي تبدأ بالحادية والعشرين حتى الرابعة والعشرين أي من سنة ١٠٧٠ حتى ٧١٢ ق.م. على وجه التقريب، وهي فترة ضعف الحكومة ووقوعها تحت سيطرة العناصر الليبية المقيمة في مصر.

الملقطة :الاسم الحديث للموقع الكائن على الضفة الغربية قرب "طيبة" حيث كان قصر "أمين-حوتب" الثالث قائماً.

ماري :مدينة تقع في أواسط حوض نهر الفرات، وكانت حاضرة لمملكة يسودها الرخاء خلال الفترة التي تمتد ما بين ٢٠٠٠ و ١٧٠٠ ق.م. على وجه التقريب. وتشتهر بعشرات الآلاف من النصوص التي اكتشفها المنقبون في أراشيف القصر.

اللاهوت المنفي :دراسة لاهوتية تاريخها مجهول، وإن كان ضارباً في أعماق القدم، نعرفها خلال نسخة حديثة ترجع إلى حوالي ٧٠٠ ق.م. ، وهي النسخة التي تضع الإله "بتاح" أقنوماً للحياة والفكر ، كما تشير إليه بوصفه أساساً للوجود أجمع.

مين :إله قديم للخصوبة وعبادة الأسلاف. سادت عبادته في مدينة "ققط" شمالي "طيبة". يظهر في غالب الأحيان في شكل "قالوسي" (أي منتشر العضوم).

ناباتا : مدينة نوبية قديمة على الضفة الشرقية لنهر النيل داخل المنحنى.
 تكبير للنهر عند لسان "دنقلة". وكانت مركزاً إدارياً تحت ظل حكم "تحت-موسي"
 ثالث ثم أصبحت في وقت لاحق مقر الملوك السودانيين المحليين.
نخبت : الإلهة الحارسة للوجه القبلي. وتصور على هيئة رخمة. وسادت
 عبادتها في "الكاب" في المديرية الثالثة للوجه القبلي.
المملكة الحديثة : اسم يطلق على فترة متأخرة من الإمبراطورية المصرية، تشمل
 الأسر التي تبدأ من الثامنة عشرة حتى الأسرة العشرين، أي حوالي ١٦٠٠ حتى
 ١٠٧٠ ق.م.

الأقواس التسعة : الأعداء التقليديون لفرعون مصر (وهم عبارة مجموعات عرقية
 أجنبية بصفة رئيسية)، ويصورهم الفنانون كأقواس حقيقية تحت قدمي الفرعون.
نيسيا : مدينة بشمال سوريا على بعد غير بعيد من المستنقعات التي كانت
 تغص بالأفيال ولا تبعد كثيراً عن مدينة "أباميا" Apamea التي عرفناها في وقت
 لاحق.

نومارش : حاكم مديرية، والاسم مشتق من كلمة "نوم" NOME اليونانية وكان
 "فرعون يقوم في العادة بتعيينه ولكن المنصب كان يصبح وراثياً في الغالب في
 فترات الضعف الذي يعتري الحكومة المركزية.
ويبسة : مكيال للحبوب يساوي كيلتين على وجه التقريب.

المملكة القديمة : اسم يطلق على الفترة التي تشمل الأسر الثماني الأولى في
 التاريخ المصري حوالي ٣١٠٠ حتى ٢٢٠٠ ق.م. وهي العصور التي قامت
 فيها ملكية مركزية قوية اتخذت حاضرتها في "منف" واشتهرت ببناء الأهرامات
 على نطاق واسع.

أوزيريس حقا-جت : أحد تجليات أوزيريس (تعني حرفياً سيد الأبدية) وقد تقدس
 هذا التجلي من تجليات اله الموتى على نحو خاص في ضريح صغير أقيم له في
 شرق الكرنك حوالي ٧٣٠ ق.م

برع : اسم "رع" ولقد ألحقت به أداة التعريف (للمذكر . م) "ب". وقد انتشر
 الاسم في أواخر الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة.

بتاح : (حرفياً فتاح) اله محلي لإقليم منف يرتبط بروابط خاصة مع الخلق والملكية. (راجع اللاهوت المنفي).

قفطسي : ابن مدينة "قفط" أو كويتوس (إبان العصر البطلمي) إلى الشمال مباشرة من مدينة الأقصر الحديثة. وقد قام السير "فلندرز بتري" بتدريب أبنائها على فن التنقيب الدقيق حتى صار الطلب عليهم شديداً كمنقبين متخصصين. رُخيت : طائر يعرف باسم "أبو طيط" ويتميز بجناحيه المعقوفين للوراء ، وكان الفنانون يستخدمونه في رسوماتهم كشعار يمثل الأهالي.

الأسرة الصاوية : اسم يطلق على الأسرة السادسة والعشرين (من ٦٦٤ إلى ٥٢٥ ق.م.) نتيجة لأصلها الذي يرجع لمدينة "سايس" في الدلتا، وهي فترة العودة للقديم وتوفير النماذج القديمة.

شعوب البحر : ائتلاف ضم عدداً من الشعوب التي تجوب البحار، وتعمل فسي أعماق أبنائها غرائز القراصنة، وقد تكون هذا الائتلاف في الأصل في مواطنهم الأولى في سواحل "إيجة" و"أيونيا" في آسيا الصغرى، وقد انقضوا على آسيا الغربية ومصر خلال الفترة التي تقع بين ١٢٢٠ و ١١٩٠ ق.م. على وجه التقريب وهم الذين دشّنوا العصر الحديدي.

سخمت : إلهة النحر والوباء (، الحرب والقتال.م.) التي تحمل على كتفيها رأس لبؤة، ترتبط في غالب الأحيان بالحرارة المتقدة التي تتبعث من "عين الشمس".

شاسو : اسم نوع عام يطلق على القبائل غير الحضرية، شبه البدوية من الشعوب الناطقة باللغة السامية الغربية، التي كانت تحتل منطقة النقب ومختلف المناطق الأخرى في فلسطين وسوريا.

تلك-التي-تعطي-وجهها-لربها : اسم يطلق على "طيبة" القديمة التي تشغل الضفة الغربية قبالة الكرنك مباشرة.

شومو : فصل الحصاد أي الصيف في التوقيت المصري القديم.

شو : اله الجو والهواء، وهو ابن "أتوم" الخالق ووالد الأرض "جب" والسما "توت".

صاييل : حصن حدودي يقع عند الحدود الشمالية الشرقية لمصر، قبالة صحراء سيناء.

اون الجنوبية : لقب يطلق بين الحين والآخر على 'طيبة' وكان يطلق في بعض الأحيان النادرة على "هيرمونثيس".

أبناء الشمس : ترجمة مؤقتة للكلمة المصرية (ح ن م م ت) التي تشير إلى المصريين بصفتهم عرقاً.

طاهر-كا : الملك الثالث في الأسرة الخامسة والعشرين التي دام حكمها لمصر من ٦٩٠ إلى ٦٦٤ ق.م. وكانت هذه الأسرة سودانية الأصل والمولد. ولقد بذل "طاهر-كا" جهوداً مكثفة كي يعيد تعمير "طيبة" ومعبد آمون ولكن الغزاة الآشوريين نفوه من مصر.

تاخسي : إقليم سوري يقع شمالي دمشق.

تاروي : منطقة سودانية لم يستدل على موقعها.

تحتوت : كاتب الآلهة، يرتبط اسمه بالحكمة والمعرفة والكتابة والفنون. كما يرتبط بصورة أوثق بطائر أبو منجل وبالقرود الأفريقي. وقد انتشرت عبادته على وجه الخصوص في الآشمنين (هيرموبوليس) على الضفة الغربية قبالة "أخيئاتون".

التحامسة : عائلة "تحتوت-موسي" الأول والمنحدرين منها، ونستخدم هذا الاسم في الكتاب الذي بين يدي القارئ كمرادف للأسرة الثامنة عشرة.

لائحة تورينو : بردية يرجع تاريخها إلى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، تحمل على ظهرها نسخة لمؤسس "بتاح" مؤسس وخالق البلاد حتى الرعامسة (على وجه الاحتمال). وهذه هي القائمة الوحيدة الصادقة لمؤسس مصر، التي نجت من عوادي الدهر عن العصور الفرعونية.

الأسرة الثانية عشرة : العائلة المالكة ذات الأصول الجنوبية التي تسلمت زمام السلطة في الفترة من ١٩٩٥ حتى ١٧٧٨ ق.م. على وجه التقريب، وهي العائلة التي أعادت توحيد مصر بعد الحرب الأهلية التي مزقت وحدتها. ولقد منحت إدارتها الموقفة البلاد عصراً كلاسيكياً جديداً.

الأسرتان الثانية والعشرون والثالثة والعشرون : عائلتان تتحدران من أصول ليبية
تربعتا على عرش البلاد في الفترة ما بين ٩٣٠ و ٧١٢ ق.م. على وجه التقريب
وهي فترة اتمت بالضعف النسبي والعزلة.

أوجاريت : مدينة كبرى ودولة على الساحل السوري للبحر الأبيض المتوسط،
إلى الجنوب مباشرة من مصب نهر العاصي. ولقد ألقت الأراشيف الماكية التي
اكتشفها المنقبون الفرنسيون ، فيضا من الضوء على تاريخ سوريا وثقافتها وديانتها
في الفترة ما بين ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق.م.

ريتينو العليا : اسم شائع، وإن كان غامضا، أطلقه المصريون على الأقاليم العليا
لفلسطين وسوريا.

وادي ظميلات : حوض ضحل تصب فيه السيول أو منخفض، يبدأ من موضع ما
بعيد شرق مدينة "بوابستيس" (تل بسطة حاليا) ويتجه شرقا حتى البحيرات المرة
على الضلع الشرقي للدلتا، وكان هذا الوادي بمثابة مدخل للبدو إلى مصر والطريق
الذي سلكه المصريون إلى مناجم الفيروز في سيناء.

واسوكاتي : عاصمة مملكة "ميتاني" ولم يستدل حتى تاريخه على موقعها على
الخريطة.

هوامش المترجم **

**نهر أوروونتيس ORONTES هو نهر العاصي الذي ينبع من وادي البقاع في
أواسط لبنان كي يتجه شمالا بين سلسلة الجبال التي تشكل لبنان.

** يصف المؤرخون علماء المصريين فرعون مصر "تحوت - موسي" الثالث
بأنه نابليون العالم القديم دون "واترلو" أي دون هزيمة واحدة. فلقد حقق الفرعون
العظيم، الذي كان دائما على رأس جيشه، نصرا حاسما على أعداء مصر خلال
كافة حملات التآديب السبع عشرة التي قادها في المشرق. وأبرز هذه الحملات هي
تلك التي شملت معركة "مجدو" التي دارت رحاها في السنة الثانية والعشرين من
حكمه أي في أواخر ربيع ١٤٨٣ ق م وهي المعركة التي فاجأ خلالها تحالف
الآشوريين الغربيين في مدينة "مجدو" بسلوكه طريقا جبليا وعرا فيما كان أعداؤه
ينتظرون قدومه عبر الطريق الساحلي وأنزل بهم هزيمة قاسية انعكست في
خرابهم المقدسة في أوقات لاحقة، وخصوصا ما يسمونه بـ "الهزمجدون".

** هاتاي إقليم يقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط في تركيا الحديثة. ويحده
من الغرب خليج الإسكندرونة ومن الجنوب والشرق سوريا. وتصل مساحته إلى
نحو ٨٥٩,٥ كيلو مترا، ويضم سهلا شاسعا يرويه نهر العاصي. وكان الإقليم قبل
سنة ١٩٣٩ جزءا من سوريا وكان يسمى وقت ذاك لواء "الإسكندرونة".

** يعد كل جندي محاربا ومقاتلا، على الأقل من الناحية النظرية، أما المحاربون
المقاتلون فليسوا جنودا. والأولون هم الذين ينهضون إلى الحرب مشدودين بإيمانهم
بفضيتهم (جيش علي) أما الجنود فهم الذين يتحركون إلى ميادين القتال مدفوعين
بمرتباتهم وامتيازاتهم (جيش معاوية). وتتمثل ذروة مفهوم الجندي "العسكريوت"
في الجندي المرتق الذي انتهت مصر القديمة إلى استجلابه سواء من غرب آسيا
أو جنوب أوروبا. ولمزيد من التفاصيل يجدر الرجوع إلى كتاب العالم الأمريكي :

"سو مانسفيلد" الذي عنوانه "The Geschalt of War"

** تقول "كريستيان ديرش نوبل-كلور" في كتابها (توت-عنخ-أمون" حياة

فرعون ومماته) ترجمة : أحمد رضا ومحمود النحاس ص ١١٧ : الواقع أن الزوجة الملكية الكبرى (تي) لم تكن أميرة بحكم الدم، فأبوها "يوبا" وأنها "تويا" من كبار موظفي كهانة أمون. وكانا يتوليان فوق ذلك مناصب إدارية إقليمية تدل على الأرجح على موطنهم. كان الأب إذن من كهنة الإله "مين" والمشراف على ميراث "مين" في "أخميم". أما الأم فكانت رئيسة حريم "مين". وأصبح الإثنان في بلاط فرعون من أرفع الشخصيات. وكان "يوبا" يحمل قبل كل شيء لقب "الأب الإلهي" وهو اللقب الذي يعتبره البعض إسما لحمي الفرعون. وكان يتمتع أيضا بلقب قائد العجلات الحربية. وذلك فضلا عن وظائف أخرى كانت تربطه بالملك وبضياح "أمون" الطيبية أما زوجته فكانت تشغل منصب رئيسة حريم "أمون" الهام. وأما الملكة "تي" ابنة هذين الربيين اللذين يحتمل أن يكونا من أصل نوبي حسبما تدل عليه بجلاء موميائهما اللتان اكتشفا في وادي الملوك فإنها أصبحت السيدة الأولى في الإمبراطورية إذ أقامها الفرعون ملكة على البلاد.

و يقول عالم المصريات البروفيسور الألماني "ديتر كيسلر" في مقال له في كتاب " /gypten : Die Welt der Pharaonen. Konemann 1997

"بـعنوان : " Die politische Geschichte der 18 bis 2. " ما يلي :

Auf Genenk-skarabaen verkündete er seine Hochzeit mit Teje , einer Tochter eines einflussreichen Hofbeamten aus der Gegend von Achmim. p. 146.

و معناه : { أعلن (أي "أمين - حوتب" الثالث) خلال جعران تذكاري زواجه من "تي"، وهي ابنة أحد الشخصيات البارزة ممن يعملون في البلاط الملكي، وهو من منطقة "أخميم" }، أي أن العالم الألماني لم يشر من قريب أو من بعيد إلى أن والد "تي" وهو "يوبا" كان أجنبيا.

*تشير "اليزابيث رايفشتال" في هذا الصدد في كتابها (طيبة في عهد "أمين-حوتب الثالث") ترجمة : إبراهيم رزق ص ١٣٨، إلى أن اسم قصر "أمين-حوتب الثالث": بيت الأفراح يوحى للأسماع في عصرنا بما يشبه العربية، مع أنه على النقيض من هذا اسم ديني مقدس أطلقه الملك على قصره بمناسبة الاحتفال بيوبيله للدلالة على الفرحة والبهجة بتجديد ولايته.

**** يتساءل كل من "كلودين رولان" و"يدييه جروسيان" في كتابهما المشترك "نفرتي" ؛ الخطوة جات " Nefertiti ، la belle qui est venue هل سعي الفنانون (المصريون) خلال لجوئهم لهذه السمات الخنثوية إلي تصوير الدور السحري الذي يقوم به الفرعون أي ذلك المبدأ الذكري-الأنثوي الخالق لكافة أشكال الحياة ؟** ويضيفان : قد يكون من الصعب تقديم جواب حاسم، ولكنه من الأفضل لنا أن نبحث عن الجواب المحتمل في النزعة الرمزية للفن المصري عوضاً عن الجري خلف نظريات زائفة الطابع العلمي. ويجدر بنا أن نعيد إلى الأذهان أن الهـ "أخناتون" أي "أتون" كان بمثابة "الأب والأم لكل ما خلقه". ولم يكن أخناتون إلا صورة من إلهه.

**** يرى العالم الألماني "أولف إيرمان" في كتابه Life in Ancient Egypt أن العبادة لم تكن تقصد وجه اله شمسي. ولكن قرص الشمس المادي ذاته، الذي يغدق بأيديه التي تنتهي بها أشعته على الكائنات الحية، الحياة الأبدية الكامنة فيه. وبالتالي لم يحمل هذا الإله الجديد اسم أي من الآلهة الشمسية القديمة ولم يسم باسم "شمس" وحسب بل أطلق عليه اسم "أتون" أي قرص الشمس. وهذا اسم لم يدنس به أي استعمال في الديانة القديمة.**

*** نقول "جوليا سامسون" في كتابها "نفرتي: الجميلة التي حكمت مصر" ترجمة : مختار السويفي، في هذا الصدد : وهي الملكة الوحيدة - طوال التاريخ المصري القديم - التي صممت لنفسها تاجاً خاصاً أصبح من المعالم الهامة لشخصيتها. ولقد استوحيت "نفرتي" تصميم تاجها ولونه الأزرق من تاج الحرب "خبرش" الذي كان للفراعنة المحاربون يرتدونه كرمز عسكري.**

**** يرى "أو. آر. جورني O.R.Gurney" في هذا الصدد في كتابه "الحيثيون ترجمة: محمد عبد القادر محمد، رأياً مختلفاً قليلاً إذ يقول : لكن الخطة فشلت فقد نبئنا أن الأمير الحيثي قتل عند وصوله مصر، وقتله على ما يظن الكاهن "أي" أحد رجال القصر الملكي الذي أصبح الملك "الفرعون" التالي على مصر. ويبدو أنه تزوج "عنخ-إس-إن-أمون" ليبرر بذلك شرعية بلوغه العرش. ومما لا شك فيه هذا هو الزواج الذي حاولت "عنخ-إس-إن-أمون" أن تتخلص منه بالتجائها إلى**

الملك الحيثي.

****** كان نظام الحكم في مصر القديمة يأخذ بمبدأ توارث العرش، أي أن يكون الفرعون من البيت المالك سواء أكان قد عين من قبل ولياً للعهد (على سبيل المثال "سنوسرت" الأول، أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة سنة ١٩٧٠ ق.م.) أو كان أحد أمراء البيت المالك (على سبيل المثال "تحوت-موسي" الثالث سنة ١٤٩٠ ق.م.) أو ابناً لإحدى أميرات الأسرة المالكة (على سبيل المثال "تحوت-موسي" الثاني سنة ١٤٩٥ ق.م.). وفي حالات قليلة كان يتولى العرش بصفته زوجاً لإحدى أميرات البيت المالك (كما فعل "توت-عنخ-أمون" الذي حكم مصر من ١٣٤٣ إلى ١٣٣٤ ق.م.). ولما كان "حورمحب" من عامة الشعب فلم يكن من سبيل أمامه لتصحيح هذا الوضع وإضفاء صفة الشرعية على توليه العرش سوى أن يتزوج أميرة من أميرات البيت المالك وفعلاً تزوج من الأميرة "موت-نجمت" ليضفي صفة الشرعية على توليه عرش مصر. ولقد تزوج هذه الأميرة في نفس اليوم الذي تمت فيه مراسم تتويجه فرعوناً على مصر. "تشريع حورمحب" ترجمة د. باهور لببيب. الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢. ص ١٨، ١٩.

******* راجع ملحق "هأش على متن" في كتاب "حاضر الثقافة في مصر" تأليف المترجم، حيث يتناول الملحق، ربما لأول مرة، على وجه الإطلاق، الفروق بين الأتونية والموسوية، بالإضافة إلى عدة مسائل أخرى.

صلاة أختاتون

- (١) أنت، يا من يشرق بجماله في أفق السماء.
- (٢) أنت، أيتها الشمس الحية التي وجدت منذ الأزل.
- (٣) يا من يضيء المشرق بنوره.
- فتملاً الأرض بجمالك.
- (٤) أيها الجميل القوي الرائع، العلي فوق الأرض.
- هذه أشعتك تغمر الأرض فتحيط بما خلقت جميعاً.
- (٥) وإنك لتترك آخر الأرض رغم ارتفاعك عنها فتجمع لولئك أطرافها.
- (٦) تعاليت فامتد نورك على الأرض.
- (٧) أيها الظاهر الباطن.
- يا من إذا استويت في غرب الكون باتت الدنيا في ظلام يشبه الموت.
- فإذا الناس في المضاجع، وإذا رؤوسهم في غطاء،
- فلا ترى عين أخرى،
- ولا تلبث دواب الأرض أن تغادر أوكارها،
- ولا تلبث الزواحف أن تدب بالأذى،
- ويبيت الكون في سكون، لأن خالقه قد أمسى من وراء هذه الدنيا،
- فإذا ما احمر شفق الصباح، طلعت على الكون شمساً، فإذا الدنيا نهار.
- أنت في قلبي، وليس في الدنيا من يعرفك غير ولدك الملك، لأنك
- أعطيتة القدرة، على إدراك بأسك وقوتك.
- يهلك العالم إذا أردت (أي أن الكون رهن إشارتك) لأنك أبدعته (لأنك
- بارئته)
- فهو حياة إذا طلعت، وهو موات إذا غربت.
- (١٠) أنت آية الحياة ولا حياة إلا بك.
- ما تكاد تقذف بأشعتك، حتى يتمزق رداء الليل.

- فإذا الأرض تهلل.
وإذا الناس أيقاظ.
لأنك بعثتهم من رقاد.
فإذا هم يغتسلون ويزينون أنفسهم باللباس.
ليتجهوا إليك بصلاة الشكر.
(١١) وإذا الدنيا عاملة.
وإذا الأنعام في المراعي.
(١٢) لأن نورك قد نضر ما في الأرض من أشجار ونبات.
وإذا الطير قد غادرت أوكارها،
وأخذت تضرب بأجنحتها في الفضاء مسبحة بحمدك.
وتمد الماشية سوقها لترتع كيف تشاء.
وتتحرك الخلائق من كل دابة.
لأنك أضأت لها الكون.
(١٣) والفلك تجري في اليم مصعدة وهابطة.
والسمك يسبح في الماء تحت نور طاعتك الذي نفذ إلى أعماق الماء.
(١٤) مبدع الأجنة في الأرحام، وخالق النطفة في أصلاب الزبال.
مُطعم الجنين في بطن أمه، ونافخ الحياة في أديمه.
فإذا ما خرج إلى الدنيا فتحت له فمه، وحركت لسانه وشفثيه.
(١٥) بارئ الفرخ في البيضة، يتحرك فيها بأمرك.
فإذا ما رزقته القوة على كسرهما، غادرها إلى الدنيا ساعياً على قدميه.
(١٦) ألا ما أعظم ما ظهر للناس من بدائع خلقك، وما خفي كان أعظم.
أيها الواحد الأحد، الذي لا إله غيره.
خلقت الأرض على هواك أيها الواحد الأحد.
لك الخلق من ناس، وحيوان، ودابة.
(١٧) خلقت بلاد سوريا والنوبة ومصر**
أعطيت كلاً مكانه، وقدرت له رزقه.

- (١٨) ثم ميزت شعوبها باختلاف ألسنتهم، وألوانهم وأشكالهم.
- (١٩) أغثت العالم من وراء مصر وحيوان الصحراء بماء السماء.
- ثم فجرت النيل لمصر من باطن الأرض.
- حتى لقد أجهدت من أجلهم.
- (٢٠) مبدع الفصول والأهلة، لتنظيم ما خلقت يداك.
- جعلت لهم شتاءً ليذوقوا البرد، وأحميت لهم الأرض قيظاً ليذوقوا بأسك.
- (٢١) ثم رفعت السماء على الأرض لترسل منها ضياءك.
- (٢٢) واستويت على عرشك (فيها) لتشهد من تحتها خلقك عندما تشرق آياتك في نور السماء.
- (٢٣) بارئ ملايين الخلق من نفسك.
- (٢٤) مبدع المدائن والقرى والزروع وهو واحد (أحد).

* نقلاً عن ترجمة "أحمد بدوي" في موكب الشمس.

الجزء الثاني من ص ٨١٦ إلى ٨٢٢.

**أخناتون. عبد المنعم أبو بكر ص ٩٨ .

Abbreviations

| | |
|--------------|---|
| <i>ANET</i> | J.B.Pritchard , ed., <i>Ancient Near Eastern Texts Relating To the Old Testament</i> , 3 rd ed (Princeton , 1969) |
| <i>ASAE</i> | <i>Annales du Service des antiquites de L' Egypte.</i> |
| <i>BASOR</i> | <i>Bulletin of the American Schools of Oriental Research.</i> |
| <i>BIFAO</i> | <i>Bulletin de L'Institut francais d' Archeologie Orientale.</i> |
| <i>CdE</i> | <i>Chronique d' Egypte.</i> |
| <i>EA</i> | J.A.Knudtzon , <i>Die el-Amarna –Tafeln</i>)Leipzig , 1907 1915) |
| <i>GM</i> | <i>Gottinger Miszellen.</i> |
| <i>JAOS</i> | <i>Journal of the American Oriental Society.</i> |
| <i>JARCE</i> | <i>Journal of the American Research Center in Egypt.</i> |
| <i>JCS</i> | <i>Journal of Cuneiform Studies.</i> |
| <i>JdS</i> | <i>Journal des Savants.</i> |
| <i>JEA</i> | <i>Journal of Egyptian Archaeology.</i> |
| <i>JEOL</i> | <i>Jaarbericht , Vooraziatisch – Egyptisch Gezelschap : Ex Oriente Lux</i> |
| <i>JNES</i> | <i>Journal of Near Eastern Studies.</i> |
| <i>JSSEA</i> | Journal of the Society for the Study of Egyptian Antiquity. |
| <i>LdA</i> | <i>Lexikon der Agyptologie</i> (Wiesbaden , 1972 -...) |
| <i>MDIAK</i> | <i>Mitteilungen des deutschen Institut fur agyptische in Kairo</i> |
| <i>MIOF</i> | <i>Mitteilungen des Instituts fur Orientforschung.</i> |
| <i>RdE</i> | <i>Revue d' Egyptologie.</i> |
| <i>ROM</i> | Royal Ontario Museum. |
| <i>SAK</i> | <i>Studien zur altägyptische Kultur</i> |
| <i>Urk</i> | <i>Urkunden des agyptischen Altertums (Leipzig , 1903-)</i> |
| <i>ZAS</i> | <i>Zueitschrift fur agyptische Sprache und Altertumskunde</i> |

References & Comments

Chapter One ,

1. D.B. Redford : History and Chronology of the Egyptian Eighteenth Dynasty: Seven Studies (Toronto , 1967) , 71 , 78.
2. W.C. Hayes, JNES 12 (1953) , 31ff, idem , Cambridge Ancient History (Cambridge , 1961) , ch. 2., 44f.
3. B.Schmitz, Untersuchungen zum Titel S3- NJSWT , Konigssohn (Bonn , 1976) , 255 ff.255 ff.
4. On Hittites, Hurrians and Mitanni , See O.R.Gurney, The Hittites (Harmondsworth , 1962) : W. Hallo and W.K.Simpson The Ancient Near East, A History (New Haven , 1973) , 1.5 f.
5. Urk. 1V,1254.
6. Urk, 1V, 758
7. Urk, 1V,1333
8. Urk, 1V, 1229.
9. Urk, 1V,123..
10. Urk.1V, 184.
11. Urk, 1V,651.
12. Urk, 1V,9.
13. Urk, 1V,85.
14. Urk, 1V, 1.2.
15. D.B. Redford, JAOS 99 (1979), 27. ff.
16. Urk , 1V,1231, A.J. Spalinger, 37 (1978), 35ff
17. Urk, 1V, 1233.

Chapter Two

1. On the military in New Kingdom Egypt , see especially W. Helck , Die Einfuss der Militarfuehrer in der 18 agyptischen Dynastie (Leipzig , 1919) , And A.R. Schulman , Military Rank, Title and Organisation in the Egyptian New Kingdom (Munich 1964).
2. Urk , 1V , 1370.
3. Urk , 1V, 1441.
4. Urk , 1V , 1020f.
5. Urk , 1V , 1369.
6. On Egypt and Nubia in ancient times see especially A. J. Arkell , A History of the Sudan to 1821 (London , 1961) W.B.Emery, Egypt in Nubia (London , 1965) B. Trigger , Nubia under the

- Pharaohs (Boulder , Colo. ,1976).
7. Urk.,1V, 720f.
 8. On the organisation of the Asiatic provinces , see especially R.Giveon , *The Impact of Egypt on Canaan* (Cottingen , 1978), W. Helck , *Die Beziehungen Agyptens zur Vorderasien* (Wiesbaden , 1972) , J.M.Weinstien, *BASOR* 241 (1981) , 1f.
 9. Urk , 1 V, 1442.
 10. But see J.M.A.Janssen , *JEOL* 17 (1963) , 141ff.
 11. J.J.Janssen , *Two Ancient Egyptian Ships Logs* (Leiden, 1961) , 73.
 12. W.Helck , *Oriens Antiquus* 5 (1966), 2ff ,R. Stadelmann, *Syrisch Palestinensische Gottheiten in Agypten* (Leiden , 1967).
 13. J.Cerny , *JNES* 14 (1955) 161ff.
 14. Anastasi , i.2..
 15. R.A.Caminos , *Literary Fragments In the Hieratic script* (Oxford , 1956).
 16. Urk. 1V, 1245.
 17. Urk, 1V, 1279.
 18. Urk , 1V, 1280.
 19. Urk , 1V,1341 f.
 20. Urk , 1V , 1385 f.

Chapter Three

- 1-J.E.Quibell , *The Tomb of Yuua and Thuiu* (Cairo , 1908) , J. Yoyotte, *Kemi* 15 (1957) , 25ff.
- 2-Urk, 1V, 1741.
- 3-EA 312.
- 4-EA 4.
- 5-B. Van de Walle , *CdE* 43 (1968) , 36FF.
- 6- Urk , 1V, 1739 f.
- 7-Urk , 1V, 1659 f.
- 8- Urk , 1V, 1664.
- 9- See Hallo and Simpson , *Ancient Near East* p. 71ff and the literature their cited , J.M.Munn-Rankin , *Iraq* 18 (1956) 68ff.
- 1.-Cf.K.Polanyi, *Trade and Market in the Early Empires* (Glencoe , 111 , 1957) , 262 , J. Van seters , *Archaeological News* 8 (1979) , 35 ff.
- 11- EA4:36- 50.
- 12- EA 1 : 11ff , 37 ff.
- 13- EA 19 , 21.
- 14- Urk , 1V, 1648.
- 15- Urk , 1V, 1681.

- 16- See W.S.Smith, Art and Architecture in Ancient Egypt (Harmondsworth, 1958) , 16. ff, D.O.Connor, Expedition (Summer 1979) 52 f., idem, Excavations at Malkata and Birket Habu 1971-74 (Warminster , 1977)
- 17-C.F.Nims, Thebes of the Pharaohs (London , 1965) , G. Bjorkman , Kings at Karnak (Uppsala , 1971).
- In General see W.Helck, Zur Verwaltung des Mittleren und Neuen Reichs (Leiden , 1958)
- 19 – A. Varille, Inscriptions concernant L' architect Amenophis fils de Hapou (Cairo , 1968).
- 20-Urk. 1V, 1820 ff.
- 21-D. Wildung , Imhotep und Amenhotep (Munich , 1977).
- 22-Urk , 1V, 1891.
- 23-C.F.Nims et al., The Tomb of Kheruef (Chicago , 1980).
- 24-See W.C. Hayes , JNES 1. (1951) , 35ff.
- 25-EA 1: 88ff.
- 26-EA2 : 18 ff.
- 27-EA 1: 72 ff.
- 28-EA 23.
- 29-D.B. Redford, JNES 25. (1966) 120f.

Chapter Four

- 1- See C. Aldred , Akhenaton , Pharaoh of Egypt (London) , 1968 , 133f.
- 2-Hayes , JNES 10 (1951) , 172 , fig , 27 (kk.)
- 3-Aldred , Akhenaton , fig 18.
- 4-N. Davies, The tomb of the Vizier Ra-mose (1941) , pl.36
- 5- Urk, 1V. 1962.
- 6-Urk. 1V.1996
- 7-See E.Rieftsaal, Thebes in the Time of Amenhotep 111(Norman, Okla.,1964)
- 8-The name appears on a block, still in the east wing of pylon 10, on which can be read ' the gate (named) , Neferkheprure Wa' enre is [...].'
- 9-See E.F.Wente and C.Van Siclen, Studies in Honor of George R.Hughes (Chicago, 1976), 217 ff.
- 10-K. Mysliwiec, Le Portrait royal dans le bas-relief de nouvel empire (Warsaw,1976) 75ff.
- 11-See R. Saad in The Akhenaton Temple Project, Vol. 1; The Initial Discoveries, ed R.W.Smith and D.B.Redford (Warminster, 1977), 69
- 12-Sir G. Maspero, History of Egypt , Vol.5 (London ,1900) , 80,
- 13-G.Daressy, Notice explicative de ruines du temple de Louxor

(Cairo , 1893), 4.

14-R.W.Smith, In the Akhenaton Temple project , 1:45.

15-A.Wiedemann , Agyptische Geschichte (Gottha , 1884) 399.

16- See the reports of M. Pillet and H. Chevrier in ASAE from 1922 to 1952.

17- R.Saad , in The Akhenaton Temple Project 1:69 , S.Sauneron , Kemi 19 (1969).138 ff. 21 (1971) , 145ff.,J.Lauffray , Karnak d'Egypte , domaine du divin (Paris , 1979).

18-On the work of ATP , see in particular , R.W.Smith , National Geographic Magazine 138 , no. 5 (Nov. 1970) , 634 ff, D.B.Redford , JARCE 1. (1973) , 77 ff. 12 (1975) 9 ff, Smith and Redford , The Akhenaton Temple Project , 1.

19-CF. L.Daniel Kemi 21 (1971) , 151 ff.

20-K.C.Seele , JNES , 14 (1955) , 169 f.

Chapter Five

1-On the excavations , see in particular D.B.Redford , JARCE 14 (1977) , 9 ff, Scientific American 239 , no. 6 (Dec. 1978) , 136 ff. Expedition 21 no. 2 (1979) , 54 ff., ROM Archaeological Newsletter no. 179 (Apr. 198.) , JSSEA Journal 11 , no. 4 (Aug. 1981) , 243ff.

2-P.Barquet , Le Temple d' Amon-re a Karnak (Cairo, 1962)

Chapter Six

1-SSEA Journal 11, no. 4 , 247 ff.

2-See J.von Beckerath , Untersuchungen zur politischen Geschichte der zweiten Zwischenzeit in Agypten (Gluckstadt , 1965)

3-W.Helck , Historisch-Biographische Text der 2. Zwischenzeit (Wiesbaden , 1975) , 45f. ,no. 62 (corrected from personal copy).

4-Author's personal collection.

5-Helck , Historisch-Biographische Text., 46, no. 63.

Chapter Seven

1-For TS 235 , see Smith and Redford, The Akhenaton Temple Project 1 : end papers.

2-Literature on the sd-festival is voluminous. See in particularJ.J.Clere , RdE 20 (1968) , 51ff. , H. Frankfort , Kingship and the Gods (Chicago , 1949) , E. Hornung , Geschichte als Fest (Basel , 1966) E.Hornung and E. Staehelin, Studien Zum Sedfest (Basel and Geneva , 1974) W.Helck , ZAS 93 (1966) , 74ff. W.K.Simpson, JARCE 2 (1964), 59FF., E.Uphill, JNES 22 (1963), 123ff.idem , J NES

24 (1965) , 365 ff.

3-On queen's titles , see M. Gitton. BIFAO 78 (1978) , 389 FF.

4-R. Saad, JEA 57 (1971) , 7. FF., W.Helck , JEA 59 (1973) , 95 ff.

Chapter Eight

1-Urk , 1V, 1862.

2-Amenophis 1V certainly built at Heliopolis , cf. H.S.K.Bakry , CdE 47 (1972) 55 ff, L.Habachi , Beitrage zur agyptischen Baufochung und Altertumskunde 12 (1971) , 35 ff.

3-B.Lohr , SAK 2 (1975) , 139 FF.

4-C.Aldred , JEA 62 (1976) , 184.

5-That the changes in the royal name came about while the king was still in Thebes is suggested by the fact that three examples of the new name, which are original and not cut over an earlier " Amenophis " have been found in the talatat . The Amun Temple is last heard of in the year 6.

6-Urk. 1V , 1981.

7-Ibid.

8-Urk , 1V , 1969.

9-Urk , 1V, 1983.

10-On Akhenaton , see Sir W.M.F.Petrie , Tell el-Amarna (London , 1894) , J.D.S.Pendelbury , B.Gunn, H.W.Fairman et al., The city of Akhenaton 3 vols (London , 1923-1951) , J.D.S.Pendelbury , Tell el-Amarna (1953) , J.Samson Amarna. City of Akhenaton and Nefertiti (London , 1972).

11-Some have denied that this structure was a palace and proposed instead that a cultic function was paramount. This is, however , most unlikely. The apartment had a clearly domestic intent , whether for royal family or for the hosts of dependents whom the king supported.

12-A.Badawy , ZAS 87 (1962) , 79 ff.

13-L.Habachi , Beitrage zur Agyptischen Bauforschung und Altertumskunde 12 (1971) , 42 , fig. 2..

14G.Roeder , Amarna-Relief aus Hermopolis (hildesheim , 1969), R.Hanke, Amarna-Relief aus Hermopolis (Hildesheim , 1978).

15-See especially R.Hari Repertoire onomastique amarien. (Geneva , 1976) .

16-See W.Helck, LDA 3 (Wiesbaden , 198.) , 42 ff.

17-Seele ; JNES 14 (1955). 169f. most of the individuals who folloe can be found in the Amarna tombs , on which see N.de G. Davies , The Rock Tombs of El-Amarna, 6 vols. (London , 1903-1980) .

18-Berlin 2070.

Chapter Nine

- 1-On Egyptian cosmologies and world views , one might consult inter alia R Anthes in S.N.Kramer , ed. , *Mythologies of the Ancient World* (New York , 1961) , E.Horung , *Der Eine und die Viele* (Darmstadt , 1973) , S.Morenz , *Egyptian Religions* (Ithaca , 1973).
- 2-In general on the priesthood , see S. Sauneron *Les pretres de l'ancienne Egypte* (Paris , 1957) , H.Kees, *Das Priestertum im agyptischen Staat* (Leiden , 1953) ,idem , *Die Hohenpriester des Amun von Karnak...*(Leiden 1964) , G.Lefebvre , *Histoire des grands pretres d'Amun de Karnak* (Paris, 1929)
- 3-Cairo 20040.
- 4-F.L.Griffiths, *The inscription of Siut and Deir Rifeh* (London , 1889) , I. 281
- 5-G.Daressy , *ASAE*17 (1917) , 243.
- 6-Louvre C.50.
- 7-E.Naville , *The XI th Dynasty Temple at Deir el-Bahari* (London , 1907) pl.24.
- 8-For Hatshepsut's reign see S.Ratie , *La reine pharaon* (Paris , 1972)
- 9-N. de G. Davies and A.H.Gardiner , *The Tombs of Two Officials of Thutmosis IV*(London , 1923) , pl. 13.
- 10-Urk. 1V , 494.
- 11-Berlin 7270.
- 12-I.E.S.Edwards. *JEA*41 (1955) , 100.
- 13-Urk , 1V, 494f.
- 14-Edwards , *Hieroglyphic Texts from Egyptian Stelae etc. in the British Museum* , Vol. 8 (London , 1939) , pl. 21.
- 15-A.Moret , *Le rituel du culte divin journalier en Egypt* , (Paris, 1902) , 139.
- 16- Berlin 6910.
- 17-H.M.Stewart , *JEA*46 (1960) , 88.
- 18-Idem , *JEA* 53 (1967) , pl.1V, 1.
- 19-S.Hassan , *Hymnes religieux du moyen empire* (Cairo.1928) , 158f. The hymn has elements that may be earlier than Amenophis II.
- 20-Urk , 1V, 1975.
- 21-On the ceremony of reward in art and society , see J.Vergote , *Joseph en Egypte* (Louvain , 1959) 116ff. , D.B.Redford, *A Study of the Biblical Joseph Story* (Leiden , 1970) , 208ff.
- 22-Davies , *The Rock Tombs of el-Amarna*, 1;pl.30.
- 23-Ibid., 6 :pls. 17-18.
- 24-EA 26:20 ff.

- 25-EA 26 :49 FF.
- 26-EA 161 : 49f.
- 27-EA106 : 13 ff.
- 28-Davies , The Rock Tombs of El-Amarna , 6 : pl. 19.
- 29-Ibid. , 5 : pl. 2.

Chapter Ten

- 1-For full discussion with bibliography , see the present writer's article in JARCE 13(1982).
- 2-JARCE 13 (1976) , 50.
- 3-D.B.Redford , Bulletin of the Egyptological Seminar of New York 3 (1981) , 87 ff.
- 4-For recent translations of the hymn , see M. Lichtheim , Ancient Egyptian Literature, Vol.2 The New Kingdom (Berkeley , 1976) 96ff., P.Auffret , Hymnes d'Egypte et d'Israel (Gottingen , 1981).
- 5-The high priest of Amun is last heard from in year 4 , when Akhenaton sent him to the diorite quarries to fetch stone cf.D.B.Redford , JAOS 83 (1963) , 240 f.
- 6-Urk. 1V, 1998f. on the " Loyalist " teaching , see G.Posner, L'enseignement loyaliste (Geneva , 1976).

Chapter Eleven

- 1-Admittedly this is doubtful , The' Sun-Disk' Epithets are modified at Akhetaton to include " Lord of the sd-festival" but the reason for this is not known.
- 2-B.Gunn , City of Akhenaton , 1: pl. 63 : 169.
- 3-Davies ,The Rock Tombs of El-Amarna 2:pl.29; 3:pl.13.
- 4-City of Akhenaten 2 : pl. 58 : 16.
- 5-Cf. Helck, Die Beziehungen Agyptens zur Vorderasien. 187 f.
- 6-EA 129a : 45 ff.
- 7-EA 11 : 25.
- 8-On Smenkhare and Meretaten , see R.Kraus , Das Ende der Amarnazeit (Hildesheim, 1976)
- 9-Davies , The Rock Tombs of El-Amarna , 2 : pls. 43f.
- 10-Fairman , City of Akhenaten 3:pl.86:35.
- 11-Urk. 1V, 2024.
- 12-On the discovery and initial interpretation , see Sir A. Gardiner , JEA 43 (1957) , 1.ff; R.G.Harrison , JEA 52 (1966) , 95ff.
- 13-Gardiner ,JEA43 (1957) , 1.ff.For recent discussion on the coffin see D.Schnabel, Das Altertum 22, no. 4 (1976) , 226 ff. ; I.I.Perepelkin , The secret of the gold coffin (Moscow , 1978).

- 14-For Harris's theory see the works listed below in " selected reading
" For a rebuttal , see S.Tawfik MDIAK 31 (1975) , 159 ff.
- 15-D.B.Redford , JSSEA 9 (1979) , 111ff.
- 16-See G.T.Martin , The Royal Tomb of El-Amarna, Vol 1 (London , 1974).
- 17-See H.S.Smith The Fortress of Buhen : The Inscriptions (London , 1976) , pls. 29 , 75 ; W.Helck , SAK 8 (1980) , 117ff.
- 18-EA 35 : 45f. ; on Suppiluliumas and his relations with Egypt , see K.A.Kitchen , Suppiluliumas and the Amarna Pharaohs (Liverpool,1961).
- 19-EA 126 : 51ff.
- 20-ANET , 318 f.
- 21-C.F.A.Schaeffer , Le Palais Royal d'Ugarit , Vol.4 (Paris , 1956) , 17.34. (p.49)
- 22-Ibid., 17.132 (pp.35ff.)
- 23-EA 51.
- 24-EA 53.
- 25-Schaeffer , Le Palais Royal , 17.34. vs.22ff. (p.50).
- 26-EA 196.
- 27-On Canaanite society in the Levantine cities of the empire , see M. Heltzer , The Rural community in ancient Ugarit (Wiesbaden , 1976) ;on The Apiru , see M.Greenberg , The Habpiru (New Haven , 1955) , R. de Vaux, JNES 27 (1968) , 221ff;; M.B.Rowton , JNES 36 (1977) , 181ff. On Aziru , see H.Klengel , MIOF 1. (1964) , 76ff.
- 28-EA 162.
- 29-EA 176a.
- 30-EA 140.
- 31-EA 169.
- 32-H. Freydank, MIOF 7 (1960), 356 ff.

Chapter Twelve

- 1-Redford , JARCE 1. (1973) , 93 ; 12 (1975) , 11ff.
- 2-Urk. 1V , 1998.
- 3-Urk , 1V , 2027ff.
- 4-Ibid.
- 5-Urk , 1V , 2053f.
- 6-Urk , 1V , 2165 f.
- 7-Urk , 1V , 2062.
- 8-Gunn, City of Akhenaten , 1:92 ff.
- 9-Urk , 1V, 2083 : B.Lohr , SAK 2 (1975) , pl. V1 2 ; VII.
- 10-Urk , IV , 2052 , 2054f. 2057.
- 11-T.G.James , Corpus of Hieroglyphics Inscriptions in the Brooklyn

- Museum. Vol 1 (Brooklyn , 1974) , no.424
- 12-A.M.Bakir ASAE 42 (1942), pls. 4-6
- 13-Urk , IV , 2029.
- 14-Urk , IV , 2030.

Chapter Thirteen

- 1-On Mitanni and Khanigalbat , see D.B.Redford , LdA 4: 149 ff.
- 2-A.K.Grayson , Assyrian Royal Inscriptions , 2 vols. (Wiesbaden , 1972) , 1:47ff.
- 3-H.G.Guterbock , JCS 10 (1956) , 92 ff.
- 4-A.R.Schulman , JARCE 15 (1977) ,43 ff.
- 5-To be published shortly in Brunner Festschrift.
- 6-R.Saad , Karnak 5 (1975) , 93ff.
- 7-Guterbock , JCS 1. (1956) , 96 ff.
- 8-Schulman , JARCE 15 (1977) , 43ff.; Idem , JNES 38 (1979) , 177 ff.
- 9-J.Vandier , JdS (1967) 80.
- 10-G.T.Martin , JEA 63 (1977) , 13 ff ; 65 (1979) , 13 ff.
- 11-Sir A.H. Gardiner , JEA 39 (1953) , 3.

Chapter Fourteen

- 1-Sir A.H.Gadiner , JEA 19 (1953), 3.
- 2-~~Ibid~~ , pl. 11.
- 3-H. Carter and P. Newberry , The tomb of Tuthmosis IV (London , 1904) , figs. 7-8.
- 4-Urk. IV. 2155 ff.
- 5-Strabo xvi. 2. 31.
- 6-Whether Akhenaten ever traveled himself outside the bounds of Akhetaten is a moot point , he clearly wished to be buried there. (Westndorf , Gm 20 (1976)), 55ff. One cannot discount the possibility of an occasional excursion to other parts of the country , but the discontinuance after year 5 , at Thebes and elsewhere , of all building activity , strongly suggested that the new city has become his favored and perhaps sole residence.
- 7-A. Piankoff , BIFAO 62 (1964) , 215.
- 8-N. de G. Davies The Tomb of Neferhotep (New York , 1933) , pl. 34.
- 9-Urk. IV, 2177 f.
- 10-Staatliche Sammlung agyptischer Kunst in der Munchner Residenz Hofgarten , (Munich , 1970) pl.35-36.
- 11-E.Drioton , , ASAE 43 (1943) , 36 , fig. 2.

- 12-A. Piankoff , MDIAK 16 (1958) , 251.
- 13-F.Widmar , JSSEA 11 (1981) , 279 ff.
- 14-D.B.Redford , ROM Archaeological Newsletter , no. 195 (August 1981).
- 15-A.H.Gardiner JEA 24 (1938) , 124.
- 16-See kraus , Das Ende der Amarnazeit.

Suggested Reading

Those wishing to pursue an " in-depth " study of the Amarna Period can do no better than to consult the bibliography compiled by Edward K.Werner in the newsletter of the *Journal of the American Research Center in Egypt* (nos. 95 , 1975 ; 97/98, 1976 ; 101/ 102 , 1977; 106 , 1978; 110 , 1980; and 114 , 1981). Here the will find a complete listing of all works that have appeared within the last generation , anywhere in the world and in any language. The present purpose is to list only the general works in English.

The best general introduction to the period are those of Cyril Aldred: *Akhnaten Pharaoh of Egypt : A new Study* (London , 1968) , and *Akhenaten and Nefertity* (Brooklyn , 1973) , the latter being the catalogue of the exhibition of Amarna art at the Brooklyn Museum. the author has also contributed the chapter on the Amarna Age to the most recent edition of the Cambridge Ancient History.

For the excavation at Amarna (Akhenaten) , see W. M. F. Petrie , *Tell el Amarna* (London , 1894) : T. E. Peet al. *The city of Akhenaten* (London , 1923-1951) : J. Samson , *Amarna , City of Akhenaten and Nefertity* (Warminster, 1972) : with profit one might also consult the interim reports which , between 1919 and 1939 , appeared almost annually in the *Journal of Egyptian Archaeology* (published by the Egypt Exploration Society). The private tombs at Amarna are the subject of a six - volume publication by N.de G. Davies , entitled *The Rock- tombs at Amarna* (London , 1903-1908) the royal tomb has been treated by G. T. Martin in *The Royal Tomb at El- Amarna* (London , 1974)

Relief scenes from Amarna published by J. D. Cooney , *Amarna Reliefs from Hermopolis in American Collections* (Brooklyn , 1965) : G. Roeder and R. Hanke , *Amarna - Reliefs aus Hermopolis* , 2 vols. (Hildesheim , 1969 and 1978).

The work of Akhenaten Temple Project is still in process of publication ; see R. W. Smith and D. B. Redford , *The Akhenaten Temple Project Vol.1 : The Initial Discoveries* (warminster ,1977). For the excavations , one should consult the interim reports of the

present writer in *Journal of the American Research Center in Egypt* 14 (1977) ,9ff.; Expedition (Summer ,1977) , 33ff.; *Scientific American* 239 , no.6 (Dec.1978) ,100ff.

For the cult of the sun-disc , one might consult articles by the present writer in the *Journal of the American Research Center* 13(1976) And 18 (1981).

Rather more research has been devoted to the close of the Amarna Period. One might begin with Aldred's useful article in the *Journal of Egyptian Archaeology* 43 (1957) , 3.ff. On the so-called tomb of Tiy in the Valley of the kings one might consult the articles by Sir Alan Gardiner , H. W. Fairman , Aldred , and R. G. Harrison in the *Journal of Egyptian Archaeology* 43 (1957) , 1.ff. ; 47 (1961) , 25ff.; 41ff., 52 (1966) ,95ff. The new theory on the person of Nefertity has been propounded and elaborated by J. R. Harris in *Acta Orientalia* 35(1973), 5ff.; 36 (19 74) , 5ff. and by J. Samson , *Journal of Egyptian Archaeology* 63 (1977) ,88ff.

Egypt's foreign relations at the close of the period can be investigated by consulting the chapters in the *Cambridge Ancient History* (Vol.2) , supplemented by K. A. Kitchen , *Suppiluliumas and the Amarna Pharaohs* (Liverpool ,1962).

There exists no good compendium in English translation of Amarna Texts ; but reliable renderings of certain selections will be found in the following : J.B. Pritchard , ed., *Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament* (Princeton, 1969) ; W.K.Simpson , ed., *The Literature of Ancient Egypt* (New Haven , 1973) M. Lichtheim , *Ancient Egyptian literature ,Vol.2 The New Kingdom* (Berkely , 1976). The Amarna Letters may be read in the somewhat inferior translation of S.A.B. Mercer , in *The Tell el-Amarna Tablets 2 Vols.* (Toronto , 1939) : while Hittite texts may be pursued in Pritchard , *Ancient Near Eastern Texts* ,or H.G.Guterbock , *Journal of Cuneiform Studies* 10 (1956) , 41ff.

سلسلة تا - ميري

□ تبدأ هذه السلسلة من حيث انتهى الرعييل الأول الذين نذروا حياتهم للتخصص في المصريات وبينهم أحمد كمال وسليم حسن وأحمد بدوي ونجيب ميخائيل وأمثالهم .

□ تتطرق من أسس قومية مصرية تدعو إلى مصر أفريقية إزاء مصر العربية-السامية التي تعمل الثقافة السائدة ، لأسباب تخاصم روح العلم ونشدان الحقيقة ، على تسييدها في " الأرض الحبيبة " " تا-ميري " ، أرض إيزيس .

□ ترى السلسلة أن المصريين القدماء كانوا جدوداً عظاماً لسائر البشر ، تماماً مثلما هو الحال مع اليونانيين القدماء والهنود القدماء ، ومن باب أولى فهم جدود عظام للمصريين المعاصرين . وبالتالي ينبغي علينا أن نقيم مستقبلنا في منطقة الشرق الأوسط الحديث على الاتصال مع الحضارة المصرية القديمة لا الانقطاع عنها ، على نحو ما يعمل في سبيله الأجانب وتلاميذهم " النجباء " في مصر .

□ تؤمن أن الآثار التي تركها لنا على أرض مصر الجدود العظام ليست غنائم نبيعها للأجانب سواء بالجملة أو بالقطاعي ، بل جزء لا يتجزأ من تراث المصريين لا يحق لجيل واحد أن يستأثر بها دون غيره من الأجيال القادمة .

□ تفرق السلسلة بين ما يقوله لنا عن أنفسنا " الغربيون " بالمعنى الثقافي لا الجغرافي للكلمة وبين ما يقولونه عنا لأنفسهم : أي بين ما يذيعونه وبيروجونه وبييعونه لنا دعماً لسياساتهم التي تستهدف تأبيد التخلف وتأجيج التناحر وتدمير البدائل وتمزيق النخب وإهدار الإمكانية وفي جملة واحدة محو القومية المصرية وبين ما يتعلمونه و يعلمونه لأبنائهم في مدارسهم ومعاهدهم وفي عبارة واحدة ، تفرق بين سياسات الغرب وبين علمه .

□ تسعى إلى المساهمة في تأسيس مدرسة مصرية مستقلة في المصريات تقف

إلى جانب سائر المدارس المختلفة في هذا المجال وتتمتع برؤية جديدة أكثر راحة ومصطلحات أكثر دقة ورسم جديد لأسماء الأعلام والأماكن أكثر مقاومة لعجمة الكتابة العربية بأبجديتها النبطية الأصل من ناحية و لخصوصية اللغات الأوروبية في كتابة هذه الأسماء من ناحية أخرى مثال: اسم الفرعون الذي يكتبونه "أمنحتب" أحياناً و"أمينوفيس" أحياناً أخرى فيما ينبغي أن نكتبه : "أمين_حوتب" .

□ تفصل السلسلة بين الترجمة والتأليف، ولن يكون في وسعها أن تقبل من المترجم فرض آرائه الخاصة سواء أكانت نابعة من تحيزات دينية أو قومية أو خادمة لأهداف سياسية خاصة وسيان جاء ذلك بالحذف أو الإضافة أو تعديل النص الأصلي . فالأمانة العلمية عندنا مقدمة على سائر الاعتبارات.

□ تأمل أن تصل في وقت قريب إلى النقل مباشرة من اللغة المصرية القديمة بمراحلها المختلفة إلى اللغة المصرية الحديثة دون المرور بأي لغة أجنبية يحتاج المصريون إلى تعلمها في دور التعليم.

□ تكلف السلسلة وتقبل أعمال مترجمين أكفاء قادرين على تحمل مسئوليتهم أمام قرائهم فضلاً عن الأعمال المؤلفة التي يتفق بشأنها مع أصحابها .

رئيس التحرير

بيومي قنديل

شروح الخرائط و الصور.

الفصل الأول

خريطة مصر حتى الشلال الأول.

الفصل الثاني

- ١-٢ كتلة من كتل "الثلاثات" المجلوبة من الصرح التاسع. تحمل على وجهها صورة تمثل القوات المساعدة في الجيش، من العموريين و الكوشيين. ونستطيع التعرف، بسهولة، في الفن المصري القديم على العموريين من لحاهم الطويلة وشعورهم المعقوفة و المربوطة بشرائط حول رؤوسهم.

الفصل الثالث

أمين - حوتب الثالث، الملك - الشمس

- خريطة الممالك العظمى في غرب آسيا حوالي ١٣٧٥ ق.م
١-٣ منظر من مقبرة رع - موزي، ونرى فيه قائد العجلات الحربية "مايا"، وزير الفرعون و زوجته "يورول".
٢-٣، ٥-٣ كتلتان من كتل "الثلاثات"، تحملان نقفاً من مناظر عيد الـ "حب - سد" أو "العيد الثلاثيني". وهاتان الكتلتان مجلوبتان من الصرحين الثاني والتاسع.

- ٢-٣ كتلة تحمل على وجهها عمودين من نص هيروغليفى. ويظهر بجوار النص جزء من قنينة مزخرفة، تكشف عن جانب من الجزية التي يرفعها الأجانب إلى فرعون مصر. و يقول العمود الأيسر: { رؤساء الب ... يحملون الجزية إلى الفرعون. } أما العمود الأيمن فيقول: { رؤساء "تهارين" أي "ميتاني" و رؤساء "كوش" ... }
٣-٣ منظر يصور الوفود الأجنبية أثناء تقديمها لجرار مملوءة بمنتجات بلادهم إلى جلالته. ويقول النص: { هاهم أبناء رؤساء سائر البلدان الأجنبية يرفعون الجزية إلى جلالته ... }

- ٤-٣ كتلة أو "ثلاثة" تحمل صور رؤساء العموريين، وقد رفعوا أذرعهم ابتهاجاً لجلالته. و لقد وجدنا بين أيدينا منظرأ ضخماً، تتضح تفاصيله، خلال توفيق "ثلاثات" أخرى مع هذه الكتلة أو الشطفة المفردة. أنظر شكل رقم ١٥

- ٣- رؤساء نوبيون يزيتون رؤوسهم بالريش، أثناء تسبيحهم بحمد جلالته.

الفصل الرابع

١-٤ : (إلى اليسار) قطعة تجريبية من الحجر الجيري، عُثر عليها في "أخيتاتون".

وهي تكشف عن أسلوب المبالغة الشديدة عند نحت بروفيل أو المنظر الجانبي لوجه الملك، وهو الأسلوب الذي يرتبط، عادة، بالسنوات الأولى من حكم جلالتة.

٢-٤ : (إلى اليمين) رأس وكتفا أحد التماثيل الملكية العملاقة التي ترجع إلى صف الأعمدة في معبد "مرص - الشمس إهتدينا إليه" أو "جم-ت-با-أتون" في شرق الكرنك. (أنظر الشكلين ١٠، ١١)

٣- التصميم المعماري للكرنك

٣-٤ منظر من الجو للكرنك، حيث يقع الفناء المتوازي الأضلاع لمعبد "أمون" إلى اليسار (شمالاً). وكان يتصل في وقت ما بنهر النيل (لاحظ قناع الصورة) بقناة يقوم مكانها الآن شارع تصطف الأشجار على جانبيه. وإلى اليمين يمتد فناء الإلهة "موت" زوجة "أمون" مع بحيرته المقدسة. وفي أقصى اليمين تقوم بيوت قرية الكرنك الحديثة. وفي وسعنا أن نرى ملطوق التتقيب والمقر الذي بنته بعثة استكشاف الكرنك في الركن العلوي إلى اليسار خلف فناء "أمون".

٤-٤ : (إلى اليسار) كتلة ضخمة من الحجر الرملي مجلوبة من الصرح العاشر، كانت في الأصل تشكل جزءاً من البوابة الجنوبية التي زخرفها جلالتة في السنة الأولى من حكمه. ويقف أمام التصوير التقليدي لـ "مرص - الشمس"، برأس الصقر المعبود مع الصولجان، جلالة الملك (مفقود حالياً)، وهو يقرب القرابين، والاسم الطويل للإله منقوش على هيئة أعمدة أمام جلالتة. وقد نُسخ في وقت لاحق في خرطوشين صغيرين.

٥-٤ : (إلى اليمين) كتلة ضخمة من الحجر الرملي مجلوبة من الصرح العاشر،

ترجع في الأصل إلى البوابة الجنوبية التي زخرفها الملك في السنة الأولى من حكمه. أما الإله الذي يحمل رأس صقر، بطوها قرص كبير للشمس، فهو "رع - خور - أختي"، إله الشمس. ونستطيع أن نتعرف عليه من الكنية الطويلة التي تمتد في عدة أعمدة فوق رأسه. ويحتوي العمود الأخير على الكلمات التي بوجهها الملك (الذي يقف إلى اليمين) على عبارة: "إني لأهيك كل بسالة و ظفر...". وإلى أقصى اليسار نرى الجزء الأيمن من منظر مجاور يظهر فيه الملك مرتدياً تاج "الأثف"، وهو

عبارة عن غطاء رأس هائل الحجم يتكوّن من قرني كبش و ريشتين طويلتين". وقد تعرّض نقش الملك هنا، وعلى العكس من الإله المقدس، لكشط فظ.

٦-٤: كتلة من الثلاثات مجلوبة من الصرح الثاني، تُصوّر جانباً من الرحفة التي ترجع إلى صرح، ربما كان في الأصل، يمثل البوابة الجنوبية. و إلى اليمين نجد أجزاء من عمودين من نص قد يكون منقوشاً بشكل يحيط، على وجه الاحتمال، بالمدخل: (١) { ... المبجل (٢) إلى عنان السماء... (٢) سيد الأرضين: "تفرخبرو- رع، وع - ان - رع ... } ويظهر الملك في قلب اللوحة، التي كانت لتوضع على الجانب الأيسر الضخم للصرح، أثناء إعطائه أعشاباً متنوعة لإله الشمس الذي يبدو بهيئة بشرية. بينما تُصوّر اللوحة الملاصقة لليسار، ثيراناً مقيدة. وتكس طريفة تصوير الإله - الشمس ما كان سائداً في السنة الأولى من سني حكم جلالتة. و لكن الأسلوب كان قد تأثر (إلى هذا الحد أو ذاك) بالقواعد الجديدة التي شملت كافة الفنون. ولنا أن نتوقف أمام الهيئة التي تبدو عليها بطن وجذع إله الشمس على وجه الخصوص، وكيف اقتربت في الشبه من بطن وجذع الملك.

٧-٤، ٨-٤

أكواب من كتل "الثلاثات" مجلوبة من الصرحين الثاني و التاسع. ونلاحظ على وجه الخصوص، حاملي التختروان، والخدم و الراكعين والساجدين من رجال البلاط.

٤: رسم فاكسميلي لمنظر يضم مركبة تجرها الخيول، ترجع إلى معبد "رود - منو" أو "ثابتة تلك هي آثار قرص - الشمس إلى الأبد". و يظهر فيها جلالة الملك واقفاً، وقد ارتدى التاج الأزرق و قبض بيده على سوط الركوب، على متن مركبته، و يوشك على الإنطلاق إلى وجهة غير معلومة. و يقول النص المصاحب: { تجلى جلالتة في بهانه على متن مركبته، ساطعاً مثل قرص - الشمس"، في كبد السماء على الأرضين... } و خلف رأسي الحصانين المزينين بالريش، نجد بقايا نص يبدو أنه يسميها و يضيف أن "كذا" الجميل من صنع قرص - الشمس".

٩-٤: صفوف من الخدم يسيرون في تشكيلات متوازية، وهم يحملون على رؤوسهم "حميراً خشبية" موسوقة بالخبز المبطن. والمنظر رقم (T 5410) بصور عملية الإستعداد لاحتفالات العيد الثلاثيني "الحب - سد".

٥: رسم فاكسميلي للوفود الأجنبية أثناء التحية التي يؤدونها لجلالة الملك.

وَيَصَوِّرُ المنظر صفين من الأمراء العموريين الذين يتميزون بشعورهم المعقوصة، وملابسهم التي يلفونها حول أجسامهم، و نلاحظ أن كلاً منهم يرفع يديه ابتهاً لجلالته. أما الرؤوس الحليقة بأسفل السجل الذي وصل إلي أيدينا، فربما تمثل الحيثيين. كما نلاحظ أن قادة السرايا من المصريين يحملون، كلٌ منهم بريق سريته، ونلمس أنهم يلزمون الأبناب.

٦: إعادة بناء ممر داخلي في معبد "حوت - بينين".

٧: إعادة بناء صف الأعمدة الخاص بـ "نفرتي". ولقد استعاد "شيفريه"

عدداً كبيراً من كتل "الثلاثات" التي كانت فيما مضى تشكل سلسلة من الأعمدة، وذلك من نواة الصرح الثاني. وصار ممكناً أن نعيد بناء اثني عشر عموداً، بصفة جزئية. ولكن العدد الكبير الذي تبقى من الكتل التي تعود، بشكل واضح، إلى أبنية عمدانية مماثلة يشير إلى وجود أعمدة كثيرة أخرى. و يصوِّرُ المنظر المرسوم على كل ضلع "طويل" كلاً من "نفرتي" و "ميريت - أتون" أثناء تقريبيهما القرايين لـ "قرص - الشمس"، وقد وصفتا بأنهما مقيمتان في معبد "جم - ت - با - أتون" أو "قرص - الشمس" إله. و تتكرر مناظر مماثلة على الأضلاع الثلاثة الأخرى في أربع لوحات مقحمة. أما نصوص السُجف (جمع سِجَاف) فمستعادة من شُطَف السُجَف المزروعة من الصرح التاسع. و يبدو على وجه التخمين أن تعود في الأصل إلى هذا الصف من الأعمدة. ويقول النص: "ذات اليمين الطاهرتين، زوجة الملك الرئيسية التي يعمل حبها في قلبه، سيِّدة الأرضين "نفرتي"، لتوهب عمراً مديداً، محبوبة قرص - الشمس" الحي العظيم الذي يرقل في في عيد الثلاثين، والتي تقم في بيت قرص - الشمس" في "أون" الجنوبية. وهناك شطف أخرى ترجع إلى نفس السُجَف تذكر الملك أيضاً.

١٠-٤، ١٥-٤

: "نفرتي" عند ظهورها في منظر تقريب القرايين على كتل "الثلاثات". ويصوِّرُها الفنان، وقد ارتدت نوعين مختلفين من شطاء الرأس، والشعر المستعار، الأزرق والطويل، الذي يعلوه شريط وريشان. (١٠-٤، ١٥-٤) أما (١١-٤، ١٥-٤)، و الشعر النوبي المستعار القصير (١٢-٤، ١٣-٤). أما الرداء الذي ترتديه فعبارة عن ثوب من الكتان الخالص ذي ثيابا مشدودة، و مربوط تحت الثديين. وهو ثوب لا يتغيَّر في أي من هذه المناظر. و وراءها تنف كبرى بناتها، تلك التي نتعرَّف عليها في معظم الحالات بهذا الشرح التقليدي للصورة: "كريمة الملك التي جاءت من صلبه،

ويشملها بحبه، "ميريت — أون" ابنة الزوجة الرئيسية للملك، الذي تخلى بحبه، سيّدة الأرضين: "نفرتي" لتوهب عمراً مديداً. { ولا تصادف تغييراً في هذه الألقاب، إلا في اللوحة رقم ٤-١٠، وهو تغيير يقبل ترجمتنا له إلى: "زوجة الملك وكريمته... " إلا أننا نستطيع أيضاً أن نترجمه إلى: "كريمة زوجة الملك... " ولكننا نلاحظ أن مائدة القرايين المنقنة الرسم (٤-١٥) التي تنوء بأكوام من المأكولات، ومزينة بتمثال صغير للملكة، وهي تمسك في يدها بخبز مخروطي الشكل، قد زوّدت بنص على هيئة شريط يدلنا على شخصية المتقبل والمقرب: {قرص — الشمس} الحي العظيم، سيد السماء والأرض، الذي يتجلى في عيده أو يوبيله الثلاثيني، ويفهم في معبد "جم — ت — با — أتون"، و زوجة جلالته "نفرتي"، فلتوهب عمراً مديداً. }

٨ : قطاع عرضي في ربع الدائرة المعروفة باسم BB الذي يوجه الشرق، ويمثل السطح في قاع الصورة، الفناء المكشوف لمعبد "جم — ت — با — أتون" الذي سقط فوقه السور المحروق للفناء عند الإجهار النهائي على المعبد. (11,42,52b,53b,111,16,17, 19, 20,21). وقد سقط المزيد من الأنقاض شمالاً، وأخذت هذه الأنقاض في التزايد بمرور القرون، نظراً لاستخدام المنطقة كمقلب زبالة (11,42,52b,53b). وفي نهاية المطاف، وفي أواخر القرن الثامن ق. م سوّيت أرض الموقع. (1,37,38, 111, 12, 13, 14, 15) و بُنيت عليها بيوت (حائط، 11a,14,15: راجع الفصل الخامس). ولقد بُنيت هذه البيوت مرتين، الأولى في أواسط القرن السادس والثانية في سنة ٤٠٠ ق.م على وجه التقريب. ولكن المنطقة هُجرت قبيل مجيء الإسكندر الأكبر في ٣٣١ ق.م (11,11, 12, 13) وأخذ الرماد الذي تذرّه الرياح في التراكم. (11,8,9). وظل هذا الرماد المترام يغطي سطح الموقع حتى سنة ١٩٢٥ عندما حفر "شيفرييه" خندقه الضخم (إلى اليمين)، وأخذ يلقي بالتراب الناتج من عملية الحفر شمالاً كي يقيم مقلبه الخاص على باقي الموقع. (IV,1-6)

٨ : خريطة لأماكن التنقيب في شرق الكرنك. أرباع الدوائر مرسومة بخطوط عميقة. ونلاحظ أن سلسلة أرباع الدوائر A,B,E (الركن العلوي إلى اليمين) تكشف مستوى الوجه رقم N (القرن الرابع عشر ق.م) أي وجه معبد "جم — ت — با — أتون". وتشير إلى صفّي الأعمدة، الجنوبي والغربي. وتكشف سلسلة رقم F (يسار الوسط) عن الوجه رقم B (القرن الرابع

(ق.م)

- ١-٥ :منظر حديث لشرق الكرنك، الذي يواجه الشمال، حيث نستطيع أن نرى سور حرم فناء "أمون" إلى اليسار، بالإضافة إلى قناة الصرف في الوسط. وموقع معبد "جم - ت - با - أتون"، فيما وراء الأشجار إلى اليمين.
- ٢-٥ :قواعد صف الأعمدة الجنوبي (ربع الدائرة رقم AB) الذي ينظر باتجاه الشمال. وقد بدأ التنقيب خنف هذه القواعد مباشرة كي يكشف عن أساسات السور. وأخذت كميات عشوائية من كتل الحجر الرملي المكسر نظير إلى النور في خندق الأساس.
- ٣-٥ :شُطِف من كتل "الثلاثاء" جرى اكتشافها في المربعين A&AB. على وجهها نستطيع أن نلمح حاملتي التختروان، الذين يرفعون جلالتهم على أكتافهم إلى المعبد. (وقد يكون ذلك من المسيرة الكبرى لـ "TS 235" ، التي أصبح من المعروف الآن أنها تشكل جزءاً من A .

الفصل السابع

- ١٠ :قطاع من صف الأعمدة الجنوبي في معبد "جم - ت - با - أتون" أو "قرص - الشمس اهتدينا إليه" يواجه الغرب. و يظهر ما نجا من عوادي الدهر من الأحجار و الطوب و الرُّطُش في الرسم في خطوط كاملة. أما المرمم منها فيظهر على هيئة خطوط منقطعة. ومن المعروف أن هناك تماثيل صغيرة و لوحات والأولى "صواديد" منصوبة بين هذه الأعمدة.
- ١١ :مسقط رأسي لصف الأعمدة الجنوبي بمعبد "جم - ت - با - أتون" يواجه الجنوب في المنحنى القائم بين ربعي الدائرة A & AB. و أماكن التماثيل العملاقة محدّدة وفقاً لخطة الترميم الأصلية التي وضعها "شيفرييه". و يلوح أمام الجدار الخلفي لصف الأعمدة مزخرفاً برسم فاكسميلي من الـ "TS 238" التي استقر رأينا على أنها كانت قائمة هنا. ومع أننا لم نستدل خلال عمليات التوفيق على أي إضافات، إلا أن وجودها ثابت نظراً للكسر التي توصلنا إليها خلال التنقيب، وهي عبارة عن:
- (١) القصر إلى اليسار. (٢) أساس الجدار الخاص بمجزر الثيران.
- (٣) أجانب يرفعون ابتهالاتهم إلى جلالة الملك.

- ١-٧ :محاولة التوفيق بين كتلتين من كتل "الثلاثاء" "TS28" مجلوبتين من

الصرح التاسع، ترجعان في الأصل إلى "ثابتة تلك هي آثار قرص - الشمس إلى الأبد" أو "رود - منو...". ونرى جلالة الملك مردباً شعراً مستعاراً والأولى باروكة شعر أبيض كثيف، كما هو الحال في لوحة ٦-٧ التي سيرد ذكرها فيما بعد، بالإضافة ورداء فضفاضاً نستطيع أن نلمح ثيابه

- على ذراعه الممتد. أما لون البشرة فأسمر جميل ضارب إلى الحمرة. .
- ٢-٧ : (فوق — إلى اليسار) بقايا قواعد الأعمدة التي تمتد مع صف الأعمدة الجنوبي بالمعبد. وكان يفف تمثال أوزيرى عملاق لجلالة الملك، مشابه للتمثال الذي تظهر صورته في اللوحة رقم ٤-٢ و الشكل رقم ١١، ذات يوم، أما م كل قاعدة من هذه القواعد، مواجهاً الجهة اليمنى (الشمالية) من الفناء المكشوف للمعبد.
- ٣-٧ : (من أعلى — إلى اليمين) الركن الجنوبي — الغربي للمعبد في المربع أو ربع الدائرة AB، الذي يواجه الشمال. و تحيط به أكوام من كتل الثلاثات المحطمة التي تخلفت عن تدمير المعبد.
- ٤-٧ : (إلى اليسار) الركن الجنوبي — الغربي للمعبد الذي يواجه الشرق. و تد بقايا "لفة — الخلال" العمودية، وهي عبارة عن حلقة معمارية معروفة، كانت توضع على السطح الخارجي لزواية قائمة في المعمار المصري القديم، بمثابة الملمح الذي يشي بطبيعة الأطلال الموجودة في المكان. ولنلاحظ نمط رص كتل الحجر.
- ٥-٧ : (إلى اليمين) قطاع في الركن الجنوبي — الغربي يواجه الجنوب. لنلاحظ مدى عمق الأساسات. بالإضافة إلى الرص غير المنتظم لكتل "الثلاثات" في الركن. وتصل زاوية ميل الوجه الخارجي للحائط نحو الداخل إلى ٣ درجات على نحو ما هو متوقع.
- ١٢ : المنطقة F الوجه N جزء نجا من العوادي من حائط مبني من كتل "الثلاثات" بالإضافة إلى صفيين من قواعد الأعمدة، التي يرجح أن تشكل فيما بينها، المدخل الغربي لمعبد "جم — ت — با — أتون". ولقد عثرنا في زمام المنطقة على النقوش المهشمة التي يجد القارئ صوراً لها في اللوحتين رقمي ٤-٥، ٧-١٧. أما البناء الذي نشير إليه بخطوط منقطة في قمة اللوحة فيرجع إلى القرن الرابع ق. م و يقوم على مستوى أعلى.
- ٦-٧ : كتلة أو "ثلاثة" من الكتل المستعادة في سنة ١٩٧٨ من المنطقة F على جروف قناة الصرف، بالقرب من الموضع الذي كانت البوابة الشرقية لمعبد "جم — ت — با — أتون" قائمة عنده على وجه الترجيح. ويقوم دليلاً على ذلك وجه جلالة الملك وشعره الكثيف المستعار على الجانب الأيسر. ويبدو أن جلالة الملك كان مائلاً إلى الأمام قليلاً، وكتفه يتداخل، بصفة جزئية، مع رقبته. كما لو كان عاكفاً على ترتيب أو تناول بعض الأشياء من مستوى منخفض بالنسبة له.

- ٧-٧ : نقطة الوصول إلى مستوى التدمير الذي تعرّض له المعبد، و بالتالي العثور على أول كومة من كتل "الثلاثات" في الخندق الثالث من ربيع الدائرة المربع رقم E في كياك - ديسمبر ١٩٧٧.
- ٨-٧ : (من أعلى) ربع الدائرة أو المربع رقم E (الذي يوجه الشرق) بعد تطهيره في نهاية المطاف إلى مستوى الوجه "L"، وهو المستوى الذي حدث عنده التدمير الذي لحق بمعبد "جم - ت - با - أتون"، (في صيف ١٩٧٨). وفي نرى مواقع القواعد التي كانت لتحمل صف الأعمدة الغربي.
- ٩-٧ : نقل كتل "الثلاثات" المجلوبة من المربع رقم EE في مايو - برمودة ١٩٧٩
- ١٠-٧ : شُطف من كتل "الثلاثات" المجلوبة من المربعين AB & A، حيث يرى على وجهها نوراً خلال طرحه أرضاً قبل تكتيفه وذبحه.
- ١١-٧ : موكب العيد الثلاثيني، حيث يظهر لنا جلالة الملك مرتدياً التاج الأبيض و محمولاً على الأعناق في تخنروانه الأشبه بالسلاسل. أما جلالة الملكة فتتبعه على مقعدها ثم أطفال العائلة المالكة، (وهم عبارة عن "بدائل" أكثر من كونهم أبناء و بنات من صلب جلالته محمولين في تخنرواناتهم المقووسة السقوف. ولقد التقط الفنان اللحظة التي انتهت عنها الاحتفالات النهارية، وانطلق الموكب في طريق العودة مرة أخرى إلى القصر الملكي. و نرى على الجانبين جمهور مفعم بالسرور ينتظر كي يحني العائلة الملكية، بينما نلاحظ كهنة و رجال البلاط في الخلفية، وهم يؤدون شعائر التطهير نحو الموكب، وسط غابة بمعنى الكلمة من مواكب القرابين، كما نلمح الموسيقيين في أسفل اليسار و قد خرجوا للتو من الأبواب بعد أن انتهوا من أداء عزفهم في قاعة الطعام.
- ١٢-٧ : جانب من أحد مناظر العبادة التي نجحنا في توفيق كتله التي تعود إلى "جم - ت - با - أتون"، ويظهر فيه جلالته (إلى اليمين) و هو على وشك الخروج من قصره خلال صف الأعمدة في طريقه إلى تخنروانه الذي يقف في انتظاره. وأمام جلالته نرى كبير كهنة إله الشمس متراجعا إلى الورا أسفل درج السلم، وهو يحرق البخور أمام سيده، بينما الأشخاص المنبطحون أرضاً على امتداد صف الأعمدة، يصاحبهم هذا النص: {حجاب القصر يقبلون الأرض.}، وذلك في إطار أحد المواكب الملكية من القصر إلى المعبد.

- ١٣-٧ : (من أعلى) منظر موفّق (TS5521) ، يظهر لنا فيه حاملو تختروان الملكة الذي نستطيع رؤية جانب منه إلى اليسار. (أبو اليرل أو الأسد السائر يشكل ذراع التختروان) والرأس الظاهرة بين الرجلين في الصف هي رأس حامل الشمسية. ولما كان هناك خمسة رجال يحملون القائم على أكتافهم في المؤخرة. و يناظرهم على الجانب الآخر نفس العدد، فإننا نقدر أن العدد الإجمالي لحاملي التختروان كان يصل إلى عشرين شخصاً.
- ١٣ : رسم فاكسميلي لرجال بلاط راكعين (TS 5594) و صفوف من الموظفين المدنيين الذين يتميزون بارتداء نقباتهم الخاصة، وهم راكعون في حضرة جلالته. ويقود كل مجموعة منهم مشرف خاص.
- ١٤ : (من أعلى) صورة لمجموعة من من الكهنة (آباء - آلهة) أثناء نحيبتهم لجلالته عند وصوله إلى المعبد بباقات الزهور الزكية الرائحة.
- ١٥ : (تحت) صورة للتصريح والمعبّد. ويكشف لنا هذا التوفيق أو التجميع لعدد من الكتل التي ترجع في الأصل إلى الحائط الشمالي لمعبد "جم - ت - با - أنون" عن نقطة التلاقي بين مشهدين من مشاهد الإحتفال. وإلى اليمين نرى المعبد بجوارقه أو أكشاكه المتعددة التي يسير جلالته بينها. وإلى اليسار يقوم للقصر، بخدمه و جرار نبذه. وتحيط بكلا المبنيين خطوط "متموجة"، مما بصور، على وجه الإحتمال أسواراً ذات انحناءات متموجة.
- ١٤-٧ : (إلى أعلى) كتلتان من كتل "الثلاثات" التي توصلنا إليها خلال عمليات التنقيب التي قمنا بها في ربع الدائرة رقم E في سنة ١٩٧٨. و نظهر على وجهيهما رؤوس حاملي التختروان، بالإضافة إلى الجزء الأمامي من تختروان أشبه بالسلال الضخم الذي يحمل جلالته، من منظر يصور الموكب الملكي في طريقه من القصر إلى المعبد.
- ١٥-٧ : (إلى اليسار) كتلة أو "ثلاثة" التي توصلنا إليها خلال عمليات التنقيب التي قمنا بها في المربع رقم E في سنة ١٩٧٨. ويظهر على وجهيهما أحد الكهنة راکعاً وقد حمل على كتفه بيرقاً مقدساً. والنقشان اللذان يعلوان رأسه يعرّفانه بأنه "نبي"، وذلك من منظر يصور دخول جلالة الملك إلى المعبد. (لوحة رقم ١٦-٧)
- ١٦-٧ : (إلى اليمين) كتلة أو "ثلاثة" من الصرح الثاني تُصور جانباً من صف الكهنة الراكعين الذين يحملون البيارق المقدسة في الموكب الذي يمر أمام جلالته. و يُطلعننا النص على أن الجميع قادمون من معبد "جم - ت - با

- أنون* أو قرص — الشمس اهتدينا إليه"، وذلك من منظر مواكبي
يصور دخول جلالته إلى المعبد. لوحة رقم ٧-١٥)
- ١٦ : صورة لمنظر القصر، وهو ينقسم أفقياً عند المنتصف إلى صورتين
متمثلتين على وجه التقريب للقصر، تصور السفلى منهما الوليمة التي
أقيمت قبيل التوجه إلى المعبد. وتصور العليا الوليمة التي تقام عقب
العودة. و إلى اليسار في كلتا الصورتين تظهر لنا "شرفة التجلي"،
بالإضافة إلى منطقة لتسوين النبيذ و البيرة و الطعام. و نلاحظ أحد الخدم
عاكفاً على تحريك مروحة كي يهوي على السوائل و يطرد الذباب. وإلى
اليمين تقع قاعة الطعام الكبرى حيث يجلس الملك و الملكة إلى مائدتين
منفصلتين بينما تطوف مجموعة من الخدم هنا وهناك. وفي قاع المنظر
نلاحظ وجود جوق من العازفين الذين يعزفون ألحانهم للترويح عن
النفوس.
- ١٧-٧ : "ثلاثة" من الصرح الثاني، ترجع في الأصل إلى الحائط الشمالي لمعبد
"جم — ت — با — أنون"، حيث نرى جلالته يرفع جرار النبيذ، وقد
ارتدى التاج الأحمر، وذلك في إطار شعائر العيد الثلاثيني عيد الـ "حب
— سد". و لنلاحظ هنا كشط ملامح الملك.
- ١٧ : مسقط رأسي لـ "شرفة التجلي" و الأعمدة العالية تشكل دعامة لكتبة
خفيفة أمام الشرفة. وفي الوسط نرى أعمدة قاعة الطعام في خلفية
الصورة.
- ١٨-٧ : منظر موقوف (TS 5517) يظهر فيه موكب الكهنة الذين يحملون
الأدوات المقدسة. ونرى على كتلة علوية من "الثلاثات" كاهنين يحملان
بيرقين مقدسين (للوحثان ٧-١٥، ٧-١٦) بالقرب من جوسق والأولى
كشك يضم مائدة قرابين، بالقرب من كشك آخر، أبوابه مغلقة، وضلعاه
مزينا بحيتين منتصبين. وعلى الوحدة السفلى التي تضم ثلاث كتل
من كتل "الثلاثات" نشاهد صفاً من الكهنة الذين يحملون مفصلات أبواب
بالإضافة إلى تمثال مقدس للإلهة "سركت" على هيئة عقربة.
- ١٩-٧ : مجموعة الألقاب التي حملتها "نفرتي"، كما وردت في الكرنك. ويقول
النص: {الوريثة، عظيمة الحظوة، صاحبة الفتنة، والمحبوبة، سيدة
الوجهين البحري والقبلي، زوجة الملك الرئيسية، التي يهيم بها حباً، سيدة
الأرضين "نفرتي".}
- ١-٨ : نص من تصوير لمائدة قرابين في معبد "جم — ت — با — أنون".

ونلاحظ أن اسم "تفرتيتي" يحيط من الجهة اليمنى باسم ولقب جلالة-
الملك. كما نلاحظ أن اسم "أخناتون" محفور على اسم سابق هو: "أمين -
حوتب"، المقدس حاكم "طيبة". وفي وقت لاحق استثنى شخص ما الكنية
الموجودة في اللقب: "وع - ان - رع" الذي يعني حرفياً: {وحيده "رع"}
كي يمحو بحرص شديد "وع - ان" (التي تعني "وحيد" + ان، وهي أداة
الإضافة في المصري القديم، ولا تظهر في اللغة العربية) ويبقي على اسم
إله الشمس "رع" في حالة سليمة.

٢-٨ : شطفة من مائدة تقريب قرابين مصنوعة من المرمر، مما اكتشفناه في
سنة ١٩٢٩ في منطقة البوابة الغربية للمعبد، كما رأينا في لوحة رقم
١-٨ . و نجد هنا أن خرطوشي الملك منضممان إلى خرطوش "تفرتيتي".
كما نجد أن اسم الملك تعرض للكشط بدقة فائقة، وفي نفس الوقت حفر
اسم "أخناتون" بدلاً منه.

١٨ : التخطيط المعماري لـ "أخناتون".

١٩ : رسم فاكسميلي لـ "قرص - الشمس" من معبد "رود منو..." أو "ثابتة
تلك هي آثار قرص - الشمس للأبد". و يظهر قرص - الشمس
باستمرار، مع حية منتصبية (أو ناشرة لمن يرغب) عن قاع الرسم كي
تواجه الناظر (مكتسوبة في هذا النموذج). ونجد حول عنقها علامة "عنخ"
أي الحياة معلقة. ونلاحظ أن الكنية الأصلية "رع - حور - أختي" قد
أقحمت في خرطوشين رأسيين بصفة دائمة. و يحيطها على الضلع
الداخلي كنية جديدة و عمودية في الغالب. ونستطيع قراءة هذه الكنية
الأخيرة على هذا النحو: {قرص - الشمس العظيم، الذي يبتهج في عيد
الثلاثيني (اليوبيلي)، سيد الأرض و السماء. والمستقر في ... معبد كذا}

١١-١٢ : كتلة من الحجر الرملي ترجع إلى المبنى المفكك الذي يعود لـ "توت -

عنخ - أمون" في الكرنك. و يقع اسم المبنى على اليمين في كنية الإله
الذي يُشار إلى أنه يحب السلك أي (مقر "تب - خبرو - رع" في "طيبة")،
حيث يُعتقد أن جلالة الإله مقيم هناك. و كان كل من الإسم الحوري و
الخرطوش المزدوج منقوشين يوماً ما إلى اليسار و في الوسط على
التوالي.. ولكنهما تعرضا للكشط بدقة فائقة عقب وفاته، الأمر الذي أدى
إلى انخفاض مستوى السطح الحجري في هذا الموضع. و عندئذ بُحت
اسمان للفرعون "أي"، في أماكن ملائمة من المساحة التي أصبحت متاحة
بعد الكشط. لكن هذين الإسمين أزيلوا على نحو يتعذر علينا معه أن

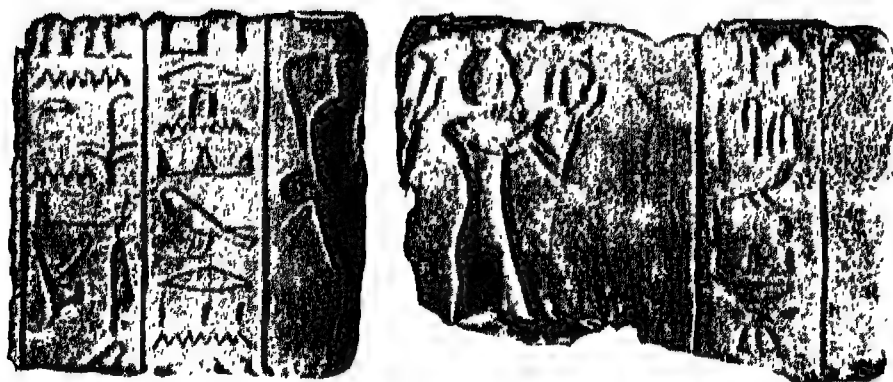
نقرأهما بسهولة، مع صعود الفرعون "حور- إم - حب" إلى سدة الحكم. ولعل مثل هذه المجاملة التي يحظى بها الفرعون الحاكم على حساب أسلافه الذين طواهم الموت سمة من سمات مصر القديمة.

١٣- ١ : كتلة من "غرابة" - حلية معمارية - أحد المباني التي شيدها "توت - عن - آمون"، وهي مذكورة في اللوحة رقم ١٢-١٠. وبشير النص المصاحب إلى احتفال الوادي الجميل، وهو احتفال كان يُقام بصفة سنوية في فصل الربيع عندما يعبر "أمون" نهر النيل إلى "طيبة" الغربية كي يزور - الأضرحة الجنائزية التي يقيم فيها الأسلاف، ولكي يستريح في معبده. وبشير السطر السفلي، ضمن أشياء أخرى، إلى "النوبيين" وإلى "جزية كل البلدان الأجنبية"، وهو الأمر بشير، على وجه الإحتمال، إلى الأنشطة التي تميزت بها السنوات الأخيرة من حكم "حكم توت - عنخ - آمون" في الجنوب والشمال على حد سواء.

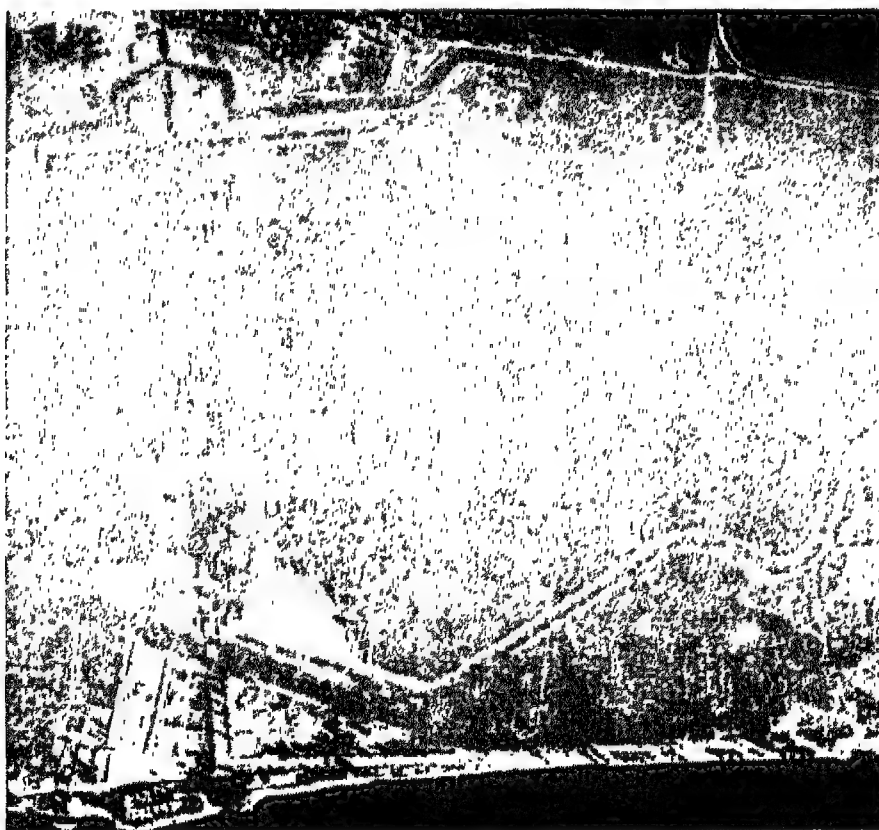
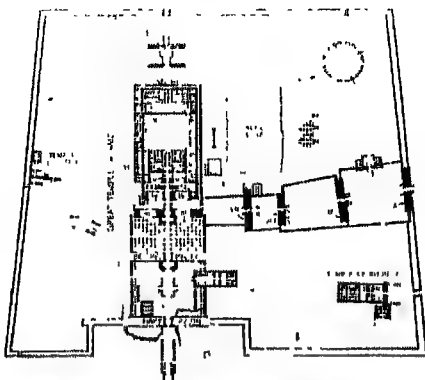
١٤- ١ : جزء من منظر كبير قمنا بتوثيقه (TS165)، يظهر فيه جلالة الملك مرتدياً التاج الأزرق (تاج الحرب)، ويُمسك في يديه بالسوط والعصا المعقوفة، وذلك أثناء خروجه من التخترون إلى المعبد. ولستطيع أن نلاحظ وجود المراوح التي تبدد الحر أحياناً و تجلب الظل أحياناً أخرى إلى جلالته في الخلفية. ورغم أن المخربين لم يلمسوا النصوص المصاحبة بسوء، إلا أن وجهه جلالتهم تلقى من مطارقهم ضربتين مثالييتين.

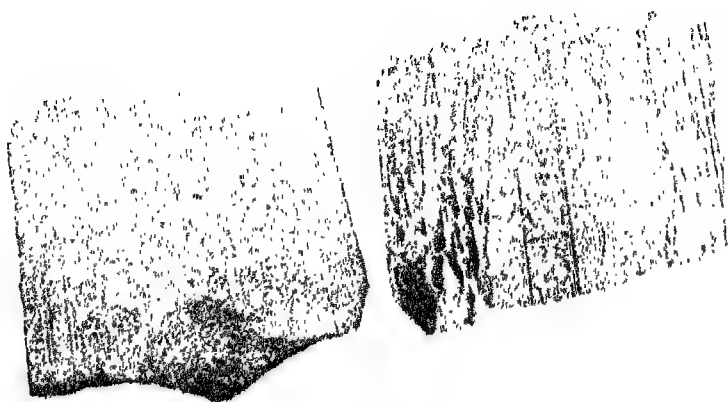
اللوحات

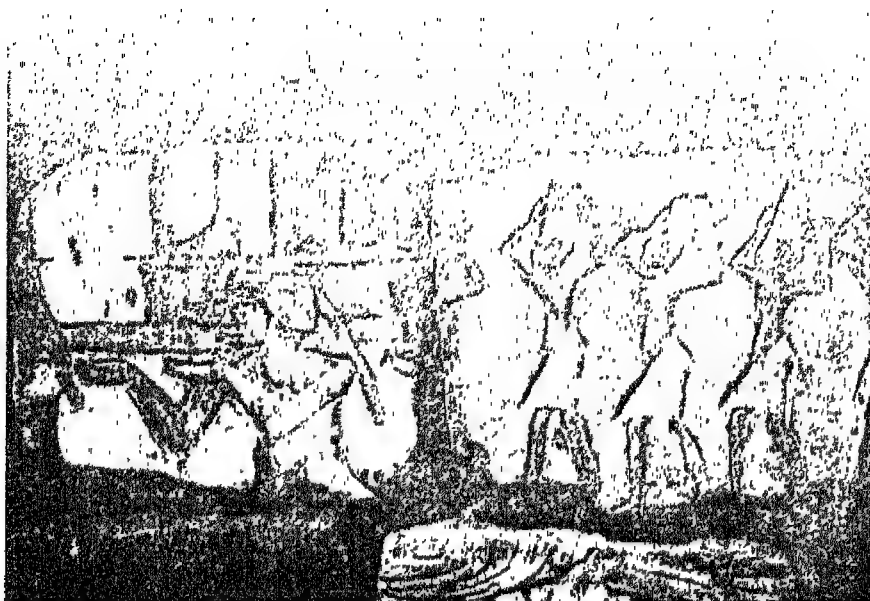




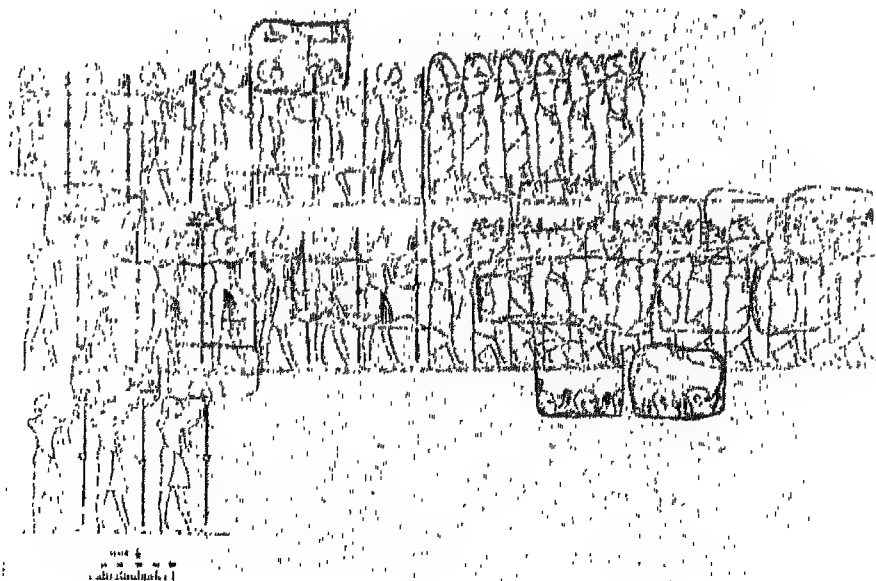
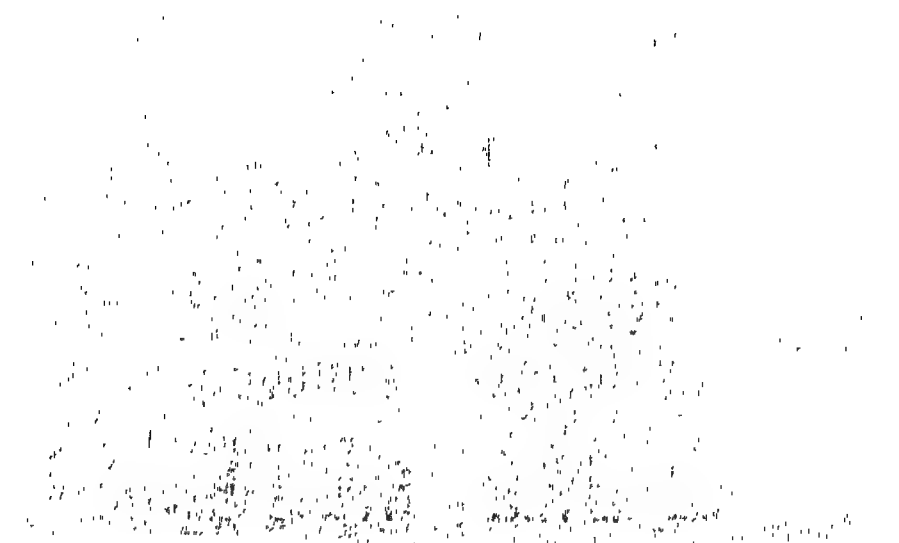


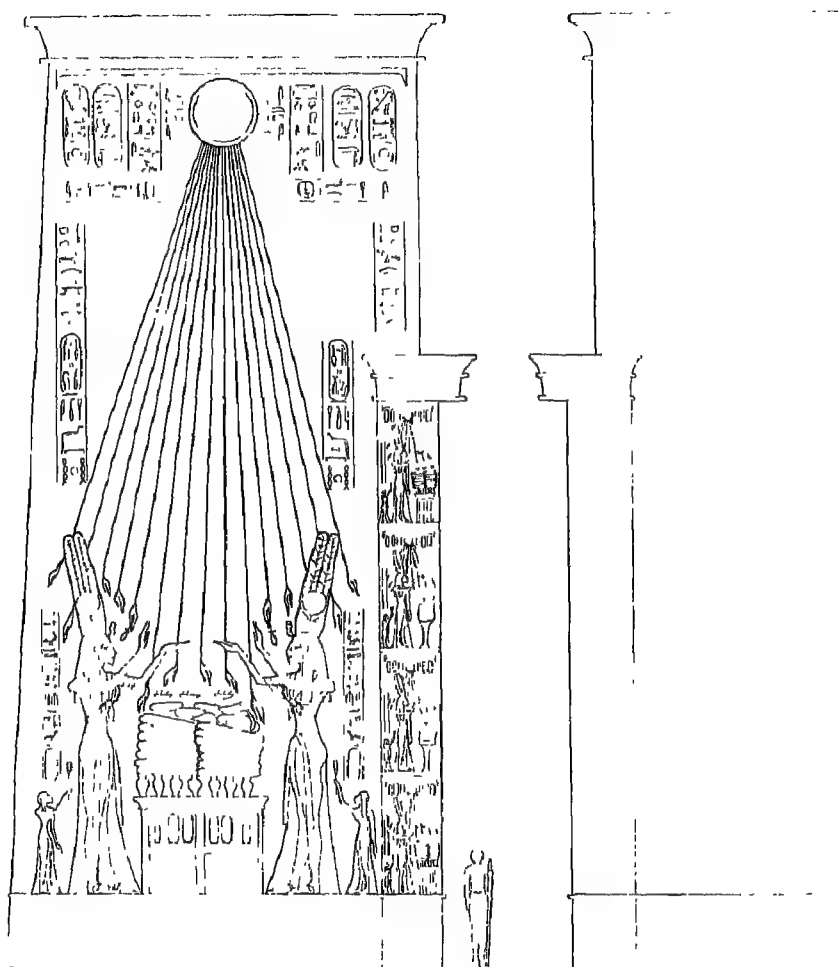




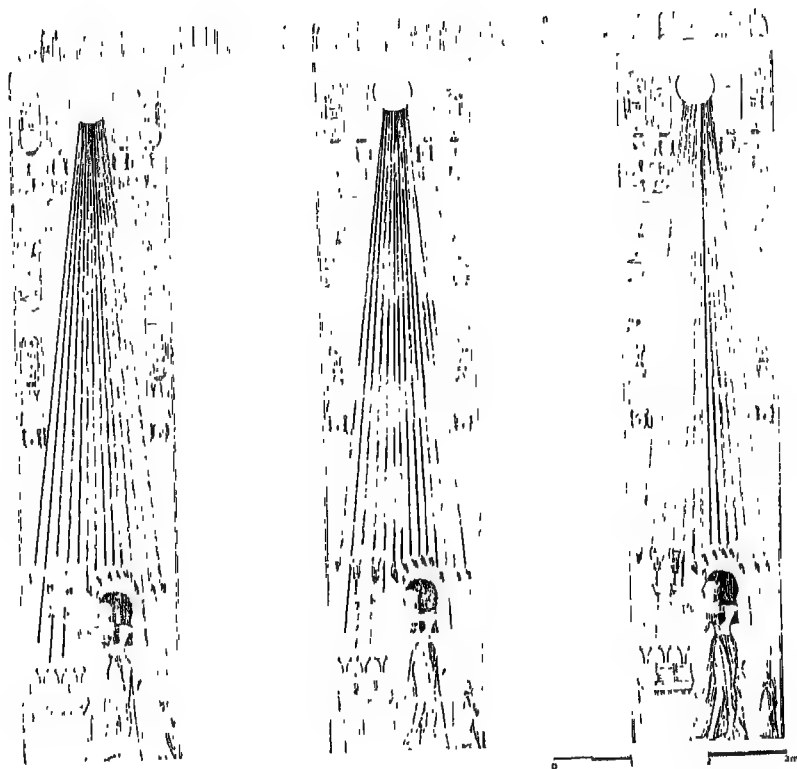


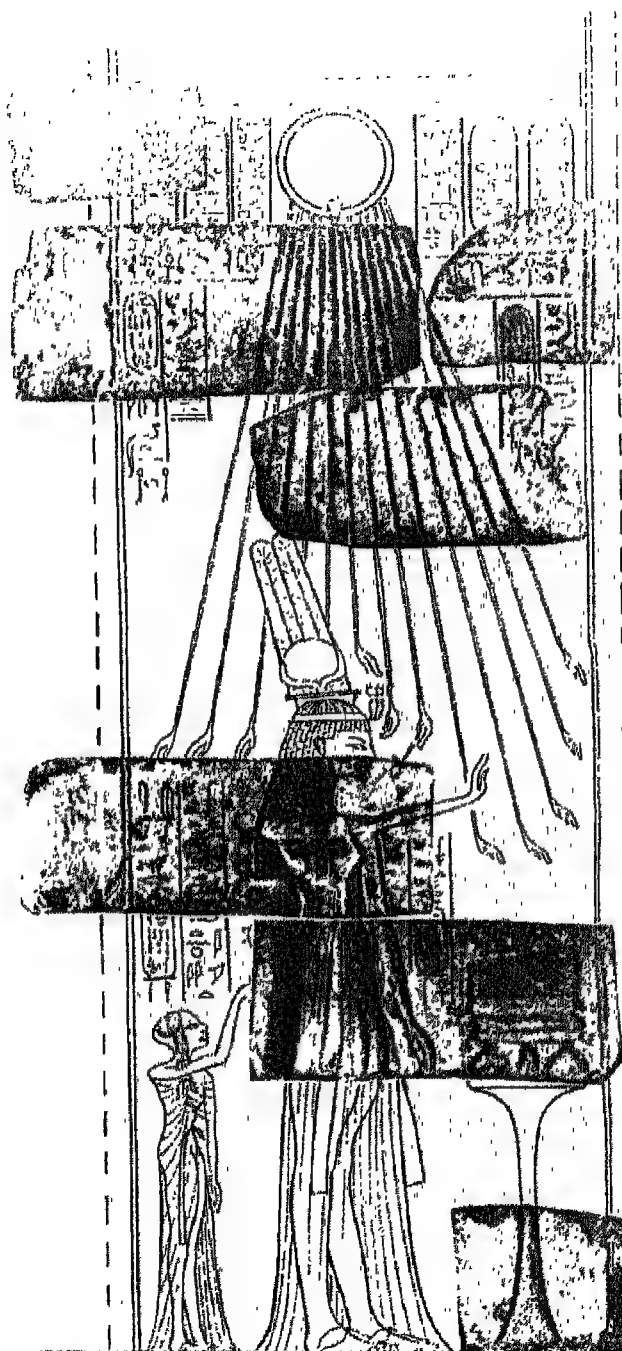


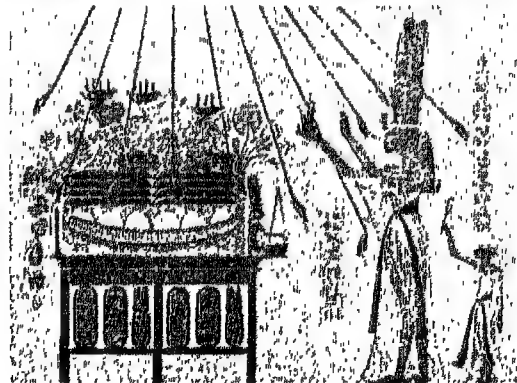
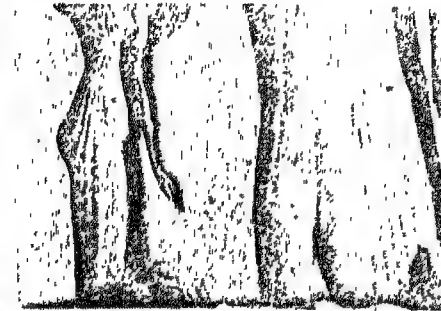
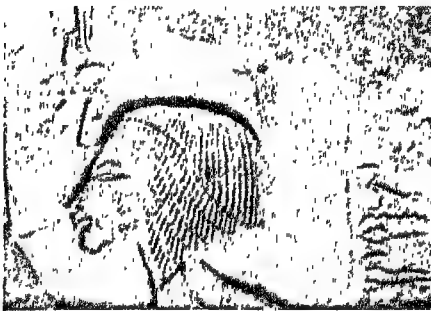
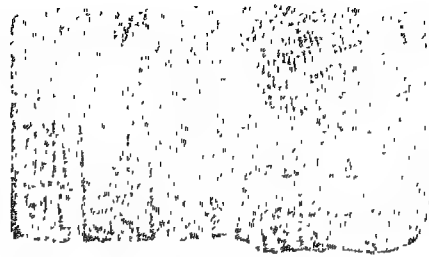
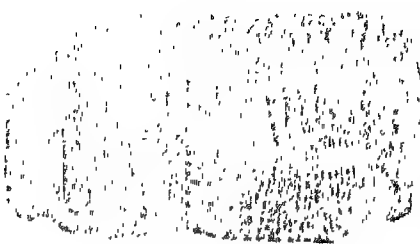


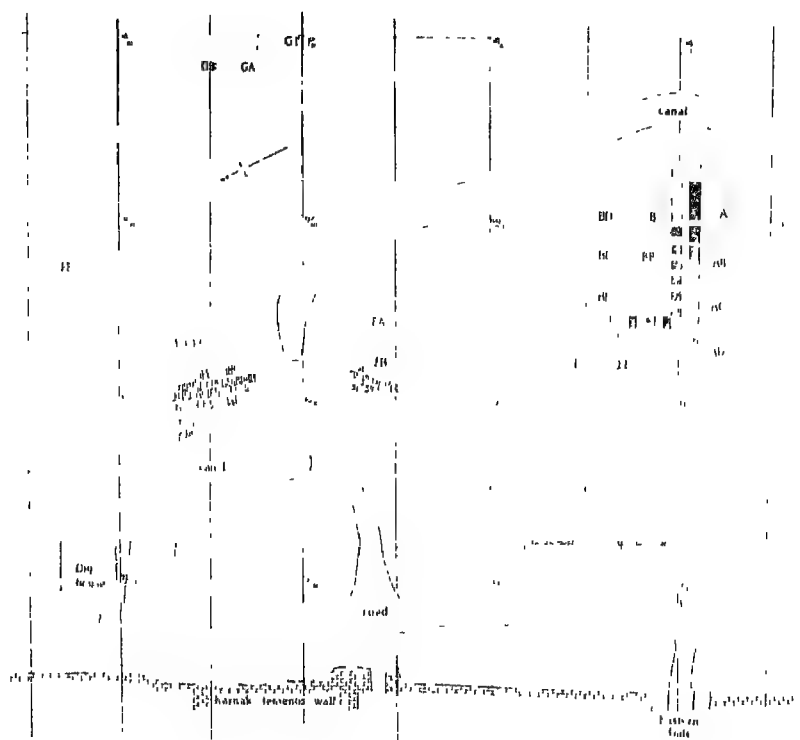


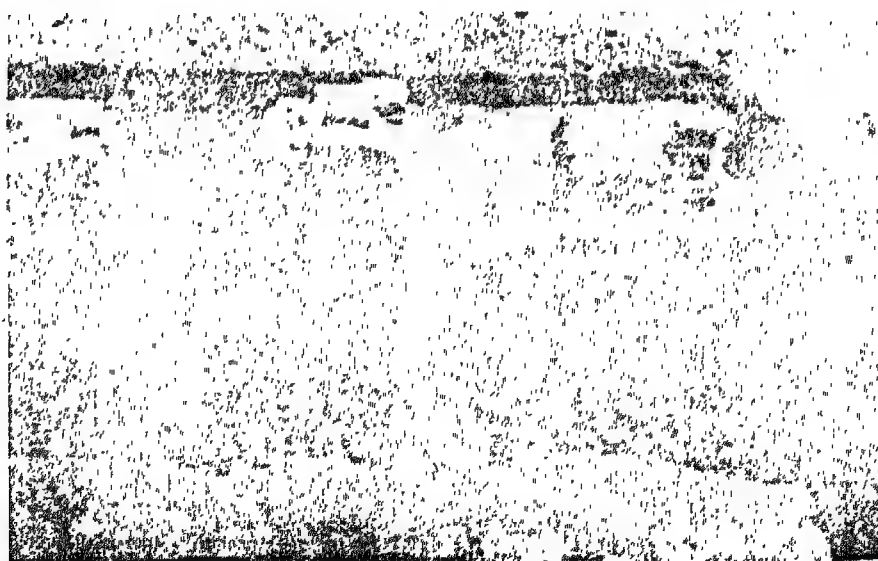
6 Reconstruction of an interior gateway in the Hwt-babn(R. Auhci)

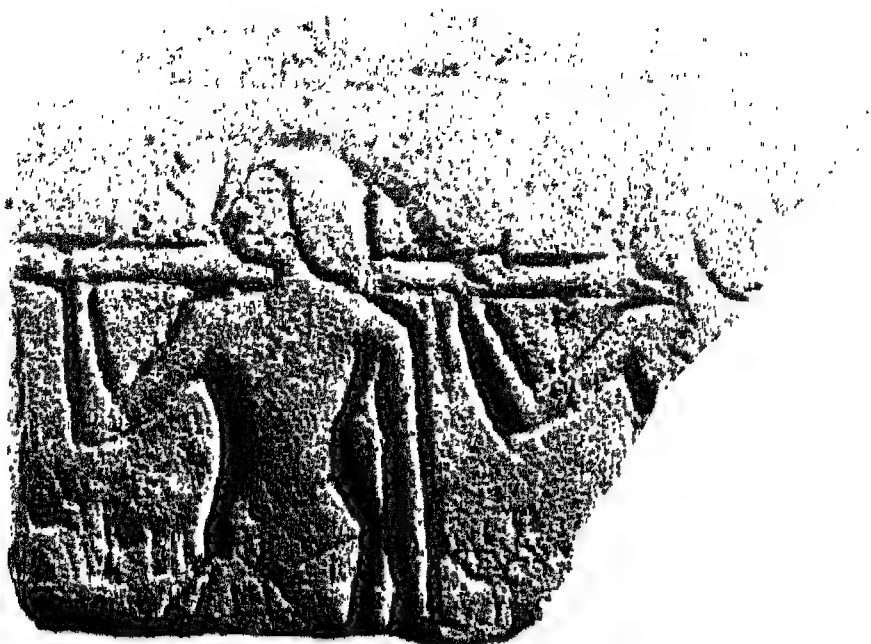


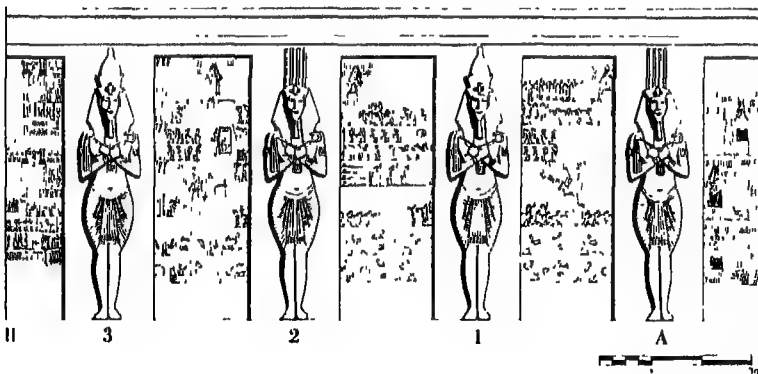
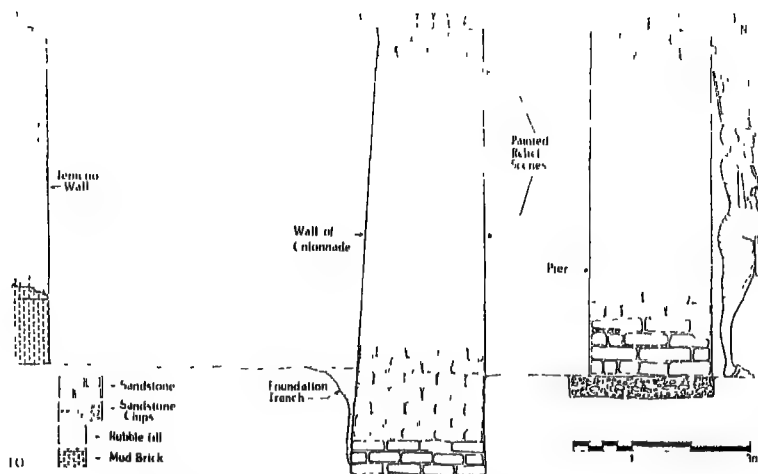


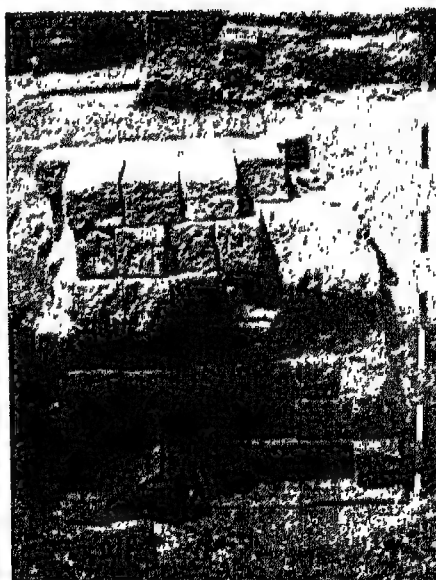
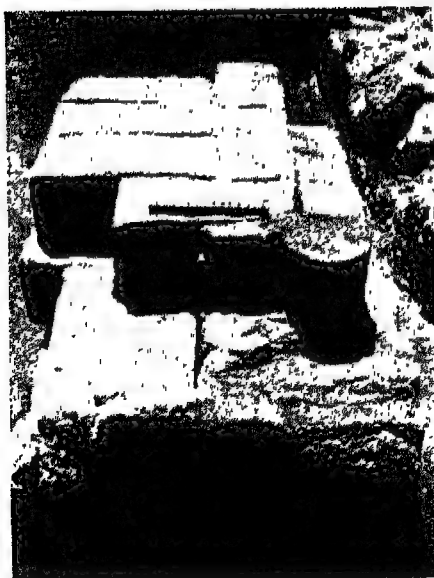




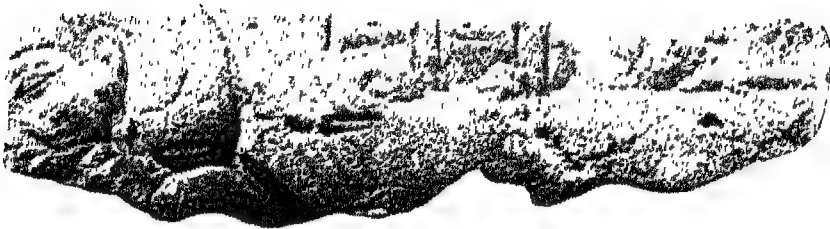
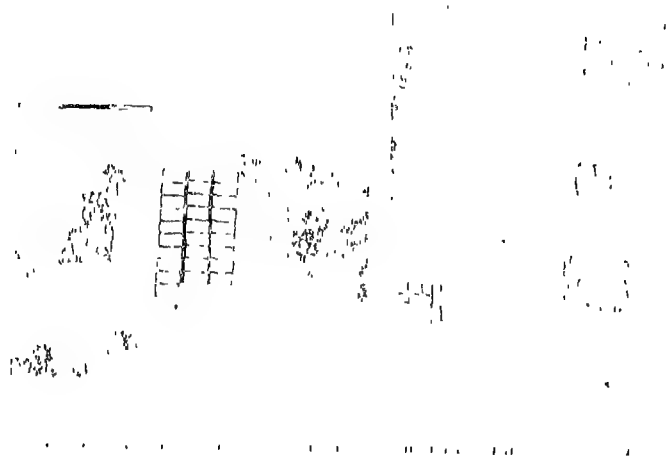




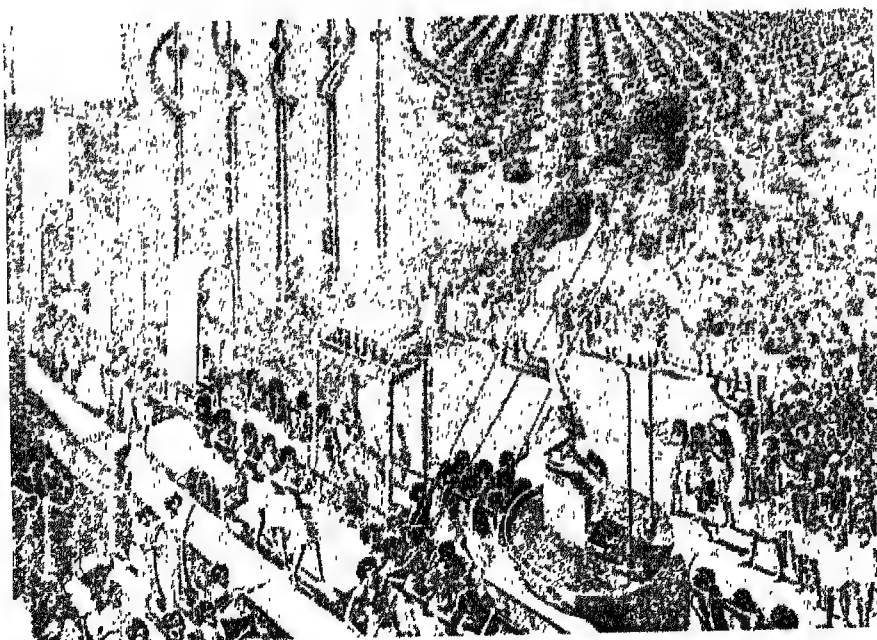


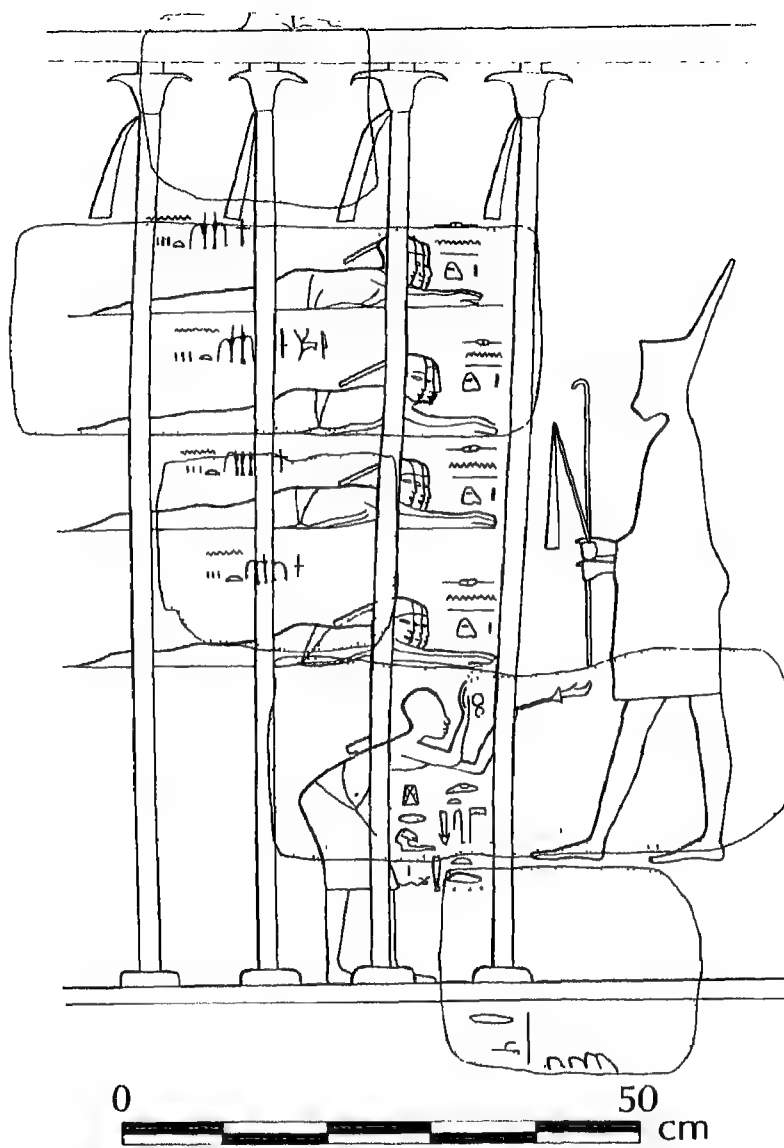


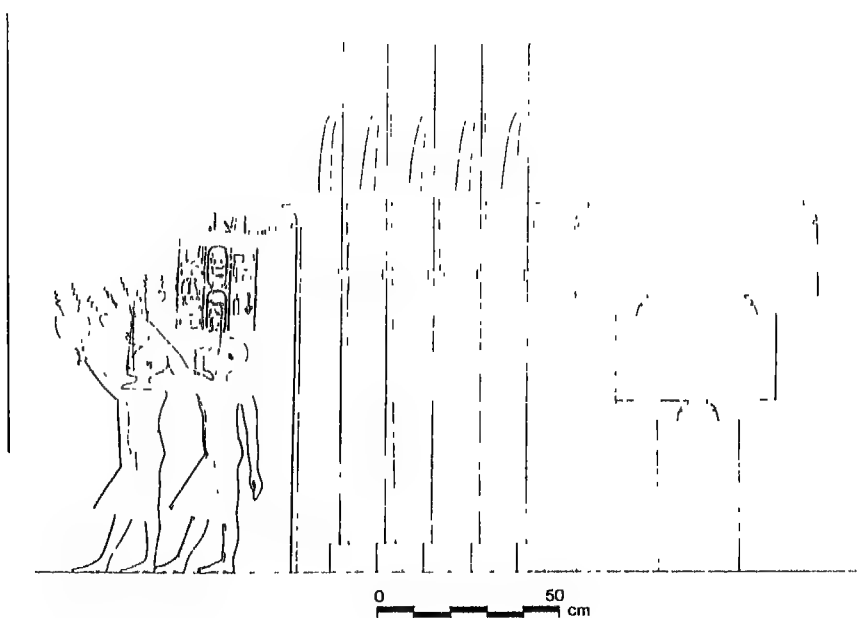
REIGN OF THE HERETIC



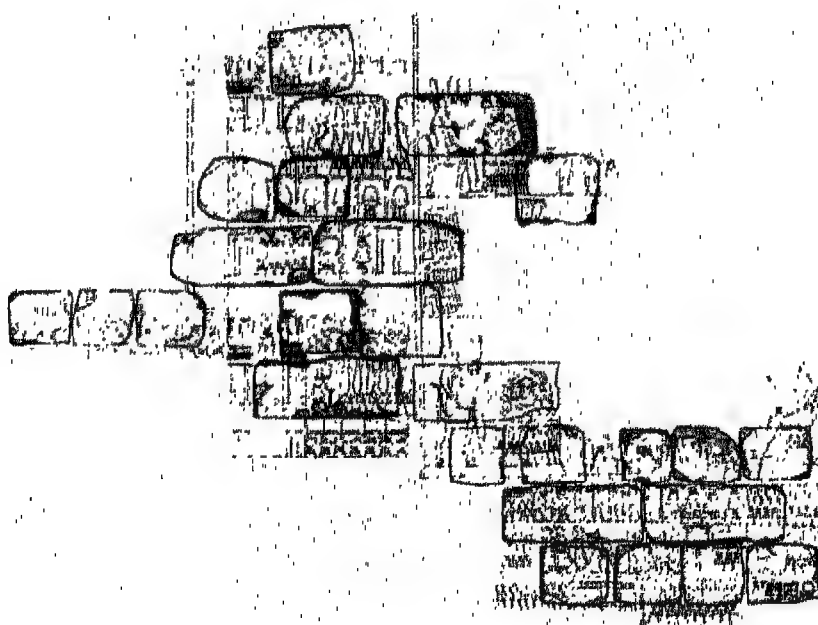
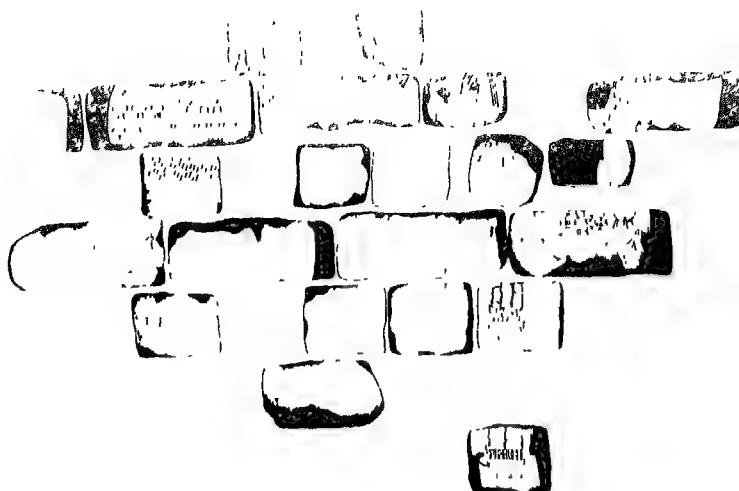


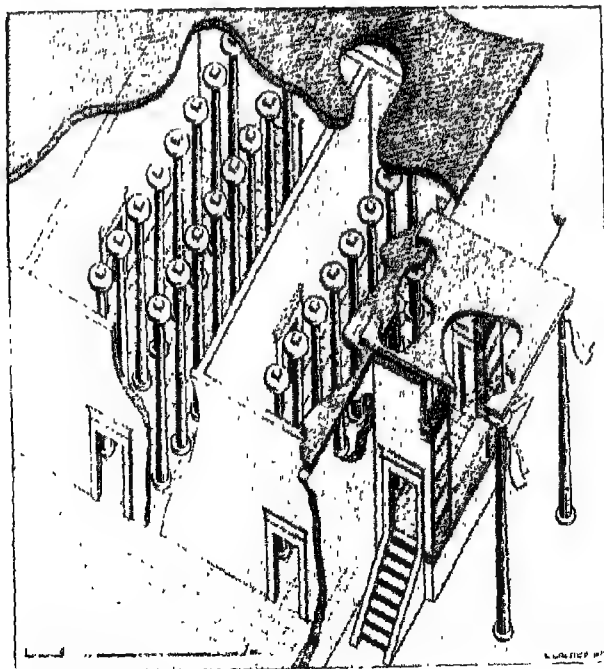
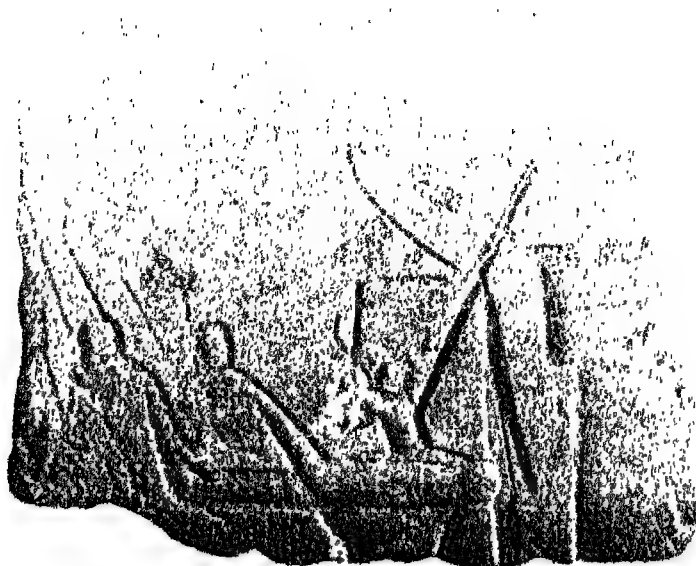




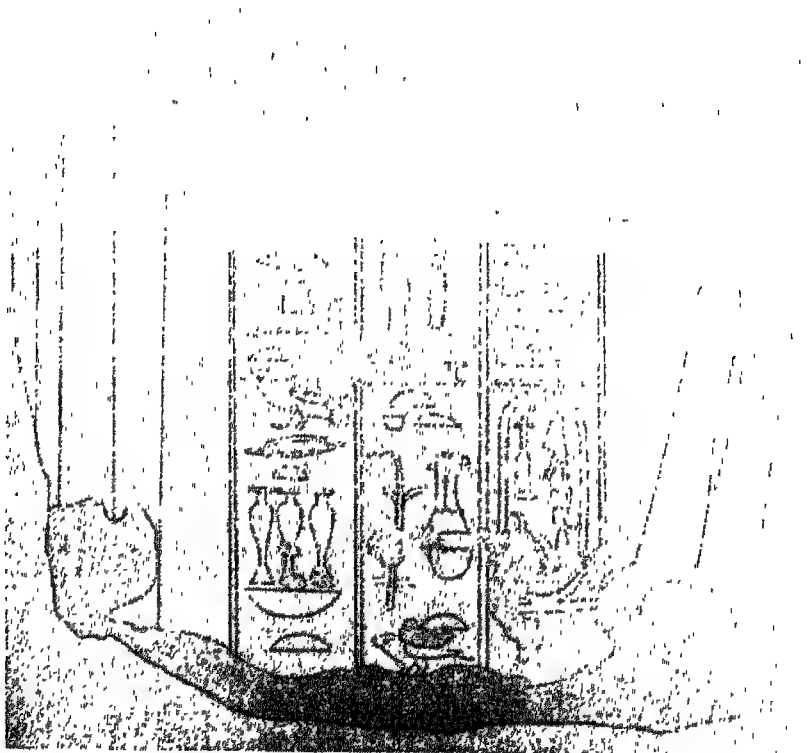




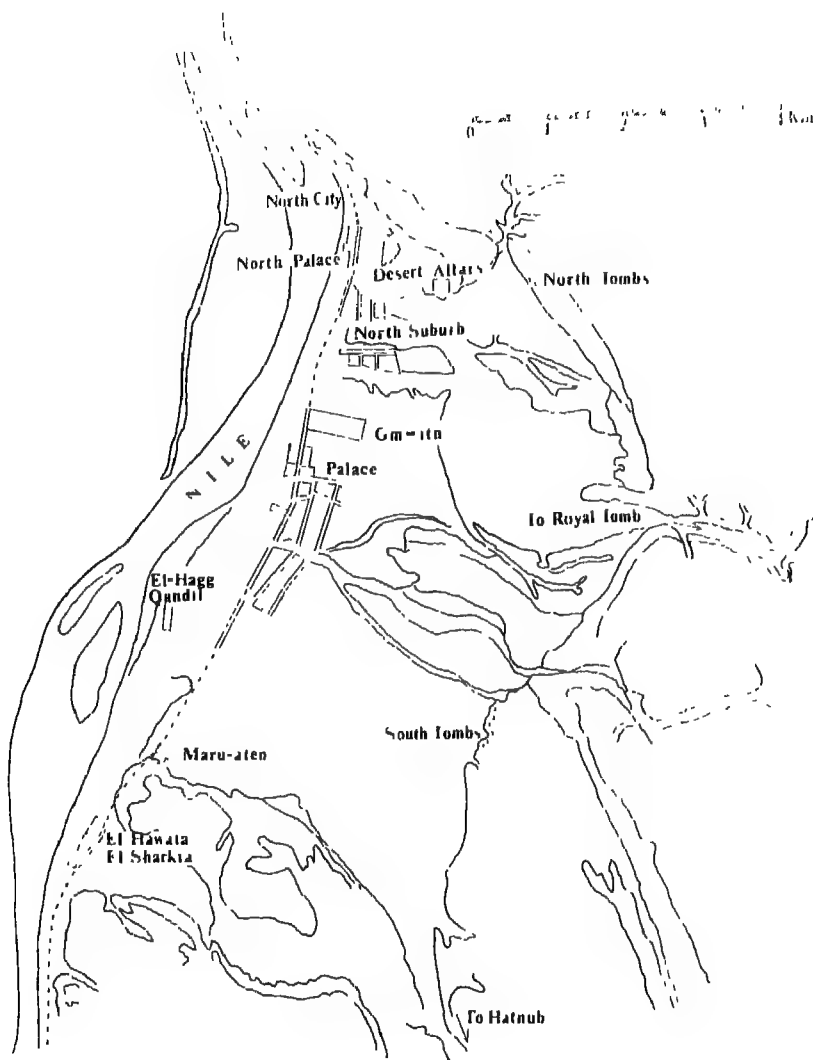


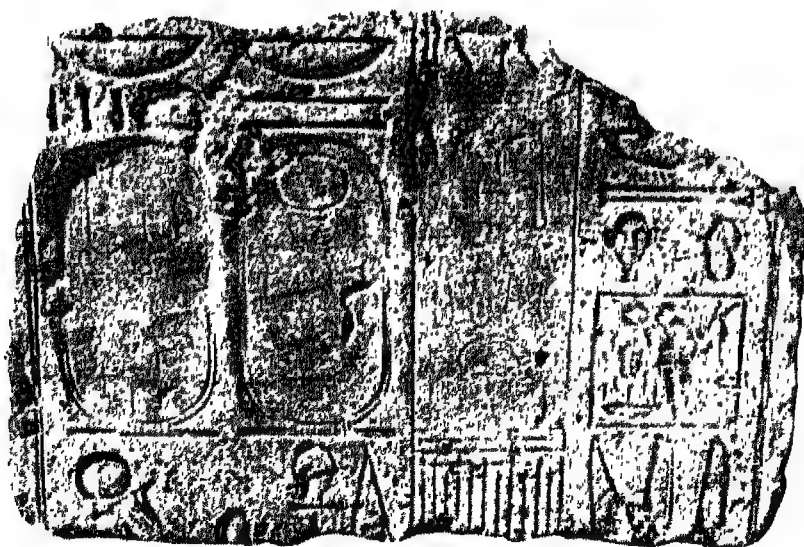
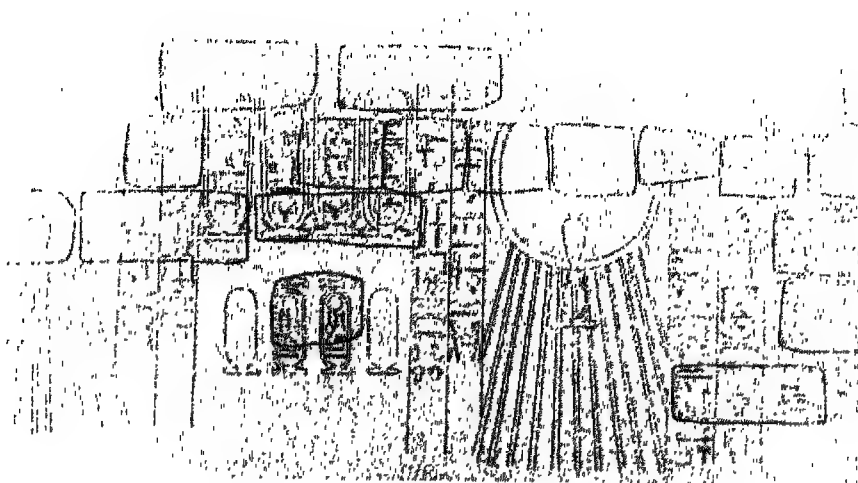


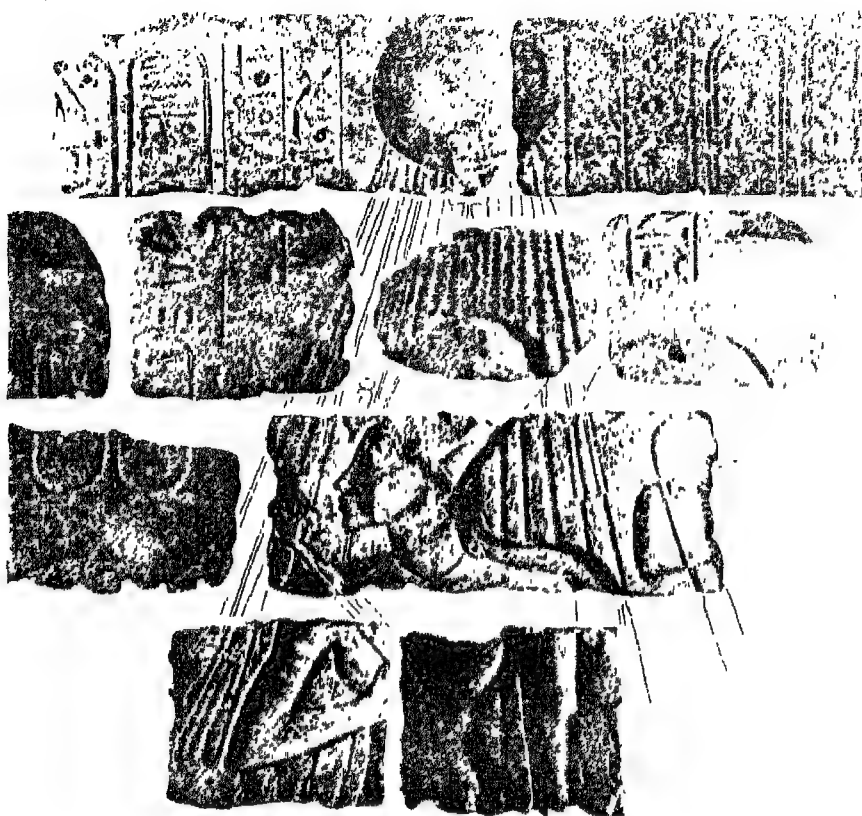














فهرس

| | |
|-----|---|
| ٣ | تمهيد |
| ٩ | مقدمة |
| | الباب الأول |
| ١٣ | مصر الإمبراطورية |
| ١٥ | الفصل الأول: الحدود الموسعة . |
| ٢٧ | الفصل الثاني: لمحات من مصر الإمبراطورية |
| ٤٢ | الفصل الثالث: أمين حوتب الثالث الملك الشمس |
| | الباب الثاني |
| ٦٧ | حكم الفرعون المارق |
| ٦٩ | الفصل الرابع: أمين حوتب الرابع ومشكلة الحكم |
| ٩٥ | الفصل الخامس: أعمال التنقيب في شرق الكرنك |
| ١٠٤ | الفصل السادس: شرق الكرنك قبل أمين حوتب الرابع |
| ١١٣ | الفصل السابع: معبد قرص الشمس اهتدينا إليه |
| ١٣٨ | الفصل الثامن: أفق قرص الشمس |
| | الباب الثالث |
| ١٥٧ | قرص الشمس الحي المعظم |
| ١٥٩ | الفصل التاسع: البيئة الروحية وراء رد فعل أختاتون |
| ١٧٤ | الفصل العاشر: يواعث العبادة التي دعا إليها أختاتون |
| | الباب الرابع |
| ١٩١ | الغروب |
| ١٩٣ | الفصل الحادى عشر: عن السياسات والشؤون الخارجية |
| ٢١٨ | الفصل الثاني عشر: تعايش: حكم توت عنخ أمون |
| ٢٢٧ | الفصل الثالث عشر: مصر و خاتى: قصة الحرب والسلام |
| ٢٤٠ | الفصل الرابع عشر: خاتمة |
| ٢٥٢ | الفصل الخامس عشر: الابن الجميل الذى أنجبه قرص الشمس |

| | |
|-----|----------------------|
| ٢٩٢ | شروح الخرائط و الصور |
| ٣٠٤ | اللوحات |
| ٣٣٧ | الفهرس |

تم بحمد الله

مع تحيات

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس : ٥٣٥٤٤٣٨ - إسكندرية

كاف، على ما أرجو ، ذلك الذي سقته في الصفحات السابقة كي أوضح أن "أخناتون" كشخص تاريخي مختلف بصورة ملموسة عن الصورة التي خلقها لنا كتاب العوام الواسع الانتشار عنه . فلم يكن إنسانى النزعة وبكل تأكيد لم يكن ليشبه ذلك الرومانسى الإنسانوى العطوف، أما المحاولة التي ترمى إلى رسمه كشخصية تراجيدية : أشبه بالمسيح" فليست سوى تزييف بحث . كما لم يكن معلماً لـ "موسى" : هناك بون شاسع يفصل بين "وحدانية" جلالته التي تتسم بالصرامة والجبر والقلق وبين "الوحدانية" العبرانية، التي نطل عليها في سائر الأحوال خلال منشور مشوه من النصوص التي دونت بعد سبعمائة سنة من وفاة "أخناتون" . حقاً أشار البعض منذ وقت طويل إلى وجود ملامح متشابهة بين ترنيمة "أخناتون" وبين المزمور رقم ١٠٤ ، وإلى ضرورة أن نأخذ هذه التشابهات على محمل الجد ، إلا أن الأمر هنا ليس أمر تأثير أدبى بل أمر فى التقاليد (الشعبية) في المراكز الشمالية للمصرىة المصرية التي كانت يوماً ما عظمة تلك الترنيمة التي تعان رائقاً .

